دِيوان

محمد إقبال

إعداد
سيّد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني






بسم الله الرحمن الرحيم


ديوان
محمد إقبال



الطبعة الثالثة

1428 هـ ـ 2007 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com






الدِّيْوانُ السَّادِسُ

ضَربُ الكَلِيم

ضربِ کلیم

نقلَهُ إلى العربيّةِ شِعرًا

الدكتور عبد الوهّاب عزّام



هذا الديوان الثالث[1] لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداناً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاورُ ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكليم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملته ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ سديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سمَّاه إقبال « ضرب الكليم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارىء يقدِّر حقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

---

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

محتوى الديوان

قسَّم الشاعر هذا الديوان على ستة أقسام ، وقدَّم قبلها قطعتين وقصيدة : القطعة الأولى أبيات قدَّم بها الديوان إلى أمير ولاية بهوفال حميد الله خان ، والثانية يُخاطب فيها القرَّاء ، والقصيدة سمَّاها تمهيداً .

وهذه أقسام الديوان الستة :

القسم الأول : الإسلام والمسلمون .

القسم الثاني : التعليم والتربية .

القسم الثالث : المرآة .

القسم الرابع : آداب الفنون الجميلة .

القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب .

القسم السادس : أفكار محراب حبل الأفغاني .

وهذه الأقسام مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين وعشرة ، لا تتجاوز العشرة إلاَّ قليلاً .

والقسم الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسماً تختلف أقسامها أوزاناً وقوافي ، ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها بأعداد متوالية .

وقد نقل هذا الديوان من الأردوية إلى العربي شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وكتب الأستاذ غلام أحمد برويز لهذا الديوان كلمات قيمة يعرِّف فيها هذا الديوان ، يقول فيها :

« هذا الديوان الذي نقدم إلى القراء ترجمته ، سماه العلامة إقبال « ضرب كليم » ووصفه بأنه (إيذان العصر الحاضر بالحرب) وأرى أنَّ هذا الوصف لا يخصُّ ضرب الكليم ، بل يشمل جانباً كبيراً من رسالة إقبال العظيمة ، فنحن إذا قسمنا رسالة إقبال انقسمت إلى قسمين خطيرين :

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيوف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويربكوها في حبالة « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشريعة اليهود المعنيّة بالصور والأشكال ، كذلكم عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلةً من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآني .

* * *

والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغثاء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذ يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد، وحدَّ حدوداً، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدٍّ هذه الحدود وهذه المقاصد، والحدود لا تتبدل، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا الينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته ممكنات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكنات وتجلِّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلَّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامَّة ، لا تحدها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(جـ) ثم فلاح النوع الإنسانيِّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدة ، يُتلقى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعايش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدُّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سدرة المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثّل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمِّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتتجلَّى في الإنسان بصيرة يصحُّ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيَّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيَّ الحادثات الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة ـ التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل ـ قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كلُّ واحدٍ في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسّر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلَّل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

* * *

هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلماتٍ قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كلَّ المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إنَّ الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرُّق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغيَّر فيها كلُّ شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحادٍ ، أو جماعاتٍ أخرى) . والشرُّ ما يضرُّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات في الحياة أن تجرَّ إلى أنفسها منفعةً . وعمل العقل والعلم أن يهيِّىء الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أنَّ في كلِّ ستةٍ من تلك الأفراد فرداً يختلُّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دلَّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أنَّ أمم العالم في شغلٍ بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .

* * *

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلَّت له هذه الحقيقة : إنَّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في السُّحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالًا إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥م : « **ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العشُّ على غصنٍ رطيبٍ ضعيفٍ مضطرب** » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذِّر الناس عامَّةً والأمم الإسلامية خاصَّةً من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

* * *

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلَّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية[١] ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجهٍ عام ، وهي : أنَّ شعر إقبال حافل بكلماتٍ معينة ، عربيةٍ وفارسيةٍ ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذاً لا يتأتَّى لأحدٍ أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملمّاً بحدود تلك المصطلحات الخاصَّة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

---

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومردحُر » وأخرى غيرها . ومع أنَّ كلَّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودي = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالًا أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ « خودي » ؟ .

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأنَّ فلسفة إقبال هي فلسفة « خودي » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمَّتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في « ضرب الكليم » يتحتَّم علينا أن نعرِّفه تعريفاً خاطفاً بكلمةٍ موجزةٍ قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلَّما أغفل مفكرو أية أمة من أمم العالم الإجابةَ عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلَّا بالوجود الكلِّي ، وأنَّ ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وَهْم وخدْعة لا غير . ثم إنَّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرَّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حباب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلِّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوّلت المسلمين من أمةٍ دائبةٍ في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عُني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة « خودي » ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخصُّ جميع الموجودات كُلّاً على حدة ، حتى أنَّ الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسمى صورةٍ للحياة الفردية التي بها تتشكَّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أنَّ الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و« التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلِّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أنَّ أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أنَّ المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكامنها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت ـ الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكلُّ عملٍ يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أنَّ كلَّ عمل يؤدي إلى إضعافها شر .

ويبين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأماني هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمَّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني : الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمعٍ على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبطُ النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتمُّ التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلَّى بأكمل وجهٍ في الذات الإلهية الجامعة لصفاتٍ متضادةٍ متعادلةٍ للغاية .

وإذا تمَّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدَّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمِّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلَّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوَّ المحل ، وانعدام شاغله أولًا) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه ـ الحال التي تسمَّى في عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و« غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

ميـــان امتـــان والامقـــام اســـت　　　كـه آن امـت دوكيتـي را امـام اسـت
نيــاســا يــد زكـــار آفـــرينـــش　　　كه خواب وخستكي بروي حرام است

(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنَّها أمةٌ نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنَّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« بـاغـان عنـدليبي خـوش صفـيري   بـــراغـــان جـــره بـــازي زودكبـــري
أميـــــر أو بسلطــــانـــــي فقيــــري   فقيـــــر أو بـــــه درويــــش أميــــري

(إنها في البساتين عندليبٌ حسن التغريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها أمير على الرغم من كونه درويشاً)[1] .

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

---

(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة) .

فطْـــرةُ الحُـــرِّ لا تُطيـــق مُقـــامـــاً   فـــائلـــف السيـــرَ دائبـــاً كـــالنسيـــم

ألـفُ عَيـنٍ تشـقُّ صخـرَك فـاضـربْ   بَعْدَ غَوْصٍ في (الذَّات) ضربَ الكليم

إلى القارئين

إذا لـم تُصـب فـي الحيـاة النظـرْ فليس زجـاجُـك كُـفءَ الحجـر[1]
كِفـاحٌ شـديـدٌ ، وضـربٌ سـديـد فلا ترجُ في الحرب عَزفَ الوتر
مَعيـنُ الحيـاة دمـاءُ القلـوب ولحـنُ الـدِّمـا لا الميـاهِ الفِطَـر[2]

***

(١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .

(٢) لحن المياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إنَّ الفطرة لحن دمٍ ، لا لحن ماء . يعني : أنَّ أنغامها تنبعث من دماء الناس ، لا من المياه .

تمهيد

(١)

يَقْظـة « الـذات » لا أراهـا بـدَيْـرِ   لا ولا تُجتلَـى لـدى المِحـرابِ

إنَّ روحَ الشُّعوب في الشرق غافٍ   من سموم الترياق ، رهنُ غياب[١]

إنْ تَضِق بالجهاد في الأرض ذَرعاً   فحرامٌ مسراكَ فوقَ السَّحاب[٢]

ليس من خيفة الممات نجاةٌ   إن تَر (الذات) هيكلاً من تراب[٣]

ليس يُخفي صروفَه الدهرُ لكنْ   لك قلبٌ وناظرٌ في حجاب

قد مُنِحتُ الهشيمَ في آسيا إذ   أنَّ ناري حديدةٌ في التهاب[٤]

(٢)

ذَنبُ إقبالِ البيانُ وإن كان   شبيهَ الزَّمان نزرَ الوصال[٥]

هاج أنغامُه عكوفاً على الخشخاش مَوْتَى ، إلى طلابِ المعالي

فمهيضُ الجناحِ ألفُ دارٍ   قد رَنا اليوم للفضاء العالي[٦]

فعداهُ التغريدُ في الأسحار   وحنينٌ ومُتعةُ الأبصار[٧]

---

(١) الترياق : الأفيون .

(٢) يقول : إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض ، فاشتغاله بالفلك ، وما وراءه حرام .

(٣) يرى إقبال أنَّ الحياة الخالدة بقوة الذات . فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت .

(٤) ناري شديدة الالتهاب ، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا ؛ أي أممها التي هي كالهشيم ؛ أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة .

(٥) إقبال قليل المخالطة للناس ، ولكن بيانه سائر فيهم .

(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير .

(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد . . إلخ جزاء إيقاظه الغافلين .




القسم الأول

الإسلام والمُسلمون






بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الصبح

إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبح الذي يُدعى بيومٍ أو غدٍ في الأزمُنِ
لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّت له ظُلَمُ العوالم ، من أذانِ المؤمنِ

***

لا إلٰه إلا الله[1]

مُنتسرٌ في الذات معنىً بعيدٌ سرُّه لا إلٰـه إلا اللهُ
سيفُ الذاتِ قاطعٌ غيرُ نابٍ شَحذُهُ لا إلٰـهَ إلا الله
عصرنا يبتغي خليلاً خَطوماً وُثْنَه . لا إلٰـه إلا الله[2]
إنَّ دنياك مَوثن لا تصدِّق زوره . لا إلٰـه إلا الله
في متاع الغرور تسعى وتبغي ربحه ! لا إلٰـه إلا الله
يا أسير الخسار والربح يَنسى نفسه ! لا إلٰـه إلا الله
مالُ دنياك والبنون خداعٌ كلُّه . لا إلٰـه إلا الله
هي أصنامُ واهمٍ قد براها وهمُه . لا إلٰـه إلا الله
حبسَ العقلَ في مكانٍ ووقتٍ كفرُه . لا إلٰـه إلا الله
لا زمانٌ ولا مكانٌ فحطِّم غلَّه . لا إلٰـه إلا الله

***

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .
(٢) الوُثْنُ : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر[1]

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثُّريَّا
إلى (التقدير) ردُّوا كلَّ سَعْيٍ ... وكان زَماعُهم قَدراً خفيَّا
تبدَّلت الضمائر في إسارٍ ... فما كرهوه صارَ لهم رَضِيَّا

* * *

المعراج[2]

وذَرَّةٍ طار فيها الشَّوقُ صاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمرِ
يا رِفْقةَ المَرجِ ! تلقى الصقرَ مُقدمةً ... دُرّاجةٌ تملأ الأنفاسَ من شرَرِ
المسلمُ السَّهم ، والأفلاكُ غايتُه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فاذَّكرِ[3]
جهلتَ ﴿ والنجم ﴾ أسراراً فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجاً إلى القمرِ[4]

* * *

---

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحقُّ أنَّ العبودية بدلت النفوس ، فرأوا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .

(٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر ، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .

(٣) يريد أن في المعراج سرُّ الروح . وهو رمز إلى أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك .

(٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجيباً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدّه .

إلى سيدٍ مصابٍ بالفلسفة

لـو لـم تُـؤَلِّ « ذاتَـك » النِّسيـانـا ... لمْ تَحمِلَنْ زُنَّار (بَرْجَسَانا)[1]

أصـداف (هيكـلٍ) مـن الخـوالـي ... طِلْسَمـــهُ جميعـــه خيـــالـــي

فكيـــف صـــاحِ تُحكَـــمُ الحيـــاةُ ... وكيف تجتازُ الزمانَ (الذاتُ) ؟

وطَلَـــبُ الإنســـان للثبـــات ... وقصـــدُه دستـــور ذي الحيـــاة؟

يُحـوِّل الـدُّجـى إلـى الإشـراق ... أذانُ مـــؤمـــنٍ نِـــدا الآفـــاق

وإنَّنـي فـي الأصـل سُـومَنـاتـي ... إلـــى مَنـــاةَ سَلَفـــي والـــلاتِ[2]

وأنـــت مـــن أولاد هـــاشمـــيٍّ ... وطينتـــي مـــن نسْـــلِ بَـــرْهَمـــيٍّ

فـــي عَصَبـــي فلسفـــةُ الأشيـــاء ... قـــد مُـــزِجَـــتْ بطينتـــي ومـــائـــي

أحـــاط إقبـــالٌ بهـــا تفصيـــلا ... وإن يكـــن عـــرفـــانُـــه قليـــلا

عـــاقبـــةُ العقـــلِ إلـــى شَتـــاتِ ... فلسفـــةٌ بُعـــدٌ مـــن الحيـــاة

ونَغْمـــةُ الأفكـــار دونَ صَـــوت ... للـــذَّة الأعمـــال حـــادي المـــوت

الـــدِّيـــنُ فـــي حيـــاتنـــا تقـــويـــم ... الـــدِّيـــن أحمـــدٌ وإبـــراهيـــمُ

(قلبَـك فـاربـط بـالهُـدَى المحمـديِّ ... « أبـا علـيٍّ » اتـركَـنْ يـابـن علـيِّ

إنْ تـــكُ بـــالطـــريـــق غيـــرَ داري ... فـالقـرشـيُّ اتبَعـه لا البخـاري)[3]

***

---

(١) برجسون : فيلسوف فرنسوي ، ويلفظ اسمه في الهند بركسان ، وهيكل : فيلسوف ألماني .

(٢) سومنات : معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند ، ويشيده الهنادك اليوم . واللات ، ومناة من أصنام العرب .

(٣) هذان البيتان من شعر الخاقاني في « تحفة العراقين » وأبو علي والبخاري في البيتين : ابن سينا .

الأرض والسماء

صاحِ عَلَّ الذي رأيتَ ربيعاً ... هو في أعيُن خريفُ الزَّمان
سالكَ النَّهج ! كلَّ حينٍ شُؤونٌ ... لا تفكِّر في الربح والخسران
رُبَّ ما خِلتَه بدنياك أوْجاً ... هو أرض لعالَمِ غاب ثانِ

* * *

اضمحلال المسلمين

إنَّ كان ذا الذهبُ الذي ... يَقْضي الحوائجَ في الدُّنى
فالفقرُ صاحِ مُيَسِّرٌ ... ما لا يُيَسِّرُه الغِنَى
شُبّانُ قومي لو تحلَّوْا ... بالشَّجاعة ديدَنا
لم تُلْفَ صَعْلكتي أقلَّ ... من الملوك تَصَوُّنا
الأمر ليس كما زعمتَ ... وقد وصفتَ المؤمنا
فزعمتَ أنَّ طماحه ... من قِلَّة المال انثنى
إنْ كان في الدُّنيا بدا ... لي جوهرٌ فيه سَنا
فَمِنَ التَّصَعْلُكِ قد بدا! ... لا بالخزائنِ والقُنَى

* * *

العلم والعشق

قال لي العلمُ غُروراً : ... إنَّما العِشْقُ جنونْ
قال لي العِشْقُ مجيباً : ... إنَّما العلمُ ظَنينْ
لا تكنْ سوسَ كتابٍ ... يا أسيراً للظنون
فمن العِشق شُهودٌ ... ومن العِلْم حجابْ
مِنْ لهيب العِشْقِ ثارتْ ... ثورةٌ في الكائناتْ

وشهـــودُ (الـــذَّاتِ) للعِشْـــق ، وللعلـــم الصِّفـــات

ومِـــنَ العِشْـــق ثبـــاتٌ　　وحيـــاةٌ وممـــات

عِلْمنـــا سُـــؤْلٌ جلـــيٌّ　　عِشقُنـــا خـــافـــي الجـــوابْ

معجـــزاتُ العِشْـــق مُلـــكٌ　　زانَـــه فقـــرٌ ودِيـــن

وعبيـــدُ العِشْـــق أدنـــا　　هـــم لـــه عـــرشٌ مكيـــن

ومـــن العشْـــق زمـــانٌ　　ومكـــانٌ ومكيـــن[1]

إنَّمـــا العشـــق يقيـــنٌ　　وبـــه يفتـــحُ بـــابْ

أُلْفَـــةُ المنـــزل فـــي شـــرعِ مـــن الحُـــبِّ حـــرام

خطَـــرُ البحـــر حـــلالٌ　　راحـــةُ السِّـــرْبِ حـــرامُ

خفقـــةُ البـــرق حـــلالٌ　　وَفْـــرة الحَـــبِّ حـــرام[2]

علمنـــا نَسْـــلُ كتـــابِ　　عِشْقُنـــا أمُّ الكتـــابْ

* * *

اجتهاد

حكمـةُ الـدِّيـن كمـا قـد زعمـوا　　عُلِّمَتْ في الهند من أيِّ طريقِ ؟

مـا بهـا لـذةُ سعـيٍ دائـبٍ　　لا ولا فيهـا مـن الفكـر العميـقِ

أيـن منهـم جُـرأةُ العقـل لـدى　　مَخفـلٍ يهفـو إلـى الفكـر مَشـوق

آه للتقليـد والأسـر بمـا　　ألِفـوه وزوالِ التحقيـق

---

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة المنزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردي .

بـــدَّلـــوا القـــرآنَ لا أنفُسَهـــم كـم فقيـهٍ مُبعَـدٍ مـن تـوفيـقِ[١]

وكفـــى القـــرآنَ نقصـــاً أنَّـــه ما هدى المؤمنَ منهاجَ الرقيق[٢]

***

شكر وشكوى

لـك الحمـد إنِّـيَ عبـدٌ جهـولٌ ولكـنْ وُصِلْـتُ بسـرِّ الغيـوبْ

مَنَحْـتُ القلـوبَ هُيـامـاً جـديـداً أثـرتُ البعيـدَ بـه والقـريـب

ومن حرِّ شَذْوي يُرى في الخريف طَـروبـاً بصحبتـي العنـدليـب

ولكـــن خُلِقْـــتُ بـــأرضٍ بهـــا نفـوسُ العبيـد بـرِقٍّ تطيـب

***

الذكر والفكر

ذانِ للســالــك الطَّمـوح مقـام نـزَلَـتْ فيـه « عَلَّـمَ الأسْمَـاءَ »[٣]

ومقـام التفكيـر قـولُ ابـنِ سينـا ومقـامُ العطَّـار بـالـذِّكـر ضـاء[٤]

ولــذكـرِ « سبحــانَ ربّـيَ » والفكــرُ يقيـسُ الـزمــانَ والأرجـاء[٥]

***

---

(١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفاقاً من تكاليفه .

(٢) يعني أنَّ الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .

(٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

(٤) في الأصل : العطار والرومي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .

(٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغلٍ بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخْفَى عليكَ مقامُ آدمَ في الورى　　فالنفسُ ما نالَ الإلٰه وصَالُها[1]
ما في أذانك من صباحي دعوةٌ　　أو في الصلاة جمالُها وجلالُها

* * *

القدر[2]

ربما يبلغُ اللئيمُ مُناه　　وينالُ الكريمَ ضيمُ الزمانِ
علَّ في منطقِ القضاء خفاءً　　ويُرَى دون منطقٍ في العيانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذي الحقيقةَ طُرّاً　　وجلاها التاريخُ كلَّ أوانِ
نحو مسعى الأقوام يرنو القضاءُ　　نظرةٌ كالحُسام فيها مَضاءُ

* * *

التوحيد

قوَّةً كان في الحياةِ على الأرض　　فصارَ التَّوحيدُ علمَ الكلام
رَدَّهُ في الفعال غيرَ مضيءٍ　　جهلُنا اليوم ما لنا من مقام
قائدَ الجيش ! قد رأيتُ غُموداً　　مِن « هُو اللهُ » ما بها من حُسام[3]

(١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أخلدت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .

(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ القضاء يبدو غير تابع للمنطق ، ولعل له منطقاً خفياً ، وعلى كل حال نرى حقيقةً لا جدال فيها ، هي أنَّ عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم ، فتقضي فيها على قدر مساعيها .

(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

مـا درى الشيـخُ أنَّ تـوحيـدَ فكـرٍ دون فِعـلٍ ، يُعـدُّ لَغْـوَ كـلام[1]
يـا إمـامـاً لـركعـةٍ كيـف تـدري فـي الـوَرَى مـا إمـامـةُ الأقـوام ؟

* * *

العلمُ والدِّين[2]

العلـم يخلـق إبـراهيـم مـوثنَـه إذا تـراه نـديـمَ القلـبِ والنَّظـرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما بُدِلا مـا مُحـدَثٌ وقـديـمٌ قـولُ ذي بصَـر
ما يُحسنُ المرجُ تربيبَ الزُّهور إذا لم تَشْرِك النَّسماتُ الطَّلَّ في الزَّهَر
العلم إن لم يُضِف نَجوى الكليم إلى رأي الحكيـم فمـا للعلـم مـن قَـدَر

* * *

المسلمُ الهندي

قـال البَـرَهْمَـنُ : خـائـنٌ أوطـانـه والإنكليـزُ تقـول : هـذا مجتـدي
ونُبُـوَّةُ البَنْجـاب قـالـت : كـافـر مستمسـكٌ بقـديمـه لا يهتـدي[3]
أيّـانَ صـوتُ الحَـقِّ يعلـو هـاهنـا ؟ ويلٌ لقلبي في الصِّراع المُجْهد[4]

* * *

---

(١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .

(٢) العلم وحده عاجز مُضل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن كان كذلك خلق هو إبراهيمه ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطلِّ والنسيم لا بدَّ من اشتراكهما في تربية الزهر .

(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من أدعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .

(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظٍ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف(١)

أيهـا المسلـمُ تَـدْري اليـومَ مـا | قيمـةُ الفـولاذ والعَضْـب الـذكَـر
هـو مصـراعٌ مـن البيـت الـذي | مضمـرٌ فيـه مـن التَّـوحيـدِ سِـرّ
وأرى مصـراعـه الثـانـيَ فـي | سيـفِ فَقْـرٍ تحتـويـه كـفٌّ حُـرّ
أنـتَ يـا مسلـمُ ـ إن تظفـر بـه ـ | خـالـدٌ أو حيـدرٌ يـوم المَكَـرّ(٢)

* * *

الجهاد(٣)

الشيـخُ أفتَـى أنَّـه عصـرُ القلـم | ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممْ
أمـا دَرى الشيـخُ بـأنَّ وعظَـه | في مسجدٍ قد صار من لَغْوِ الكلِم ؟
فمـا تـرى السِّـلاحَ كـفُّ مسلـمٍ | بـل قلبُـه مـن لـذَّةِ المـوت حُـرِم
مَـنْ قلبُـه يهـابُ مَـوْتَ كـافـرٍ | فكيـف ميتـةَ الشَّهيـدِ يَغْتنـم(٤) ؟
فعلِّمَـنْ تـرك الجهـادِ طـاغيـاً | مِـنْ كَفِّـهِ يسيـلُ فـي العـالـم دَم
أمـا تـرى الغـربَ بـدا مُـدَجَّجـاً | ليحفـظَ البـاطـلَ فـي عِـزٍّ عَمَـمْ ؟
يـا مُفتيـاً علـى الكنيـسِ مُشْفقـاً | قـد حـارَ فـي أحكـامِـه أولـو الفَهَـم
الحـربُ فـي المشـرق شـرٌّ داهِـمٌ | والحربُ في المغرب شرٌّ لا جَرَم

---

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حَرَّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إن يَبْتَغِ الحقَّ فكيف حاسب المسـ ـلم لا الفِرِنْجَ ذلك الحَكَم ؟

***

القوة والدين

كم أصاب الإنسانَ في هذه الأر ضِ مِنَ إسْكَنْدَرٍ ومن جَنكيزِ
ويقول التاريخُ في كلِّ عصر : خَطَرٌ فَرْطُ قُوَّةٍ لعزيز
هي سيلٌ غُثَاؤه الفَنُّ والعِلمُ وما أثَّلَ الورى من كنوز
وهي سُمٌّ بغير دينٍ . وبالدِّين دَواءٌ لكلِّ سُمٍّ نَجيز

***

الفقر(١)

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حَوْمةِ الحَرب كالرُّجوم

---

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدُّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كلِّ سؤدد ، والمقتحم كل عقبة ، ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما قيمة الفولاذ والعضبِ الذَّكَر
هو مِصراع من البيت الذي مضمرٌ فيه من التَّوحيد سرّ
وأرى مصرَاعه الثاني في سيف فقر تحتويه كفُّ حرّ

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حومة الحرب كالرُّجوم

وقوله في قطعة « السُّلطان » :

تعلَّم فألف مقام وشان لفقر بدا فيه روحُ القران

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرُّ عليك من فقر مِسَنّاً فيطبع منك سيفاً للمنايا =

وكـــلُّ ضـــربٍ لـــه ســـديـــدٌ إنْ ثـــار مـــن قلبـــه السَّليـــمِ
حَمـــاسُـــهُ قَـــصَّ كـــلَّ عصـــرٍ قِصَّـــةَ فـــرعـــونَ والكليـــمِ
يـــا غَيـــرةَ الفقـــر أنجـــدينـــا واهـــدي إلـــى نَهجِـــك القـــويـــمِ
عبـــادةُ الغـــرب جمـــعُ مـــال تَنْخَـــرُ فـــي رُوحـــه السقيـــم

= وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملـــك مقـــام فقـــر ، ولكـــن تـؤثـر الـذلّ مـذعنـاً مـا احتيـالـي

وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فنون علم » :

ومـــا إن ذلَّ قـــوم قـــد أعـــدُّوا حمـــاس العِشْـــق والفقـــرِ الغيـــورُ

ويتبين للقارىء من التأمّل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتزُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارىء من كلام الشاعر : أن الفقر الّذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملُّك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربّما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عمّا فسّر به بعض الصُّوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَقَ في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فَاتَ ، أعني أن لا تكون الدُّنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشــقُ والسُّكــر مــا أبــاحــا أنْ أضبِـطَ النفـسَ فـي همـومـي
فعُقــدة الكِــمّ لــم تُفَتَّــح إلا بمَــوْجٍ مــن النسيــم[1]

***

الإسلام

إنَّ نار « الذَّات » ، والنورُ لديها هــي لــلإســلام رُوحٌ مستنيــر[2]
إنَّ نار « الذات » ، فاقبس من لظاها فــي حيــاة الخَلْــقِ نــورٌ وسُفــوز
هــي تقــويــمُ وجــودٍ وهــي أصْــلٌ للتَّجَلِّــي أُخْفِيَــتْ خَلْــفَ سُتــور
إنْ قَلَــى الغــربُ مــنَ الإســلامِ لفظــاً فلــه اســمٌ آخــرُ : الفقــرُ الغَيــور[3]

***

الحياة الأبدية[4]

صــدَفٌ لنــا هــذه الحيــاة ، وذاتنــا كالقطر من نَيسان في الصدَفات[5]
مــا قيمــة الصَّــدف الــذي لا يستطيــع يُحيــل قَطَــراتٍ إلــى دُرَّات
إنْ صــانــتِ الــذَّاتُ المتينــةُ نفسَهــا أعيَــتْ علــى الأيــام كــلَّ مَمــات

***

---

(١) كِمُّ الزهر لا يفتح إلا بالنسيم ، وبيان الشاعر وشكواه كالنَّسيم تفتح بهما نفسه .
(٢) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها .
(٣) إنَّ نفر الفرنج من لفظ الإسلام فنحن نسميه اسماً آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور .
(٤) يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنَّها مقصد الحياة ، وأنَّها إن قويت واستحكمت ؛ لم تمت .
(٥) يقال : إنَّ الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة ، فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتنطبق عليها حتى تتحوَّل دُرَّة . والشاعر يجعل الحياة صدفةً ، والذَّات قطرةٌ من نيسان . ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفةُ القطرةَ دُرَّةً .

السُّلطان[1]

تَعَلَّمْ ؛ فـألـفُ مقـام وشـانِ لفقـر بـدا فيـه روح القُـرَانِ
إذا انجلت (الـذّات) فـي قهرهـا فهـذا مقـامٌ لملـكِ الـزَّمـان
وتـوزن فـي ذا المقـام القُـوَى قُـوَى مـؤمـنٍ تُبتلـى بـامتحـان
وإنَّـك فـي ذا المقـام عظيـمٌ وظـلٌّ مـن الله فـي ذا المكـان
ومـا ذاك بغـيٌ وقهـرٌ ولكـن هـو العشـقُ والـوَجْـد مـلءَ الجَنـان
فمـا يستطـاع بقهـرٍ وبغـيٍ على الأرض حفظُ الورى في أمان
وأعيـاك فـي الـدَّهـر حفـظٌ لفقـرٍ فـأصبحـت في الـرقِّ خِدنَ الهَوان
وكـان علـى الـدِّيـن سيمـا سجـود تُبـاري الكـواكـب مِـلء العيـان
وكـان علـى الشمـس منـه سَنـاً فهـل فـي نجـومـك منـه معـانِ ؟

***

إلى الصُّوفيِّ

تـرى عينـاك دنيـا المعجـزاتِ وفـي عينـيَّ دنيـا الحـادثـاتِ
ومن دنيا الخيال عجبتَ ، فاعجب لـدنيـا للحيـاة وللممـات
تبـدِّلهـا بنظـرةٍ غيـرِ واعٍ وكـمْ تـدعـوك دنيـا الممكنـات

***

---

(١) السُّلطان الحقُّ هو أحد شؤون الفقر ، كما يفسره الشاعر ، فهو تجلي « الذات » ـ ذات الفقير ـ بالتسلُّط . وليس السُّلطان طغياناً ، أو بغياً إلخ . . (كتبت في بهو بال في رياض المنزل دار السيد راس مسعود) .

صريع الفرنج

ـ ١ ـ

مِـنْ تجلّـي الفـرنـج نلـتَ وجـوداً   فهـمُ منـك هيكـلاً قـد أقـامـوا
ومن (الذات) هيكل التُّرب خالٍ   أنـت غِمـدٌ مُـذَهَّـب لا حسـامُ

ـ ٢ ـ

ووجـــودُ الإلـــه عنـــدك ريـــبٌ   وأرى الـريـبَ فـي وجـودك أنتـا
إنَّما الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى   فـانظـرنْ أيَّ جـوهـرٍ قـد دفنتـا

* * *

التصوُّف[1]

إنَّ علـم الـلاهـوت فـي ملكـوتٍ   ليـس للـديـن آسيـا ـ ليـس شيًّـا
وقيـامُ الأسحـار فـي طـول وَجْـد   ليـس للـذات راعيـاً ـ ليـس شيًّـا
ذلـك العقـلُ صـاعـداً للثُّـريـا   ليس بـالـوجـد ساريـاً ـ ليـس شيًّا
ينطـق العقـل « لا إلٰـه » ولكـنْ   ليس بالقلب مسلماً ـ ليس شيًّا[2]
كلمـاتـي خـوافـق وسَنـا الإصبـاح   لـم يبـدُ خـافقـاً ـ ليـس شيًّـا

* * *

---

(١) يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

(٢) أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلامُ الهنديُّ

بـــوحـــدة الأفكـــار تحيـــا أمّـــةٌ ودونهـــا الإلهـــام يُلْقَـــى ملحـــدا[1]

لا تُحفــظ الــوحـدة إلا بــالقُــوَى لــم يُفلـح العقـلُ هنـا ولا اهتـدى

يـــا عـــابـــداً ليـــس لـــديـــه قـــوَّةٌ اذهـبْ إلـى كهـفٍ وسبِّـح واعبـدا

وهـــات إســـلامـــاً بـــه تصـــوُّفٌ إلـى الـردى والـذلِّ واليـأس هـدى

للشيـخ فـي الهنـد أجيـزتْ سجـدةٌ فحسِـــبَ الإســـلام حُـــرّاً سيّـــدا

* * *

قطعة[2]

مـــا القلـــب مـــات ، قلـــبٌ فـــأحـــيِ ذا الـــرميمـــا

يمحـــو الفـــؤاد داءً فـــي أمـــم قـــديمـــا

بحـــرُك فـــي سُكـــونٍ سُحُـــر أم أنيمـــا ؟

لا وحـــشَ أو هيـــاجـــاً أو ســـاحـــلاً لطيمـــا

وفـــي السمـــاء ســـرٌّ لســـتَ بـــه عليمـــا

مـــا هـــاج طـــرفُ نجـــمٍ منـــك فتـــى كليمـــا

رمـــى نشيـــدُ صبحـــي أبـــاءك الهشيمـــا[3]

شـــرارةً أكِنَّـــت فـــي طينتـــي قـــديمـــا

دُنيـــا غـــدٍ وأمـــسٍ يُبصـــرهـــا عليمـــا

---

(١) بغير توحد الأفكار تعمُّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحاداً .

(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم أبيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .

(٣) الأباء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإخصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنَّه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَــــن حـــاز مثلـــي عينـــاً جـــــريئــــةً هَجــــومـــا

* * *

الدُّنيا(١)

كــذاكــم بــدا لــيَ بُــوقلمــونٍ وقلَّبــتُ فــي الملكــوت النظــرْ
فهـــذا هـــلالٌ ، وهـــذي نجـــومٌ وهـــذا عقيـــقٌ وهـــذا حجـــر
وعيـــنُ البصيـــرة أعملتُهـــا فـــأوحـــت إلـــيَّ صحيـــحَ الخبـــر
فهـــذا تـــرابٌ وتلـــك سمـــاءٌ وذلـــك طَـــودٌ وهـــذا نَهَـــر
ولا أكتـــم الحـــقَّ : أنـــت وجـــودٌ ولا شـــيء مـــا ســـاح فيـــه البصـــر

* * *

الصَّلاة(٢)

تلـــوَّنُ فـــي كـــلِّ ثـــوب مَنـــاةُ وشـــاب بنـــو الـــدَّهـــر وهـــي فتـــاةُ
فهـــذا السجـــود الـــذي تجتـــويـــه بـــه مـــن ألـــوف السُّجـــود نجـــاة(٣)

* * *

(١) أنا كذلك أبصر دنيا الألوان التي تشبه بوقلمون ، وأعرف الهلال والنجم والسماء والأرض . . إلخ ، ولكني أرى أنَّ الإنسان وجودٌ حقٌّ ، وما عداه ليس شيئاً .

(٢) الأصنام لم تنقطع عبادتها ، فلا تزال تظهر بين الناس في صورٍ مختلفةٍ ، فتعبد ضروب العبادات . فاعلم أنَّ سجود الصلاة الذي يثقل عليك ينجيك من آلاف السجود لهذه الأصنام .

(٣) تجتويه : تكرهه .

الوحي (١)

ليس هذا العقل ذو الوهـ ـن حريّاً بالإمامهْ
فحياة الظنِّ والتّخمينِ ضَعفٌ وسَقامه
ليس في فكرك نورٌ أو إلى السعي استقامه
كيف يجلو في حياةٍ ذلك الليلُ ظلامه ؟
إنَّ لغز الحسن والقبح ليُعيي ذا الفهامه
حين لا تجلو الحياة السرَّ منها مستهامه

* * *

هزيمة

خلا الصُّوفيُّ مِنْ حُرقٍ وكدٍّ ؛ شرابُ (ألستُ) معذرةُ البطالهْ[٢]
وفرّ إلى ترهُّبه فقيهٌ يَرى في الشرع معتركَ البساله[٣]
إذا خشي الرجال وغَى حياةٍ فتلك هي الهزيمةُ لا محاله

* * *

العقل والقلب

سيطر العقلُ على الكون أميراً وطوى الأفلاكَ والأرضَ مسيرا
ذا جلالٍ يخضع الكون له غيرَ قلب ثار بالعقل جسورا

---

(١) العقل ظنٌّ وتخمينٌ ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك الحسن والقبيح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .

(٢) يوم « ألست » أو عهد « ألست » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألست » يتعلَّل به ، ويعتذر لبطالته .

(٣) لما رأى الفقيه أنَّ الشرع جهادٌ وكفاحٌ فرَّ إلى الترهُّب .

سكر العمل

في طريق الصُّوفيِّ سُكرُ الحال   وطـريـقُ الفقيـه سُكـرُ المقـال
ونشيـد الشِّعْـر المـرجَّـع مَيْـت   خـامـدُ اللَّحـن لـم يُشَـب بجمَـال
بيـن نـومٍ ويقظـةٍ غيـرُ صـاحٍ   بيـن سُكـر الأفكـار والبَلبـال
وبنفسـي مجـاهـدٌ لا أراه !   فيـه سكـرُ الأعمـال لا الأقـوال

***

القبر(١)

لا يجـد القلنـدريُّ راحـةً   وإن ثـوى بقبـره تحـت الثَّـرى
سكينـةُ الأفـلاك فـي الضَّـريـح لا   فسـاحـةُ الأفـلاك أو طـولُ السُّـرى

***

همَّة القلندر(٢)

يقـول للـزمـان ذلـك الفتـى :   امـض إلـى حيـثُ يسيـر المـؤمـنُ
مـالـكَ فـي معتـركـي مِـن طـاقـةٍ   حـذارِ مـن قلنـدرٍ لا يُـذعـن

---

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيده رغبةٌ أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الّذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُديمون السفر ، لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحلقون رؤوسهم .
وسُمّي سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .
وقد رأى المترجم أن يبقي اللفظ في الترجمة لأنه عَلَم في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً وأحياناً نسَب إليه ، فقال : القلندرُ والقلندريُّ .

إذا طغــى اليــمُّ فهيَّـا أقــدمــنْ ... مــا حــاجتــي مَــلاّحــه والسُّفُــن

لقــد محــا سحــرَك تكبيــري فهــل ... تَقْـوى علـى جحـوده يـا وَهِـن ؟

يحــاســب الأفــلاكَ ذا القلنــدر ... وقـــاهـــرٌ أيـــامَـــه لا يُقهـــر

* * *

الفلسفة

ليـس يَخفـى علـى القلَنْـدر فكـرٌ ... ساورَ النشءَ ظاهراً أو خفيّا[١]

أنــا عنـدي بكـلِّ حـالِـكَ خُبـرٌ ... فبهــذا الطــريــق ســرتُ مليّــا

لا يقيـم الحكيـمُ فـي شَـرَك اللفـ ... ـظ ولا بـالحـروف كـان حفيّـا

ليـس هـمُّ الغـوّاص أصـدافَ بحـرٍ ... يبتغــي الغــائصــون دُرّاً بهيّــا

إنَّ فـي حلقـة المجـانيـن عقـلاً ... فـي شَـرارٍ يـرى لهيبـاً مضيَّـا[٢]

إن أغلـى مـن الجـواهـر ، معنـى ... صـدَّق القلـبُ سـرّه مطـويـا

فلسفـاتٌ مـا سطّـرت بـدم القلـب ... مَــــواتٌ أو للممـــات تُهيّـــا

* * *

رجال الله

إنّمــا الحــرُّ مــن يُجيـد ضِـرابـا ... لا الــذي حــربــهُ تــدور هُــراء

وسجـايـا الأحـرار تجمـع تـاجـاً ... ذا سنــاء ، وخــرقــةً وقَبــاء[٣]

---

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيباً عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصُّوفية لابسي الخرقة ، وفيها فقه العلماء لابسي القباء .

مـن خفـايـا تُـرابهـم أخـذ الـدَّهـرُ شَـــراراً فصـــاغ منـــه ذُكـــاء
فِطــرةٌ حــرَّةٌ تعــاف الــدنــايــا من طَـواف الأصنـام عـاشـت بَـراء
أنــت فــي الكفـر والتـديُّـن جَمْعـاً وثنـــيٌّ تُقـــدِّس الأهـــواء[١]

***

الكافر والمُؤمن[٢]

أمـــسِ عنـــد البحـــر قـــال الخضـــر لـــي قـــولًا أعيـــه[٣]
تبتغـــي التـــريـــاق مـــنْ سُـــمٍّ فـــرنـــجٍ تتقيـــه ؟
فخُـــذنْ قـــولًا ســـديـــداً هـــو بـــالسيـــف شبيـــه
ذا مضـــــاءٌ وضيـــــاءٌ خبـــرةُ الصَّيقـــل فيـــه :
إنَّمـــا الكـــافـــر حيـــرانُ لـــه الآفـــاق تيـــه
وأرى المـــؤمـــن كـــونـــاً تـــاهـــت الآفـــاق فيـــه

***

---

(١) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .

(٢) يكرِّر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إنَّ المؤمن مسيطرٌ على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضلُّ فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإنَّ غيره مقهور في الكون حائر ، تتلقفه أحداثه ، وتقلبه غيره .
والفكرة مأخوذة من مثنوي جلال الدين الرُّومي . فقد قصَّ المثنوي قصة افتقاد حليمة الرسول في طفولته وطلبها إيَّاه والهةً ، وأنَّ جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق ، فهذه الآفاق تتيه فيه .

(٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلٌّ ثَوى في مَحبسٍ من صُنعه : سيَّارُ إفرنج وثابتُ مشرقِ[1]
والشَّيخُ في حَرمٍ وحَبر كنيسةٍ لا جِدَّةٌ في القول أو في المنطق
أهلُ السياسة في شِراكِ قديمِهم والشِّعرُ أفلس في خَيالٍ مُغلق
من لي بمهديٍّ له نظرٌ يزلزلُ عالَم الأفكار ، غيرَ ممخرِق

***

المُؤمن

ـ ١ ـ

في الدُّنيا

مع الصَّحْبِ لَيْن كمسِّ الحرير بعيدٌ من المَحَكِّ ، المؤمنُ[2]
حديدٌ إذا ما طغى باطلٌ جريءٌ لدى المَعْرَك ، المؤمنُ
من الطِّين ، لكنْ على الطِّين يسمو ويأبى على الفلك ، المؤمن
وما همُّه صيدُ طيرٍ ولكن يصيد من المَلَك ، المؤمن

ـ ٢ ـ

في الجنَّة

تقول الملائك في غبطةٍ : حَبيبٌ إلى قلبنا ، المؤمن

---

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السيَّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والرويُّ الكاف التي قبلها .

وللحـــور شكـــوى إلـــى ربِّهـــا : سـريـعٌ إلـى هجـرنـا ، المـؤمـن

* * *

محمَّد علي الباب[1]

أجـــابَ (البـــابُ) فـــي حفـــل مفيضـــاً فـــي مقـــالاتِ
وفـــات الشيـــخَ تـــوفيـــقٌ بـــإعـــراب (السَّمـــواتِ)
ســرَتْ فـــي الحَفْـــل غلطتُـــه فـــلاقـــوه ببسمـــاتِ
فقـــال (البـــاب) : لـــم تَـــذْروا وفـــاتتكـــم مقـــامـــاتـــي
ثـــوى القـــرآنُ بـــالإعـــراب فـــي حَبـــسٍ وإعنـــاتِ
وإنَّ إمـــامتـــي جـــاءت بتحـــريـــرٍ لآيـــاتِ

* * *

القدر[2]

الخالقُ وإبليس

إبليـس : يـا إلٰهـاً أمـره كُـنْ ليـس عنـه مـنْ مَحيـدْ
لـم يُصَـب آدمُ منـي بعـدوٍّ أو حسـود
ويـلُ غـرٍّ ، مِـنْ زمـانٍ ومكـانٍ فـي حـدود
كيـف أستكبـر عـن أمـرك أو كيـف أحيـدْ

---

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلحن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إنَّ بشرى إمامتي تحريرُ الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كـــان فـــي علمـــك أنـــي حـــائـــدٌ عـــن ذا السجـــود

* * *

الخـالـق : هـل عـرفـت السرَّ هـذا قبـــلَ أو بعـــدَ الجحـــودْ ؟

إبليس : بعـدُ ! يـا مـنْ مِـنْ تجلِّيه كمـــالاتُ الـــوجـــود

(الخالق ناظراً إلى الملائكة)

خِسَّـــةُ الفطـــرة فيـــه علَّمتـــه ذاك عـــذرا

قـــال : مـــا شئـــتَ سجـــودي أنـــا لا أملـــك أمـــرا

ذلـــك الظـــالـــم سَمَّـــى اختيـــاراً فيـــه جَبـــرا

إنَّـــه سمَّـــى رَمـــاداً شُعلـــة فيـــه وجَمـــرا

* * *

أين روح محمَّد ![1]

أرى الملَّـة البيضـاء بُـدِّد نظمُهـا فمسلمُك انظر حاله ، أين يذهب ؟

وليـس ببحـر العُـرب لَـذَّةُ ثـورةٍ وفي الصَّدر موجٌ غاله ، أين يذهب ؟

ولا رَكْـبَ للحـادي ولا زادَ عنـده وقطعُ الفيافي هاله ، أين يذهب

فبيِّـن لنـا الأسـرارَ روح محمـد ! حفيظٌ لآيٍ ، ياله ، أين يذهب ؟

* * *

(١) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمَّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيخلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافٍ هائلةٌ . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أينَ يذهب .

مدنية الإسلام

حياةُ المسلم أعرف في بياني | كمالُ العقل فيها والجنونُ[1]
سَناً كالصُّبح مَغربه طُلوعٌ | وحيدٌ ، كالزَّمان له شؤون
ولا كالعصر ، خِلوٌ منْ حَياء | ولا فيها من الماضي فُتون
حياةٌ بالحقائق في قَرارٍ | وليست ما يُطلسِم أفلَطون[2]
عناصرُها يؤلِّفُها جَمالٌ | تمثَّل فيه جبريلُ الأمين
وحسنُ الخَلْق من عُجْمٍ لديها | ونارُ العُرب فيها والشُّجون

* * *

الإمامة[3]

أتسألني : الإمامةُ ما مَداها ؟ | حبَاك الله مثلي بالخفايا
إمامُ العصر حقّاً من تراه | فتسأمُ ما تشاهدُ في البرايا
بمرآة الممات يريكَ وجهَ الـ | ـحبيب فتجتوي عيشَ الدَّنايا

---

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة . فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام . وهي كالشمس تغرب لتطلع . وهي فذَّةٌ لا نظير لها ، ولكنَّها كالزمان في شؤونٍ متعددةٍ، وهي قائمةٌ على الحقائق ، وجامعةٌ عناصر الجمال والقوَّة .

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون ؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل ، لا على هذه الأرض .

(٣) يقصد إقبال مَنِ ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره . ويرى أنَّ الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود . . إلخ .

ويشعــرُكَ التخلُّــفَ عــن كمــالٍ فينفـخُ فيـك مشبـوبَ السَّجـايـا[1]
يُمــرُّ عليــك مِــنْ فقــرٍ مِسَنّــاً فيطبــعُ منــكَ سيفــاً للمنــايــا
فُتــون الملَّــة البيضــا إمــامٌ كــأنَّ المسلميــن بــه سبــايــا[2]

* * *

الفقر والترهُّب[3]

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر ؛ الفقــرُ عنـدك كـالتـرهُّـب يظهـر
شتَّانَ ، فانظر ، بين خَلوة راهبٍ وشِــراع فقــرٍ فــي عُبــابٍ يمخُــر
فــي الــروح والأبــدان يبغــي جلــوةً فنهــايــة الإيمــان (ذاتٌ) تبهــر[4]
هــو صيــرفــيُّ الكــائنــات وجــوده فعــن الفنــاء أو البقــاء يخبِّــر[5]
فــاسـألــه عمــا تــرتئيــه أعــالــمٌ أم مــوج رائحــة ولــون يــزخَــر ؟
لمــا أضــاع المسلمــون علــى المدى ذا الفقــر ـ لمــا ضــاع هـذا الجوهر
لــم يبــق فيهــم مــن سليمــانٍ ولا سلمــانَ دولــةُ عِــزَّة لا تُقهــر

* * *

---

(١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .
(٢) فتنة الملّة الإسلامية إمامٌ يمكّن أصحاب السُّلطان من إذلال المسلمين .
(٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرر من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدُّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .
(٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلِّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .
(٥) هذا الفقر ينقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

قطعة[1]

متاعُك في الحياة فنونُ علمٍ ... تظَلُّ الدَّهرَ منها في حُبور
وما عندي متاعٌ غيرَ قلب ... طموحٍ ما أراه بالصَّبور
لأهل الفكر معجزةٌ تجلَّت ... بفلسفةٍ معقَّدة السُّطور
وأهلُ الذكر شادوا معجزاتٍ ... على موسَى وفرعونٍ وطور[2]
أقول لمسلم : ما فيك صدرٌ ... لأنفاس بها حَرُّ النشور
ومزقتُ الجيوبَ وأنتَ خالٍ ... جُنوني ـ لا ألومك ـ في قصور[3]
أقِلَّ القولَ وافتحْ عينَ قلبٍ ... ولا تكُ مُهْذراً عند البصير
وما إنْ ذلَّ قومٌ قد أعدُّوا ... حَماسَ العِشْق والفقرِ الغَيور

* * *

التَّسليمُ والرِّضا

على كل غصنٍ تبيَّن أن النبات مَشوقٌ لِرَحْبِ الفضاء
فما قرّ في ظلمةِ الترب حَبٌّ ... جُنونُ النشوء به والنَّماء
فلا تَبغِ في فِطرةٍ تركَ سعيٍ ... فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النَّماء فضاءٌ فسيحٌ ... وما ضاقَ مُلك الإلٰه ، فسيحوا

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمَّى بالغزل في الشعر العربي .
(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكَّرت الاسمين ، وصرفتهما .
(٣) يعني : إني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليَّ لا عليك .

نكتةُ التَّوحيد[1]

إنَّ ســرَّ التَّــوحيــد طــوعُ بَيــانــي ... شِدتَ في الرأس مَوْثَنا، ما احتيالي ؟[2]

رمـــزُ شـــوقٍ بـــلا إلٰــهٍ خفــيٌّ ... ليس فـي الفقـه بيِّنـا، مـا احتيـالـي ؟

كــم ســرورٍ فــي حــرب حــقٍّ وزورٍ ... لستَ في الحرب مطعنا، ما احتيالي ؟[3]

كــم تُجلِّــي الآفــاقَ نظــرةُ حــرٍّ ... حجـب الـرقُّ أعينـا ، مـا احتيـالـي ؟

أيُّ مُلْــكٍ مقــامُ فقــرٍ ! ولكــن ... تـؤثـر الـذلَّ مُـذعنـا، مـا احتيـالـي ؟

***

الإلهام والحرية

إنَّ للحُـــرِّ ملهمـــاً نظـــراتٍ ... تحفِــز القــولَ والفِعــالَ بنــار

حَــرُّ أنفــاســه يَشيــع بــروضٍ ... فتـرى الـروض مُـزهـراً مـنْ شَرار

يَهــبُ العنــدليــبَ سيــرةَ بــازٍ ... كيـف حـالـت طبـائـعُ الأطيـار ؟

يَنــحُ المجتــديــن شَــوكــةَ جــمٍّ ... عــارفُ النفـس والـهُ الأسحـار[4]

ووقــى الله حكمــةَ لــذليــلٍ ... مثـل جنكيـز طـالـعٍ بـالـدَّمـار[5]

***

---

(١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا . . إلخ (المترجم) .

(٢) يمكن أن يبين سرَّ التوحيد ، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبداً للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كده ، بتخانه ، ونحوهما .

(٣) كم سرورٍ في مجاهدة الباطل بالحقِّ في هذه الحياة .

(٤) جم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .

(٥) يريد أنَّ حكمة الذليل تدمر الأمم كغارات جنكيز خان .

الرُّوح والجِسم(١)

تحيّر الناسُ في ذا اللغز من قدم : ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل وثورةٍ وسرورِ النفس والحزن
ومشكلٌ لك أنَّ الخمر من قدحٍ أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكَن(٢)
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟ جمرٌ بدا في رَمادٍ منه للفَطِنِ

* * *

« لَاهور » و « كراجي »(٣)

قد تولى اللهَ عبدٌ مسلمٌ ما آمرا
هو بالموت إلى عالَم روحٍ سافرا
كيف تَفْدون شهيداً لخلودٍ آثرا
دَمُه من حَرَم أعلى وأغلى جوهرا(٤)
آه للمسلم غفلانَ نَسِيّاً ما درى :
سرَّ ﴿ لا تدع مع الله إلٰهاً آخرا ﴾(٥)

---

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ، والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .

(٢) الزكن : الفطنة .

(٣) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .

(٤) يعني : أنَّ كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .

(٥) الآية : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُــوَّة[1]

لســـتُ المحــــدِّثَ والفقيـــهَ ولا الـــولـــيَّ ولا المجـــدِّد
لا علـــم عنـــدي بـــالنبـــوّة كيـــف تـــوصـــف أو تحـــدَّد
لكــن إلــى الإسـلام فـي الأيـام لـــي نظـــرٌ مســـدَّد
أوحـــى إلـــيَّ بســـرِّه الفلـــكُ المحيـــطُ فـــلا أفنَّـــد
فـــرأيـــت فـــي ظلمـــات هـ ـــذا العصـــر ذا الحـــقِّ المـؤيَّـد :
عنـــدي حشيـــش المسلميـــن نبـــوّةٌ فيهـــم تجـــدَّد
مـــا إن لـــديهـــا دعـــوةٌ للبـــأس والمجـــد المخلَّـــد

***

الإنسان

ذا طِلَسْـــمُ الكَـــون والعَـــدَمِ سُمِّـــي الإنســـانُ مـــن قِـــدَم
هـــو ســـرُّ الله جـــلَّ فـــلا يحتـــويـــه الـــوصـــفُ فـــي كِلَـــم
إنَّ هـــذا الـــدهـــرَ مـــن أزلٍ مـــن سفـــارٍ بـــاء بـــالسَّقَـــم
ومضـــى الإنســـانُ سيـــرتَـــه لـــم يُصَـــبْ بـــالضَّعـــف والهَـــرَم
وإليـــك الســـرَّ أُعلنـــه إن تَسَغْـــه غيـــرَ متَّهِـــمِ :
مـــا بـــدا روحـــاً ولا بَـــدَنـــاً ذلـــكَ الإنســـانُ للفَهَـــم

***

« مكة » و « جنيوا »

كـم حـديـثٍ عـنِ الشُّعـوب سمعنـا وحـدةُ النـاس حُجِّبـت عـن عيـانِ

---

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من ادَّعى النبوة ، ودعا إلى المسالمة والكفِّ عن الجهاد .

حكمةُ الغرب فُرقةُ النَّاس والإسـ ـلامُ فيه توحُّدُ العُمرانِ
ومقالٍ من مكةٍ لجنيوا قد وعاه اللبيبُ في كلِّ آن :
خبِّرني اليقين : هل عصبة الأقـ ـوام خيرٌ أو عصبة الإنسان ؟

* * *

يا شيخَ الحرم

ودِّع الخلوةَ يا شيخَ الحرم واسمعنْ في الفجر منِّي ذا النغَم
يحفظُ اللهُ لك الفتيان في حُكمِ نفسٍ ، واشتعالٍ في الهمم
هُمْ عن الغرب زجاجاً أخذوا علَّمَنهمْ صَدمة الصَّخْرِ الأصم
طُول ذلٍّ أظلم القلبُ به أدرِكِ الحيرانَ في هذي الظُّلَم
في جنوني منك أسرارٌ بدتْ فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللَّمم[1]

* * *

المَهدي[2]

أرى الأقوامَ تَمضي في حياة على قدر التخيّل في الحياةِ
فمجذوبُ الفرنج على خيالٍ من المهدي قاد إلى النجاةِ[3]

---

(١) يعني : أن نشوته وولهه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشياها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .

(٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جرا جبوري يأخذ على إقبال أنَّه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنَّه يتوسل بها أحياناً إلى نفخ الحياة في موتى الأحياء .

(٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ الذي تكلَّم عن الإنسان الكامل .

فإنْ تنفر مِنَ المهديِّ يَنفِر غزالُ المِسْكِ من هذي الفلاةِ[1]
إذا ما الحيُّ من جَهل تردَّى بأكفانٍ وأغرَقَ في سُباتِ
أتُسلِم ذا الجهولَ إلى الرَّدى أم تمزِّق عنه أثوابَ المماتِ ؟

***

المُؤمن

إنَّ للمؤمن العجيب الشانِ كلَّ حينٍ جديدَ شانٍ وآنِ
هو في قوله السَّديدِ وفي الفعل على الله واضحُ البرهانِ
فيه قدسيَّةٌ إلى جبروتٍ ومن القهرِ فيه والغفرانِ
إنْ تُؤلَّف هذي العناصرُ كان المسلمُ المستعلي على الحِدْثان
هو تُربٌ سما يجاورُ جبريلَ ويأبى الحلول في الأوطان
لست تدري بسرِّه فتراه قارئاً وهو صورةُ القرآن
فيه عزمٌ على القضاءِ دليلٌ وهو في العَالَمين كالميزان[2]
هو بَرد النَّدى بقلب شقيقٍ وبقلب البحار كالطُّوفان[3]
ليله والنهار لحنٌ حياةٍ في انسجامٍ كسورةِ الرَّحمٰن
إنَّ فكري مطالع لنجومٍ نجمك أعرف طلوعه في بياني[4]

***

(١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .

(٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر ، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة . وهنا يقول : إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة .

(٣) هو تارةً كالنَّدى يبرد قلب الشقائق ، وتارةً كالموج الهائج في البحر .

(٤) يقول : أيها الباحث عن مستقبله في طوالع النُّجوم هلمَّ أدلُّكَ على أسباب السعادة ، فإنَّ فكري يطلع نجوماً صادقةً تدلُّ على السَّعد والنَّحس .

المُسلم البَنْجابِي[1]

مجـدِّدٌ فـي كـل حيـن مـذهبـا يحـلُّ فـي مـرحلـة ليـركبـا
فـي حَلبـة التحقيـق نِكـسٌ وإذا قـامـره داعٍ غـويٌّ غُلِبـا
حبـالـة التـأويـل إن تُنصَـب لـه هـوى مـن العُـشِّ إليهـا مُعجبـا

* * *

الحُرية[2]

ألا مَن يطيق اليوم نُصحاً لمسلمٍ وحـريـةُ الأفكـار مـن ربِّـه أمـر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ فمـوثَـن أفـرنـج بـه الـزورُ والسِّحر
وإن شئـت فـالقـرآن تـأويـلُ لاعـبٍ فجـدِّد لنـا شـرعـاً يـلائمـه العصـر
رأيــتُ بــأرض الهنـد أيَّ عجيبـة فـإسـلامُهـا عبـد ومسلمهـا حُـرُّ

* * *

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هــذي الحضـارةُ مـا تـديَّـن قلبهـا فـأخـوّة الإفـرنـج بـالعَصَبـاتِ
فلئـن تنصَّـر بـرهمـيٌّ لـم يـزل لـلإنكليـز إليـه نظـرةُ عـات
وَلَـو انَّهـم قـد أسلمـوا لـم يـرفقـوا بـالمسلـم المنكـودِ مـن إعنـات[3]

* * *

---

(١) عُرف أهل البنجاب بكثرة النِّحل والدعوات المبتدعة .

(٢) ينعى إقبال في هذه الأبيات على من يدَّعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .

(٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لا وإلا[1]

لو لم تسِر في ظلام التُّرب نابتةٌ ... ما نشَّرت في فضاء النُّور أغصانا
تقضي الحياة بـ« لا » في البدء نافية ... وفي النهاية « إلا » تُكمل الشانا
إنْ لم تجيء بعدها « إلا » مثبِّتةً ... كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
إنْ أمةٌ روحها لم يمض معتزماً ... عن « لا » فقد آذنت بالهُلْك إيذانا

***

إلى أُمراء العرب[2]

هل يُسْعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقُه ... مخاطباً أمراء العُرْب في أدبِ
من أمّةٌ قبل كلِّ النَّاس قد أخذتْ ... بحكمةٍ فأعانتها على النُّوب :
إخاءٌ مصطفويٌّ دون تفرقةٍ ... وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤُها ... من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العَرب

***

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيىء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبن فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّةً والروس الشيوعيين خاصَّةً .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينعى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلٰهية[1]

قيدَ القضاء تَرى أم قيدَ أحكام ... ما أعجزتْ هذه أربابَ أفهامِ
في كلِّ حينٍ ترى التقديرَ في غِيَر ... رهينُها بين لذَّاتٍ وآلام[2]
إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها ... من القضاء قيودٌ ذاتُ إحكام
والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيِّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

* * *

الموت[3]

في اللحد أيضاً يبقى ... الغيابُ والحضور
إنْ يك قلبٌ حيّاً ... فالقلبُ لا صبور
هذي النجوم تمضي ... كَشَرَرٍ يطير
والذاتُ فيها راحٌ ... في أبدٍ سُرور
إنْ مسَّ جسماً موتٌ ... واحتجب الظُّهور
فللوجود قُطبٌ ... مَناله عسير

* * *

---

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة ، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث . وفي هذه الأبيات يقول : إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها ، وأمّا المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً . وهذه الفكرة تلقى قارىء شعره في مواضع كثيرة .

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام .

(٣) يرى الشاعر : أنَّ القلب الحيَّ لا يموت ، فهو حيٌّ بعد الموت ، طموح طلعة ، لا يرضى بالسكون والقرار . وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي) . والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

قُمْ بإذن الله(١)

إن تَحُـــل دنيـــا فلـــم تَفْـــنَ أرضٌ	وسمـــاءٌ ، قـــم بـــإذن اللهِ
مِنْ « أنا الحقُّ » انطوى فيك قلب	ومضـــاءٌ ، قـــم بـــإذن الله(٢)
لا تُـــرِعْ ممـــا تـــرى ؛ لفـــرنـــجٍ	سِيميـــاء ، قـــم بـــإذن الله(٣)

***

---

(١) في هذه الأبيات يبشّر إقبال بالمستقبل الوضّاء على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قم بإذن الله » مكررة بلفظها في الأصل .

(٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فيك روح تنتسب إلى الأرواح العظيمة .

(٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .






القسم الثاني

التَّعليمُ والتَّربيةُ






المقصود[1]

اسبنوزا :

يبصر العاقلُ الحياةَ وليست غيرَ نورٍ وجلوةٍ تُستحبُّ

أفلاطون :

يبصر الموتَ عاقلٌ . فحياةٌ كشرارٍ بجنحِ ليلٍ يشبُّ

ما إلى الموت والحياة التفاتٌ مقصدُ الذات رؤية الذاتِ حسبُ[2]

* * *

إنسان هذا العصر

حُرم العِشْقَ وللعقل به نكَزاتٌ كشجاعٍ يثارُ[3]

تبعَ العقلَ شروداً سادِراً ما هدى العقلَ لديه بصرُ

لم يسافرْ في دُنَى أفكاره وعلى الأفلاك دام السَّفرُ

هو من حكمته في شَرَكٍ غابَ عنه نفعُه والضررُ

من شُعاع الشَّمس في قبضته ما به ليلُ حياة يُسفرُ !

* * *

---

(١) يبين هنا الشاعر رأي اسبنوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتبت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٢) هذا رأي إقبال .

(٣) النكزة : عضة الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أمم الشَّرق

كيـف تُجلـى حقـائـقٌ لعيـونٍ   عَميـتْ بـالخضـوع والتقليـدِ
كيف يُحيي الفرنـجُ عُزباً وفُرساً   بفنـونٍ تسيـرُ نحـو اللُّحـود

* * *

التَّنبه[1]

نظـر المنجِّـم فـي حِبـاك نجومـه   لكـنْ مَقـامُ الـذات عنـه يُسْتَـر
مَـن يَـدرِ أنَّ الـذات أرفـعُ منـزلًا   عَـرف الـزَّمـان وصـرفـه لا يُقهـر[2]
وجميـلَ أنظـار يـرى وقبيحَهـا   وحـلالَ قلـب والمحـرَّم يُبصـر

* * *

مُصلحو الشَّرق[3]

يَئسـت فـلا أرجِّـي فـي أنـاسٍ   لهـم فـنٌّ كفـنِّ السَّـامـري[4]

---

(١) في هذه الأبيات ينعى إقبال أيضاً على الإنسان اهتمامه بعالم الطبيعة وإهماله نفسه ، ويقول : إنَّ تقوية الذّات وتقديرها يعين الإنسان على الحادثات ويبصره الجميل والقبيح في البصيرة ، والحلال والحرام ، حلال القلب وحرامه (استفت قلبك وإن أفتاك المفتون) .

(٢) أرفع منزلًا من الفلك .

(٣) يأخذ الشاعر على مصلحي الشرق أنهم لم يخرجوا للناس شيئاً ، وأنهم لم يستمسكوا بالسنن الصالحة القديمة ، ولا أخذوا بالسنن الحديثة .

(٤) السامري : الذي صنع لقوم موسى عجلاً من الذهب ، ودعاهم إلى عبادته ، فنُّه سحر وضلال .

سُقـاةٌ فـي رُبـوع الشـرق طـافـوا　　　علـى النُّـدمـاء بـالقَـدح الخلـيِّ
سحـابٌ مـا حـوى بـرقـاً قـديمـاً　　　وليـس لـديـه مـن بـرقٍ فتـيِّ

* * *

الحضارة الغربية

أرى تثقيـــفَ إفـــرنـــج　　　فســـادَ القلـــب والنَّظـــر
فَـــروخُ حضـــارةٍ لهـــمُ　　　خَلَـــتْ مـــنْ عفَّـــة الـــوطـــر
إذا مـــا الـــروح جـــانبهـــا　　　جمـــالُ الصَّفـــو والطُّهُـــر
فـــأيـــن جمـــالُ وجـــدانٍ　　　ولطـــفُ الـــذَّوقِ والفِكَـــر

* * *

أسرار ظاهرة[1]

ما بهم حاجةٌ إلى السيف قومٌ　　　من حَـديـد يُصـاغُ فيهـم شبـابُ
أيـن منـكَ الأفـلاكُ ؟ إنَّـك حُـرٌّ　　　وهـي قَهْـرٌ ذهـابهـا والإيـابُ
مـا اصطخـاب الأمـواج ؟ لـذة سعـيٍ　　　والـلآلـي يصـوغهـا الـوهَّـاب
ليس يَهوى الشاهينُ مِنْ طولِ خفْقٍ　　　يـا أخـا العـزمِ لا ينلْـك التُّـرابُ

* * *

---

(١) قال موسوليني لإقبال حين لقيه : منْ ملك الحديد ملك كلَّ شيء . فأجـاب إقبال : من كان هو حديداً فهو كل شيء . وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من هذه الأبيات .

وصية السلطان تِيبُو (١)

طاويَ البيداء شوقاً ! أقبلنْ — لا تعرِّج ، منزلًا لا تقبلَنْ (٢)

لا ! وإن سار بليلى محملٌ — فامض شوقاً ، محملاً لا تقبلنْ

جدولَ الماء ! تقدَّمْ مُسرعاً — واغدُ نَهْراً ، ساحلاً لا تقبلنْ

لا تحَزْ في مَصنَمِ الكونِ وسرْ — في البرايا ، ضَلَلاً لا تقبلنْ

يا مُذيبَ الحَفلِ ! لا تقبل له — حُرقة ، كنْ مِشعلاً ، لا تقبلنْ

كلُّ قلبٍ ذلَّ للعقل فقد — قال ربي أزلًا : لا تقبلنْ

وحَّدَ الحقُّ وثنَّى باطلٌ — فشَوْبَ حقٌّ باطلاً لا تقبلنْ

***

قطعة

إلى عَصبات العُرب ما أنت منتمٍ — ولستُ بهنديٍّ ولا أنا أعجمي

---

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يؤلب عليهم دولًا إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يئس من النصر ألقى بنفسه من قلعةٍ فمات سنة ١٢١٣هـ .

وهو عند إقبال ممن تتجلَّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه .

وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :

يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلى ، وإلى المضي والتقدُّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد ناراً ، وألا يذل القلب للعقل .

(٢) القافية مردوفة والروي اللام في منزلًا وساحلاً . . . إلخ .

فقد علَّمتني (الذاتُ) تحليقَ نافرٍ يمـرُّ علـى الـدارَيـن غيـرَ محـوِّمٍ
بعينـك أنـي كـافـرٌ غيـر مسلـمٍ وأنـت بعينـي كـافـر غيـر مسلـم
فـدينُـك تعـدادٌ لأنفـاس مُحجـمٍ ودينـيَ إحـراقٌ لأنفـاس مُقْـدِم[1]
تبدَّلتَ فالتبديل في الشرع حكمةٌ فليس يُطيق الظبيُ شِرعة ضيغَم[2]
فلسـت أرى فـي بيـدِك اليـومَ جِنّـةً تشـبُّ بهـذا العقـل نـارَ التَّقـدُّم[3]
إذا حـاد عـن نـار الحيـاة منغِّـمٌ فموتُ شُعوبٍ لحنُ هذا المنغِّمِ[4]

* * *

اليقظة

خِـدنُ حـقٍّ تنبَّهـت فيـه (ذات) كـالحسـام المصمِّـم البـرَّاقِ
نظـراتٌ لـديـه تُشـرقُ فيهـا ما انطوى في الذرّاتِ من إشراق
إيـهِ عبـدَ الآفـاق ! كيـف تـدانـي رجـلَ الله صـاحـبَ الآفـاق
أنـت فـي البـرِّ قـاعـدٌ عـن طِـلابٍ وهْـو فـي البحـر مَحـرم الأعمـاق

* * *

تربية الذات

ربّـبِ « الـذاتَ » بـالـرعـايـة تُبصـرْ (كفُّ تُرب) يُشيع في الكون نارا[5]

---

(١) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .

(٢) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .

(٣) يرمز إلى هيام مجنون ليلى في البيداء . والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .

(٤) إذا لم تكن الألحان ناطقةً بحرقة الحياة وكدِّها فهي مميتة للهمم .

(٥) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إنَّ سـرَّ الكليـم فـي الـدهـر بيـدٌ وشُعيـبٌ والـرعـيُ ليـلَ نهـارا[1]

* * *

حرية الفكر

بحـريـة الأفكـار هُلـك جمـاعـةٍ إذا لـم يكـن فيهـا تَـدَبُّـرُ عـالِـمِ
فحـريـةُ الأفكـارِ فـي رأسِ جـاهـلٍ طـريـقٌ لِـرَدِّ النـاس مثـلَ البهـائـم

* * *

حياة الذات

إنِ الـذَّاتُ حيَّـتْ فـالفقيـر مملَّـكٌ ترى طُغرَلًا أو سنجَراً لا يشاكلُ[2]
إنِ الذَّاتُ حيَّت فالبحارُ ضحاضحٌ إنِ الذَّاتُ حيَّت فالحزونُ مخاملُ
ترى في الحياة الوحشَ قاهر لجِّه وفي موته موجُ السَّراب سلاسلُ

* * *

حكومة[3]

يَـرضـى المـريـدونَ قـولَ حـقٍّ ليســوا عـن الحــقِّ بـالعُتـاةِ
والشيــخُ قــولَ الفقيــر يَقلــي وليـس للحــقِّ بــالمُــواتــي
قــد قَعَــدَتْ أمَّــةٌ وبــاءتْ فــي حَلبــة السَّعــي بــالخَــزاةِ
إنْ شغلــت عقلَهــا ببحــثٍ فلسفــةُ الــذَّات والصِّفــاتِ

---

(١) يعني فسحة البيداء وتربية روح عظيمة كشعيب ، والجد الدائب .

(٢) طغرل وسنجر من ملوك السَّلاجقة .

(٣) بمعنى حكم .

دستـــورُ ذا الـــديـــرِ ليـــس فيـــه　　للخمـــر والشّـــرب مـــنْ ثَبـــاتِ[1]
لكنمـــــا راحُـــــهُ نصيـــــب　　لأمـــــة حُـــــرَّةِ السِّمـــــاتِ
الشَّهـــدُ عنـــد الشبـــاب فيهـــا　　المـــرُّ مـــن مـــورد الحيـــاة

* * *

المدرسة الهندية

إقبالُ أقصر ، هنا لا تُعرف الذاتُ　　فمـا لمـدرسـةٍ هـذي المقـالاتُ
الخيـر ألّا تُـرَى فـي عيـن قُبَّـرةٍ　　مـن البُـزاة مقـامـاتٌ وحـالاتُ
فلحظـة الحـرِّ عـام للـذليـلِ فكـم　　تبطـيء السَّيـرَ بـالعُبـدان أوقـاتُ
ولحظـة الحـرِّ مـن خُلـدٍ رسـالتُـه　　ولحظـةُ العبـد مـن مَـوتٍ فُجـاءاتُ
وفكـرةُ الحـرِّ مـن حـقٍّ منـوّرةٌ　　وفكـرةُ العبـدِ تغشـاهـا الخـرافـاتُ
كـــرامـــةٌ حيَّـــةٌ مـــاثلـــةٌ　　والعبـدُ مـنْ غيـره تـأتـي الكـرامـاتُ
حســب المُقيَّـدِ تعليمـاً وتـربيـةً　　تصـويـرُه ولحـونٌ والنبـاتـاتُ[2]

* * *

التربية

فـــرقُ علـــمٍ وحيـــاةٍ　　ليـــس فيـــه مِـــنْ خفـــاء
هـــو فـــي الـــرأس ذكـــاءٌ　　وهـــي فـــي القلـــب ذَكـــاء[3]
قـــدرةٌ فـــي العلـــم تبـــدو　　ومتـــــــاعٌ وثـــــــراء

---

(١) يكني عن الدُّنيا بالدَّير القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .
(٢) يعني : حسب الذليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .
(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعضــــلٌ أنْ ليــــس فيـــه ... فـــي خُطــا السَّيــر اهتــداءْ
وأولـــو الأبصـــار نــــزرٌ ... وأولـــو العلـــم زُهـــاءْ
ليــس بِــدعــاً أنَّ كــأســاً ... لــــك مـــنْ راحِ خَـــلاءْ
مــا طـريــقُ الشَّيــخ فــي المكتــب ... للقلـــــبِ ضيــــاءْ[1]
كيــف بــالكبــريــت إشعــا ... لُ ســــراجِ الكهـــربـــاءْ ؟

* * *

الحسن والقبيح[2]

إنَّ للفكــر طُلــوعــاً وغــروبــاً ... كنجـومٍ سـابحـاتٍ فـي العـوالـي
عــالـمُ الـذات بـه عُلْـوٌ وسُفـلٌ ... واعتــراكُ القبــحِ فيــه والجمــالِ
فـي اعتـلاء الـذات مـا يبـدو جميـلٌ ... وقبيــح مــا بــدا فــي الاسْتفــالِ

* * *

موت الذات

منْ ممات الذَّات في الغرب ظلامٌ ... وبموتِ الذَّات في الشرق جذامْ
مِنْ ممات الذَّات في العُرب خمودٌ ... ولـــدى العُجـــم عـــروقٌ وعظـــامْ
مِـنْ ممـات الـذَّات فـي الهنـد جَنـاحٌ ... هِيضَ في الأقفاص والعشُّ حرامْ
مِــنْ ممــات الــذات يُعـري مسلمـاً ... مِـنْ ثيـابِ سـادنُ البيـتِ الحـرام[3]

---

(١) المكتب ـ المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بعينها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول : ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفساف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرُ أولي المدارسِ في ازدحامٍ بــأفكــارٍ كمــا امتــلأ القفيــزُ
وهــذا العصــرُ مــاضٍ فــي هــواه جميــلاً مــن قبيــحٍ لا يَميــزُ
ففــي جَنَبــات قلبــك أخــلِ بيتــاً عســى يثـوي بـه ضيـفٌ عـزيـزُ[1]

* * *

العصرُ الحاضر

فأينَ يُصيب المرءُ ناضجَ فكرةٍ وأجواءُ هذا العصر لا تُنضِجُ الثَّمر
مــدارسُ فيهــا كــلُّ عقــل محــرَّرٌ ولكـنْ بهـا الأفكـارُ عِقْـدٌ قـد انتثـر
أطاحت بعشق الغرب أفكارُ ملحدٍ وعبَّدَ عقلَ الشَّرق فَوضى من الفِكَر

* * *

طالب العلم[2]

الله يحبــــوك عِلمــــاً بمــــائجــــاتِ العُبــــابِ
فــــإنَّ بحــــرَكَ رَهْــــوٌ مــــا يُبْتَلــــى بــــاضطــــرابِ
لــــن تستطيــــع فــــراغــــاً فــــي السِّفْــــر مــــن أبــــواب

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعيشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فـــأنـــت قـــاري كتـــابِ ولســـتَ أهـــلَ كتـــاب

* * *

امتحان[1]

قـال نهـرُ الطَّـوْد يـومـاً للحجـر : بسقـــوطٍ وانتكـــاسٍ تفتخـــر !
أنـــت لـــلأقـــدام والغـــمّ لَقًـــى وأنـــا يشتـــاقنـــي بَحـــرٌ وبَـــرّ
لـــم تُـــدَهْـــدَهْ مـــن جِـــدارٍ مـــرَّةً كيـــف تُـــدرى أزجـــاجٌ أم حجـــر ؟

* * *

المدرسة[2]

مَلَـكُ المـوتِ عصـرُنـا يتـوفَّـى كـلَّ نفـس بفكـرةٍ فـي المعـاش
يَـرجُـف القلـبُ مِـنْ كفـاحِ حيـاةٍ وهـي مَـوتٌ لمُشفـقٍ مـن هِـراش
أبعـدَ الـدرسُ عـن حِجـاك جُنـونـاً صـاحَ بـالعقـل : لا تَلُـذ بنِقـاش[3]
عيـــنُ صقـــر مُنِحتَهـــا وعليهـــا وضـــع الـــرقُّ نظـــرةَ الخفَّـــاش
حجبـــتْ دونـــك المـــدارس ســـرّاً هـــو فـي البيـدِ والـرَّواسـخِ فـاشِ

* * *

(١) في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنَّ الكدَّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنَّ الحياة لا تكمل دون عناء ـ يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنَّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيلٌ إلى المعايش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليقة . وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها ! .

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

الحكيم نيتشه[1]

أي قـــدرٍ لــذا الحكيـــم ولكـــن لـم يكـن أهـلَ نكتـةِ التَّـوحيـدِ
ليـــس إلا لـــذي البصيـــرة يبـــدو ســـرُّ معنـــىً بـ (لا إلٰـــه) بعيـــدِ
أرســلَ الفكــرَ أسهمــاً فــي سمــاءِ وحـوى الشمـسَ بـالخيـال المـديـدِ
طـاهـرُ الطِّيـن فـي الترهُّـب لكـن لـذةُ الإثـم نُصـبُ طَـرْفٍ حـديـدِ

* * *

الأساتذة

إنْ كان تربيةُ الياقوتِ مقصِدَنا فما شعاعٌ رمَته الشمسُ حيرانُ[2]
وما المدارس أو ما الدارسون بها وللــروايــات عــمَّ الأرضَ إذعــانُ
كـانـت جـديـراً بقَـود العصـر أدمغـةٌ يقـودهـا العصـر مـا فيهـنَّ نُكـرانُ

* * *

قطعة

يبلـــغُ المنـــزلَ ســـارٍ لا ينـــامْ مُســرجٌ عيــنَ هِــزبْــرٍ فــي الظــلامْ
إنَّمـــا للعبـــدِ تُمنَـــى راحـــةٌ ليــس للحــرِّ علــى الأرض حمــامْ

---

(١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنَّه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً، وأنه كان صرورة عفاً، ولكن كان يتشوَّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها ».

(٢) يقول الطبيعيون القدماء : إنَّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قـد أزاغَ العيـنَ فـي الغـرب سَنـاً   لك من صاحبِ ﴿ ما زاغ ﴾ إمامْ[1]
ذاكـمُ الحفـلُ الـذي أكـؤسـه   كنجـومٍ ، لمحـةٌ فيـه المُقـامْ
أعمَـتِ الأسفـارُ حِسّـاً فـالصَّبـا   لـم تعطِّـر لـك من روضٍ مشامْ[2]

***

الدِّين والتعليم

قـد عـرفنـا قـدرَ أشيـاخ الحَـرَم   كـلُّ دعـوى دون إخـلاصٍ سَقَـم
ولتعليـــم النَّصـــارى نغـــمٌ   ليـس مـن ديـنٍ وخُلْـقٍ ذا النَّغَـم
تكتـبُ الـذُّلَّ علـى أقـدارهـا   أمَّـةٌ بـالـذات فيهـا لا تُهَـمّ
ربمـــا تَغفِـــرُ للفـــرد ولا   تغفِـرُ الفطـرةُ آثـام الأمـم

***

إلى جَاوِيد[3]

- ١ -

حَـربٌ علـى الأديـان ذا الـزمـانُ   مـركَّـبٌ فـي طبعـه الكفـرانُ

---

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنَّ العكوف على الكتب أمَاتَ الحس . فالصَّبا تمرُّ على الروض ، وتأتي الأيك فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاويد ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاويد نامه » الديوان الخالد .
والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامي الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاويد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُــدَّة أهــل الله ـ فــاطلُبنْهــا ـ أرفــعُ ممــا شيَّــد السُّلطــانُ
لكنــه « الحــقِّ » عصــرُ سحــرٍ السِّحــرُ فــي أمــوره ميــزانُ
عيــنُ الحيــاة مــاؤهــا نَضُــوبٌ فــأيــنَ راحُ الليــل والــرَّيحــانُ
مَــنْ كــان فــي نظــرتهــم سِهــامٌ منهــم خــلا الكُتَّــاب والــديــوان
لكنمــا الــدَّار التــي ســراجٌ أنــت لهــا مَــذاقُهــا عِــرفــانُ(١)
إنْ تــك (لا إلٰــه) فــي ضميــر فــالغــرب مــن تعليمــه أمــانُ
عُشُــك فــوق (الــذات) أحكِمَنْــه ثــم اطــرَبَــنْ مــا شــاءت الأغصــانُ
الآدمــيُّ يــا بنــيَّ بحــرٌ فــي كــلِّ قطــرةٍ بــه طــوفــانُ
مِــن حَبَّــة تــرى ألــوفَ حَــبٌّ إمّــا جفــا راحَتــه الــدِّهقــانُ
لا تغفلَــنْ فــلاتَ حيــن لِغَــبٍ العلــمَ حصِّــلْ واسْتَهِــنْ بــالصَّعْــبِ

ـ ٢ ـ

إنْ لــم يكــنْ فــي الصَّــدر حرٌّ قلــب لــم تنضــجِ الحيــاة فــي هُمــام
إن ينشَــطِ الغــزالُ فــي ذَكــاء لــم يظفــرِ الصَّيــادُ بــالمَــرام(٢)
مــاءُ الحيــاة هــاهنــا قــريــبٌ طــريقُــه حــرارةُ الإقــدام(٣)
فــي غيــرةٍ أرى طــريــقَ حــقٍّ الفقــرُ بــالغيــرة فــي تَمــام

---

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يصاد الصيد حين يغفل ، أو يبطيء . فإن كان يقظاً وثَّاباً لا يظفر به الصياد . فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

متى تحملِ القلب الذَّكيَّ وصارماً وأنفــاً حميــاً تجتنبْــكَ المظــالــمُ

(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجدُّ والكدُّ ، وشدَّة العطش . كما قال في رسالة المشرق :

غصــــنُ الحيـــــاةِ نـــــدي مـــن ظمئنـــا فـــي الطِّـــلاب

يـــا قـــرةَ الأعيُـــنِ مستحيـــلٌ　لبـــاشـــقٍ ضَـــراعـــةُ الحَمـــام[1]

ليـس المقـالُ فـي الأنـام نـزراً　كـم أنـوريٍّ عنـدهـم وجـامـي[2]

وإنمـا بيـن الـورى متـاعـي　نُـواحُ خـالٍ فـي دُجـى الظَّـلام

وصـدقُ أقـوال بهـا تـرانـي　فـي نظـر الـدُّنيـا مـن الكـرام

مـوهبـةُ الخـلاَّق لا تُـراثٌ　نبـاهـة الـذِّكـر علـى الأيَّـام

لنـور عينيـه يقـولُ نصحـاً　مـا أجمـل المقـالَ مـن نظـامـي[3]

أبـوَّتـي ليسـت بـذات بـالِ　فـي حَلبـة السَّبـقِ إلـى المعـالـي

- ٣ -

عـبءٌ علـى المـؤمـنِ ذي الليـالـي　الـدِّيـنُ والـدولـةُ فعـلُ هـازي

ولا أرى نشـوان فـي كِفـاحِ　فليـس إلا كَلِـمٌ نَـوازي

فـإن تكـن ذا همَّـة فـأقـدم　وابتـغ فقـراً أصلـه حجـازي[4]

الآدمـيُّ منـه فـي صِفـاتِ　كـالله مستغـنٍ بـلا إعـواز

هـذا المَقـامُ للبُغـاث حَتـف　فـإنمـا هـذا مقـام البـازي

تُضـيء عيـنُ العقـل مـن سَنـاهُ　مـا بـابـن سينـا كُحِلـت والـرازي

سطـوةَ (محمـودٍ) تُصيـب فيـه　إنْ لـم يكـن طبعُـك مـن إيـاز[5]

فـذاك فـي دنيـاك إسـرافيـلٌ　مـن نَفَخـات النَّـاي فـي اشمئـزاز[6]

---

(١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .

(٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .

(٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .

(٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .

(٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلامه إياز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية الشرقية . وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .

(٦) فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظـــرتُـــه المثيـــرةُ الليـــالـــي   ســاريــةٌ بــالكــون فــي ارتجــاز
وصـــاحـــب الفقـــر الغيـــورِ هـــذا   بــلا ســلاحٍ فــي الــزمــان غــازِ
إمـــارة المـــؤمـــن فيـــه ســـرٌّ   عطيّـــةُ الـــوهّـــاب هـــذا الفقـــر

* * *






القسم الثالث

المَـرأة






الرَّجل الإفرنِجي

كـــم حكيـــمٍ قـــد تمنَّـــى حلَّـــه ... مشكـلُ المـرأة فـي هـذي الحيـاةِ
لا تلُمْهـــا فـــي فســـادٍ شـــائـــعٍ ... شهـدتْ بـالطُّهـر كـلُّ النيِّـراتِ
عِشـــرة الإفـــرنـــج نهـــجٌ مُفســـدٌ ... جهِـل الحمقَـى طبـاعَ المحصَنـاتِ

***

سؤال

إلـى عـالـم الغـرب مـن أسلسـت ... له الرومُ والهندُ يُزجى سؤالْ :
كمـــال معـــاشـــرةٍ عنـــدكـــم ... حيـالُ النِّسـاءِ وعُطْـلُ الـرِّجـال ؟[١]

***

حِجاب

أرى فلكـــاً كـــلَّ حيـــن للـــونٍ ... ولـم تَنـضُ دنيـاك هـذا الإهـابْ
ولا فـرق مـا بيـن عِـرسٍ وعِـرسٍ ... فـذي فـي نقـابٍ وذا فـي نقـابْ[٢]
ولـــم يـــزلِ النَّـــاس رهـــنَ حجـــابٍ ... ومـن بَـرزتْ ذاتـهُ مِـنْ حجـابْ ؟

***

---

(١) الحيال : الخلو من الحمل .

(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أنَّ الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَضَحَ العصرَ جِنّةٌ بالسُّفُورِ نُورُ عَيْنٍ وظُلمةٌ في الصُّدورِ
إن تجُز متعةُ العيون مَداها كان فيها الشتاتُ في التفكيرِ
قطرةُ الماء لا تُحوَّل دُرّاً دون أصدافها بقاعِ البحورِ
تُمسكُ الذَّاتُ نفسَها حين تَخلو لا خلاءٌ بمسجدٍ أو ديورِ

* * *

المرأة

إنَّما المرأةُ لونٌ في رسوم الكائناتِ
لحنُها ينفث نارَ الوَجد في صدر الحياةِ
ذلك الطينُ تعالى فوق أوج النَّيِّراتِ
إنها دَرجٌ لديها كلُّ دُرٍّ من صفاتِ
ما لأفلاطون تَروي من قضايا معضلاتِ
وهو منها كشرارٍ من ذكيِّ الجَمراتِ[1]

* * *

حرِّيةُ النِّساء

قضيةُ عصرٍ لستُ فيها بفَيْصلٍ وإنْ كنتُ بين الشَّهد والسُّمِّ أفرِقُ
وما نفعُ أقوالٍ تزيدُ مَلامتي وقبلاً بنو التمدين عنِّي تفرقوا
يبيِّنُ هذا السِّرَّ وجدانُ مرأةٍ ويَعْجِزُ عنه في الرِّجال المحقِّقُ

---

(١) يعني : أن المرأة لا تتفلسف ، ولن تلد الفلاسفة .

أحـرِّيـة النِّسـوانِ أجمـلُ زينـةً   أم الجيـدُ بـالـدرِّ الثميـنِ يطـوَّقُ[1]

* * *

حصانة المرأة

فـي الصَّـدر حـقٌّ ليـس يُـدركـه   مـن حـاز بـردَ دِمـائـه عَصَـبُ
حفـظُ الأنـوثـة فـي يـديْ رجـلٍ   لا العلـم يحفظهـا ولا الحُجُـبُ
إنْ غـاب هـذا الحـقُّ عـن أمـمٍ   فكسـوفُ شمـسٍ فيهـمُ كَثَـبُ

* * *

المرأة والتعليم

مَوْتَ الأمومة إن رامت حضارتُهم   فالموتُ عاقبة الإنسان في الغربِ
إنْ يجعـلِ المـرأةَ التعليـمُ لا امـرأةً   فالعلمُ مَوتٌ يراه صاحبُ القلبِ
إنْ تحـرمـنَّ الفتـاةَ الـديـنَ مـدرسـةٌ   فالعلمُ والفنُّ موتُ العِشق والحبِّ[2]

* * *

المرأة

بغيـره يتجلَّـى جـوهـرُ امـرأةٍ   ووحـدَه يتجلَّـى جـوهـرُ الـرَّجـلِ
حـرارةُ الشَّـوق سـرٌّ فـي بـلابلها   كيـانُهـا لـذَّةُ التخليـق كـالشُّعَـلِ

---

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحبُّ إليها . أو غل عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .

(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

مـن هـذه النـار أسـرارُ الحيـاة بَـدَت والخلقُ والموتُ منها في وغىً زَجِلِ
كـذلكـم فـي فـؤادي للنســاء أسـىً لكنَّهـا عقـدةٌ أعيـتْ علـى الحيـل[1]

* * *

(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحدٍ في هذا .




القسم الرابع

الأدب والفنون






الدِّينُ والفنُّ

الدِّينُ والفنُّ والتدبير والخُطَب ... والشِّعر والنَّثر والتحريرُ والكتبُ
كُلٌّ يُحيط بمكنونٍ يَضنُّ به ؛ ... في صدره يتوارى جوهرٌ عَجَبُ
ومن ضميرِ سليلِ الطِّين مطلعُها ... لكنْ لها من وراء الزُّهْر مضطرَبُ[1]
إنْ تحفظِ « الذاتَ » هذي فالحياةُ بها ... أوْ لم تطقْ ذاك فهيَ السِّحر والكَذِبُ[2]
كم أمةٍ تحت هذي الشمسِ قد خَزِيتْ ... إذْ جانب الذاتَ فيها الدِّينُ والأدبُ

* * *

التخليق

جِدَّةُ الدُّنيا بتجديد الفِكَر ... ليست الدُّنيا بصخرٍ ومَدَرْ
همَّةُ الغائص في « الذَّات » لها ... من غديرِ الماء بحرٌ قد زَخَر
قاهرُ الأيام من أنفاسه ... هي أعمارُ خلودٍ في الدَّهَر
ريحُ أصحابٍ من البيد أتت ... لا عجيبٌ إنْ بدا خِدْن سفَر[3]

* * *

---

(١) سليل الطين : الإنسان .

(٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات . . . إلخ .

(٣) يعجب إقبال بالبادية : لأنَّ الذات فيها أقوى ، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين أخرجوا للعالم الحياة والقوة . وهو يجد من البادية ريحاً تبشر بصاحب مسعدٍ له ، يدعو دعوته ، ويحقق أمله .

جُنون

واهـنُ البيـت شـاعـرٌ وفقيـهُ   وطـوى البيـدَ ـ ويحـه ـ المجنـونُ
فـي طمـاحِ الجنـون أيُّ كمـالٍ   حيـن تعـدو البيـداء منـه فنـونُ[1]
فلـه فـي الـدروس أيضـاً مجـالٌ   ليـس وقفـاً علـى الفيـافي الجنـون

* * *

إلى شعره

لـيَ مـن فعلـك شكـوى :   همـتَ فـي حُـبِّ الطلـوعْ
شِغـتَ عـن قلبـيَ فـالأسـ   ـرارُ عـن قلبـي تَشيـعْ
لا تكـنْ مثـلَ شَـرارٍ   نـدَّ عـن نـارٍ يضيـعْ
والتمـس خلـوةَ صـدرٍ   فيـه مـن نـارٍ ضلـوعْ

* * *

مسجدُ « باريس »

يـا نظـري لا يخـدعنَّـك فنُّـه   للـزُّور هـذا الحـرَمُ المغـرِّبُ
وليـس هـذا حـرَمـاً لكنَّـه   عنـد الفـرنـج للغـرام ملعـبُ
قـد أخفـت الإفـرنـج رُوحَ مَـوثـنٍ   فـي صـورةٍ مـن حـرَم تُكـذِّبُ[2]
إنَّ الـذي شيّـد هـذا مـوثَنـاً   دمشـقُ مـن عُـدوانـه تخـرَّبُ

* * *

---

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضر فنونه ، وفيه إشارةٌ إلى مجنون ليلى .
(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب[1]

رأيتُ العشق يقفو اليوم نهجاً ... من العقل الإلٰهيِّ القويم
وليس يُريق ماءَ الوجه ذلًّا ... على عَتبات محبوبٍ غريم
محا التقليدَ في روح قديمٍ ... وأحيا الروح في جسدٍ قديم

* * *

البصيرة

الربيعُ النضيرُ مِلءُ الفضاء ... وجيوشُ الشَّقيقِ في الصحراء
وشبابٌ ومتعةٌ وسُرورٌ ... ودلالٌ ونشوةٌ بالفَتاء[2]
وعيونُ النُّجوم في حَلَك الليل ... وسَبْح الأفلاك في الدأماء[3]
وعَروسُ الهلال في هَودج الليل ... تَهادى بموكبٍ للقاء
وتبدِّي ذُكاءَ في رَونق الصُّبح ... وصمتُ الأفلاك في ذا الرُّواء
سرِّح العينَ ، لا تكلَّفُ أجراً ... لا يباعُ الجمالُ في ذا الفضاء

* * *

مسجدُ قُوة الإسلام[4]

تملأ صدري همومُ مفؤودِ ... لم يبق إلا ادِّكارُ مفقودِ[5]

---

(١) بهذا يُجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث ، فهو مزاج من القلب والعقل . وهو يجدد الروح في صور قديمة ، أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة . (كُتبت هذه الأبيات في بهوفال . ـ رياض المنزل ـ دار السيد راس مسعود) .

(٢) الفتاء : الشباب .

(٣) الدأماء : البحر .

(٤) مسجد عظيمٌ شامخٌ في دهلي ، هدمت بعض جدره .

(٥) المفؤود : حزين الفؤاد .

قـد خمـدت « لا إلٰـه » لا حُـرَقٌ ولا تجـلٌ ثَـواءَ ملحـودِ
فـي الخلـق كـلُّ العيـون تنكـرنـي أعيـا إيـازاً مقـامُ محمـودِ[1]
مِنْ صَخرِكَ المسلمونَ في خجَلٍ لجوهـرٍ كـالـزُّجـاج معـدودِ[2]
فـإنَّمـا كُـفءَ مـا تمثّلـهُ صـلاة حُـرٍّ ربيـبِ تـوحيـدِ
جـلالُ تكبيـره لـذي أذُنٍ فيـه وغـى هـالـكٍ ومـوجـودِ
ومـا صـلاتـي بقلـب ذي حُـرَقٍ ولا دُعـائـي دعـاءُ معمـودِ
ولا أذانـي جـلالُ مقتـدرٍ فكيـف تـرضـى سجـودَ رِعـديـدِ

* * *

مسرح

تضـيء حـريـمَ وجـودكَ ذاتُـك كِفـاحٌ بهـا وسـرورٌ حيـاتُـك
لهـا فـوقَ أوجِ الثُّـريـا مَقـام جُليـتَ بهـا وتجلَّـتْ صِفـاتُـك
أمِـن « ذات » غيـرك تَعمُـر قلبـاً معـاذ الإلٰـه ! تُـرَى أيـن ذاتُـك ؟
فـلا تبعثـنْ وُثنَهـا بعـد مـوتٍ فتحيـا منـاتُـك فيهـا ولاتُـك[3]
كمـال المحـاكـاة أنـت تَفنـى فيكفيـك هـمَّ الحيـاة ممـاتُـك[4]

* * *

---

(١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .

(٢) لجوهرهم الضعيف كالزُّجاج .

(٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .

(٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل(١)

- ١ -

تنـادي أشعتَهـا فـي ضجَـر ... ذُكـاءُ وتجمـعُ منهـا النشَـرْ(٢)
عجبـتُ لـدنيـا نهـارٌ وليـلٌ ... عجبـتُ عجبـتُ لـدنيـا الغِيَـر
إلامَ الهُيـامُ بهـذا الفضـاء ... وجـورُ الـزَّمـان بكـنَّ استمـرّ
فـلا دِعَـةٌ فـي اتقـادٍ بـرمـلٍ ... تَـلألأُ ذرَّاتُـه كـالشَّـرر
ولا دِعَـةٌ فـي دوام طـوافٍ ... طـوافَ الصَّبا في ريـاض الـزَّهَـر
تجمَّعْـنَ فـي صـدريَ المستنيـر ... ودعْـنَ البـداةَ ودَعْـنَ الحضَـر

- ٢ -

تـداعـى الأشعـةُ مـن كـلِّ صَـوبٍ ... إلـى الشمـس تبغـي لـديهـا قـرارا
وصـاحـت : تعـذَّر في الغرب نـورٌ ... دُخـانُ المصـانـع يكسـوهُ قـارا
وفـي الشَّـرق قلـبٌ بصيـرٌ ولكـن ... كعـالَـم غيـبٍ بصمـتٍ تـوارى
أنـوارَ العـوالـم ! لا تهجُـرينـا ... إلـى نـور صـدركِ آوى الحَيـارى(٣)

- ٣ -

شُعـاعٌ جـريءٌ لـه نظـرةٌ ... كنظـرةِ حـوراءَ تغـزو الضميـرْ
ولا يستقـرُّ علـى حـالـةٍ ... تـرى زئبقـاً فـي ضيـاءٍ يمـوزْ
يقـول : أُضـيءُ علـى الشرق حتـى ... أرى ذرَّةً كشمـوسٍ تنيـرْ

---

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس يئست من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بيأسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تيأسي ، فكل ليلٍ إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشر : المنتشر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلو عن الهند هذا الظلام فأوقظ نوَّامها للنُّشوز
ففيها من الشَّرق آماله «وإقبالها» بالدُّموع مَطير
تضيء بها أعين النيِّرين حصاها يَلوح كدرٌّ منير
وكم عاش في أرضها غائصٌ يرى كالضَّحاضِحِ لجَّ البحور
فأعوزَ أعوادَها عازفٌ وكانت تَهيجُ الجَوى في الصدورْ
ينام البَرَهْمَنُ في سُدَّةٍ لدى مَوْثَنٍ والزَّمانُ يسيرْ
ومسلمها خِدْنُ محرابه ينوحُ ومن قَدَرٍ يستجيرْ
فلا يحزُنَنكِ من الشرق نومٌ وفي الغرب لا ترهبنَّ الشُّرور[1]
قضت فطرةُ الله أن تُبْدِلي بليلِ الظلام صباحَ السُّفور

* * *

أمل[2]

لستُ من أجنادِ حربِ لا ولا ربُّ لواءْ
بيد أني في صروف الدَّهـ ـر ثَبْتٌ في اللقاءْ
عُدَّتي ذكرٌ وفكرٌ وهُيامٌ وغناءْ
لستُ أدري أهو شعرٌ أم سواه ذا العطاءْ[3]
إنَّ عبد الحق يُزهَى في محيَّاه ضياءْ
من جلالٍ ظلَّ فكرُ الكون منه في امتلاء
ليس دون الكفر إنْ لم يكُ كفراً ذا البلاء
أنْ يُرى بالحاضرِ المشـ ـهود للحرِّ سِباءْ[4]

---

(١) الخطاب للشمس .

(٢) كتب في بهوبال ـ رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٣) هو يدري أنَّه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر.

(٤) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحرَّ ما يراه ويشهده ، فيقيد به فكره وعمله . فالحرُّ =

لا تـذب غمّاً فكم في الدهـ ـــر أدوارٌ وِضـــاءْ
كـم نجـوم حـادثــاتٍ ســوف تجلـوهــا السَّمــاءْ

* * *

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرَها شـوقُ الظُّهـور يَثـورُ فـي ذرّاتهـا
إنْ صاحـبَ النظَـراتِ شـوقُ بصيرةٍ تتبـدّلِ الأيـامُ فـي جَلَـواتهـا[1]
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا أنبـاء مـن خضعـوا لهـا ساداتهـا
مِـنْ ذي البصيـرة لـي جنـون ثـائـرٍ عَـرفـتْ بـه الـذّراتُ طيَّ فلاتهـا[2]
هـذي البصيـرةُ لا تيسَّـر لامـرىءٍ تَخْـزَى القلـوبُ بنفسـه وسِمـاتهـا

* * *

إلى أهل الفنّ[3]

رأيـت الكـواكـبَ لَمْحـاتِ نـورٍ وذاتُـك بـالعِشْـق رَهـنُ خلـودْ

= لا يقيده ما يسمى « الأمر الواقع » .

(١) يعني أنَّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدُّنيا على غير صورتها الظاهرة .

(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنَّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرن الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .

(٣) مذهب الشاعر أنَّ الفنَّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات » صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة . وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاد غير خاضعة لهذا العالم . والرُّوح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدرة نفسها تسيطر على كل شيء .

تعـالـى ضميـرك عـن كـلِّ لـونٍ فعفـتَ مـن اللَّـونِ كـلَّ القُيـوذْ
وغيبـــةُ ذاتـــك ذكـــرٌ وفكـــرٌ ومحضـرُهـا شعـرُهـا والنَّشيـذْ
إذا أضنَـــتِ الـــروحَ آلامُ رقٍّ ففنُّـــك عبـــدٌ رهيـــنُ سجـــوذْ
وإنْ عـرفـتَ قـدرَهـا كنـتَ حقـاً علـى الجـنِّ والإنـس ربَّ الجنـوذْ

***

قطعة

ثـائِـرَ المـوج كـم لـدى البحـر درٌّ وعلى السَّاحل الصَّموت غُثاءُ[1]
فـي شَـراري سنـا البـروقِ ولكـنْ رَطبـةُ العُـود هـذه القَصبـاءُ[2]
ولـكَ الـوقـتُ والتصـرُّف فيـه ليـس يـا غِـرُّ ! للنُّجـوم غَنـاءُ
قـد رأينـا عجيبـةً مـن جنـونٍ فيـه رَفْـو لمـا يشـقُّ القضـاء[3]
إنَّمـا الكـامـل الخـلاعـةِ شهـمٌ دون مَـنٌ الكـروم فيـه إنْشـاء[4]
وإلـى اليـوم حـانـةُ الشَّـرق فيهـا خمـرةٌ للشُّعـور منهـا جَـلاء[5]
يئـس المبصـرون مـن أمـم الغـ ـرب ففيهـا بَـواطـنٌ سَـوداء

***

---

(١) الدرُّ في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغثاء ، فالحياة جدٌّ وكدٌّ ، لا سكون .

(٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرَّطب لا تشتعل .

(٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاءً ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذللاً الطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاء وقدراً في هذا الكون .

(٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .

(٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء .

الوجود

أنتَ تحت الشَّمس تَمضي كشرارٍ لستَ تدري ما مَقاماتُ الوجودْ
ليس في فنِّك للذات بناءٌ ويلُ تصوير وشدوٍ وقصيدْ
ليس في المكتب والحانة إلا درسُ إفناء به اللذات تبيدْ
ليت شعري هل تعلمتَ وجوداً لحياةٍ ودوامٍ وخلودْ

***

الغناء

صاح من أين لناي نشوةٌ ؟ صَوتُ عودٍ ذاك أم من قلب حيّ ؟
صاح ما القلبُ ؟ ومن أين له قوةٌ سَكرى تحدَّث كلَّ شيّ
ولماذا نظرة منه سرت مثلَ ريحٍ صرصرٍ في تَخت كَي[1]
ولماذا ذلك السرُّ له : من حياةٍ فيه يحيا كلُّ حيّ[2]
ولماذا كلَّ حينٍ مبدلٌ وارداتٍ زُمَراً تهفو إليّ
ولماذا صاحبُ القلب ازدرى ملكَ روم ومُنَى شامٍ و ريّ
إنْ وعى للقلب رمزاً مطربٌ طُوِيَ الفنُّ له أسرعَ طيّ[3]

***

---

(١) كي : كيكاوس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .

(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أنَّ بحياته تحيا الأمم .

(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نغماته خفقات القلوب ، طوى مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والنَّدى

النسيم :

لــم أرقَ فــي فلـك النُّجـوم وإنَّنـي ... فــي شــقِّ أثــواب الأزاهــر أعمــلُ
وأسيـرُ عــن وطنــي غــريبـاً مجبَـراً ... فــي مسمعـي شـدوُ البـلابـل يثقـلُ
قل لي ، فقد أعطيتَ سرَّ كليهما ، ... المرجُ أم فلكُ الكواكبِ أجملُ[1]

النَّدى :

لو لم تكن في المرج رهنَ هشيمه ... لـرأيتـه سـرَّ الكـواكـب يحمـلُ[2]

* * *

أهرام مِصر[3]

شــادت الفِطــرة كُثبــانــاً لهــا ... فــي سُكـونٍ مــن يَبـاب قـد وقَـد
روَّع الأفـــلاكَ فيـــه هـــرمٌ ... أيُّ كــفٍّ صــوَّرت هــذا الأبــد !
مِــنْ إســارِ الكــون حــرِّرْ صنعــةً ... صــائـدٌ ذو الفـن أم صيـداً يعـدّ[4]

* * *

---

(١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تتعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرَّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .

(٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبياتٍ أخرى من أنَّ صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .

(٤) لم يحاك باني الهرم كثبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليقة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليقة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

قـد رأى ذو بصـرٍ سـرَّ الـذَّات   وجـلا الفـنُّ لعيـنِ جَنَّـاتِ[1]
مـا بـه الـذَّات ولا الكـون يُـرى   فهـو مـن جهـدٍ حيـاة فـي نجـاةِ[2]
تعـسَ الكـافـرُ مَـن أصنـامـه   مـن حُطـام لمنـاةِ والـلاتِ[3]
هـالـكٌ صلَّـى عليـه فنُّـه   فـي ظـلام اللَّحد يرنـو للحيـاةِ[4]

***

إقبال

قال للروميِّ[5] في الخلدِ سنائي :   لا يـزالُ الشـرق بـالتقليـد يُـؤسَـر
قـالَ منصـور : ولكـنْ قـد سمعنـا   أن سـرَّ الـذات أفشـاه قلنـدرُ

***

الفنونُ الجميلة

نظَـراتُ الآفـاق مُتعـةُ عيـنٍ   سرِّحوا العينَ يا أولي الأبصارِ

---

(١) ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .
(٢) ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .
(٣) المقلد في الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنامٍ محطمةٍ كانت في الأعصر الخالية .
(٤) في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .
(٥) جلالُ الدين الرومي أكبرُ شعراء الصُّوفية ، ومجدُ الدين السَّنائي طليعةُ شعراء الصُّوفية الكبار ، ومنصورُ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسينُ بن منصور الحلاَّج الصُّوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرُّومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلاج : قد ظهر مجذوب أفشى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْـرَ أنِّـي أقـول : مـا نظـراتٌ لا تجلِّـي كـوامـنَ الأسـرارِ[1]
مقصـدُ الفـنِّ فـي الحيـاة لهيـبٌ أبـديٌّ فمـا وَميـضُ الشَّـرارِ ؟[2]
قطـرُ نَيسـانَ ! مـا الـلآلـىءُ إنْ لـم تتـلاطـمْ بهـا قلـوبُ البحـارِ[3]
مـا نسيـمُ الصَّبـاحِ فـي الشِّعـر واللَّحـن إذا مـا أذوَى سنـا الأزهـارِ[4]
ليـس إلا الأعجـازُ يحيـي ففـنٌّ ليس ضربُ الكليم فيه ، عواري[5]

* * *

صُبْحُ المرج[6]

الزَّهرة :

وافـدَ الأفـلاك ! هـل خِلْـتَ بعيـداً مـوطنـي ؟ لا إنَّـه غيـرُ بعيـد

النَّدى :

مـن يَطِـر مـا بيـن أرضٍ وسمـاءِ يتبيـنْ أنَّـه غيـرُ بعيـد

---

(١) إن لم تنفذ نظراتُ صاحب الفنِّ إلى حقائق الأشياء ؛ فما هي بمجدية .
(٢) الفنُّ يصوِّر لهيب الحياة الأبدي ، فلا قيمة للفنِّ الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يُطفأ .
(٣) قطر المطر في نيسان يُخلق منه الدرُّ في الصَّدف . يقول الشاعر : يا قطر نيسان ! ما قيمة الدرِّ الذي لا يضطرب له قلبُ البحر . يعني : أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش لها قلب العالم .
(٤) إنْ كان نسيمُ الصبح المتمثِّل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبلُ الزَّهرَ في الرَّوضة ولا ينضِّره فأيُّ نسيمٍ هو ؟! .
(٥) حياة الأمم بالإعجاز ، فالفنُّ الذي لا إعجاز فيه عاريةٌ لا دوام لها .
(٦) خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أنَّ الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافلٍ عن عالم الغيب ، كضوءِ الصُّبح يُغشى السهول والجبال ولكنَّه موصول بالفلك ، وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال النَّدى : إنَّ الطيران يُعلِّم أنَّ الأرض ليست بعيدةً من السماء .

الصُّبح :

أقبلنْ في الرَّوض كالصُّبح رفيقاً ليس يؤذي وطؤه قطرَ النَّدى
واحضِنِ الأجيالَ والبيدَ ولكنْ من عُرا الأفلاك لا تحللْ يدا

* * *

الخَاقَانِي (١)

ذا صاحبُ تحفةِ العراقَيْن ذو القلب يراه قرَّة العَين
تنشقُّ لفكره السُّتور الحُجْبُ جميعُها تُنير
يجتاز بعالم المعاني لا يسمعُ قولَ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[٢]
فاسأله بذلك التُّراب والدَّهرُ يجيشُ في عُباب[٣]
ذا مَحرَم عالِم الثَّوابِ كم دلَّ بموجَز الخطاب[٤] :

---

(١) شاعرٌ فارسيٌ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢هـ . وله من الكتب « تحفة العراقين » . سجل فيها ما رأى في العراقين العربي والعجمي حينما مرَّ بهما في طريق الحجِّ ، وله ديوانٌ ، ومنظومةٌ اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .
وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشَّرقي وهو مشتقٌ من الأوزان العربيَّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أوَّلها :
يا منْ لعبت به شمولُ ما ألطفَ هذه الشمائل
وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيدَ في شعرنا مثالاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .

(٢) ينكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمز إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .

(٣) اسأله عن هذا العالم الأرضيِّ وعن حوادث الدَّهر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي اسأل عنه .

(٤) المحرم : المطلع على السرِّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« نـاهيـكَ بشـرٌ هـذا العـالـمِ إبليـسُ ثـوى ومـاتَ آدم »[1]

* * *

الرُّومي[2]

ما زال طَرفُك في خَلْطٍ وفي سِنَةٍ وعنكَ ذاتُك في الأسرارِ لم تَزَلِ

ولـم تـزلْ فـي صـلاةٍ لا قيـامَ لهـا وبالضَّراعة عزَّ الرُّوح لم تَصِلِ[3]

ومِـزهـرُ « اِلـذَّات » أوتـارٌ مقطَّعـةٌ ما زلتَ عن نغمةِ الرُّوميِّ في شُغُل

* * *

الجدَّة[4]

إنْ صدقَتْ نفسُك في الدَّهر النظرْ تُنـوِّر الأفـلاكُ منـكَ فـي البُكَـرْ

وتستضـيءُ الشَّمسُ منك بـالشَّـرر وينجلـي قـدرُك فـي سيمـا القمـر

والبحـرُ يلقـى منـك مـوجـاً ذا دُرر وتستحـي إعجـازَ صُنعـك الفِطَـر[5]

---

(١) حسبُك تعريفاً بهذا العالم أنَّ آدم مات ، وبقي إبليس أي : بقيت نزعاتُ الشرِّ في هذا العالم . فهو عالمُ محنةٍ وجهاد . وهذا البيت مضمَّن من شعر الخاقاني .

(٢) هو مولانا جلال الدين الرُّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتَّخذه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .

(٣) الصلاة قيامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنهما رمزُ الدلال والضَّراعة (ناز ونياز) أي : الخضوع والسِّيادة ، ولكنَّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قيامٍ . . . إلخ .

(٤) يرى الشاعر أنَّ الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدةً غير التي تراها ، وتغيَّر إدراكك هذا العالم ، وتبيَّن أنه مسخرٌ لك .

(٥) تستحي الخليقة من صنعك المعجز ، تراه أحسن منها .

تخــذتَ أفكــار الــورى مــرآتَــك　　فكيــفَ لا تبلــغُ حتَّــى ذاتَــك[1]

* * *

مِرزا بَيْدَل[2]

ذي سمــــاءٌ وجبــــالٌ وفِجــــاجْ　　ذاك حقٌّ أم عيونٌ في اعوجاجْ ؟
فــــرّق الآراءَ إثبــــاتٌ ونفــــيٌ　　أهيَ دنيـا أم خـداعٌ فـي الحِجـاج ؟
عقــدةٌ قــد حلَّهــا بيــدلُ حقــاً　　أعجـزتْ مـنْ قبلـه كـلَّ عـلاج :
« ما بدا ذا المراجُ لو في القلب وُسعٌ　　بان لونُ الخمر منْ ضيق الزُّجاج »

* * *

الجلال والجمال[3]

حسبــي كمــالًا قــوةٌ مــن حَيــدرٍ　　وكفــاك مــن أفــلاطُــنَ الإدراكُ

---

(١) إنَّك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .

(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعرٌ صوفيٌّ له ديوانٌ كبيرٌ يغلب فيه التعمُّق وتكثر الدَّقائق .
وقد أعجب إقبال بفكرةٍ في بيتٍ لبيدل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أنَّ هذا العالم الحسِّي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يُظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النثر :
« لو اتَّسع القلبُ ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدَّة ضيق الزُّجاج » .

(٣) الشَّاعر من المعجبين بالقوَّة ، الدَّاعين إليها ، وهو يدَّعي هنا الإجمال بغير جلالٍ ، يرى الكمالَ في شجاعة عليٍّ لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالًا ـ وقد تخيَّل الشعراءُ أنَّ انحناء السماء في رأي العين سجودٌ ـ والنغمةُ التي لا قوَّة فيها نفخةٌ ضائعةٌ ، بل لا يحبُّ أن يجازى إلا بنارٍ شديدةِ الالتهاب .

وأرى جمالاً في بهاء أن تُرى ... في سجدةٍ للقوّة الأفلاكُ
ولَنغمةٌ من دون نارٍ نفخةٌ ... ما الحسنُ إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن ... وهّاجةً ولهيبُها درّاكُ

***

المصوِّر(١)

قلّد الغربَ فنُّ عُجْم وهندٍ ... عمَّ هذي البلادَ موتُ الخيال
شفَّني الغمُّ أن بِهزادَ عصري ... يُفقد الشرقَ بهجةَ الآزال(٢)
يا خبيراً بفنّه فيه تمّت ... صنعةُ العصر والعصورِ الخوالي
كم تَرى من خليقةٍ وتُريها ... أرِنا الذّاتَ فوق هذي المجالي

***

الغناء الحلال(٣)

تفتح القلبَ نغمةٌ من غناء ... أيَّ فتحٍ والقلبُ رهنُ هُمودِ ؟
في صُدور الأفلاك لحنٌ خفيٌّ ... صاهرٌ حرُّه نجومَ الوجودِ

---

(١) يرى الشاعر أنَّ المصوِّر وكلَّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظْهِرَ ذاته فيما يصوِّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنَّ المحاكاة موت .

(٢) بهزاد : مصورٌ فارسيٌّ مشهور نبغ أيام الدَّولة الصفوية ، والشاعر يغتمُّ لأنَّ بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .

(٣) يرى الشاعر أنَّ الغناء وكلَّ لحنٍ يحلُّ إنْ كان فيه قوةُ الذات وحرقة الحياة ، ويَحْرُمُ إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟! وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النُّجوم ، وتبرىء الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . . إلخ . والنغمة الحيَّةُ التي يُحلُّها فقهاءُ الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ النـاسَ منـه خـوفٌ وغـمٌّ   إيـازٌ يسمـو إلـى محمـودِ[1]
تيـهُ هـذي النُّجـوم يفنَـى ولكـن   أنـت تبقـى ونغْمـة التَّـوحيـدِ[2]
قـد أحلَّـت شـريعـةُ الـذَّات لحنـاً   لـم يـزل فـي انتظـار شـادٍ مُجيـدِ[3]

* * *

الغناءُ الحرام

مـا بـذكـرى مـن التصـوُّف وَجـدٌ   أو بـرأيـي ثـوابُهـم والعـذابُ
قـرَّب الله مـذهبـي مـنْ فقيـهٍ   عُـرِفـت عنـه سُنَّـةٌ وكتـابُ :
« إنْ سَرَت في اللحون دعوةُ موتٍ   حَـرُم النـايُ عنـدنـا والـرَّبـابُ »[4]

* * *

النَّافُورة

لا يُطَيِّبنـي مسيـرُ النَّهـرِ مطَّـرداً   مُسـايـراً تُـربَـه جنبـاً إلـى جنـبِ
دع ذاك ، وانظرْ إلى نافورةٍ بَسَقتْ   تُصَعِّـدُ المـاء منهـا قـوةُ القَلْـبِ[5]

* * *

---

(١) السُّلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز .
(٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة .
(٣) اللحن الذي أحلَّته شريعةُ الذَّاتِ ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .
(٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميت النفوس حرام .
(٥) لا يُعجب الشَّاعر بالنهر يساير الأرض ، بل يُعجب بنافورةٍ قويةٍ تقذف الماء عالياً في الهواء .

الشاعر[1]

في غابة الشرق نايٌ يبتغي نَفَسَاً ... يا شاعرَ الشَّرق هل في صدرك النَّفَسُ؟

مـن كـانَ فـي ذاتـه مـن رقّـةٍ خَـورٌ ... فقلْ له من لُحونِ العُجْم يَحترِسُ

إنـاؤهـا مـن زجـاجٍ كـان أو خـزفٍ ... اجعـل بخمـرك سيفـاً لمعُـه قَبَـسُ

لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها ... مجـدٌ بغيـر الجـلاد المـرَّ يُلتمَـسُ

طُـورٌ جـديـدٌ ، وبـرقٌ كـلَّ آونـةٍ ... لا قـرَّب اللهُ للعشـاقِ مـا التمسـوا

***

شعر العجم

كم بشعر العُجْم من سِحر ولكنْ ... منه سيفُ الذَّات ذو حدٍّ كليلْ

صَمتُ طيرِ الصُّبح أولى من غِناء ... إن سرى باللَّحن في الرَّوض ذبولْ

ليـس ضـربـاً مـا يشـقُّ الطَّـودَ لكـنْ ... ليـس منـه عـرشُ بَـرويـز يميـلْ[2]

يَنْحِـتُ العصـرُ أيـا إقبـالُ ! صخـراً ... فاحذَرنْ من كلٍّ ما يُبْدي الوَذيل[3]

***

---

(١) ينفرُ إقبالُ من شعر الرَّخاوة والذلَّة ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرقَّة والترف .
ولا بدَّ للشعر أن يكون في حدَّة السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجةٍ أو صراحيةٍ ، ينبغي أن تكون محرقةً . وليس لشوق الشاعر غاية ففي كل حين طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجلّي جديد .

(٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .

(٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرآة . والشَّطر فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرآة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلَّ ضعيفٍ ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركن إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

تخيُّلهُم جَنازةُ كلِّ عِشقٍ ... وظُلمةُ فكرهم للحيِّ قَبرُ

ومَوثَنُهم به نقشُ المنايا ... وليس لفنِّهم بالعيش خُبْرُ[1]

يُنيمُ الرُّوحَ في إيقاظ جسمٍ ... ودون المجد يُسدَل منهُ سِترُ

يُسخِّر للأنوثة كلَّ شيءٍ ... لهم قَصصٌ وتصويرٌ وشِعرُ[2]

***

الرَّجل العظيم

هو في الحب عميقْ ... وهو في البُغْض عميقْ

قهره فروقُ عبادِ الله ... بَرٌّ وشفيقْ

نشَّأته ظلمةُ التَّقليد ... بالنَّاس تَحيقْ

غير أنَّ الطَّبع بالإبـ ... ـداع والخَلق خَليقْ

هو في المَجْمَعِ خالٍ ... ومن الحَشدِ طليقْ

مثلُ شمع الحفل ؛ في الحفل وحيد ورفيقْ[3]

مثلُ شمس الصُّبح ؛ فِكرٌ ... فيه نُورٌ وبَريقْ

لفظه حرٌّ يسيرُ ... لكنِ المعنى دقيقْ

نظرٌ فيه سديدٌ ... عن بني العصر سحيقْ

---

(١) الموثن : معبد الأوثان .

(٢) الفن الهندي بالشهواتِ الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسخِّر كل شيء للأنوثة .

(٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها .

ليس يدري أيُّ حالٍ فيه أشياخُ الطريق

***

عالَم جديد[1]

مَنْ كانَ حيَّ القلب في الدُّنيا فما يخفي عليه من القضاء ضميرُهُ
تجلو له رؤياهُ كوناً مُحدثاً بِدعَ المثالِ يَروقُه تصويرُهُ
فإذا جلا صوتُ الأذان منامَه شادَ الذي في حُلمه تعبيرُهُ
ولهَيكلُ الدُّنيا الجديدةِ طينهُ هذا الضئيلُ ، وروحها تكبيرُهُ

***

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني مِن الخلاّق مَوهبةٌ لكنَّ للفنِّ في الفنَّان إجهادا
مِنْ حُرْقَةٍ في دَمِ الباني ، مشيَّدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زُونات بهزادا[2]
ما جوهرٌ يتجلَّى دون مَجهدةٍ مِنْ ومضةِ الفأس نارت دارُ فرهادا

***

---

(١) الرَّجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً ، فيعمل عزمه ، فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال .
وهذا العالمُ الجديد الذي يخلقه ناشىءٌ من نفسه ، فهيكله : جسمه الصغير ، وروحه : تكبيره ، وإيمانه ، وعزمه .

(٢) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير ، وحاناته : شعره . وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية . والزونات : جمع زونة وهي معرض الأصنام ، أو الدُّمى ، يضرب بها المثل في الجمال والزينة .

المُوسِيقا

دلَّ علـــى بـــردِ دَمِ المُغنِّـــي ... لحـــنٌ لـــه الـــوجـــوه لا تُنيـــرُ[1]

أنفـــاسُ زامـــرٍ سُمـــومُ لَحـــنِ ... إنْ كـــان لـــم يَطْهُـــرْ بـــه ضميـــرُ[2]

بـــالشَّـــرق والمغـــرب فـــي رِيـــاضٍ ... مـــن الشقيـــقِ شـــاقنـــي المسيـــرُ

فمـــا مـــررتُ بينهـــا بمـــرجِ ... شقَّـــت بـــه جُيـــوبهـــا الـــزُّهـــورُ[3]

***

لذَّةُ النَّظر

أيُّ ذاتٍ حَوَى فتى الصينِ مَن قا ... لَ لجـــلاده أمـــام الحِمـــام :

منظـــرٌ رائـــقٌ ، تمهَّـــلْ ، تمهَّـــلْ ... لأرى لحظـــةً وميـــضَ الحُســـامِ[4]

***

الشِّعر

لـــم أدرِ ســـرَّ الشِّعـــر إلا نكتـــةً ... سِيَـــرُ الشُّعـــوب تُبينُهـــا تفصيـــلا

---

(١) اللَّحن الذي لا تنير له وجوه السَّامعين دليلٌ على برود نفس المغني ، وخمود عاطفته .

(٢) لا بدَّ للمطرب من طهارة الضَّمير لتكون ألحانه صدى الضمير الطاهر ، وإلا فأنفاسه في اللحن سمٌّ للسامعين .

(٣) زهور الشرق والغرب لم يهج بها الطرب فتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من حزنٍ أو فرح ـ يعني : لم يظهر المطربون أسرار النفس ، ويبدو مكنون الضمير الإنساني ، ولا تزال « الذات » محجوبةً .

(٤) رجلٌ صينيٌّ قام أمام الجلاد والسيف مصلت فلم يشغله هذا المقام عن الإعجاب بوميض السَّيف ، فقال للجلاد : أمهلني لأمتِّع النفس بهذا المنظر . فهذا يعجب به إقبال أيَّ إعجاب ، ويرى فيه ذاتاً كاملة .

الشِّعرُ فيه من الحياة رسالةٌ أبديةٌ لا تقبَلُ التبديلا
إنْ كانَ من جبريلَ فيه نغمةٌ أو كانَ فيه نفخُ إسرافيلا[1]

* * *

الرَّقص والمُوسيقا

إنَّ للشعر بهجةٌ ضاء منها روحُ جبريل والرَّجيمُ اللعينْ
ومن الموسيقا ابتهاجٌ شوقٌ وكذا الرَّقص نشوةٌ وفُتون
قد سمعنا في الصِّين قولَ حكيم فيه أفشى مخبّآت الفنون :
إنَّ للموسيقا من الشعر رُوحاً ومن الرَّقص جسمُها في العيون

* * *

ضبط النفس

دأبُ أهلِ الزمان شكوى الزمانِ ليس للحرِّ آهةٌ في طِعانِ
قد أسرَّ النجوى إليّ عليمٌ منْ شيوخِ القلوب والعِرفانِ :
إنَّ كَظم النُّواح شيمةُ ليْثٍ ومن النَّوحِ شيمةُ الثُّعْلبانِ

* * *

الرَّقص

دعْ لأهل الغرب رقصاً بجسومٍ إنَّ رقصَ الرُّوح من ضَرْبِ الكليمْ
فبهذا الرَّقصِ سُلطانٌ وفقرٌ وبذاك الرَّقص همٌّ لا يَريمْ

* * *

---

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبديةً إن كان جميلاً هادياً ، كنغمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صعقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .




القسم الخامس

سياسيَّاتُ المشرقِ والمغربِ






انقلاب

أبمشـــرقٍ أو مغـــربِ نـارُ الحيـاة ونـورُها
فهنـا تمـوتُ ذواتُهـا وهنـاكَ مـاتَ ضميرُهـا
وأرى القلـوبَ لثـورةٍ مِـلءُ البـلادِ زفيـرُهـا
فلعـلَّ دنيـاكَ القـديمـةَ للممـاتِ مَسيـرُهـا

***

تملُّق(١)

جهلتُ أمورَ الناس غيرَ مجرِّبِ ولكـنَّ ربَّ القلـب للغيـب يَشْهَـدُ
فقـلْ لـوزيـرٍ مـا بـدا لـك مـادحـاً فـذانـك دُستـورٌ وعهـدٌ مجـدَّدُ
إذا قـال : صقـرُ الليـلِ للبـومِ مـادحٌ فهـل ذاك حـقٌّ أو دِهـانٌ يـردَّد(٢)

***

المناصب(٣)

سِحرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ يا ويحَ عيني قد هَمتْ عَبَراتُها

---

(١) العنوانُ في الأصل (خوش آمد) وهي عبارة فارسيَّة بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً . ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام الاستقلال الدَّاخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .

(٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟

(٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السَّابقة .

فلعـلَّ منصِبـكَ الـرفيـع مبـاركٌ فـالـذَّاتُ مِـنْ جَـرَّاه حـانَ ممـاتُهـا
هـذي القضيـةُ معضِـلٌ إخفـاؤهـا وضَحـتْ لكـلِّ مفكِّـرٍ آيـاتُهـا :
« لا شِـركَ فـي حكـمٍ لعبـدٍ إنَّمـا شُريَتْ عقولُهُمُ وخابَ شُراتُها »[1]

***

أوربَّة واليهود[2]

نظـامٌ ومـالٌ وعيـشٌ رغيـدٌ وظُلمـةُ صَـدرٍ لهـا القلـبُ يَغْلـي
دخـانُ المصـانـع فـي الغـرب داجٍ فـواديـه ليـس بـأهـل التَّجلِّـي
رأيـتُ حضـارتَـه فـي احتضـارٍ تموت اعتباطاً ، وما الموت يُملي[3]
فليـس غـريبـاً تـولِّـي اليهـود كنـائسَـه بعـد هـذا التـولِّـي

***

عبوديةُ الأنفس[4]

ليـس يخلـو زمـانُ شعـبٍ ذليـلٍ مـن عليـمٍ وشـاعـرٍ وحكيـمِ
فـرَّقتهـم مـذاهـبُ القَـوْلِ لكـنْ جَمَـعَ الآراءَ مقصـدٌ فـي الصَّميـم :

(١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظمٍ .
شُريت : بيعت ، والشراة : البائعون .

(٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهدْ حرب فلسطين ولم يرَ تسلُّطَ اليهود على أوربة وأمريكا ، كما رأينا . ولكنَّه نظر إلى الحوادث نظرة عارفٍ خبير .

(٣) تموت في شبابها ، والموت يمهل .

(٤) لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتَّى إلى غايةٍ واحدةٍ ، هي أن يروِّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجاياها الإقدام حتى ترضى بالرقِّ ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويلٍ في القول تحيُّلٌ لهذا المقصد .

« علِّموا الليث جفلة الظَّبي وامحوا قصصَ الأُسْد في الحديثِ القديمِ[1]
همُّهم غبطةُ الرَّقيق برقٌ كلُّ تأويلهم خِداعُ عليمِ

* * *

الرُّوسُ الشُّيوعيون

إنَّ سَيرَ القضاء جِدُّ عجيبِ أيُّ سرٌّ حوى ضميرُ الزَّمانِ
ليس يألو الصليبَ سرّاً قَبيلٌ كان يرجو النجاةَ بالصُّلبانِ
أمرَ الوحيُ مُلحدي الرُّوس « هُدُّوا ما أقام القُسُوسُ من أوثانِ »

* * *

اليَوم والغَد

مَن عداه ليومِه في جهادٍ نورُ نفسٍ وشُعلةٌ في الكُبودِ
مالَه الحقُّ في مَتاع وهمٌ يستسِرَّان في الغدِ الموعودِ
ليس أهلاً لمعرَك الغدِ مَن في سيره (اليومُ) ليسَ بالمعدودِ

* * *

المشرق

جَيبُ الشَّقائق من شَدوي غدا مِزَقاً ونسمةُ الصُّبحِ رَوضاً تطلبُ الآنا[2]

---

(١) في هذا البيت مقصد القائلين المذكورين في البيتين السابقين .
(٢) أنا شدوت حتى مزَّقتْ شقائقُ النعمان جيوبها وجداً ، ونسيمُ الصبح لا يزال يطلب روضاً ينضر أزهارَه .

ما «مصطفى» أو «رضا» جلّى حقيقتها | فالروحُ في الشرق جسماً تطلب الآنا[1]
وحــقٌّ ذاتــي عِقَــابٌ غيــرَ أنَّ لهــا | ذا العصرُ جِذعاً وحبْلاً يطلب الآنا[2]

***

سياسةُ الإفرنج

يــا ربِّ نِــدُّك فــي غــربٍ سيــاستُــه | ومــا تعبَّــد إلا الهــامَ والــرُّوسـا[3]
خلقتَ إبليس فرداً من لظى لهبٍ | ومــن تُــرابٍ أقــامــت ألــفَ إبليســا

***

العبيد

تعلَّمتُ بين الغرب والشَّرق حكمةً | أراها لأهلِ الرقِّ أجدى الفوائدِ :
فــلا مُلْــكَ أو فقــراً ودينــاً وحكمــةً | يــؤسَّــس إلا فــوقَ صخــرِ العقــائــدِ
فــإمَّــا خــلا منهــا ضميــرُ جمــاعــةٍ | فــأفعــالُ رعــديــدٍ وأقــوالِ هــامــدِ

***

إلى أهل مِصر

مــن أبــي الهــول أتتنــي نكتــةٌ | وأبو الهول طَوى السرَّ القديم[4]

---

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدناً تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحقُّ العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صلبي .

(٣) الروسُ : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأسُ إنسان على جسم أسد .

بـــدَّلـــتْ سَيـــرَ شعـــوب جملـــةً ... قـــوَّةٌ لـــم يجْفُهـــا العقـــلُ الحكيـــم
طبعُهـــا فـــي كـــلِّ عصـــرٍ مـــائـــلٌ ... يُبـــدِلُ الشكـــلَ ويَبقـــى فـــي الصَّميـــم
فهـــي طَـــوراً فـــي حُســـام المصطفـــى ... وهي طَوراً في عصا موسى الكليم

* * *

الحَبشة

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عِقبـــانُ أوربَّـــة بغيـــر علـــم ... فـــي جيفـــة الأحبـــاش أيُّ ســـمّ !
قد آن للمَيتةِ أن تَجيفا
حضـــارةٌ تكمـــلُ بـــالمَخـــزاة ... وعيـــشُ أقـــوامٍ علـــى الغـــارات
وكلُّ ذئبٍ طاردٌ خروفا
وجـــهُ الكنيســـة اكتســـى شَنـــارا ... رومـــا أراقـــت مـــاءَه نهـــارا
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفا[١]

* * *

أوامرُ إبليس إلى أبنائه السَّاسة[٢]

عليكـــم بـــالبَـــرَهْمَـــن فـــاربكـــوه ... بـــأشـــراكِ السيـــاســـة والحبـــالِ

---

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يصور الشَّاعر في هذه الأبيات عملَ السَّاسة بأوامر أبيهم إبليس . وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلِّها من الدِّين ، ولاسيما المسلمون ، هؤلاء الصابرون المستميتون . وقد خصَّ العربَ الذين نشأ الدين في حضانتهم ، والأفغان الذين تسيطر عليهم حمية الدِّين . . إلخ .
ثمَّ أوصاهم بإخراج إقبال من الرَّوض لأنَّ نَفَسهُ يشعل الحقائق ؛ أي : يثير النار في الشباب ، فيبعدهم عن سياسة إبليس .

وأصحابَ الزَّنانير اطردوهم | من الدَّير القديمِ بالاحتيالِ
وذلكم الصَّبورُ على الرزايا | ومَن هو بالمنايا لا يبالي[1]
فروحَ محمدٍ منه اسلبوه | لتعملَ فيه أحداثُ الليالي
وفي العَرَب اقذفوا في كلِّ فكرٍ | من الإفرنج ألوانَ الخيالِ
بأرض العُرْب للإسلام كيدوا | ليُسرعَ في الحجاز إلى الزَّوالِ
وفي الأفغان بالدِّين اعتصامٌ | وليس عِلاجُ هذا بالمحالِ
عليكم بالفقيه فأخرجوه | من الأرض المنيعةِ والجبالِ
وقُوَّاماً على الحرَم اسلبوهم | لهم سُنناً تحيدُ عن الضَّلالِ[2]
غَزالَ المسك من خَتنٍ أثيروا | وخَلُّوا الأرض من هذي الغوالي[3]
وإقبالٌ له شَذْوٌ مثير | به زَهَر الشقائق في اشتعال
من المَرج اطردوا هذا المغنّي | لتحموا الناس عن هذا المقال

***

جماعةُ الأُمم الشَّرقية[4]

سُخِّر الماء والهواءُ مسخَّرْ | ليس بِدعاً إنِ القضاءُ تغيَّرْ
جبروتُ الفرنج غَرَّته رؤيا | علَّها غيرَ ما رآه تُعبَّر
إنْ جنيوا للشرق طهرانُ صارت | فلعلَّ التبديلَ للأرض يُقدَر

---

(١) ذلكم الصبور . . إلخ . يعني : المسلم .
(٢) يريد بقوّام الحرم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرم وغيره .
(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تنٍ مشهور في الشعر الفارسي وما يتّصل به .
ويريد الشاعر : أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .
(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلْكُ الخالد

إنــي لغَــوَّاص المعــانــي فِطــرةً ... لكنَّنــي بَحــرَ السِّيــاســةِ أحــذرُ
مـا إن يُحـبُّ الـدَّهـرُ مُلكـاً خـالـداً ... ولـو أنَّ فيه مـن الـرُّؤى ما يسحَـرُ
فَرهادُ أبقى الدَّهرُ نحتَ صخوره ... لـم يَبـقَ مـن بـرويـز مُلـكٌ يُـؤثَـر

* * *

الجمهورية

بـدا السـرُّ فـي قـولـةٍ مـن أريـبٍ ... ومــا كــان مــن قَبلــه يُعلَــنُ[1] :
نظــامُ الجمــاهيــر حُكــمٌ بــه ... تُعــــدُّ العِبــــادُ ولا تــــوزَنُ

* * *

أوربة وسورية

أهــدت الشَّــام إلــى الغــرب نبيًّــا ... هــو عَــفٌّ ومُــواسٍ وصَبــور
ومــن الغــرب إلــى الشــام هــدايــا ... مــن قمــارٍ ونســاءٍ وخمــور

* * *

من مُوسولِيني
(إلى أنداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يأبى من مُسولينَ جُرمَه ... وأخيــارُ أوربــة علــيَّ غِضــابُ

---

(١) سيظهر .

كـلانـا بـآلاتِ التمـدُّنِ آخـذٌ   أتنقِـم أفعـالَ السُّيـوفِ حِـرابُ
وقـد نقَمُـوا منِّـي غـرامَ تَملُّـكٍ   أما ثـار منهـم بـالضِّعاف ضِرابُ
لِمَنْ شعبَذاتُ الحكمِ تُبقي ممالكاً   ولا مُلْـكَ أو ملـكٌ بهـنَّ يُصابُ
أينفُـخُ فـي الأعـواد أبنـاءُ قَيصـرٍ   ويُجبَـى إليكـم عـامرٌ ويبـابُ[1]
نهبتـم خيـامَ البـدو والـزَّرعَ والقُرى   وكـمْ كـانَ منكـم للعُـروشِ نِهـابُ
قصَـدنـا مـن التمـديـنِ قتـلاً وغـارةً   أأمسُكـم فخـرٌ ويَـومـيَ عـابُ ؟

* * *

شكوى

مستقبلَ الهندِ منْ يدري ؟ وما بَرِحَتْ   يا ويحها ، درَّةً في التَّاج تُرتَهنُ[2]
دِهقـانُهـا مـن ظـلامِ اللَّحـد مطَّـرح   ولم يزل مِزَقاً تحت الثرى الكفَنُ
الجسـمُ والـرُّوح للبـاغيـن قـد رُهنـا   لـم يَبـق فـي أرضهـا دارٌ ولا سَكَنُ
رضيـتَ رقّـاً لأوربَّـة بـلا أنَـفٍ   فمنكَ شكواي لا منها ، وبي حَزَنُ

* * *

انتداب

مَلَكُ الحضارةِ أين يُحتَم سَيرهُ ؟   في عصرنا هذا السؤالُ يسيرُ :
فـي حيـثُ لا خمـرٌ ولا قَمْـرٌ ولا   ضيقُ الثياب على النِّسـاء يجـورُ
والـرُّوحُ فـي بَـدَنٍ قـويٌّ خـافـقٌ   لكـن علـى سَنـن الجـدودِ يسيـرُ
حيـثُ المـدارسُ غـائـضٌ ينبـوعُهـا   وابـنُ البـداوة فـي الـذَّكـاء جَسـورُ

---

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصَّحارى .

(٢) كان الإنكليز يقولون : إن الهند أثمنُ درَّةٍ في تاج الإمبراطورية .

يُفتـي جهـابـذةُ الفِـرنجـة أنَّمـا ... هـذي البقـاعُ مـنَ التمـدُّنِ بُـور[1]

***

السِّياسةُ اللاَّدينيَّة

ما الحقّ مخفٍ عن فؤاديَ سِرَّه ... فلقـد حبـانـي الله قلبـاً مُبصـرا
فسيـاسـةُ الـلاديـنِ عنـدي خِسَّـةٌ ... مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى[2]
لمّـا قلَـى حكـمُ الفـرنـج كنيسـةً ... سـاسـوا كشيطـانٍ بـلا قيـدٍ جـرى
شَـرِهَـتْ لأمـوالِ العبـاد كنيسـةٌ ... فإذا الخَميس سفيرُها بين الورى[3]

***

شبكة التمدين

أمـانتُهـا علَـتْ عـن كـلِّ ريـبٍ ... وإقبـالٌ مُقِـرٌّ دون نُكـرِ
فـأوربـة نصيـرةُ كـلِّ شعـبٍ ... تشكِّـي الـدهـرَ مـن ظلـمٍ وضُـرٍّ
كـرامـاتُ القسـاوسِ أنْ أضـاؤوا ... سـراجَ الكهـرُبـاء بكـلِّ فِكـرِ
ولكـنْ مِـن فلسطيـنَ بقلبـي ... وللشَّـام الكسيـرةِ حَـرُّ جَمـرِ
وتلكـم عُقـدةٌ ليسـت لحـلٍّ ... تُـلاقـي كـلَّ تـدبيـرٍ بِعُسـرِ
مـن التـرك الجُفـاةِ نَجـوا فـلاقَـوا ... بـأشـراكِ التمـدُّن شَـرَّ أسـرِ[4]

***

---

(١) حيثما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفطرة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدُّن ، فأرسلوا إليها ملك التمدُّن باسم الانتداب .

(٢) إبليس افتراها .

(٣) الخميس : الجيش .

(٤) في هذا استهزاء : يقول : إن أوربة ادَّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرِّ أسر .

نصيحة

قال لُردٌ من الفرنج لنَجلٍ ... ابغِ مَرأىً يدومُ فيه المراد[1]
أظلَمُ الظُّلم للمساكين إعلامُ ... خِرَافٍ شريعةَ الآساد[2]
إنَّ للملك سِرَّهُ فاكْتُمَنْه : ... لا تَرُم بالسُّيوفِ قهرَ العباد
وبحمض التَّعليم فاغمِس نفوساً ... ثمّ صُغْ طينَها وفاقَ المُراد
أينَ منه الإكسيرُ ؟ هذا محيلٌ ... جَبلَ التِّبرِ كَومةً مِنْ رماد

* * *

قرصانُ وإسْكَنْدر

إسكندر :

جزاؤك في سَلاسلك ارتهانٌ ... أو التصميمُ من سيفي العتيقِ[3]
فقد صيرتَ وُسعَ البحر ضيقاً ... بما أمعَنتَ في قطع الطَّريق

القرصان :

سِكندرُ ! للفتوة لم توَفَّقْ ... أيجمُلُ بالفتى فَضحُ الرَّفيقِ ؟
فإنَّ القتلَ دَأبي لا أماري ... كذاك القتلُ دأبُك يا صديقي
كلانا اليوم قرصانٌ : ببرٍّ ... تَصولُ ، وَصُلتُ في بحرٍ عميق

* * *

---

(١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطمع الذي لا يحدُّ .
(٢) أظلمُ الظُّلم أنْ تعلمَ الغَنَمُ سيرةَ الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .
(٣) صمم السَّيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبةُ الأمم[١]

مِسكينــةٌ منــذ زمــان تُحتضــرْ　　لا فـاهَ مِقـوَلـي بسيِّـىء الخَبـرْ[٢]

ومــوتُهــا محتَّــمٌ لكنَّمــا　　يدعو القُسُوسُ أن يزولَ ذا الخطر

عجــوزُ أوربــةُ يجــوز عَيشُهــا　　علـى رُقَـى إبليسَ أيـامـاً أُخَـر[٣]

* * *

الشَّامُ وفِلسطين

مَـرحَـى لحـانـات الفـرنـج فقـد　　مــلأت بهــنَّ زجـاجَهـا حَلَـبُ

إنْ فــي فلسطيــن اليهــودُ رَجَـتْ　　فلْيــأخــذَنْ إسبــانيــا العَــربُ

لــلإنكليــز مقــاصــدٌ خفيــت　　مـا إن يُـراد الشَّهْـدُ والـرّطَـب[٤]

* * *

أئمةُ السِّياسة

مـا رجـائـي بسـاسـة قـد أسفُّـوا　　وإلــى الأرضِ أخلــدوا إدراكــا

نظــراتٌ إلــى ذُبــابٍ ونمــلٍ　　فهــمُ العنكبــوتُ مــدَّتْ شِبـاكـا

حبَّــذا الــركــبُ قــد هــداه أميــرٌ　　ذُو مــرامٍ تُجــاوز الأفــلاكَــا

* * *

---

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .

(٢) يعني لا أودُّ أن أخبرَ بموتها .

(٣) الظاهر أنَّ الشاعر نظم هذه الأبيات حينما كانت عصبة الأمم في آخر سنواتها .

(٤) بلاد العرب كلُّها معروفةٌ في الهند بالنخل ، ويقول الشاعر ليس قصد السياسة الإنكليزية ما تعلن من عمرانِ البلاد بل لها مقاصدُ خفيَّةٌ .

نزعات العبودية

بأسبابِ سُقم الشُّعوبِ خَفاءٌ يقصِّر في شرْحِهِنَّ البيانْ :
بشرع الأسود إمامُ العبيد يرى دائماً حِكمةَ الثُّعلبانْ[1]
كليمُ الإلٰه يُرَى لعنةً على قومه في خُطوب الزَّمانْ
إذا كان في السرّ هذا الكليمُ لقُوّةِ فرعونَ طوعَ البنانْ

* * *

صلاة العبيد[2]

قالَ بعدَ الصَّلاة حِلفُ جهادٍ : كم يطيلُ الصَّلاةَ فيكم إمامُ
ما درى ذاكُمُ المجاهدُ المؤمنُ الغِرُّ صلاةُ العبيد كيف تُقامُ
كم لدى الحُرِّ في الحياةِ كفَاحٌ غَيرةُ الحرِّ للشعوب قِوامُ
حُرم العبدُ حرقةَ الكدِّ عجزاً فعلى وقتِه المُضيُّ حَرامُ
لا تعجَّبْ إذا أطال سجوداً ما لديه سوى السُّجود مَرامُ
رَبِّ وَفِّقْ أئمة الهندِ يوماً لسجودٍ تحيا به الأقوامُ

* * *

---

(١) أسباب مرض الأمم أئمةٌ أذلّةٌ ، يرون في شريعة الأسود فلسفةَ الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثُّعلبان : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبهم إقبال في صلاةٍ بالمسجد الكبير ، فأطال الإمامُ الصَّلاة ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلاةَ إمامُكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فِلسطين

لا يــزالُ الــزَّمــانُ يَصلَــى بنــارِ ... لم تزل في حَشاكَ دونَ خمودِ[١]

لا دواءٌ بلنـــــــدن أو جنيـــــــوا ... بـوريـدِ الفـرنـجِ كـفُّ اليهـودِ[٢]

ومـــن الـــرقِّ للشعـــوبِ نجـــاةٌ ... قـــوةُ الـذَّاتِ وازدهـــارُ الـــوجـــودِ

الشَّرق والغربُ

علَّـــة الشَّـــرق ذِلـــةٌ واقتـــداءُ ... ونظـامُ الجمهـور فـي الغـرب داءُ

مَـــرضُ القلـــب والبصيـــرةِ فـــاشٍ ... مـــا بشـــرقٍ ولا بغَـــربٍ شفـــاء

* * *

نزعات التسلُّط

(إصلاحات)

أرى رحمــةَ الصَّيــاد سِتــراً لقهــره ... ولـم يُجدِ فينا ذا الصفيرُ المجدَّدُ[٣]

وقـد زيَّـن الأقفـاصَ بـالـزَّهـر ذابـلاً ... لعـــلَّ أسيـــراً لـــلإســـار يُغَـــرِّدُ

* * *

---

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الدَّاخلي ، يقول :
ما يزال الصيَّاد قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرقفه أن تجدد له غناء . وإنما همُّه أن يرضى الأسير فهو يزيِّنُ الأقفاص بزهورٍ لا نضرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .






القسم السّادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم بجبالهم ، وحميتهم الإسلاميَّة ، وقد تخيَّل الشاعر أنَّ شاعراً (محراب غل) أنشأَ هذا الشعر الّذي في الصَّفحات التَّالية ، بيَّنَ عمَّا في نفوس هؤلاء النَّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر (إقبال) .






- ١ -

يـا جبـالـي أيّـانَ عنـكِ المسيـرُ وتـرابُ الآبـاء هـذي الصُّخـورُ
لا زهـورٌ ولا صَـدى عنـدَليـبِ فيـكِ منـذُ الآزال تـأوي الصُّقـورُ
جنّتـي فيـك مَخـرمٌ وشعـابٌ مـاؤك النُّـور ، والتُّـرابُ العبيـرُ
لـن يكـونَ الشَّـاهيـنُ عبدَ بُغـاثِ ألحفـظِ الأبـدانِ روحـي أبيـرُ
خلعـةُ الإنكليـز أم سُحْـقُ ثَـوْبِ إيـهِ فقـري الغيـور ! مـاذا تشيـر ؟

- ٢ -

تنـافـرُ النَّـاس دائـمٌ أبـداً لسـتُ ولا أنـتَ القضـاءَ فصَّلَـهُ
في الذاتِ غُصنٌ ، للزّمان ذا أمَلٍ دواؤه فـي الجـروح أرسلـه
تبقـى علـى الـدهـر واحـداً بطـلاً إنْ كان في القلب « لا شريك له »

- ٣ -

يجـوز أن تُبـدَل أنـتَ ، لا تَخَـلْ بـدعـوةٍ أنَّ القضـاءَ يُبـدَّلُ
إذا سـرى فـي ذاتـك انقـلابُهـا فجـائـزٌ أنَّ الفضـاءَ يُبْـدَلُ
يبغـي الشـرابَ والفِنـاءُ إذ تـرى رسـمَ « السُّقـاةِ » والإنـاءَ يُبْـدَلُ
تـدعـو بتحقيـقِ الـرَّجـاء جـاهـداً ودعـوتـي أنَّ الـرَّجـاء يُبْـدَلُ

- ٤ -

ومـا فَلَـكٌ جـائـرٌ فـي السَّيَـرْ ومـاذا ذكـاءٌ ومـاذا القَمَـرْ ؟
أرى رَكْبَهـا جـاهـداً فـي المسيـر وأقْعَـدَهـا طـولُ هـذا السَّفَـر
سِكنـدرُ زمْجَـرَ كـالـرَّعـد حينـاً وعنـدك يـا مـوتُ صِـدْقُ الخبـر
وعـاشـتْ بـدهلـي يـدا نـادرٍ بضـربـةِ سيـفٍ حكـى فـاخْتَصَـر(١)

---

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلي ، وتوفي سنة ١١٦٠هـ .

وتبقـى الجبـالُ وأفغـانُهـا   لـك الملـك والحكـم ربَّ القُـدَر !
تُـذلُّ الحـوائـجُ صيـدَ الـرِّجـال   تـرى الليـث كـالثَّعلـب المحتقَـر
إنِ الـذَّاتُ أيَّـدهـا فَقْـرُهـا   فعنـدي وعنـدك مُلـك البَشَـرْ
قِـوامُ الشُّعـوب بحُـرٍّ فقيـرٍ   إلـى سُـدّة المُلـك مـا إنْ نظـر

- ٥ -

مـدارسُ ثـم ضـوضـاءٌ ولهـوٌ   وغـمٌّ دام فـي العيـش الـوفيـر
وسـمُّ الحـرِّ هـذا ليـسْ علمـاً   إذا كـان الجَـدَا كـفَّ الشعيـر[1]
ومـا أدبٌ وفلسفـةٌ غنـاءٌ   قِـوام الفـنِّ فـي جَهـدِ المسيـر[2]
تحكَّـمَ فـي الطبيعـة ربُّ فـنٍّ   يضـيء الليـل كـالصُّبـحِ المنيـر
فـربُّ الفـنِّ مِـن بـركـاتِ فـنٍّ   يطـوعُ لحكمـهِ كـلُّ العَسيـر
وذلـك إن يشـأ قَطَـرَتْ عليـه   أيـاةُ الشَّمـسِ كـالطـلِّ النَّضيـر[3]

- ٦ -

عـالَـمُ التَّجـديـدِ إن يظفـرْ بحـرٍّ   مـوجِـدٍ مـنْ حـولـه طـافَ الـزمـانْ
لا تَـدعْ ذاتَـك بـالتَّقليـدِ لَغـواً   جـوهـرٌ فـردٌ فحُطْـه بصِـوانْ
بـارِكَ التَّجـديـدُ قـومـاً ليـس فيهـم   غيرَ حفلِ الأمس ، ذِكرى وعِيان[4]
خشيتي أنَّ وغى التَّجديد في الشَّرق   علـى التَّقليـدِ للغـربِ دِهـان

- ٧ -

تبـدَّل الأقـوامُ فـي البُلـدانِ   فـي الـروم والشـام وهنـدُسْتـان

---

(١) العلم الذي جدواه كفٌّ من شعير ؛ أي : متاعٌ قليل ، ليس علماً ولكن سُمّاً للأحرار .
(٢) الفنُّ بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) ربُّ الفنِّ إن شاء قطرت عليه أياةُ الشمس (أي شعاعها) كالنَّدى ، فجعلها مادة فنه .
(٤) التجديد بركةٌ لقومٍ لا يذكرون ، ولا يرون إلا صورَ الماضي .

يـــابــن الجبــالِ هُــبَّ للــزَّمــان ... وأدْرِكَـــنْ ذاتَــك بــالعــرفــانِ

ذاتَك بالعِرْفانِ

يا غافل الأفغانِ

ذا مـــوســـمٌ ومـــاؤه عُبـــابُ ... وعَسجـــداً يُنبـــتُ ذا التـــرابُ

مـــن لـــم يـــروِّ زرعَـــه احتســـابُ ... فكيـف يُـدعَـى الغِـرُّ بـالـدهقـان

ذاتَكَ بالعِرْفان

يا غافلَ الأفغان

مـا لـم يَهِـجْ فـي مَـوْجِـهِ الـزخَّـارِ ... فـأيُّ بحـرٍ ذاك فـي البحـار ؟

مـا ليـسَ فيـه ثـورةُ الإعصـارِ ... فكيـفَ يُـدعى عـاصـفَ الأكـوان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

مـــن اهتـــدى ونفسَـــه أصـــابـــا ... مقلِّبـــاً فـــي طينـــه التـــرابـــا

فحـرثُ ذا العبـدِ الـذي قـد طـابـا ... يُفـدَى بكـلٍّ الجـاه والسُّلطـان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

جهلُـك هـذا مـا بـهِ مِـنْ عـارِ ... قـد صيَّـر الجهـلَ مـن الفَخـار

كـم عـالـمٍ فـاضـلٍ ممـاري ... متـاجـرٍ بـالـدِّيـن والإيمـان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

- ٨ -

يـدَّعـي الـزاغُ أنَّ ريشَـكَ قُبـح ... ويقـول الخفَّـاش : أعمـى جهـول

مـا رُذال البُغـاث يـا صقـرُ ! تـدري ... فـي عَنـانِ السَّمـاءِ كيـفَ تصـول

كيـف تـدري بحـالِ طـائـرِ عـزمٍ ... كلُّـه فـي المطـار عيـنٌ تجـول

- ٩ -

لا يسُفّ العشقُ دأبَ الهوسِ ... بذبابٍ بازياً لا تَقِسِ

ربَّ روضٍ حال حتى ليَرىٰ ... عندليبٌ عشَّه كالمحبِس

مُزمعُ الأسفار لا يبغي صدىً ... منْ أذانٍ برحيل الغلَس

أتُرى قافلةُ الموج لها ... في مسير حاجةٌ بالجَرس

خدعَ العينَ فتى مدرسةٍ ... فَبَدتْ فيه حياةُ الأنسِ

وهو مَيْتٌ ومن الغرب اجتذى ... ما سرَىٰ في صدره منْ نَفَس

إنْ تُرِد تربيةَ القَلْبِ فَمِن ... نظر المؤمنِ شَزْراً فاقبِس

- ١٠ -

سوادُ عيون عِتْرتهِ فَتيٌّ ... حليفُ طهارةٍ وفتى ضِرابِ

يُرى في السلم ظبياً ذا جمالٍ ... وفي يومِ الكريهة ليثَ غابِ

به نارٌ تُحرِّقُ كلَّ شيءٍ ... وحسبُ الغاب من شَرر الثُّقابِ

حباه الله أبَّهةً ومُلكاً ... بفقرٍ حيدريٍّ واحتسابِ

سبيلُ التَّاج حسرُ الرأس عنه ... فلا تنظرْ إليه بارتيابِ[1]

- ١١ -

في بارحاتك لألأتْ أنوارُه ... يَسطيعُ نُوراً ذا السِّراجُ الخابي[2]

يشكو الضَّعيفُ من الزمانِ صُروفَه ... والحرُّ فيه باسمٌ لِحرابِ

مِنْ صوتِ طير الصُّبح يدهشُ ذا الفتى ... أتُراهُ أهلَ تطاعنٍ وضِرابِ

---

(١) وهو حاسر الرأس ولكنَّه طموحٌ إلى التاج ، أو هو في همته وعزَّته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنَّه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهلٌ لأن يضيء مرَّةً أخرى ، يعني : الإسلام .

حـذري لأنَّـكَ فـي طِبـاع طفـولـةٍ والغـربُ تـاجـرُ سُكَّـرٍ وجُـلابِ[1]

- ١٢ -

بــــلا ديــــنٍ ولا تيــــنٍ هــوَتْ فــي الفــخ رجــلاه[2]
دواءُ العــــاجـــزِ المغلـــوبِ « لا غـــــلاّبَ إلا هُـــــو »
وصيَّـــادُ المعـــانـــي مـــا رَجَـــتْ فـــي الغَـــرب عينـــاه
فضـــاءٌ مـــونِـــقٌ لكـــنْ غـــزالُ المِســـك خَـــلاَّه[3]
يقـــوِّم ذاتَـــه سحَـــراً بـــدَمـــعِ العَيْـــنِ أوّاهُ[4]
فهـــذا الـــزَّهْـــر أحسَنُـــه علـــى الأمـــواهِ تلقـــاهُ
وديـــرُ الكـــون ، زُونُ الـــرِّيـ ـــح والألـــوانِ معنـــاهُ[5]
علـــى الكُفـــار مُستـــوْلٍ وذو الإيمـــان مـــولاه
إمـــامَ المسجـــدِ ! امْنَعْـــهُ أميـــراً حيـــن يغشـــاهُ
زوى المحـــرابُ حـــاجِبَـــه ولـــم تُعجِبْـــهُ تقـــواه[6]

- ١٣ -

دنيـــاك فـــي عينـــيَّ شَـــيءٌ آخـرُ أنّـى لعينـكَ - ليـت شعـري - تَظْهَـر

---

(١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحبُّ السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافتُ على تجارتها .

(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتِّباعه سياسةً لا دينيةً ، واتِّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية .

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها .

(٤) الأواه : المتعبِّد ، الرقيق ، كثيرُ الدعاء .

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح ، يستعبد الكفرَ ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن .

(٦) تخيل زاوية المحراب تقطيباً لصلاة أميرٍ ليس فيها معنى الصلاة .

ماذا التقلّبُ في عقول شبابنا ... في كلِّ صدرٍ قد تبدَّى مَحشرُ

شيخَ المساجدِ! ما دُعاؤُك سُخرةً ... أبه الحياةُ بلا جهادٍ تَظفَرُ[1]

ما « الذَّات » يُرجى في رِباطٍ خَلقُها ... هل للشَّرار من الرَّماد تَسعُّر[2]

- ١٤ -

كلُّ عشقٍ دون إقدامٍ هوى ... ويدُ الله بعشقٍ مخطر

ويلتا مِنْ ترفٍ! أين فتىً ... تَخِذَ الأهوالَ زادَ السَّفَرِ

خَلوةُ الأطوادِ ليست وَحشةً ... يَعْرِفُ « النَّفس » بها ذو البَصَرِ

- ١٥ -

عِلمُ فقرٍ لسالكٍ غيرُ صَعْبِ ... حدَّثَ الناسَ عن هُداه الضميرُ

لا يكون الفولاذُ جوهرَ سَيفٍ ... إنْ يكنْ في الطباع منه حريرُ

إنَّ قَهرَ الإلٰه فقرٌ ذليلٌ ... وسبيلُ السُّلطانِ فقرٌ غيورُ

قد سباك الفرنجُ نفساً ولكنْ ... أنت يا مؤمنُ البشيرُ النذيرُ[3]

- ١٦ -

مَوتُ الشُّعوب بُعدُها ... عن جَذَباتِ المركزِ

والذَّاتُ إمَّا رُكِزت ... فللمعالي تُركَزِ

فقرٌ تراه شاكياً ... جَوْرَ الزَّمان اللحزِ

باقٍ عليه مسحةٌ ... من اجتداءِ الكَزِزِ

ولم يزل مُيسَّراً ... للبرِّ فعلُ المعجِزِ

أنْ يجعلَ الصُّخورَ كالذرّات غيرَ مُعجَزِ[4]

---

(١) في الأصل شيخ الحرم ، والمراد به المساجد عامَّة .

(٢) الرِّباط : مقام الصُّوفية ، وفي الأصل خانقاه .

(٣) جاء هذ المصراع في الأصل بالفارسية .

(٤) لا يحول دون همة الحرّ شيء من عالم المادّة فهو يحيل الصخور ذراتٍ ، فلا تكون في=

فــأيــن يــا مــؤمــنُ أنــتَ ... اليـــومَ لــــم تُبَــــرِّز
مـــا فـــي جهـــادٍ لـــذةٌ ... جَمْـــرُكَ فيـــهِ مُعـــوزي[1]
يــا شَمْــسُ مــن سُــرادِقِ المشـ ... ـــرقِ هيَّـــا فـــابـــرُزي
واكســـي جبـــالـــي حُلَّـــةً ... تُـــزهـــى بلـــون القُـــرْمُـــزِ

- ١٧ -

إنْ يكــن فــي الألــوف ربُّ يقيــنٍ ... نفَــخَ النــارَ فــي شَبــابٍ وشِيْــبِ
ربمــا تنشـــىء الصَّحـــارى فقيــراً ... يخلقُ الدرَّ من حصىً في الجيوب[2]
بيــراعٍ لــكَ اكتبــنْ لــك حظّــاً ... لـم يَخُـطَّ الجبيـنَ ربُّ الغيـوبِ[3]
ذا الفضــاء الــذي يُسمَّــى سمــاءً ... ليـس شيئـاً لـدى العُقـاب النجيـبِ
هــو فــوق الــرؤوسِ يُــدْعــىٰ سمــاءً ... وهــو أرضٌ تحـت الجنـاحِ الهَبـوبِ

- ١٨ -

أيُّ قـــولٍ لشيـــرشـــاه رشيـــدِ ... فـي اختـلافِ القبيـل ذلّ العبيـدِ[4]
خلعـــوا ثـــوبَ أمَّـــة جَمعتْهـــم ... وازدهـوا بـالـوزيـرِ والمحسـودِ[5]
ذهـبَ الـدِّيـنُ فـي الجبـال شعـاعـاً ... كـلُّ حـزبٍ للُبـده فـي سجـودِ[6]
حَـرَمٌ فيـه حُـرمـةُ الـلّات تـرعـى ... فحبـاكَ المـولـى بضـربٍ سـديـدِ[7]

= طريقه عقباتٌ .

(١) ليس في الجهاد لذةٌ ما لم تكن فيه حرارةُ الإيمان . وجمرُ المؤمن يفتقد اليوم في الجهاد .

(٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .

(٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .

(٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .

(٦) اللبد : الصَّنَم .

(٧) هذا حرمٌ ولكن فيه أصنام . فالله يوفقك لضربٍ تكسرُ فيه الأصنام ، كما كسر الرَّسولُ=

- ١٩ -

لیس الـذي یُـدركُ الألـوانَ بـالبَصـرِ | بل مُغْتَنٍ عن ضیاءِ الشَّمسِ والقَمَرِ[١]
یا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلَةً | تَقـدَّمَـنْ . لیـس هـذا مُنتهَـی السَّفـرِ
وحـانــةُ الغَـرْبِ للصَّــادي مفتَّحــةٌ | ما السُّکر فیها بعلم العصر بالنُّکُرِ
لــك الممــاتُ بهــذا السُّکْـرِ مُستتــرٌ | إنْ لم یکن فیك للتَّوحیدِ مِنْ شَرَرِ[٢]
هل یَسَمَعنَّ بنو الخانات موعظتي | في شملةٍ لستُ ذا تاجٍ ولا سُرُرِ ؟[٣]

- ٢٠ -

مقــاصــدُ الفِطْـرةِ العلیــاء یحفظُهــا | مَن عاش في البید أو في الطَّود إنسانا
یـراقـبُ السِّحـرَ فـي التمـدیـن یُبطلـه | فـي فقـره أودَعَ الخــلاَّقُ سُلطــانــا
للحُسْنِ واللُّطفِ صاغَ الروضُ بلبلَه | وتُنشــیءُ البیــدُ لــلإقــدام عِقبــانــا
یا شیخُ کم تُعجِبُ الأبصارَ مدرسةٌ | لکنَّ في البید فاروقاً وسَلْمانا[٤]
هل یعرفُ الدَّهر للإسلام منْ شبَهٍ | فـي نشـوةٍ تتحـدَّی السَّیـفَ غضبـانـا

* * *

= أصنام الکعبة .

(١) لیس بمبصر الذي یری الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا یحتاج في رؤیتها إلی الشمس والقمر .

(٢) لا ضیر في أن تأخذ علومَ العصر وتنتشي بها ، ولکنَّ الهلاكَ فیها أن تغفل بها عن الإیمان والتَّوحید .

(٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمیر . یعني یسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثیابٍ خشنةٍ ، لست ملکاً ولا أمیراً .

(٤) یعني : الأصحاب الکرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .




الدِّيْوانُ السَّابِعُ

رِسَالَةُ الخُلُوْدِ
جَاوِيدنَامَه

نَقَلَهُ إلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الدكتور حسين مجيب المصري



يعتبرُ هذا الدِّيوانُ التُّحفةَ الأدبيةَ لمحمد إقبال ، وهو عبارةٌ عن شعرٍ (مثنوي) للفلسفة الدِّينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطعٍ شعريٍّ مزدوج ، طبع عام ١٩٣٢م ، وإنَّه يُبرزُ قُوى الشاعرالفكريَّة وذراها الرفيعة ، وفيه توريةٌ إلى جاويد ابن الشاعر ، ويشتمل هذا الدِّيوان على ثمانية أقسام ، وفيها يحكي الشاعر قصَّةَ سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي ، تبدأ القصَّة بمقدمةٍ فيها مناجاةٌ وفصولٌ أخرى ، إلى أنْ تظهر روحُ جلال الدِّين الرُّوميِّ ، فيشرحُ أسرارَ المعراج ، وهو دليلُ الشاعر في هذه الرحلة ، ثمّ يأتي زورابه وهو روح الزَّمان والمكان ، فيحملُ الشاعرَ ودليلَه جلالَ الدين الرُّومي إلى العالم العلويِّ .

وفي القسم الأول يزورُ الشَّاعر « القمر » وهنا قدَّمه الروميُّ إلى الحكيم الهندي المعروف باسم « جهان دوست » (محبُّ الدنيا) يجلسُ تحت شجرةٍ يأكلُ ويشربُ في تأمُّلٍ وتفكُّرٍ على طريقة اليوجا الهندية ، وحديثُه مع الرُّوميِّ واضحٌ ، وهو يبيِّن للإنسان أنَّ الطريق إلى التقدُّم يمكنُ خلالَ المزج بين الثقافةِ الشَّرقية والغربيَّة ، فالشرقُ قد ركز على الرُّوحانيات مهملاً المادِّيات ، بينما الغرب قد ركز على المادِّيات مهملاً الرُّوحانيات .

ويوافقُ الحكيمُ الهنديُّ على ملاحظاتِ الرُّوميِّ ، لكنَّه ينقلُ إلى الشاعر أخباراً مشجعةً ، وهي أنَّ الشَّرقَ النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النَّوم والانشغال .

ويذهبُ الشَّاعر إلى وادي جرغميد ، حيثُ يرى الشاعرُ كتب البوذه وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ ، والشَّاعر لا يقابلُ الرُّسل شخصياً بل من خلال كتبهم ، وهو يشرحُ تعاليمَ كلِّ رسولٍ على لسانِ أربعِ شخصياتٍ ، فتعاليمُ بوذه تُشْرحُ على لسان فتاةٍ راقصةٍ ، بينما زردشت على لسانِ أهرمن ، وتعاليم المسيح

على لسان تولستي ، وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وفي القسم الثاني ينتقل الشَّاعرُ بعد ذلك إلى « عطارد » حيث يقابل جمالَ الدِّين الأفغانيَّ[1] وسعيدَ حليم باشا ، وهنا يقدِّم الرُّوميُّ الشاعرَ على أنَّه « زنده رود » أو « النهر الحي » وهو الاسم الّذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب . وفي إجاباته عن أسئلة الأفغانيِّ ، فإنَّ الشاعر يصفُ الأخطاءَ الّتي ترتكبها أممُ الشَّرقِ خاصَّةَ الترك ، والفرس ، والعرب ، في تغريبهم لأنفسهم ، ويقارنُ سعيدُ حليم باشا بين الشَّرق والغرب ، ويبيِّن أنَّ إنقاذ وخلاصَ الجنس البشريِّ يَكْمُنُ في المزج والتأليف بين كلتا الثقافتين ، أو كما يعبر الشاعر في تزاوج العقل بالعشق .

ويحكي سعيدُ حليم باشا بعد ذلك للنَّهر الحيِّ (زنده رود) أنَّ دين الله قد أصابه الفسادُ من جرَّاء تعصُّب « المُلاَّ » فقد اقتصرت وظيفتُه على خَلْقِ المتاعب .

وينتقلُ الشَّاعر في القسم الثالث إلى « فلك الزحل » ، حيث يزورُ مسكنَ الآلهة القديمة ، ويأخذُ الرُّوميُّ الشاعرَ إلى إقليم يقعُ مباشرةً تحت نهرٍ ، حيث يقيم فرعون وكتشز ، ويقدِّم فرعونُ الاعتذاراتِ ؛ لأنَّه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى ، ويحذِّرُ الآخرين كي يكونوا أكثر حذراً في مثل هذه الحالات ، ويقارنُ الرُّوميُّ بين « الأتوقراطية »[2] والاستعمارية في الشرق .

وفي القسم الرابع يتَّجه الشاعرُ إلى « المرِّيخ » حيث يقابل فلكياً ، ويناقشُ الشاعرُ مع حكيم المريخ مشكلةَ القضاءِ والقَدَر ، وفي رأي الحكيم أنه من

---

(١) فيلسوف الإسلام في عصره ، نشأ في كابل ، جال في الشرق والغرب ، دعا إلى الوحدة الإسلامية ، له مؤلفاتٌ معروفة ، منها : « إبطال مذهب الدهريّين » أصدر والشيخ محمد عبده مجلةَ « العروة الوثقى » في باريس عام ١٨٨٤م ، توفي عام ١٨٩٧م .

(٢) الحكم الفردي .

الممكن بالنسبة للإنسان أنْ يغيِّر قدره ، والإنسانُ يجب أن يحاول أن يحرص على السيطرة التامَّة على القدرة .

وفي القسم **الخامس** ينتقلُ الشَّاعر إلى كوكبِ « المشتري » حيثُ يتقابلُ مع الشَّاعر غالب[1] والصُّوفيّ منصور الحلاّج[2] وغيرِهم ، ويناقش معهم فلسفة الحياة والموت ، بينما تستمرُّ هذه المحادثة يظهر الشيطانُ على مسرح الأحداث ، ووصفُ الشيطان هنا رائع ، ويحتاجُ إلى دراسةٍ مفصلة .

وفي القسم **السادس** يصلُ الشاعر إلى كوكب « زحل » ، حيثُ يقابلُ أرواحَ المتَّهمين بالخيانة العظمى ضدَّ أوطانهم : مير جعفر من البنغال ، ومير صادق من الدكن ، والاثنان في قارب يكافحان دونما أملٍ ضدَّ عاصفةٍ مثيرةٍ في بحر من الدِّماء ، وفي تلك اللحظة .

وفي القسم **السابع** يصل الشاعر إلى « ما وراء الأفلاك » ، وأول من يقابل ، يقابل نيتشه ، الذي ظلَّ طوالَ حياته يحاول البحث عن الله ، لكنَّه فشلَ ، لأنَّه اعتمد أساساً على العقلِ الَّذي لا يؤدِّي إلى شيء . وبعد نيتشه يطيرُ الشَّاعر إلى قصر عبد الصَّمد حاكم بنجاب ، ثم يقابلُ أخيراً الشَّاعر الشيخ سيد علي همداني ، والشَّاعرُ غنيٌّ من كشمير ، ويشيرُ بعد ذلك إلى بيعِ البريطانيين لكشمير .

---

(١) هو ميرزا أسد الله غالب (١٧٩٧م ـ ١٨٦٩م) كان من أعظم شعراء الأردوية ، قد سبقت ترجمته في الديوان الثالث « رسالة الخلود » .

(٢) هو الحسين بن منصور أبو مُغيث ، كان من عظام فلاسفة الإسلام ، وكبار الصوفيّين الزهّاد ، أصله من البيضاء بفارس ، عاش في خلواتِ الصُّوفية لاسيّما مع الجنيد وسهل التستري ، اتُّهم بالزندقة والقولِ بالحلول ، فحكم عليه ، وسجن ثماني سنوات ثم عُذّب وصُلِبَ عام ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م له كتبٌ كثيرةٌ ، لم يبق منها إلّا « كتاب الطواسين » في شرح مذهبه الّذي أنشأ في التصوّف ، وأثارَ حوله الجدل ، فقدّمه البعضُ وكفَّره آخرون .

ويقابلُ الشَّاعر كذلك نادر شاه ، وأحمد شاه ، والشاعرالهندي بهر تري هري ، وبينما هو يستعدُّ لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمعُ الصَّوْتَ الإلهيَّ المقدَّس يوضحُ له أن السرَّ الحقيقيَّ للتقدُّم والتطوُّر يَكْمُنُ في نموِّ ، وتطوُّر الفرديات ، والمجتمعات ، وهنا تنتهي الرحلة .

وفي القسم الثامن الذي هو الأخير يخاطب فيه الشَّاعرُ الشَّبابَ عن طريق ابنه جاويد فينصحُهم بتجنُّب الرفقةِ الشرِّيرة ، وأن ينمُّوا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاحِ المستمر .

وقد نَقَلَ هذا الديوانَ من الفارسيَّة إلى العربيَّة شعراً الأستاذُ الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان « في السماء » ، ويُقدَّم الآن إلى القراء هذا الدِّيوان في عنوانه الأصل الّذي سمَّاه الشاعر بـ « جاويد نامه » (رسالةُ الخلود) تورية إلى ابنه « جاويد » وهو الآن بين أيديكم » .

* * *

مُناجاة

إنَّمـا الإنسـانُ فـي دنيـا السَّـراب · لا يني عن نوحِه شبه الرَّباب[1]
شـوقُـه لِلْخِـلٍّ نـارٌ تَضْطَـرِم · رقَّـتِ الشَّكـوى ومنهـا كـمْ علم
عـالـمٌ يحـويـه مـن مـاءٍ وطيـن · والهٌ في الصَّدْرِ خفَّاق الوتين ؟[2]
تضمُـتُ الـدَّأمـاءُ والبيـدا معـاً · وكـذا طـوْدٌ وبـدرٌ لَعْلَعَـا[3]
وذُكـاءٌ وسمـاءٌ حـولهـا · كلُّهـا فـي الـوِقْـر تشكُـو سَمْعَهـا[4]
النُّجـومُ فـي السَّمـاء عِـدَّةٌ · كـلُّ نَجْـمٍ أوْحَشَتْـهُ وَحْـدةٌ![5]
مثلُنـا المسكيـنُ أمسـى كـلُّ نجـم · ضـلَّ فـي الـزَّرقـاء مغشيـاً بهـم[6]
مـا أعـدَّ الـرَّكْـبُ زاداً للـرَّحيـل · آهِ مـنْ تيـهٍ ومـن ليـلٍ طـويـل
صيـدُنـا الـدُّنيـا ونحـنُ الصـائـدون · أوْ أُسـارىٰ مـا تـراهـم يَـذْكُـرون
نحثُّ في الشَّكوى وما منْ مستجيب · أيـنَ لـلإنسـانِ خِـلٌّ أو حبيـب
شـاهـدتْ عينـاي يـومـاً أشـرقـا · فـي ضيـاءٍ كـلَّ شـيءٍ أغـرقـا
مـنْ جفـولِ النَّجـمِ فـي الـدُّنيـا ظَهَـر · بـرهـةً يبـدو ولكـنْ مـا استقـر[7]
مـا لَـدَيْنـا مثـلَ هـذا المُعْجِـبِ · مـالـه ظهـرٌ ولا مـنْ مَغْـرِبِ[8]
إنْ أنـارَ الـرُّوحَ ومـضٌ مـنْ سَنَـاه · أصبـحَ الصَّـوْتُ كلـونٍ إذ تـراه

---

(١) لا يني : لا يضعف ، ولا يفتر .
(٢) الوتين : عرقٌ في القلب والمراد هنا القلب .
(٣) الدأماء : البحر . والبيداء : الصحراء . والطود : الجبل . ولعلع : لمع وتلألأ .
(٤) ذكاء : الشمس . والوِقر : ثقلُ السمع أو ذهابه .
(٥) العدة : الجماعة .
(٦) الزرقاء : السماء .
(٧) جفل : ندَّ وشرد .
(٨) المعجب : الذي يثير العجب .

بدَّدَ الغيبَ بنور قد بدا | وعلى الدَّهرِ سيبقى سَرْمَدا[1]
يا إلهي مثلَ هذا اليوم هَبْني | إنَّ يومي مُزمَهِرٌّ فلتُغِثْني[2]
آيةُ التَّسخير فيمَنْ أنزلت | هذه الأفلاكُ فِيْمَنْ حَيَّرت[3]
(علَّم الأسماء) سرٌّ منْ دَراه | أسكرتْ مِنْ خمرِها أو مِنْ سقاه[4]
مِنْ جميعِ الخَلْقِ منذا تَصْطَفي | فإليهِ بُحْتُ بالسرِّ الخَفي[5]
قَدْ رَشَقْتَ الصَّدْرَ منَّا بالسِّهام | حرفُ ﴿ادعوني﴾، لمن هذا الكلام؟[6]
لَكَ وجهٌ هو قرآني وديني | أتضنُّ ؟ وعلى روحي الحزين
لَو رَمَتْ ألفَ شعاعٍ شمسُنا | ما رأتْ في الشَّمسِ نقصاً عينُنا
قَيْدُ هذا العصرِ قيدٌ منْ نُهىٰ | أينَ روحٌ لي تناهى صبرُها[7]
ويمرُّ الدَّهرُ منْ عمرِ الوجود | كي نرى روحاً وما فيها خُمود
أنتَ ما لَمْ تَفْلَحِ الأرضَ الجديبة | لم تنلْ ما كنتَ تبغي مِنْ رغيبة[8]
إنْ نَمَا منْ ذَلكَ الطِّينِ المَهِين | قلبُ إنسانٍ فذا كنزٌ ثمين
أنتَ بدرٌ مرَّ بي في مَخْدعي | ظلمةَ الرُّوحِ تأمَّلها معي

---

(١) السَّرمد : الدائم .
(٢) ازمهر اليوم : اشتدَّ برده .
(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] أي سخر الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والثمار ، والأنهار ، والدواب للإنسان لينتفع بها .
(٤) إشارةٌ إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] أي أسماء المسميات ، فأراه الأجناسَ التي خلقها ، وعلَّمه أنَّ هذا اسم فرس ، وهذا اسم بعير ، وهلم جرا .
(٥) اصطفى : اختار .
(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ؛ أي : اعبدوني أثبكم .
(٧) النُّهى : العقل . وتناهى : بلغ النهاية .
(٨) فلح الأرض : شقها ليزرعها . والرغيبة : الأمر المطلوب .

لـــمْ نُـــنْءِ عـــنْ هشيـــمٍ شعلـــةً … أيخـــافُ البـــرقُ ليـــلاً زلـــةً !

عِشْتُ ما قد عِشْتُ لكنْ في الفراق … اهـــدني ربَّـــاه مـــزرقَّ الـــرُّواق[1]

افْتَحَـــنْ كـــلَّ بـــابٍ لـــي هُنـــالـــك … واجْعَـــلِ الطِّيـــن نَجِيّـــاً للمـــلائـــك[2]

هـــاكَ صـــدري فيـــه أشْعِـــلْ لهبـــا … وَدَعِ العُـــوْدَ وأضـــرِمْ حَطَبـــا

نـــحٌ تلـــكَ النَّـــار عـــودي أوقـــدَنْ … وعلـــى الكـــونِ دُخـــانـــي بـــدِّدَنْ

أجِّـــجِ النـــارَ بكـــأســـي خمـــرةً … وبغـــضِّ الطَّـــرفِ هبنـــي نظـــرةً

قَـــدْ طلبنـــاكَ ومـــا تبـــدو لنـــا … إنَّمـــا كـــانَ عمـــانـــا ذنبُنـــا

وعـــنِ الســـرِّ أمِـــطْ ســـتـــراً خفـــاه … أوْخُـــذِ الـــرُّوح التـــي مـــا إنْ تـــراه[3]

دوحُ فكـــري لا يُـــرجَّـــى مـــنْ ثمـــر … أرســـلِ المعـــولَ أو ريـــحَ السَّحـــر[4]

قَدْ وُهِبْتُ العقلَ فامنحني الجنون … واهدِ هذا القلبَ للجذبِ الدَّفين

إنَّمـــا للعلـــمِ فـــي الفِكْـــرِ المَقَـــام … عُـــشُّ ذاك العِشْـــقِ قلـــبٌ لا يَنَـــام

وإذا العلـــمُ عـــن العِشْـــقِ انفـــردْ … مســـرحـــاً أضحـــى لأفكـــارٍ تُعَـــد

فيـــه سِحْـــرُ السَّـــامـــريِّ ظـــاهـــرُ … علمُنـــا مـــنْ غيـــرِ وحـــيٍ ســـاحـــرُ[5]

بـــالتَّجلِّـــي عـــالـــمُ القـــومِ اهتـــدى … مـــا رمـــاهُ الـــوهـــمُ فـــي جـــوفِ الـــرَّدى

عيشُنـــا لـــولا التَّجلِّـــي سقمُنـــا … عقلُنـــا مَـــسٌّ وجَبْـــرٌ دينُنـــا

هـــذه الـــدُّنيـــا بهـــا بحـــرٌ وبـــر … نحنُ نرنو وهي منْ يروي الخبر

---

(١) مزرق الرواق : السماء .

(٢) يريد بالطين نفسه ؛ لأنه إنسانٌ خلق من طين . والنَّجي : صاحب السر . والملائك : الملائكة .

(٣) خفاه : أخفاه .

(٤) الدوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة .

(٥) بعد أن ذهب موسى لميقات ربه ، تحيَّن رجلٌ يسمى السَّامري غيبته ، وأخذ من بني إسرائيل حلي نسائهم ، وألقاها في النار ؛ ليسبك منها عجلاً ، وجعله بحيث يكون له صوتٌ كالخوار ، وخدعَ بني إسرائيل بقوله : هذا إلهكم وإله موسى .

فـإلـى الـدَّار فـؤاداً ضـلَّ رُد فِلْقَـةُ البَـدْرِ إليـه فلتَغْـد[1]

مـن تـرابـي مـا نمـا إلَّا الكـلام وكـلامُ الهجـر يخلـو مـنْ خِتَـام

إنَّنـي فـي الكـون ذيَّـاكَ الغـريـب مـن بعيـدٍ فلتقـلْ إنِّـي قـريـب

ريثمـا كـالشَّمسِ يُطوى بـالغـروب فكـلٌّ صـوبٍ وشمـالٍ وجنـوب

مِـنْ غَـدي والأمـس إنِّـي مُنْطلـق ووراءَ كـلِّ نجـمٍ استبـق[2]

أنـتَ نـورُ خـالـدٍ نحـنُ الشَّـرار ولنـا الأنفـاسُ عمـرٌ مستعـار

قـلْ لمـن مـا مـازَ مـوتـاً مـنْ حيـاه أي عبـدٍ غـارَ مـنْ صُنْـعِ الإلـه[3]

جـابَ آفـاقـاً وليـسَ بـالصَّبـور لـم يسـرَّ بغيـابٍ أو حُضـور[4]

إنَّنـي الفـانـي فهـبْ أنـتَ البقـاء وأنـا الأرضُ أسكنُـي السَّمـاء

يـا إلهـي هَـبْ فعـالـي والكـلام كـلَّ خيـرٍ ، ومسيـري لـلأمـام

ليـس مـنْ دنيـاي هـذاك الخطـابْ لا ولا تِلْـكَ السَّمـا هـذا الكتـاب

إنَّنـي بحـرٌ سكـونـي لا يليـق أينَ منْ غاصَ على قاعي العميق[5]

وعلـى السَّـاحـلِ دُنيـا تستقـر وتـرى فـي البحـر مـوجـاتٍ تفر

قـد يئسـتُ مـنْ شيـوخِ الأقـدميـن ولـديَّ عـن غـدي قـولٌ مبيـن

وعلـى الفتيـان يسُـرْ مـا أقـول وليكـنْ كـلُّ عميـق كـالضَّحـول[6]

* * *

(١) فلقة البدر بكسر الفاء : القطعة منه .

(٢) استبق : تسابق .

(٣) ماز الشيء : فرزه عن غيره .

(٤) جاب البلاد : قطعها .

(٥) غاص على اللؤلؤ : غطس يستخرجه .

(٦) الضحول : جمع ضحل ، وهو الماء لا عمق له .

تمهيدٌ سَماوِيٌّ

فـي اليـومِ الأولِ لِلْخَلْـقِ ، تنثنـي السَّمـاءُ علـى الأرضِ بـالمـلام

لِلْحُضـورِ لـذةٌ أو لِلْغيـاب — وبهـا قـدْ خُلِـقَ الكـونُ العُجـاب

كـانَ لـلأنفـاسِ خيـطٌ فـانْقَطَـع — بَنَـتِ الحيـرةُ صـرحـاً مـا انْصَـدَع[1]

حيثُمـا تمـضِ تُشـاهِـدْ قـائـلا — بَعْدَ شوقٍ : لَسْتَ مثلي يا فُلا[2]

علِّمـوا الأنجـمَ طُـرّاً سَيْـرَهـا — مَنَحُـوهـا فـي السَّمـاءِ نُـورَهـا[3]

هـذه الشَّمـسُ أقـامـتْ خيمـةً — زانَهـا التِّبْـرُ رسـومـاً جمَّـةً

أوَّلُ الإصبـاحِ فـي الأفـقِ انْبَثَـقْ — ورأى الكـونَ وليـداً فـاعْتَنَـقْ

كـانَ لـلإنسـانِ أرضٌ قـاحلـهْ — لا تمـرُّ فـي ثـراهـا قـافِلَـهْ

الجبـالُ ليـس فيهـا مـن نَهَـرْ — والفيـافـي تَحْـتَ غيـمٍ مـا انْهَمَـرْ

مـا شَـدَتْ فـي الغُصْـنِ طيـرٌ بـالغِنـاء — لا ولا فـي المَـرْجِ سِـربٌ مـنْ ظِبـاء

التَّجَلِّـي غـابَ عـنْ بحـرٍ وبـرّ — ولهـا الثـوبُ دخـانٌ وانْتَشَـر

فـي ربيـعٍ مـا بَـدَتْ مـنْ خُضْـرَةٍ — وانْطَـوَتْ تحـتَ الثَّـرى فـي غبـرةٍ

لامَ تِلْـكَ الأرضَ مـزرقُّ الفَلَـكْ — « ما رأتْ عينٌ كهذا هَيْتَ لك! »[4]

وفضـائـي ليـسَ فيـه مـنْ ضَـريـر — لـكَ نـورٌ مـنْ سِـرَاجـي أيَّ نـور

قـد يطـولُ التُّـرْبُ طـوداً فـي السمـا — لا يضـاهـي فَلَكـاً أو أنْجُمـا[5]

فَلْتعيشـي مثلمـا عـاشَ الجميـلْ — أوْ فمـوتـي مـن شَنَـارٍ للـذَّليـل[6]

فـاعتـرىٰ الأرضَ مـنَ اللَّـومِ الخَجَـلْ — بَعْـدَ حـزنٍ وضَيـاعٍ لِـلأمَـل

---

(١) الصرح : كلُّ بناء عال .

(٢) يا فلا : ترخيم يا فلان .

(٣) طُرّاً : جميعاً .

(٤) هيت لك : هَلُمَّ وتعالَ .

(٥) الترب : التراب . والطَّوْد : الجبل .

(٦) الشَّنار : العيب والعار .

ومـــنَ الظُّلمـــةِ أضـــوَاهـــا الألـــم ونـــداءٌ جـــاء مـــنْ فـــوقِ القِمَـــم[1]
يـــا أمينـــاً لَسْـــتَ تـــدري مـــا الخبـــر أيَّ بـــأسٍ ؟ ذاتَـــكَ امْنَحْهـــا النَّظَـــر
النَّهــــارُ نــــورُه مــــنْ مُعْتــــرك ليـــسَ مـــنْ نـــورٍ أتـــانـــا مـــنْ فَلَـــك[2]
نورُ هذا الصُّبْح منْ شَمْسٍ جريح مـــنْ صُـــروفِ الـــدَّهـــرِ أنـــوارٌ لـــروح
نـــورُ تِلْـــكَ الـــرُّوحِ مـــاضٍ فـــي سَفَـــر يسبـــقُ الشَّمْـــسَ شُعـــاعـــاً والقَمَـــر
منْ كتابِ الرُّوح أسْقَطْتَ « المنى » وهي تبدي منْ ثراكَ ذا السَّنا ![3]
يملـــكُ العَقْـــلُ مـــنَ الـــدُّنيـــا العَنَـــان ولهـــذا العِشْـــقِ غـــزوُ الـــلاَّمكـــان
يهتـــدي الفِكْـــرُ ومِـــنْ غيـــرِ الـــدَّليـــل عينُـــه يقظـــى وفـــاقَـــتْ جِبْـــرئيـــل !
يـــا لَـــهُ تـــربـــاً يطيـــرُ كـــالْمَلَـــكْ ولـــه يَبْـــدُو رِبـــاطـــاً ذا الفَلَـــكْ[4]
يَخـــزُ الـــزَّرقـــاءَ جســـمٌ فـــي المسيـــر إبـــرةٌ قـــد خَـــرَقَـــتْ ثـــوبَ الحـــريـــر
ثـــوبُ دُنيـــانـــا محـــا عنـــهُ الـــوضَـــر فضَّلَـــهُ فـــي عينهـــا نـــورُ البَصـــر[5]
ورقيـــقُ الـــدِّيـــنِ سفَّـــاكُ الـــدِّمـــاء وهو كالمِهمازِ في جَنْبِ القضاء[6]
تستنيـــرُ عينُـــه بـــالكـــائنـــات لتـــرى الـــذَّاتَ تَجلَّـــتْ فـــي الصِّفـــات
مـــنْ تَلَظَّـــى عِشْقُـــه مـــنْ حُسْـــنِ ذات سيـــداً أضحـــى لِكُـــلِّ الكـــائِنـــات[7]

* * *

---

(١) أضواها : أضعفها .
(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد به معترك الحياة .
(٣) السنا : النور .
(٤) الرباط : مبنى لنزول المسافرين كما أنه لإقامة المتعبدين .
(٥) الوضر : الوسخ .
(٦) رقيق الدين : الملحد .
(٧) تلظت النار : تلهبت .

أغنية الملائكة[1]

ويــومــاً تبهــر الصلصــال نــوريــاً بــأنــوار
ويــومــاً تُضبــحُ الأرضُ سمــا مــنْ نجــمِ أقــدار
خَيــالُ المــرءِ ظمــآنٌ ، سيــولُ الــدَّهــرِ تــرويــه
ويــومــاً خــارجَ الأفــلاكِ فــي أمــنٍ سَتُلْقيــه
وفــي معنــىً لإنســانٍ تــأمَّــل أنْــتَ ثــمَّ اســأل
ويــومــاً بَعْــدَ تطــويــعٍ سَيُمْســي ذلــكَ الأكْمــل
ويعلــو منْــهُ شــأنٌ لــمْ يكــنْ فــي أمســهِ شيَّــا
ويــومــاً أنْــتَ لا تلقــاهُ عِنْــدَ الله مَــرْضِيَّــا

* * *

تمهيدٌ أرضيٌّ

تلوحُ روحُ جلال الدِّين الرومي ، وتتناولُ بالشَّرْحِ سرَّ المعراج

شُعْلــةٌ لِلْعِشْــقِ شَبَّــتْ فــي المــدينــة
ضجــةٌ لِلْقَــوْمِ تَطْــويهــا دَفينــة
تَنْشُــدُ الخلــوةَ فــي طَــوْدٍ أشَــم
أو على السَّاحلِ مِنْ بحرٍ خِضَم[2]
مــا وَجَــدْتُ لــي حميمــاً مــرَّةً
فَقَصَــدْتُ البَحْــرَ أُلقــي نظــرةً
ورأيــتُ البَحْــرَ فــي وقــتِ الغُــروب
زرقــةً فيهــا يــواقيــتُ تَــذُوب
للضَّــريــرِ واهــبٌ نــورَ البَصَــرِ
للمســاءِ مكســبٌ لــونَ السَّحــر
ثــم نــاجيــتُ طــويــلاً مُهْجَتــي
وطَلَبْــتُ فــي خيــالــي مُنْيَتــي[3]

---

(١) هذه المنظومة من بحر الهزج ، وهو في العربية سداسيٌّ أصلاً ، ولا يستعملُ إلا رباعياً، غيرَ أنَّ الفرس يستعملونه ثمانياً . وقد أوردناه ثمانياً كما ورد في هذا الشعر الفارسيِّ .

(٢) الطودُ الأشم : الجبلُ المرتفع . البحرُ الخِضَمُّ : العظيمُ الواسع .

(٣) المُهْجةُ : دَمُ القلب . والمرادُ به هنا القلب .

إنَّني الفـانـي ومـالـي مـنْ خلـود | وأنـا حـيٌّ ومثلـي فـي اللُّحـود
ظـامـئٌ والنَّبـع عـن ثغـري بعيـد | فـإذا بـي منشـدٌ هـذا النَّشيـد

***

غزل

افتَـحِ الثَّغْـرَ لـذةَ الشَّهْـدِ أطْلُـبُ | أظهرِ الخدَّ روضةَ الوَرْدِ أطْلُبُ
هـذه الكـأسُ فـي يـدي وبـأخـرى | شَعرُه ، إنَّ رقصةَ الوَجْدِ أطْلُبُ[1]
فـي دلالٍ تقـولُ قُـمْ أنـتَ عنَّـا | قلْ وكرِّرْ ، فقولةَ القَنْدِ أطْلُبُ[2]
أنـتَ يـا عقـلُ فـانصـرِف عـنْ هُـذاءِ | أنْتَ يا عِشْقُ صحوةَ الجدِّ أطْلُبُ[3]
إنَّ تلـكَ الحيـاةِ كـالسَّيْـلِ تمضـي | وأنـا الحـوتُ لُجَّةَ المـدِّ أطْلُـبُ[4]
ذاكَ فـرعـونُ أزمَـضَ النَّفـسَ جَـوْراً | نـورَ مـوسـى بليلـةِ البَـرْدِ أطْلُـبُ[5]
طـافَ فـي الليـلِ شيخُنـا بسـراجٍ | قـالَ إنِّـي مـؤجَّـلَ العَـوْدِ اطْلُـبُ[6]
ورفـاقٍ كَـرِهْـتُ مِنْهُـمْ خِصـالاً | رُستمـاً لـي وسيِّـدَ الأسْـدِ أطْلُـبُ[7]

---

(١) يريد برقصة الوجد رقص المولوية ، وهم أتباعُ جلال الدِّين الرومي المعروف بمولوي ، وكانوا يرقصون ، على أنَّ الرَّقص والسماع مما يثير في القلوب لوعةَ العِشْق الإلهي . وسنصفُ رقصهم تفصيلاً في الصفحاتِ الأخيرة من الكتاب .
(٢) القَنْدُ : السكر .
(٣) الهذاء : الاسم من هذي بمعنى تكلم بغير المعقول لمرض أو غيره .
(٤) اللجة : معظم الماء . والمدُّ : ارتفاع ماء البحر .
(٥) ذكرنا ليلة البرد هنا لأنَّ موسى عليه السلام كان يرعى غنمه ومعه امرأته في ليلة باردة وأراد أن يقدح بزَنْدِه فما أخرج الزَّندُ ناراً غير أنَّه شاهد ناراً من بعيد ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .
(٦) العود : العودة وجعلناها مؤجلةً للمبالغة .
(٧) رستم : بطلُ الأساطير الفارسية المشتهرُ بشجاعته وشهامته في الملاحم ، وأردنا بسيد الأسد أسد الله وهو عليٌّ كرم الله وجهه .

كـــم بحثنـــا ، وأيَّ شـــيءٍ وجـــدنـــا
قلـــتُ إنِّـــي بـــرغـــمِ ذا الفَقْـــدِ أطْلُـــبُ

فـــوقَ مـــاءٍ أغبـــرِ المـــوجُ نـــام ... غابتِ الشَّمسُ وفي الأفقِ الظَّلام
إنَّ منهـــا اللَّيْـــلُ شيئـــاً قـــد سَـــرَق ... يَشْهـــدُ الكـــوكـــبُ بـــالنُّـــور ائتلـــق
روحُ « رومـــي » مـــزَّقَـــتْ كـــلَّ السُّتـــور ... ولهـــا مـــنْ خَلْـــفِ أطـــوادٍ ظُهـــور[1]
إنَّـــهُ شَمْـــسُ الضُّحَـــى فـــي طَلْعَتِـــه ... وشبـــابُ شيبـــه ، فـــي مَيْعَتِـــه[2]
وبنـــورٍ ســـرمـــديٍّ قـــدْ أضـــاء ... مـــنْ حُبُـــورِ الخُلْـــدِ غطَّـــاه الـــرِّداء[3]
شفتـــاه فيهمـــا ســـرُّ الـــوجـــود ... فـــكَّ عنـــهُ القَـــوْلَ فكَّـــاً للقُيـــود
إنَّ هـــذا القَـــوْلَ مـــرآةٌ تـــدلَّـــت ... وهـــو عَلَـــمٌ فيـــه نـــارٌ قـــد تجلَّـــت
غَيْـــرُ مـــوجـــودٍ ومـــوجـــودٌ ؟ أجبنـــي ... غيـــرُ محمـــودٍ ومحمـــودٌ ؟ أجبنـــي
قال لي الموجودُ ما يبغي الظهور ... فـــالـــوجـــودُ يقتضـــي هـــذا الظُّهـــور
للـــوُجـــودِ زينـــةٌ تُـــدْعـــىٰ « أنـــا » ... رغبـــةٌ فـــي الـــذَّاتِ بـــرهـــانٌ لنـــا[4]
ألِفُـــوا يـــومَ « ألَسْـــتُ » مجمعـــاً ... « أينَ مَنْ يشهد ؟ » قالوها معاً[5]
إنْ تكـــنْ حيّـــاً أو الميـــتَ الـــدَّفيـــن ... أو تَجُدْ بالرُّوح سلْ عن ذا الأمين[6]
شـــاهـــداً فلتتخـــذْهُ مـــنْ شعـــور ... أو عيـــونٍ مـــا لهـــا إلاكَ نـــور

---

(١) روميٌّ : هو جلال الدين الرومي . والأطواد : الجبال .
(٢) مَيْعةُ الشباب : أوَّله .
(٣) السَّرمديُّ : الخالد . والحُبورُ : السُّرور .
(٤) أنا هنا بمعنى الذَّات أو الفرد . وفي رأي إقبال أنَّ حياة الإنسان لن تكون إلا فردية ، ولا وجود لحياة كلِّية في واقع الأمر ، وتجلِّي الحياة في الفرد ليس إلَّا . فالأنا أو الإنسان يسمو ويخلد بالعمل ، وإلى تلك الحقيقة كانت إشارةُ الإسلام .
(٥) يُكْثرُ شعراءُ التصوُّف من الفرس ذكرَ يوم « ألستُ » مشيرين بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .
(٦) المراد بهذا الأمين : الشَّاهد .

واجعلِ الثاني شعورَ الآخرين — شاهد الذَّاتِ بعينِ الآخرين

ولتكنْ ذاتُ الإله خيرَ شاهد — ولها نورٌ به ذاتاً فشاهد

أنتَ إنْ واجهْتَ ذيَّاكَ الضِّياء — نِلْتَ طولًا سرمديّاً للبقاء

الحياةُ هي للذَّات الوصول — وهي ذاتٌ ليس يُخفيها سُدول[1]

لم تلائمْ مؤمناً قطُّ الصِّفات — ما اختيارُ المصطفى إلا لِذَات

ما هو المعراجُ ؟ مرجاةٌ لشاهد — واختبارٌ ، وتراهُ عينُ شاهِد

شاهدٌ عدلٌ وممَّا قاله — عيشُنا البستانُ أزهارٌ له

ما لإنسانٍ ثباتٌ في الحضُور — أو هو الكاملُ لا يشكُو القُصور[2]

ذرةً لا تلق من هذا اللَّهيب — ثم صُنْهُ مِثْلَ تِذْكارِ الحبيب

أنْ تزيدَ النُّورَ فيك ذاك أخْلَقُ — أنْ تضاهيه بشمسٍ ذاكَ ألْيَقُ

جسمَك البالي جدِّدْ بالصِّقال — واختبرْ ذاتك عِشْ فالعمرُ طال

ليس بالمحمودِ إلا ذو الوجود

عيشُنا لولاهُ ما يعلو الوقُود[3]

قلت كيفَ نحنُ نمضي قصدُنا الحقُّ — لجبالٍ ومياهٍ كيفَ ذا الشقُّ[4]

وبعيدٌ آمرٌ عن أمرنا — والزَّمانُ شَصُّه في حلقنا[5]

قلت والسُّلطان إمَّا كانَ لك — لاستطعتَ اليومَ تحطيمَ الفَلَك[6]

انتظرْ يوماً تعرَّى الكائنات — والغبارُ طالَ منْ ذيلِ الجهات

---

(١) السُّدول : جمع سدل ، وهو الستر . واللام في للذات بمعنى إلى .

(٢) الحضور عند المتصوفة هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبيُّ عنده كالحكم العينيِّ . ونقيضُه الغيبة ، وهي غيبة القلب من دون الله حتى يغيبَ عن نفسه ، ويستطيع مشاهدتها .

(٣) الوقود : النار واتِّقادها . والدُّخان هو المراد بما يعلوها ، وهو متفرِّقٌ متبدد .

(٤) الحق : هو الله جل وعلا .

(٥) الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

(٦) إما : مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

الأقـــلَّ لا تـــرى والأكثـــرا … أنـتَ منـه وهـوَ مِنْـك مـا تـرى

قـولُـه ﴿ إلا بسلطـان ﴾ تَـذَكَّـرْ … أو فَمُتْ في الوَحْل والذرِّ المبعثر[1]

بـــولادِ أيُّهـــذا الألمعـــي … كنتَ فـي دنيـا الجهـات الأربـع[2]

بـولادِ أنْـتَ قـد تمضـي بعيـدا … وتفـكَّ عنـك هـاتيـكَ القُيـودا

ليـسَ مِـنْ مـاءٍ وطيـنٍ ذا الـولادْ … مـا دراهُ قـطُّ إلا ذو فـؤادْ

ذاكَ مـنْ جبـرٍ وذا بـالاختيـار … ظـاهـرٌ هـذا وذا خَلْـفَ السِّتـار

بـالبكـا ذاكَ وذا بـالابتسـام … بـاحـثٌ هـذا وللثَّـانـي المـرام

ذا سكـونٌ ، سيـره فـي الكـائنـات … ذاكَ قـطُّ لا يسيـرُ فـي الجهـات

ذا لليـلٍ ولصبـحٍ حـاجتُـه … مـا همـا إلا لـذاكَ دأبتـه

مـولـدٌ للطِّفْـل بطنـاً قـد فطـر … للـرِّجـالِ المـولـد الـدُّنيـا فَطَـر

ودليـلُ العـالمِيْـنَ فـي الأذان … ذاكَ بـالـرُّوح وهـذا بـاللِّسـان[3]

مـولـدٌ للـرُّوح حلَّـت جسمَنـا

زَلْـزَلَ الـدُّنيـا فمـاجَـتْ حـولَنـا

قلـتُ لمـولـدِ معنـىً لا أراه … قـال شـأنٌ مـن شـؤونٍ للحيـاه

إنَّمـا دنيـاكَ غيـبٌ أو حضـور … ثـابـتٌ هـذا وللثـانـي المُـرور

ولـذاتٍ ذوبُهـا فـي جلـوةٍ … وتـراهـا جَمَعـتْ فـي خلـوةٍ

جلـوةٌ للـذَّات فـي نـور الصِّفـات … لكـنِ الخلـوةُ مـنْ نـورٍ لِـذَات

عقلُهـا الـدَّافـعُ نحـو الجلـوةِ … عِشْقُهـا المـاضـي بهـا لِلْخَلْـوةِ

وإلـى العـالـمِ هـذا العقـلُ جـاء … كـي يَحُـلَّ اللُّغْـزَ مـن طيـنٍ ومـاء

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] والشاعر يصف قدرة الإنسان بطاعة الرحمن . والذر : صغار النمل .

(2) الولاد : الولادة . والألمعيُّ : الذكي الحصيف .

(3) جرت العادة بالأذان في أذن الوليد .

كلُّ جلمودٍ له أضحى أديبا   ثم أمسى البَرقُ والغَيْمُ الخطيبا
عينُه تألف ذوقاً للنَّظر   لا كعربيدٍ جريءٍ في الغَرَر[1]!
يَرهَبُ السَّيْرَ فيمضي كالضرير   نملةً أنتَ تراه إذْ يسير
حيثُ كانَ العقلُ فوقَ القوَّة   أمَّ مَنْ يهوىٰ وئيدَ الخُطْوَة[2]
أمرُه شيئاً فشيئاً ينتظمْ   فمتى أمرٌ له يوماً يَتِمْ
ما درىٰ العِشْقُ شهوراً منْ سنين   لا ولا حتَّى قريباً منْ شَطُون[3]
وَيَشُقُّ العقلُ شقّاً في الجبل   أو حواليه يطوفُ في مهل
ومِنَ العِشْقِ جبالٌ كالهشيم   وقلوبٌ كالسُّموكِ إذْ تعُوم[4]
إنَّما العشقُ بَياتُ اللاَّمكان   والمماتُ دونَ قبرٍ لِلْعِيَان[5]
ليس يقوى العِشقُ من ريحٍ وماء   لا ولا منْ قُوَّةٍ للأقوياء[6]
خيبراً نال بخبزٍ منْ شعير   شقَّ ذلكَ البدرَ المنير
رأسَ نمرودٍ بلا ضربٍ حَطَمْ   جيشَ فرعونَ بلا حربٍ هزم[7]
إنَّه في الرُّوحِ ، في العَيْنِ البصر   كامنٌ فيها وها منها انتشر
والرَّمادُ العِشقُ والعِشقُ الضَّرم   يفضلُ الدِّينَ ومنْ علمٍ أهم
وهو سلطانٌ وبرهانٌ مبين   وله قدْ عفَّر الكونُ الجبين
أمسُنا والغدُ وهو اللاَّزمان   ما دنا أو شطَّ وهو اللامكان
منْ إلهِ الكَوْن ذاتاً يطلب   وله الكونُ جوادٌ يُركَبُ

---

(١) العربيد : من يؤذي نديمه في سكره ، والمراد به هنا الصُّوفي . والغرر : التعرُّض للهلاك .
(٢) أمَّ : قصد . والوئيد : البطيء .
(٣) الشَّطون : البعيد .
(٤) السُّموك : الأسماك .
(٥) البيات : الهجوم ليلاً . والعيان : المعاينة والمشاهدة .
(٦) الريح والماء والتراب والنار هي العناصر الأربعة .
(٧) حطم بمعنى حطَّم .

منه يبدو ما لقلبٍ من مَقام — يبطلُ الفتنةَ في دنيا الحطام
يَهبُ العشَّاقُ ربّاً نَفْسَهُم — باذلينَ العقلَ قرباناً لهم
عاشقٌ أنت ؟ على اللاصَوْب أقدِمْ — وعلى ذاتِكَ موتاً فلتُحَرِّم[1]
أنتَ يا منْ أنتَ ميتٌ في الحفير — القيامُ ممكنٌ مِنْ غيرِ صور[2]
لكَ لحنٌ مُطربٌ في المَسْمَعِ — فإلامَ منكَ صوتُ الضِّفْدَعِ
المكانَ والزَّمانَ اركَبَنْ — ذلكَ الزُّنَّارَ عنكَ اطْرَحَنْ[3]
اشحَذِ الأذْنَ واشحَذْ عينكا — ما تراهُ عَنْهُ فاسألْ عَقْلَكا
« منْ بسمعٍ منْهُ صوتُ النَّملِ مرًا — فَمِن الدَّهر وعَىٰ للدَّهرِ سرًّا »[4]
تَخرِقُ النَّظرةُ لي كلَّ الستور — في عيونٍ ما لها ذُلُّ الأسير

إنَّما الإنسانُ هذاكَ النَّظر
فبهِ مَنْ كانَ يَهوىٰ قَدْ غَمَر
كلَّ هذا الجسم فاصْهَرْ في النَّظر
فعليكَ وعليكَ بالنَّظر[5]

مِنْ سمواتٍ تَخافُ ! لا تَخَفْ — وُسْعةَ الدُّنيا تخاف ! لا تَخَفْ[6]
الزمانُ والمكانُ فلتشاهدْ — فيهما حالًا لروحٍ أنتَ وَاجِدْ
نظرٌ من جلوة إمَّا سبق — فاختلافُ الغَدِ والأمسِ انبَثَقْ
حبةٌ في جوفِ طينٍ مظلمِ — لا ترى عُلو الفضاء الأعظمِ
وهي لا تدري قريباً أنَّها — قد تمدُّ في السماء غصنَها

---

(١) الصَّوب : الجهة .
(٢) الحفير : القبر .
(٣) الزنار : حزام يتمنطق به أهل الذمة .
(٤) هذا البيتُ للشاعر الفارسي جلال الدِّين الرُّومي .
(٥) هذان البيتان من شعره كذلك .
(٦) الوسعة : الاتِّساع .

ولهــا الجــوهــرُ نعــرقُ للنمــاء
ومقــامٌ ، وهمــا أيضــاً ســواء[١]

قلتَ إنَّ الجسمَ لـلأرواحِ مَخمِـل ... أبصرِ الرُّوح وعن جسمٍ فَمِل[٢]
إنَّما الجسمُ تعلـك الـرُّوح حـال ... قـولُـك المحمـل زوراً ومحـال
ما هي الرُّوح؟ احتراقٌ بالوجيب ... وهي ذوقُ الغزو للأفقِ الرَّحيب[٣]
واعتيـادُ اللـونِ والـريـحِ والجسـد ... والمَقَـامُ فـي الجهـات بـالعـدد[٤]
القـريـبُ والبعيـدُ فـي الضمير ... إنمـا المعـراجُ تغييـرُ الشُّعـور
في الشُّعور ذاك من جذبٍ وشوق ... خلِّصنَّ الـذَّات مـن تحتٍ وفـوق

ليسَ هـذا الجسـمُ للـرُّوح النَّظيـرا
والتُّـرابُ مـانعـاً مـن أنْ نطيـرا[٥]

***

« زروان » وهو روحُ الزَّمان والمكان

يمضي بالمسافر في سفرته إلى العالم العلوي[٦]

دبَّ فـي روحـي فتـورٌ مـنْ كـلامـه ... زئبـقٌ ذرَّاتُ جسمـي مـنْ أمـامـه[٧]

---

(١) النماء : النمو ، يقول : إنَّ الحبة هي جوهرها .
(٢) المحمل : شقَّان على البعير يُحمل فيهما العدلان .
(٣) الوجيب : خفقان القلب .
(٤) المقصود بتلك الجهات الجهات الأربع أو الاتجاهات الأربعة .
(٥) التراب هنا هو مادة جسم الإنسان .
(٦) زروان في المجوسية أو الزرادشتية هو الزمانُ المطلق . وعند بعض المجوس : الذين يقولون بوجود إلهين أهورامزدا إله الخير وأهريمن إله الشر ، وأنَّ هذين الإلهين ظهرا من زروان ، ويُعرفون بالزروانيَّة ، كما يذهبون إلى التوحيد ، ويرفضون الثنوية .
(٧) يعني بقوله : إنَّ ذرات جسمه كالزئبق : أن جسمه يرتعد . ومن : بمعنى في .

بَغْتَةً شاهدتُ بينَ الخافقين ... السَّماءَ في غمامٍ كاللُّجين[1]
مَلَكٌ يَهْبِطُ من هذا الغمام ... طلعتاهُ في البياضِ والقَتَام[2]
هذه كاللَّيلِ والأخرى مُنيره ... هاهما يقظىٰ ووسنىٰ كالضَّريره[3]
في الجناحِ حمرةٌ أو صفرةٌ ... ولُجَيْنٌ أزْهَرَتْه خُضْرةٌ[4]
في طباعٍ منه سَرْبٌ للخَيَال ... بينَ أرضٍ ونجومٍ في انتقال[5]
فتراهُ كلَّ يومٍ في سماء ... لجناحَيْهِ جديدٌ منْ فضاء
قال زروان أنا الدُّنيا قَهَرْتُ ... وأنا منْ قَدْ ظَهَرْتُ واختفيت
كلَّ تدبيرٍ بتقديرٍ رأيتُه ... كلَّ حيٍّ في شباكي قد حملته
إنَّ بي للزَّهر في الغُصنِ النَّماء ... وَلِتلْكَ الطَّيرِ في الوَكْرِ الغَنَاء
تُصْبحُ الحبَّةُ إنْ طِرْتُ الغُصونا ... وبفيضي الوَصْلُ نالَ العاشقونا
وأنا منْ لي العتابُ والخِطاب ... أُظمىءِ الظَّامي وآتي بالشَّراب
الحياةُ والمماتُ والنُّشور ... وأنا النَّارُ وجنَّاتٌ وحُور
في يدي الإنسانُ بل كلُّ الملائك ... وبنيَّ عالمٌ منْ فيه هالك[6]
ما قَطَفْتُ منْ ورودٍ فهو لي ... أمُّ ما لِنَاظرَيْك يَنْجَلي
إنَّما الدُّنيا أسيرٌ في طلسمي ... وتشيخُ في زفيرٍ منْ فَمي
« لي مع الله » حديثٌ منْ وعاه ... سرى المغمورُ في لَبْسٍ وَعاه[7]
إنْ أردتَ لي رحيلاً منْ هنالك ... « لي مع الله » اذكرنَّ في فُؤادك

---

(١) الخافقان : المشرق والمغرب . اللجين : الفضة .

(٢) يقول : إن له طلعتين أو وجهين ، أحدهما : أبيض ، والثاني : أسود . والقتام : السَّواد ، والظلام .

(٣) وسنى : نائمة .

(٤) أزهر المصباح : أضاءه .

(٥) سرب سرباً : مضى في الأرض على وجهه .

(٦) الملائك : الملائكة .

(٧) يشير إلى قوله ﷺ : « ولي مع الله وقت » .

أيُّ شـيءٍ كـان لـي مـن رؤيتـه ... قـد نسيـتُ عـالمـي مـنْ قُـدرتـه
عـالمـاً آخـرَ أبـدي يـا تـرى ... أو كـأنَّ عـالمـي قـد غيَّـرا !
بَيْـنَ ألـوانٍ وريـحٍ قـد قَضَيْـتُ ... وإلـى دُنيـا الكـونِ قَـدْ مَضَيْتُ[1]
وأنـا عـن عـالمـي هـذا انقطعـتُ ... عـالمـاً آخـرَ إنِّـي قـد مَلَكْـتُ
لِضَيـاعِ عـالمـي إنِّـي حَـزِنْـتُ ... مـنْ تُـرابـي غيـره هـا قـدْ وَجَـدْتُ
خفَّ جسمي ، ذاك روحي ما استقر ... وبقلبـي زادَ نـورٌ للبصـر
والخفـايـا مـا عليهـا مِـنْ حِجَـاب ... والنُّجـومُ لحنُهـا لحـنٌ عُجـاب

* * *

زَمْزَمةُ[2] النُّجوم

عقلُـكَ الحـاصـلَ كـانَ للحيـاة ... لـكَ عشـقٌ هـو سـرُّ الكـائنـات
فتعـالَ ، أنـت يـا هـذا التُّـراب ... مـرحباً ولتمـضِ فـي دنيـا الجهـات
وعليـكَ المشتـري والـزُّهْـرةُ الحسـ ... ـنـاءُ كـانـا فـي شـديـدٍ مـنْ نِـزاع
رغبـةٌ فـي نظـرةٍ منْـكَ أثـارتْ ... ما أثارتْ من تجلِّي المعجزات[3]
وطـريـقٌ للحبيـب ، كـم جـديـدٍ ... وجـديـدٍ فيـه يبـدو للتَّجلِّـي
إنَّمـا هـذا الحنيـنُ للـوحيـد ... فـي قلـوبِ العـاشقيـنَ الشَّيقـات[4]
الحيـاةُ إنَّهـا هـذا الصفـاء ... الحيـاةُ إنَّهـا هـذا النَّمـاء

---

(١) الريح : الرائحة . وقضى : مات .

(٢) الزمزمة : الترنُّم ، أو التكلُّم بصوتٍ خفي . وقد آثرنا أن نترجم هذه المنظومة على نسقها في أصلها .

(٣) الزُهرةُ: كوكبٌ معروفٌ وقد سكنت الهاء فيها لضرورة الشعر . يقول الشَّاعر : إنَّ رغبةَ المشتري والزهرة في نظرةٍ منك إليهما وهما المتنافسان عليك ، مما أثار هذا التجلِّي .

(٤) الشيق : المشتاق .

الحيـاةُ مُلـك ربـي ، بـاعـدِ الـ ـخطو سريعاً ولْتَسِرْ حتَّى الفناء[1]

غـزلٌ إنْ شـاقَ منـك النفـس يـو مـاً فلـه رَجْـعَ الصِّيـاح ، امْتَحَـنْ

شحْنـةَ السُّلطـان يبـدو ثـمَّ خـ ـميرا بحانٍ ، جرَّةَ الرَّاح امْنَحَنْ[2]

فـي العـراقِ والشـآم بـلْ وهنـ ـد ثم فرس ، يألفون الطَّعْمَ حلوا

هـؤلاءِ يطلبـونَ الحُلْـوَ دوْ ماً ، طعم هذا العِشْقِ مرّاً ، امنْحَنْ

كـي يمـورَ البحـر بـالأمـواجِ مـوْ راً وهو طامٍ في عُرامٍ واحتدام[3]

متعـةٌ للسَّيْـلِ يجـري بـالهـديـ ـر منْ حَدُورِ السَّهل نهراً ، امْنَحَنْ[4]

الفقيـرُ كـانَ نـاراً كـلُّ مُلـ ـكٍ ليس إلا من غُثاء ، فاعْلَمنْ

الملـوكُ حَسْبُهُـمْ فـي بطشهـم منْ مُعْدَمٍ رَفْعَ النِّداء ، فاعْلَمنْ[5]

إنَّ للصُّـوفـيِّ عـزّاً يـا لـه عـزّاً ، وهـذا المُلْـكُ لـلإسكنـدرِ

إنَّ للصُّـوفـيِّ جـذبـاً مـن كليـ ـم الله ، لكنَّ ذاكَ سِحْرُ السَّامري

يُقْتَـلُ الصُّـوفـيُّ بـالعينيـن لـ ـكـنَّ الملـوكَ بـالجيـوش قَتْلُهـم

ذاكَ يبغـي السِّلْـمَ والصُّلْـح وهـم يبغـون بـالهيجـاءِ حُكْـمَ الجـائـر[6]

ذا وذاك يـا لعمـري يفتحـا ن عـالَمَيْـن ، والـدُّوام بُغيـةٌ

ولهـذا كـانَ قـولٌ ليِّـنٌ لكـنْ لـذاكَ كـان عنـفُ القـاهـر[7]

---

(١) النماء : النُّموُّ . ولتسر حتى الفناء : أي إلى الأبد .

(٢) الشِّحنة : من يقوم للسلطان بضبط اليد . والخمير : من يُدمن شرب الخمر . والرَّاح : الخمر .

(٣) يمور : يضطرب . الطامي : الممتلىء الجائش . العارم : العنف والشدَّة . والاحتدام بهذا المعنى .

(٤) الهدير : صوت أمواج البحر . والحَدُور : المكان ينحدر منه .

(٥) الغثاء : ما يحمله السيل من القش واليابس من أوراق الشجر . يقول : إنَّ للفقير ناراً تحرق الملك قشاً وصوت الفقراء إذا ارتفع بالشكوى قوَّض ملك الملوك .

(٦) الهيجاء : الحرب .

(٧) أي أنَّ الصوفي والملك كل منهما له عالم يفتحه ، وإنِ اختلف هذان العالمان ، وكيفية=

فتعــالَ وتقــدَّم ، قبضــةُ الصُّــوفــي قــدَّم ، سَــدَّ ذي القــرنيــن حَطِّــمْ
أحــي مــا كــان لمــوســى مــنْ رســو م، ليس هذا السِّحْرُ غَيْرَ المَيْنِ، حَطِّمْ[1]

***

= فتحهما ، كما تختلف رغبة الصوفي عن رغبة الملك في الدوام .

(١) المين : الكذب . والكلام في الشطر الأول من هذا البيت منصرف إلى ذي القرنين الذي قيل عنه إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا ، كما قيل : إنَّه كان نبياً . وسمي ذا القرنين لأنَّه طاف قرني الدنيا ، يعني شرقها وغربها . وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان ، أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، كما ذهب بعضهم إلى أنه سمِّي ذا القرنين لقرنين على تاجه ، وهو من الروم ، وإقبال يلمح إلى ما جاء في القرآن عنه ، وهو قوله عز من قائل : ﴿ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤] .




القسم الأول

فَلَكُ القَمَر






فلكُ القمر

إنَّمـا الأرضُ لـربـي والسَّمـاءُ　　الثـريَّـا مـا ورثنـا والضِّيـاء
كـلُّ مـا للنَّـاظـرَيْـنِ قـدْ بـدا　　بعيـونٍ لصفـيٍّ فـاقصـدا
لا تَسِرْ مِثْلَ الغـريـب فـي ديـارك　　لا تَخَفْ مـنْ غُـرْبـةٍ مَـرَّتْ ببـالـك
إنَّ منْـكَ القـولَ كـلٌّ يَمْتثـل　　وبـأمـرٍ أو بنهـيٍ قـدْ عَمِـل
عـالـمٌ لِلْعَيْـن والأذنِ الصَّنـم　　والرَّدى ما كانَ في الدُّنيا اخترم[1]
أشْبِـه المجنـونَ فـي وادي الطَّلـب　　كُـنْ كـإبراهيـم فـي قـومٍ وَكَـبْ[2]
إنْ طَـوَيْـتَ الأرضَ طيّـاً والسمـاء　　عـالميـكَ اطـوِ علـى حـدٍّ سـواء
غيـرَهـا سبعـاً مـن الله اطْلُبـنَ　　كـمْ زمـانٍ ومكـانٍ تَسْـألَـنْ[3]
خـارجَ الـذَّاتِ بشـطِّ الكـوثـر　　لا تـرى خيـراً وشـرّاً ينبـري[4]
لـو بكـفٍّ الـذَّاتِ عـن بحـثٍ أمـان　　كـانَ هـذا القَبْـرُ خيـراً مـن جِنَـان

وتمـوتُ الـرُّوحُ مـنْ طُـولِ المَقَـام
أيُّهـا الـرَّاحـلُ ، فـامـضِ لـلأمـام

ومَـعَ النَّجْـمِ تطيـبُ سفـرتُـك　　حبَّـذا مـنْ غيـرِ وقـفٍ رحلتُـك
حيـنَ كـانَـتْ فـي الفَضَـاءِ وطـأتـي　　مـا عَـلا ألقيـتُ تَحْـتَ نَظْـرَتـي

---

(١) اخترمه الموت : أخذه .

(٢) المجنون هنا هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى . وقد ولهه العشق حتى اختلط عقله ، وهام على وجهه في القفار . وشعراء التصوف يرمزون به إلى العاشق الإلهي . ووكب بمعنى قام . والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام الذي قام في قومه وحطَّم أصنامهم .

(٣) يريد سبع سموات يطلبها وما لا يحصى كثرةً من الأزمنة والأمكنة .

(٤) انبرى : تعرض .

هــذه الغبــراءُ قنديــلُ اللَّيــالــي　　وعلـى رأسـيَ ظِلِّـي قـد بـدا لـي
واقتــربــتُ فــي صُعــودي واقتــربــت　　وعلــى البَـذْرِ جِبَـالًا قـد رَأَيْـت
قَـوْلَـةَ « الرُّومي » : بـدذْ كـلَّ شك　　وتــرسَّــم مــا تــراهُ لِلْفَلَــك[1]
يَبْعُــدُ البَــذْرُ ولكــنْ تــألفُــه　　منــزلًا فــي نهجنـا ذا نعـرِفُــه[2]

ليلُــه والصُّبْــحُ فيــه مــا يُــرى
فيــهِ غِيْــرَانٌ لإعجــابِ الــورى[3]

يــا لصمــتٍ ولــرعــبٍ فــي الجبــل　　ظهــرُه الأخــدودُ والجــوفُ اشتعــلْ
فتــأمَّــلْ « خــافطيــن » و« يلــدرم »　　والــدُّخــان فــوقَ نــارٍ تَضْطــرِمْ[4]
مــا زكــا عشــبٌ بِتِلْــكَ الأرضِ قــط　　لا ولا طيــرٌ جنــاحــاً قــد بَسَــطْ
الجهــام ، والــرِّيــاحُ العــاصفــات　　ناشبتْ حرباً لها تِلْك الموات[5]
عــالــمٌ مــا فيــه مــن لــونٍ وصــوت　　لا حيــاةَ فيــه أوْ آثــارَ مَــوْت
ليــس فــي بطــنٍ لــه أصــلُ الحيــاة　　لا ولا في الصُّلْب سَيْرُ الحادثاتِ
وسليــلٌ لــذُكــاء ذا الــوجــودْ　　لانقــلابٍ قــطُّ مــا كــانَ الــولــودْ[6]
قولة : « الروميِّ » : تابغ خَطْوَتَكْ　　وعلــى مــا نِلْــتَ شــدُّدْ قَبْضَتَــكْ
مــا اختفــى يَفْضــلُ فيــه مــا ظَهَــرْ　　ولــدَيْنــا فيــهِ كــانَ المُسْتَقَــرْ
يــا ذكــيَّ اللُّــبِّ كــلُّ مــا حَصَــلْ　　فبسمعيــكَ اخْتَجِنْــهُ والمُقَــل[7]
تَظْهــرُ الــدُّنيــا لعيــنٍ بــاصــرة　　إنَّهــا الميــزانُ وهــي النَّــاظــرة

---

(١) الرومي : جلال الدين الرومي . وترسَّم الدار : نظر إلى آثارها وتأمَّلها .
(٢) المنزل : مكان النزول . والنَّهج : الطريق .
(٣) الغيران : جمع غار وهو الكهف . والورى : الناس .
(٤) خافطين ويلدرم : اسم جبلين يتخيلهما الشاعر في القمر .
(٥) الجهام : السحاب لا مطر فيه . والموات : الأرض الخربة .
(٦) ذُكاء : الشمس . والسليل : الابن . والولود : الوالدة .
(٧) اللب : العقل . السمع : الأذن . احتجن الشيءَ : جذبه إليه .

أينمــا يَحْملــكَ مــولانــا انْطَلــقْ لا تفكّـر فـي سـواه واصطَفِـقْ »[1]

ثــم شُــدَّ الكــفَّ منــي فــي مَهَــلْ

وإلــى غــارٍ حثيثــاً قــد وَصَــلْ

***

الحكيم الهنديُّ الذي آثر الخلوة في غارٍ منْ غيرانِ القمر

ويسميه أهل الهند « صديق النَّاس كافة »

كضــريــرٍ قــادنــي هــذا الــرَّفيــق ودخلــتُ ذلــكَ الكهــفَ العميــق

مــن ظــلامٍ فيــه ذا بــدرٌ ملــول تحملُ المصباحَ شمسٌ للدُّخول !

وعــذابــي طــال فــي وهمــي وظنِّــي وكــأنَّ العَقــلَ منِّــي مــاتَ عنِّــي

ومَضَيْــتُ واللُّصــوصُ فــي الكَميــن مــا بقلبــي الصِّــدقُ أو بَــرْدُ اليقيــن

جلــوةٌ لاحــت لعينــي فــي جــلاء ظَهَــرَ الصُّبْــحُ ولــم تَبْــزُغْ ذُكــاء[2]

هــذه الأحجــارُ عبَّــادَ الصَّنــم أرضُ جــنٌّ نخلُهــا مِثْــلُ الأكَــم[3]

كــانَ مــنْ مــاءٍ وطيــنٍ ذا المَقَــام أو خيــالــي يتهــادىٰ فــي المنــام[4]

النَّسيــمُ مثــلُ خمــرٍ تُسْكــرُ والظِّــلالُ ومــضَ نــورٍ تُظْهــرُ

مــا رأيــتُ قُبَّــةً مــنْ لازَوَرْدِ لا ولا في الأفقِ من ألوانِ وردِ[5]

مــا أقــامَ النُّــور فــي أسـرِ الظَّــلام وامَّحــى صُبْــحٌ وليــلٌ مــن قَتَــام[6]

---

(١) مولانا هو جلال الدين الرومي . اصطفق : تحرك ، واضطرب .

(٢) بزغت الشمس : أشرقت . وذُكاء : الشمس .

(٣) الأكم : جمع أكمة : وهي الهضبة .

(٤) يتهادى : يتمايل في مشيته .

(٥) اللاَّزَوَرْد : حجر تشبه زرقته زرقة السماء .

(٦) القَتام : السواد والظلام .

وحكيـمُ الهِنْـدِ فـي ظـلٍّ جلـس عينُـه فـي الكُحْـلِ نـورٌ لِلْغَلَس[1]
جِسْمَـةُ الـوهنـانَ عـرَّى كلَّـه حيـةٌ بيضـاءُ تسعـى حَـولَـه
وعلـى الإنسـانِ مـن طيـنٍ مفضَّل صـورةُ تلك الـدُّنـى ممَّـا تخيَّل[2]
لا يَعُـدُّ الـوَقْـتَ أيـامـاً تمـرُّ والـزَّمـانُ لا يفيـدُ أو يضُـرُّ
قـال للـروميِّ مـنْ هـذا الرَّفيـق ؟ منيـةُ الـدُّنيـا بعينيـه البـريـق !

***

الرُّوميُّ[3]

إنَّـه الجـوَّالُ فـي وادي الطَّلَـب يُشْبهُ السيَّار في السَّيْرِ اضطرب
غِـرَّةٌ منهـا لـه رأيٌ سـديـد وعلـى عيـبٍ لـه إنِّـي شَهيـد[4]
كـأسُه قـد أصبحـت قـوسَ السَّمـاء فِكْـرهُ يبغـي إلـى الـوحـي انتمـاء
كـالعقـابِ صَيْـدُه للنيِّـرَيْـن في السَّماءِ طوفُه بـالخـافِقَيْن[5]
كلَّـمَ الأرضَ كمَـنْ نشَّـى بـدَن والجنـانُ عِنْـدَهُ بيـتُ الـوَثَـن[6]
لـدخـانٍ مِنْـهُ نـارٌ فـي صعـود ورأيـتُ الكبـريـاءَ فـي سجـود
نـاحَ كـالنَّـاي لِفَـرْطِ الاشتيـاق وقتيـلٌ فـي الـوِصَـالِ والفِـراق

لسـت أدري السـرَّ فـي صَلْصـالـه
والمَقَـامَ ، والـذي فـي منـزلـه

***

---

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٢) الدُّنى : جمع دنيا .
(٣) هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .
(٤) الغرَّة : الغفلةُ وعدم التجربة .
(٥) النيِّران : الشمسُ ، والقمر . والخافقان : المشرق والمغرب .
(٦) نشَّى : سكر . والدَّن : جرَّة الخمر . والفرس يشبهون الحسناء بالوثن أي الصنم في الحسن .

جهان دوست

مـا لِـرَبِّ الكـونِ لـونٌ ، وهُـوَ لـون
أيُّ ربٍّ أيُّ إنســـانٍ وكَـــوْن ؟

الروميُّ

إنَّمـا الإنســانُ سَيْـفٌ لِـلإلٰـه ... ذلـكَ الكَـوْنُ مسـنٌّ قـد تـراه
شـاهـدَ الشَّـرقُ الإلـهَ وَحْـدَهُ ... وأشـاحَ الغَـرْبُ عَنْـهُ خَـدَّهُ[1]
أنْ تـرى اللهَ بعينيـك التُّقـاة ... أنْ ترى الـذَّاتَ ولا سِتْرَ الحياة[2]
وإن العبـدُ مـن الـدُّنيـا انعتـق ... رحمـةَ الرَّحمـن بـالعبـدِ اسْتَحَـق

إنْ غَفَلْـتَ ذاتَ يـومٍ عـنْ قَـدَر
فـارق الصَّلْصَـالَ روحٌ ذو شَـرَر

جهان دوست

فـي طِلَسْـمٍ للـوُجـودِ والعَـدَم ... ذلـكَ الشَّـرْقُ بسـرٌّ مـا ألـم
مـا لنـا أهـلَ السَّمـا إلا النَّظـرْ ... فـي غـدٍ للشَّـرقِ تحقيـقُ الـوَطَـرْ
شـاهَـدَتْ عينـي علـى رأسِ الجبـلْ ... مَلَكـاً مـنْ قُبَّـةِ الـزَّرقـا نَـزَلْ
كـانَ مـنْ عينيـه ذوقٌ للنَّظَـرْ ... وهـو بـالعينيـن دنيـانـا غَمَـرْ
قلـتُ سـرّاً عـن صفـيٍّ لا تكـنْ ... أرضُنـا كيـف تـراهـا اذْكُـرَنْ
حُسْـنُ نجـمٍ لاح فـي أُفُـقٍ عَشِقتـا ... في قليبِ السِّحر قلباً قَدْ رميتا[3]

---

(١) أشاح عنه وجهه : أعرض متكرهاً .
(٢) التقاة : التقوى .
(٣) القليب : البئر . والإشارة إلى البئر التي نكس فيها هاروت وماروت . وهما شيطانان كانا يُعلِّمان الناس السحر في بابل . ويقال : إنَّهما ملكان عشقا النساء وعلقا منكسين في بئر . كما قيل : إنَّهما مثالٌ لرجلٍ اتقى ربَّه ، واقترب منه ، ثم أضلَّه الشيطان .

قال يَبْدُو الآنَ هذا المَشْرِقُ شَمْسُهُ الأخرى عليهِ تُشْرِقُ
يَظْهرُ الياقوتُ منْ صَخرِ الطَّريق يوسفُ يخرجُ منْ جُبٍّ عميق[1]
ويولِّي عن ديارٍ منْ كَفَرْ ليرى عن ذلك الكُفْرِ المَفَرْ[2]
حبَّذا شعبٌ بروحٍ قد خَفَقْ ذاتُه منْ طينه هذا خُلِقْ

حاملُ العَرْشِ بأعيادٍ فَرِحْ[3]
إنْ رأى للشَّعْبِ عيناً تَنْفَتِحْ

غاصَ شيخُ الهندِ في صمتٍ قليلا فرآني تِهْتُ في فهمي مَلولا
قال : موتُ العقلِ ؟ قلتُ : تركُ فِكْرِ قال : موت القلب ؟ قلتُ : تركُ ذكرِ
قال : جسم ؟ قلت : تُرْبٌ قد تراه قال : روح ؟ قلت : رمزٌ للإله
قال : والإنسانُ ؟ أبدى سرَّه قلت : كونٌ ؟ قال : وَجِّهْ شَطْرَه[4]
قال : علم؟ قلتُ : قشرٌ لا يَطيب والدَّليلُ؟ قلتُ : وجهٌ للحبيب
قالَ : ما دينُ العوام؟ : ما سمعنا قالَ : دينُ العارفين؟ : ما رأينا

طابَ نفساً قرَّ عيناً من مقالي
صفوةً من حكمةٍ ألقى ببالي[5]

* * *

---

(1) الجبُّ : البئر العميقة . والإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته الذين غاظهم أن يؤثره أبوه عليهم ، فذهبوا به وجعلوه في الجب ، ثم تركوه وجاؤوا أباهم يبكون مدَّعين أنَّ الذئب أكله . وجاءت قافلةٌ ، فلما أدلوا الدلو في الجبِّ تعلَّق بها يوسف ، وأنجاه الله من الهلكة .

(2) في الأصل إشارة إلى إبراهيم عليه السلام وما جاء عنه في سورة الأنعام وهو ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(3) حامل العرش : أحد الملائكة الذين يحملون العرش .

(4) الشطر : الجهة والناحية . وشطره منصوب على الظرفية .

(5) صفوة الشيء : خلاصته وخياره . والبال : القلب .

تسعُ كلماتٍ للعارفِ الهنديِّ

ليــس يُخْفــي عــالــمٌ ذاتَ الإلــه
غــائصــاً مــا رَدَّ رَسْــمٌ فــي الميــاه

* * *

أنــتَ إنْ فــي غيــر ذي الــدُّنيــا وُلِــدْتُ
بشبــابٍ غيــرِ هــذا قــد نَعِمْــتْ

* * *

بعــد مــوت ربِّنــا ، وهــو الحيــاةْ
لا يُحَــسُّ العَبْــدُ شيئــاً بــالــوفــاةْ
نحــنُ طيــرٌ بجنــاحٍ لا تطيــرْ
علمُنــا بــالمــوت مقطــوعُ النَّظيــرْ

* * *

إنَّمــا الــوقــتُ سمَــامٌ فــي الشُّهــاذْ[1]
رحمــةٌ فــي قَهْــرِ قَهَّــار العِبــاذْ
ويلــوحُ قهــرُه فــي كــلِّ صــوبْ
رحمــةٌ فيــه مَضَــتْ مــنْ غيــرِ أوبْ

* * *

إنَّمــا المــوتُ كفــورٌ يــا حكيــم

---

(١) السّمام والشّهاد : جمع سُمٍّ وشَهْد .

أنــتَ إنْ جــاهــدتَ أمــواتــاً مُليــم[1]
ومــع النَّفــس التقــىٰ فــي قِتَــالْ
يــا لــهُ الليــثُ الهَصُــورُ والغَــزالْ[2]

* * *

كــافــرٌ صــاحــي الفــؤادِ ذو صَنَــمْ
يفضُــل المــؤمــنَ نــامَ فــي الحَــرَمْ

* * *

عَمِيَــتْ عيــنٌ رأتْ غَيْــرَ السَّــداد
لا تــرىٰ الشَّمْــسَ الليــالــي فــي ســواد
صحبــةٌ للحــبِّ والطيــن النَّمــاء
صحبــةُ الإنســانِ والطِّيــن الشقــاء
يــرتضــي الحــبُّ مــن الطِّيــن العــذاب
ليــرى النُّــور كتبــرٍ فــي انْسكــاب
قــد ســألــتُ الــوردَ ذا الصَّــدرِ الجــريــح
أيُّ حســنٍ لــك مــنْ طيــنٍ وريــح ؟
فــأجــابَ : يــا حكيمــاً مــا شَعَــرْ
بخُمــودِ البَــرْقِ هــل يــأتــي الخَبَــرْ !
روحُنــا فــي الجســم جــذبٌ وانْجــذاب
منــكَ مــا يخفــى لــدينــا كــالسَّراب[3]

---

(١) جاهد العدو : قاتله . والمليم : الملوم .
(٢) الهصور : الذي يهصر فريسته .
(٣) يقول : إنَّ الروح في جسمنا مما يقع بين الروح والجسم من تجاذب . وجذبك خفي أما جذبنا فظاهر .

تَجَلِّي سُروش[1]

أوصــد العــارفُ بــابــاً للكــلام ... أسْكَـرَتْـه الـذَّاتُ لا تِلْـكَ المُـدام

إنَّــه بــالشَّــوْقِ والــذَّوْقِ انْجَــذَبْ ... فـي وجـودٍ مـن شهـودٍ قـد وَقَـبْ[2]

بــالحضــورِ مِنْــهُ ذراتٌ كطــور ... أوْ فـلا نـورٍ ولا حتَّـى ظُهُـور[3]

فـي أسـاطيـر الليـالـي غـانِيَـهْ ... كـوكـبٌ منـهُ الظَّـلامُ حَـالِيَـهْ[4]

شعـرُهـا المِعْطـارُ حتَّـى خَصْـرِهـا ... والسُّهـوبُ نـورُهـا مِـنْ نُـورِهَـا[5]

وهـي فـي سُكْـرِ التَّجلِّـي أغـرقـت ... وتَغَنَّــتْ مــا بكــأسٍ أسْكَــرَتْ

ولــديهــا دارُ مصبــاحِ الخيــال ... فلكاً كمْ دَارَ في الدَّهر الطُّوال[6]

فيــهِ تبـدو كـلُّ ألـوانِ الشُّكُـول ... نَمِـرٌ يَفْـرِسُ أو صقـرٌ يَجُـول[7]

قلــتُ للــرُّومــيِّ بــالســرِّ العليـم ... اكشـفِ الأسـرار ، لـي فهـمٌ سقيم

قــال : « ذا الجسـمُ لُجَيْـنٌ يَلْمـعُ ... وهــو فــي فكــرِ الإلــه يَنْبُــعُ »

ثُـمَّ حـنَّ الشـوقُ فيـه للظُّهـور ... فـأتـى الـدُّنيـا خَلَـتْ مـنْ كـلِّ نُـور

ومــن الغُــربــةِ كــان ذا نَصِيــب ... كلُّنا يا صاحِ في الدُّنيا غَرِيْب[8]

---

(١) سروش : اسمُ ملك في الديانة الزرادشتية ، واسمه مشتق منْ : سراوشا ، بمعنى السماع في الفارسية القديمة ، وهو رمزٌ للطاعة ، ومرشدُ الأرواحِ في الآخرة .

(٢) وقب : دخل .

(٣) الطور : الجبل .

(٤) الغانية : المرأة التي يغنيها حسنها عن أن تتحلَّى . والحالية : هي التي تلبس الحلي .

(٥) المعطار : من تعود أن يتعهَّد نفسه بالعطر . والسُّهوب : جمع سَهْب ، وهو السَّهلُ المنبسط .

(٦) مصباح الخيال : مصباحُ ما يعرف بخيال الظلِّ ، وهو مصباح يُدار حوله ستار فيه نقوشٌ وصور . والطوال : الطويل .

(٧) الشُّكول : جمع شكل . وفرس النمر : افترس .

(٨) يا صاح : بمعنى يا صاحبي .

عـرفـوه بسُـروش ، كـالمـلائـك أبعـدَ الحـسَّ وقـد أدنـى كـذلـك
فتـحَ البُـرعـوم منَّـا بـالنَّـدى وبـأنفـاسٍ رمـاداً أوقـدا[1]
منـه ألحـانٌ لأوتـارِ القـريـض وشقـوقُ السِّتْـر بـالبيـتِ الأريض[2]

ثـمَّ غَنَّـى فَشَهِـدْتُ عـالمـا
أسْمَـعُ الألحـانَ جمـراً مُضْـرَمـا

* * *

لحنُ سُروش

أخشـى عليـكَ ركـوبَ بحـرٍ مـنْ سَـراب
وكمـا وُلِـدْتَ العُمْـرَ تطـوي فـي الحجـاب[3]
لِلفَخْـرِ كحـلٌ عـن جفـونـي أغْسِلُـه
فـأرى مصيـرَ الشَّعْـبِ فـي هـذا الكتـاب[4]
فـي كـلِّ صَـوْبٍ انْطـواءٌ لاحَ لـي
لِلْبَـزقِ كـانَ المـوتُ فـي جـوفِ السَّحـاب
فـي الغَـزْب كُنْـتُ وقلَّمـا عينـي رأت
مـنْ كَـانَ ذا لحـنٍ تجـافـىٰ عـنْ حِسَـاب
دُنْيـاكَ فـامِلِـكْ إنْ أرَدتَ القُـرْبَ لـك
الـروضَ خُـذْ يـا عطـره فـي المـاءِ ذاب[5]

---

(١) البرعوم : الزهرة قبل أن تتفتح .
(٢) الستر هنا كسوة الكعبة . والأريض : المعجب للعين .
(٣) يريد ذلك الغشاء الذي يكون على الوليد حين يولد ويعدُّه حجاباً كذلك الحجاب الذي يحجب المعرفة .
(٤) الفخر هو الرازي صاحب تفسير القرآن .
(٥) في هذا تلميح إلى شطر من بيت من مأثورات الصوفية وترجمته (إنه في وأنا فيه كالعطر=

مـــا أنْـــتَ إلا للفَنَـــا يـــا زاهـــداً
أنَسِيـتَ طـوفـانـاً تـوارى فـي الحَبَـاب[1]
اللحـــنَ تَنْمـــعُ مـــا تـــرى مِـــنْ مُطْـــرِبِ
حـــوريـــةٌ قـــد غُـــرِّبـــتْ تُبْكـــي الـــرَّبـــاب

* * *

الرحيل إلى وادي يرغميد
المسمَّى عند الملائكة وادي الطواسين[2]

إنَّمـا الـرومـيُّ لِلْعِشْـقِ الـدَّليـل — قـولُـه للظَّـامئيـنَ السَّلْسَبيـل
قـالَ : « إنَّ النَّـارَ إنْ كـانَـتْ بشعـر — قولُ « اللهُ هو » حباها حرَّ جَمْر[3]
نغمـــةٌ منهـــا الهشيـــمُ روضـــةٌ — كـــانَ لـــلأفـــلاكِ منهـــا نَفْضـــةٌ
وعلـــى الحـــقِّ العلـــيِّ شـــاهـــدٌ — وبهـــا المُلْـــكَ الفقيـــرُ واجـــدٌ
وبهـا دَفْـقُ الـدِّمـاء فـي الـوتيـن — ثم يصحو القَلْبُ كالرُّوحِ الأمين[4]
نـاظـمُ الأشعـارِ بـالسِّحْـرِ اشتهـرْ — ســارقُ القلــبَ وإبليــسَ النَّظــر
شـــاعـــرُ الهِنْـــدِ الإلـــه أيَّـــدَه — روحُـــه مـــنْ سِحْـــرِ قـــولٍ جـــرَّده
علَّمـــوا الشِّعْـــرَ أفـــانيـــن الغِنـــاء — وضـروبَ الكُفْـرِ حتَّـى الأتقيـاء[5]

= في ماء الورد) .

(١) الحَبابُ : الفقاقيع التي تعلو الماء والشَّراب .

(٢) الطواسين : جمع ط . س ، وهما حرفان في أوائل سورٍ قرآنية ، وهي : النَّمل ، والشعراء ، والقصص . وللحلاَّج كتابُ الطواسين . وقد جَعَلَ إقبالُ هذا الاسم اسماً للمكان الذي تتجلَّى فيه صفات الأنبياء .

(٣) حباه : حبا فلاناً كذا وبكذا : أعطاه .

(٤) الوتين : عرق في القلب . والروح الأمين : جبريل .

(٥) الأفانين : الأساليب والأجناس . والضُّروب : الأنواع والأشكال .

لفظُهم ما فيه شيءٌ من ألمْ ... ما تراهم في حياةٍ بلْ عَدَمْ
إنَّ خيراً منْ لحونٍ أفسَدتْ ... قولةٌ كانتْ برؤيا أضْغَثَتْ[1]
يَبْحثُ الشَّاعرُ طوعاً بالسَّليقة ... يجعلُ الآمالَ في النَّفْسِ الحقيقة
لَيْسَ إلَّا القلبُ في صدرِ الشُّعوب ... إنَّها لولاه كالوادي الحطيب[2]
نَقْشَ السُّكْرُ ونارٌ عالما ... بهما لم يكُ شِعْرٌ مأتما !

في الأنامِ يُخلَقُ الرُّوحُ السَّويَّا
ورثَ الشاعر منْ ثمَّ النَّبيَّا »

قلتُ : هاتِ القولَ في تلك النُّبوَّة ... سرَّها لا تطوِ عن مِثْلي بِقُوَّة
قال : « أقوامٌ لها آياتُها ... والعصورُ كلُّها ميزاتُها
الصخورَ أنطقتْ أنفاسُها ... كلُّنا في حقلنا زرعٌ لها
أصلُنا في العُمْقِ منَّا طهَّرت ... بجناحِ الرُّوح فكراً علَّقت[3]
إنَّها صوتُ دويٍّ في الكائنات ... تقرأ النُّور وتَتْلُو النَّازعات[4]
ما لشمسٍ أطلعتها منْ زوال ... منكِرُوها قد تجافَوْا عن كمال[5]
رحمةُ اللهِ نراها قولةً ... غضبُ اللهِ نراها صولةً
إنَّ عَقْلَ الكلِّ حتَّى إنْ مَلَكْتُه ... فبها شيئاً رأيتُ ما رأيتُه
يرغميدُ امضِ وأسْرِعْ في السَّرى ... لترى ما ليسَ بدٌّ أنْ ترى[6]

في جدارٍ منْ صخورٍ بالقمر
للطَّواسينِ أطلْ منكَ النَّظر »

يعرفُ الشَّوْقُ الطريقَ لا الدَّليل ... ويَطِيرُ بجناحِ جِبْرئيل

---

(١) أضغث الرؤيا : أتى بها ملتبسة .
(٢) الحطيب : الكثير الحطب .
(٣) الرُّوحُ : جبريل .
(٤) في الأصل : أن سورةَ النَّجم ، والنُّور ، والنَّازعات من شفة النبوة .
(٥) تجافى عن الشيء : مال عنه .
(٦) يرغميد : اسم جبل في القمر .

البَعيدُ عِنْدهُ كالخُطْوَتَيْن في المَقامِ يشتكي منْ فَرْطِ أين[1]

مثلُ نشوانٍ قَصَدْتُ ذا الجبل ورأيتُ ما رأيتُ منْ قُلَل[2]

أيُّ قولٍ لي ؟ وما وَصْفي لَهُ ؟ هذه الأنجمُ طافَتْ حَوْلَهُ

عِنْدَ أهْلِ الفرش ضاءَ في الضَّمير عند أهل العَرْشِ في الجَفْنِ البَصير

عينَنا والقَلْبَ ربٌّ قدْ حَبانا لاكْتِناهِ السِّرِّ في الدُّنيا هَدَانا

سرَّ دنيانا سأُبدي مَنْ سُدِلْ[3]

وحديثي عنْ طواسينِ الرُّسُلْ

***

طاسين جوتاما بودا[4]
توبةُ الراقصةِ اللَّعوب

جوتاما

الشَّمُولُ والحبيبُ ، ليس شيئا[5]

بلْ وحورٌ في الجنانِ ، ليس شيئا

كلُّ ما أنت تراه سوفَ يَفْنى

---

(١) فرط الأين : شدَّةُ التعب .

(٢) القلل : جمع قلة ، وهي القمة .

(٣) السَّدْلُ : السِّتْرُ .

(٤) التزمنا في هذه المنظومة ما يعرف في الشعر الفارسي بالرديف ، وهو كلمة أو عبارة تردُ في نهاية كل البيت على أن تسبقها قافيةٌ موحدة ، وجعلنا القافية في الترجمة نفس القافية في الأصل (المترجم) .

(٥) الشَّمول : الخمر .

الفَـــلا والشــاطِئــانِ ، ليـــس شيئــا[1]

علَّـــمَ غـــربٌ حكمــــةً للمَشْـــرِقِ

مَعْبــدٌ والطــائفــانِ ، ليـــس شيئــا[2]

ذاتَــــكَ اذكُــــرْ وامــــضِ واعْبُـــرْ

أنــتَ هــذا ، العــالمــانِ ، ليـس شيئـا

هُــذبَ عينــي لــي طــريقــاً شُقَّهــا

كــلُّ مــا فيهــا عــرانــي ، ليـس شيئـا

دَغْــكَ مــنْ غيــبٍ فمــا وهــمٌ بشــيءٍ

لا تكــونُ أو تكــونُ ، ذاكَ شــيء[3]

لا تكـــونُ جنــةً كــالجنَّــةِ

لــوى أهــلِ الجِنــان ، ذاكَ شــيء[4]

راحــةَ الــرُّوحِ طلبــتَ ، مــا تســاوي !

فــي حبيــبٍ دمعتــان ، ذاكَ شــيء

نظــرةٌ والعيــنُ سَكْــرَىٰ والتَّغَنِّــي

يــا لهــذا مــنْ حُســانٍ ، منــه شــيء[5]

كــان خيــراً فــي المعــانــي ، ذاكَ شــيء

***

---

(١) الفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

(٢) ذكرنا الطائف بالمعبد في المثنى مع إرادة الجمع (المترجم) .

(٣) كان هنا تامة .

(٤) يريد الشاعر ليقول : إنَّ الجنة لا تكون إلا مأوى للمتَّقين جزاءً لهم على عمل الصالحات .

(٥) الحُسان : الحسن .

الرَّاقصة

لا تَـزِدْ أحـزانَ قلبـي مـا لقلبـي مـنْ قَـرار
زِدْ جمـالَ الشِّعـر ثِنْيـاً ، يـا لـهُ ليـلُ السِّـرار[١]
في صميم القلبِ منِّي ، منْكَ أنوارُ التَّجلِّي
فـأذقـت الشَّمْـسَ والبَـدْرَ مـريـرَ الانتظـار
إنَّ ذواق الحضـورِ يعبـدُ الأصنـامَ عِشْقـا
يخـدعُ العِشْـقُ فـؤاداً مـنْ مُنَـاهُ فـي الخُمـار[٢]
فـي صفـاءٍ إنْ تَـرَنَّمْـتُ بلحـنٍ لـي جـديـد
عـادَ طيـرٌ للـرِّيـاض عـودَ مشتـاقِ الـدِّيـار
طبعيَ السَّامي وُهِبْتَ حُلَّ عنْ ساقي قيودي
خِـرْقـةً هبنـي لتحظـى بقشيـبٍ مـنْ إزارِ[٣]
أيُّ معنـىً للكـلام ؟ والصُّخـورُ تَحْـتَ فـأس
يَحْملُ العِشْقُ الجبالَ ثم يمضي في انحدار[٤]

***

طاسين زرادشت[٥]

أهرمن يختبر زرادشت

مـا خلقـتُ منْـكَ نـايـاتِ البُكـاء   وربيعـي مثـلُ شَهْـرٍ فـي الشتـاء[٦]

---

(١) الثني : كلُّ شيء بعضه على بعض . وليلةُ السِّرار : آخر ليلة في الشهر .
(٢) الخمار : الصُّداع منْ شدَّة السُّكر .
(٣) الخرقة : ثوب الزاهد . والقشيبُ : الجديد . والإزارُ : الملحفة وكل ما يستر .
(٤) يمضي في انحدار : أن يمضي في سرعةٍ وخفَّة .
(٥) زرادشت : هو نبيُّ الفرس القديم الذي اعتقد وجود إله للخير هو أهورا مزدا وآخر للشر يسمَّى أهرمن . وجاء قومَه بكتابٍ يسمَّى : الأبستاق .
(٦) النايات : جمع ناي .

أنا في الدُّنيا أعاني صَوْلَتَكْ بدمائي قد رَسَمْتَ صُوْرَتَكْ

إنَّ مِنْ سيناك للحقِّ الحياة

واليدُ البيضاءُ لي منها المماتْ[1]

آخذٌ بالعَهْدِ منْ ربٌّ خَبِل ضلَّ منْ وَفَقَ هوى نفسٍ عَمِلْ[2]

وَمِزاجُ الرَّاح في الكاساتِ سَمْ وله المِنْشَارُ والدُّودُ النِّعَمْ[3]

إنَّ نوحاً لم يجدْ غَيْرَ الدُّعاء والدُّعاءُ كان خِلواً منْ غناء[4]

اعتزلْ في الغارِ وارْحَلْ عنْ ديار نحو أهلِ النُّور عَنْ مَحْضِ اختيار

وبعينِ اجْعَلِ التُّرْبَ الذَّهَبْ وَبِنَجْوَاكَ السَّماءَ منْ لَهَبْ[5]

كالكليمِ في الجبالِ كُنْ شَرِيدا واخْتَرِقْ ممَّا رَأَتْ عينٌ بعيدا[6]

وتناسَ شِيْمَةً للأنبياء دَعْكَ مِنْ فَرْطِ الذَّكاءِ والدَّهاءْ

بين من هانوا تهُون الفِطْرَة والرَّماد في الرِّياحِ الجمرة

الوليُّ إنْ شأى يوماً نبيَّا للهوىٰ كانَ النَّبيُّ داءً عَصِيَّا[7]

قُمْ وفي عُشٍّ انفرادِ عُزْلَتِك

وَلْتَدَعْ هذا التَّجلِّي خلوتُك

* * *

---

(١) يلمِّحُ إلى طور سيناء ، وإلى قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٢) الخبل : المخبول الذي اختلط عقله .

(٣) الإشارة إلى تعذيب زكريا بالمنشار ، وأيوب بالدُّود .

(٤) الغَناء : الكفاية .

(٥) التُّرب : التراب ، والنَّجوى : المسارَّة .

(٦) يريد قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ و١٠] .

(٧) شأى : سبق وكان أفضل . والدَّاء العصي : هو الذي لا شفاء له .

زرادشت

الضِّيـاءُ البَحْـرُ والشَّـطُّ الظُّلـم   ما حَوَتْ سيلاً كمثلي وارْتَطَمْ[1]

فـي فـؤادي المـوجُ دُفَّـاعٌ يمـور   إنَّمـا السَّيْـلُ علـى شـطٍّ يَغِيْـر[2]

صـورةٌ مـا كـان فيهـا مِـنْ طِـلاء   وإلـهُ الشَّـرِّ رسَّـامُ الـدِّمـاء[3]

أظهـرِ الـذَّاتَ ، فهـاتيـكَ الحيـاه

واختبـارُ المـرءِ مـا أدَّت يـداه

يُنْضـجُ الـذَّاتَ التـردِّي فـي البـلاء   عـن قضـاءِ الله قـد تمحـو الخَفَـاء

رَجُـلُ اللهِ رأى بـالله ذاتَـه   فـي دمـاه خـرَّ كـي يُنْهـي حيـاتَـه

بـالـدِّمـاء العِشْـقُ يَسْمُـو وَيَسُـود   ولـهُ العِيـدَانُ منشـارٌ وَعُـوْد[4]

فـي سبيـلِ اللهِ مـا يجـري يَطيـب

مـرحبـاً بـالصَّـدِّ إنْ صَـدَّ الحَبِيـبْ

لا تـرى عينـي التَّجلِّـي وَحْـدَهـا   تَـرْمُـقُ الحُسْـنَ عيـونٌ حَـوْلَهـا[5]

خلـوةُ الإنسـانِ ؟ وجـدٌ سُعِّـرا   إنَّهـا البحـثُ ، وجَمْـعٌ قـدْ يُـرى

خلوةٌ في العِشْقِ منْ شأنِ الكَليم   إنْ تجلَّى كـانَ كـالمُلْك العظيم[6]

خلـوةٌ أو جَلْـوةٌ فـي القَلْـبِ وَقْـدُ   ومَقَـامٌ أو همـا حـالٌ وَوَجْـدُ[7]

ويلـوحُ فيهمـا الـرَّحمٰـنُ آيـةْ   بـدأ الأولـى وذي الأخـرىٰ نهـايـةْ

---

(١) ارتطم : ازدحم ، وتراكم .

(٢) الدُّفاع : معظم السيل والموج . ويمور : يضطرب .

(٣) يقول : إنَّ « أهرمن » إلهُ الشر رسمها بالدِّماء .

(٤) يقصد تعذيب المسيح عليه السلام بصلبه ، كما يعتقد المسيحيون ، وتعذيب زكريا عليه السلام بالمنشار .

(٥) لا يريد أن يرى الحسن وحده ، بل في جماعة .

(٦) الكليم : موسى عليه السلام .

(٧) الوَقْدُ : النار .

النُّبــوَّاتُ ، كمــا قُلْــتَ ، المِلَــلْ   يخلــق الإنســانَ عِشْــقٌ إنْ كَمُــلْ
حَبَّــــذا رَكْـــبٌ ولله المسيــــر[1]
وبــدنيــانــا كــأرواحٍ نَطِيــرْ

***

طاسين المسيح

(رؤيا تولستوي الحكيم)

شـامـخٌ قـدْ ضـمَّ أنـواعَ المَمَـاتْ   فيـه وادٍ مـا بـه رفَّ النَّبـاتْ[2]
فيـه نـورُ البَـدْرِ قـارٌ مـنْ غُبَـار   بسمـاه الشَّمـسُ ظمـأىٰ فـوقَ نـار
والغـديـرُ زِئْبـقٌ قـدْ فَـارَ فـورَه   وهـو يجـري دافقـاً مثـل المجرَّه[3]
لا ارتفـاع لا انخفـاضَ فـي الطـريـق   زاخـرٌ طـامٍ وذو مـوجٍ حَنِيْـق[4]
صـاحَ شـابٌّ قـدْ حـواهُ الـزِّئبـق   جـازِعـاً وهـوَ يكـادُ يَغْـرقُ
منـهُ ذاكَ الغيـمُ مـا إن يقـرب   ظـامـئٌ ، مـنْ زئبـقٍ هـل يَشْـربُ !
وعلـى الشَّـطِّ رأيـتُ غـانِيَـهْ   لحظُهَـا يـأسِـرُ ألـفَ سَـارِيَـهْ[5]
عَلَّمَـتْ مـنْ سِحْـرِهـا العبَّـادَ كُفْـرا   شـرُّهـا الخيـر وكـانَ الخيـرُ شـرَّا
يـا تـرى مـنْ أنْـتِ قُلْـتُ فلتجيبـي   مـا بُكـاكِ بـل ومـوصـولُ النَّحيـب
« إنَّ فـي عينـيَّ سِحْـرُ السَّـامـري   واسمي افرنكين واسمُ السَّاحر[6]

---

(١) الرَّكب : ركبان الخيل ، أو الإبل .
(٢) الشامخ : المراد به الجبل . ورفَّ النبات : اهتزَّ نضارةً .
(٣) الغدير : النهر . والمجرَّة : مجموعة من النجوم تشبه النَّهر .
(٤) الطَّامي : الممتلىء . والحنيق : الشَّديد الغضب .
(٥) الغانية : الحسناء . والسَّارية : الجماعة .
(٦) افرنكين : من فرنكي في الفارسية بمعنى الإفرنجي في العربية . وإقبال يجسِّد التفرنج على أنه أفسد المسيحية الأولى . أما الإنسان المغمور في ماء النهر فهو رمزٌ إلى الخائن=

الجليـدُ فَجْـأَةً كـانَ الغَـديـر وبـأعضاءِ الفتى العَظْمُ الكَسِيْر[1]
رَدَّدَ الشَّكْـوىٰ ومـنْ قلـبٍ وَجِـعْ فَلَـهُ الشَّكـوىٰ وما مِـنْ مُسْتَمِعْ[2]
قـالـت افـرنگيـن « فكِّـرْ فِكْـرةً مـا عَمِلْـتَ فيـهِ فـانْظُـرْ نَظْـرةً
إنَّمـا عيسـى سـراجُ الكـائنـات نـورُه اللمَّـاح فـي كـلِّ الجِهـات[3]
اذْكُـرَنَّ بيـلاطـوسَ الممتقِـع ما صنعتَ ؟ أيَّ شيءٍ قد صَنَع[4]
لـذَّة الإيمـانِ فـي رُوحٍ حُـرِمْـت إنَّ أصنـامَ اللُّجيـنِ قـدْ عَبَـدْت[5]

ما عَـرَفْـتَ الـوحـي والجسمَ اشتريْتَ
ولـذا فـالـرُّوحُ أمـوالٌ فَقَـدْتَ »

وَمِـنَ الحسنـاءِ تجـريـحُ المـلام كـانَ فـي قلـبِ الفتى حزُّ الحُسام
قال : « منْ خدعك ، فالزُّور الجليّ بـاعَ شيـخَ أمَّـةٍ أو بَـرْهَمـيّ
ذلُّ عقـلٍ ذلُّ ديـنٍ مـنْ فُسـوقِـك هانَ حتَّى العشقُ منْ سَوْمٍ بسُوقِك[6]
الـودادُ منـكَ ضُـرَّ خِفْيَـة مِنْـكَ هـذا الحِقْـدُ مـوتُ بغتـة
أنْـتَ بـالمـاءِ وبـالطِّيـن عَقَـدْتَ صلـةً ، والعَبْـدُ مِـنْ ربٍّ سَلَبْـتَ
حكمـةُ الإنسـان حلَّـت مشكـلات وبهـا چنگيـزُ صِـرْتَ فـي غـزاة
مـا لـدى المُنْصِـفِ قـطُّ أيُّ رَيْـبِ فـي ذنـوبٍ لـكَ فَـاقَـتْ كـلَّ ذنـب
المسيـحُ أسْكَـنَ الـرُّوحَ البَـدَنْ أنتَ منْ أدْرَجْتَ ميتاً في الكَفَنْ[7]

= الذي خانَ المسيح عليه السلام .

(١) الكَسِيْرُ : المحطَّم .

(٢) وجع : بمعنى تألَّم ، ومَرِض .

(٣) اللَّماح : المتلألىء . يقول : إنَّ نوره يغمرُ العالمين .

(٤) بيلاطوس : هو من يعتقد المسيحيون أنه القائل إني بريء من دم المسيح .

(٥) اللجين : الفضة .

(٦) الفسوق : ترك أمر الله وعصيانه . السَّوم : من سام السلعة ، أي : عرضها وذكر ثمنها ، فكأن المنافقين يتّخذون الدين سلعةً لتجارتهم .

(٧) يريد ليقول : إنَّ المسيح عليه السلام أحيا الموتى .

مـا صنعنـا كـانَ مِـنْ نـاسُـوتِـهِ   كـانَ مـا لِلْقَـوْمِ مـنْ لاهـوتِـهِ

بممـاتٍ لـك نحيـا قـاطبـةْ

لا تموتـي ، لتـري مـا العـاقِبَـةْ »[1]

***

طاسِن محمَّد (ﷺ)

(نياحةُ أبي جهل في حرم الكعبة)

زارتْ روحُ عمرو بن هشام ـ زعيمُ الجاهلية والنخوة العربية ـ مكَّة ، وقد أصبحت بلدَ الإسلام والتَّوحيد ، وطُهِّرَ بيتُ الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحُرِّمت عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة[2] ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمسَ مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وذهبت نخوةُ الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، وأصبحَ الناس يعتقدون أنَّهم من آدم ، وآدمُ من تراب ، فلا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى ، وسمعَ الناسَ يتلون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوِّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسب ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيِّر أحداً بأمِّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، أو قرشيته ،

---

(١) قاطبةً : جميعاً .

(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ، راجع ابن هشام وابن الكلبي .

وغشي مجالسَ الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبين عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلةً في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبدٍ أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفُّون حوله ، ويَصْدُرون عن رأيه .

ودقَّق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نعرةً قومية ، يتعلَّق بها سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أنَّ الحياة القديمة قد نُسِخت وأُبطلت ، وولد مجتمع جديدٌ قام على أساسٍ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتقوى ، وتغيَّرت الموازين والقيم ، وتغيَّرت عقولُ الناس ونفوسُهم ، وسُمِعَ يُنشدُ في حزنٍ واستعجاب :

فما النَّاسُ بالنَّاس الذي عهدتُهم ولا الدَّارُ بالدَّار التي كُنْتُ أعْرِف

لقد أشكلت الأمورُ على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابنُ البلد ، وسيِّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحنُ فيه ضعفاءَ المسلمين : لأنكر مكَّة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنَّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ الخطرَ والضَّررَ على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليِّ الذي يقوم على النسب والوطن ، وتفضيل الدَّم والعرق ، ويرى العالمَ كلَّه في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكَّة ، ولا يُعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيرُهم عجمٌ وعلوج ، لا يستحقُّون مدحاً ،

ولا يستحقُّون رحمةً ، ولا يستحقون عدلًا ، لقد كان يرى كلَّ ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدقِ الناسِ فِراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنَّه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أنَّ الأمر يبلغُ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلامَ يؤثِّر في الناس هذا التأثير ، وأنَّ الجاهليةَ تُطرد من عاصمتها ومهدها هذا الطَّردَ الشنيع .

هاجتِ النَّخوةُ الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحُه ، ورئيَ متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوحُ ، ويقول : « إنَّ قلوبنا ـ معشر الجاهليين ـ قروحٌ وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نورَ الكعبة ، وحطَّ من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصرَ وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] و ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفُتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوبَ الناس وعقولَهم ، وهل كفر أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكارُ جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنَّه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللَّات ، ومناة جذاذاً بضرباته الموجِعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذَ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرَّد القلوب عن معبود مشهور يُرى ويُلمس ، وربطها بمعبودٍ غير مشهودٍ لا يُرى ولا يُلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يُرى وجود ؟

أليس من الجهل والضَّلالة ، والعَمى والبلاهة سجودٌ لغائب ؟ هل يجدُ الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟! .

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنه لا يفضِّل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرمَ العلوجَ

والعبيدَ السُّود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيدِ السود ، واختلط الكريمُ باللئيم ، والجميلُ بالدَّميم ، وذلَّ العرب ، وذلَّ بنو قصي .

إننا لا نشك في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يحثُّ عليها محمد كثيراً ، مبدأٌ عجمي ، وقد تحقَّق لدينا أنَّ سلمان مزدكيٌّ ، وأنَّ ابن عبد الله خُدِع به ، وجرَّ البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشميُّ قيمته وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التي يصليها ، هل لعجميٍّ أصلٌ عدنانيٌّ ، وهل لأعجميٍّ نطقٌ عربيٌّ ولهجةٌ مضرية ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمِّيه محمدٌ وحياً ، بكلامكم البليغ السَّاحر .

ولماذ لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ! ولماذا لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصُّباة ، أَغِزْ عليهم ، وعكِّر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجازَ نخلٍ خاوية ، يا مناة ! ويا أيها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرحيل ، فلا تعجِّلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما »[1] .

وإليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

صدرُنا نارٌ تلظَّت مِنْ مُحمَّد	فسراجَ الكعبةِ الوضاءِ أخْمَد
وَبِهُلْكِ الرُّوم أو كسرى تغنَّى	سَلَبَ الفتيانَ طُرّاً من يَدَيْنَا
ساحرٌ والقوْلُ منه ساحرٌ	وبقولِ « لا إله » كافرٌ !
وبساطُ دينِ آباءٍ طَوَىٰ	وأذاقَ ما عبدناه التَّوى[2]
حطَّمَ اللَّاتَ فكانَتْ كالفُتَات	مِنْهُ فلتقتصَّ كلُّ الكائِنَات[3]

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، صفحة ١٦٩ ـ ١٧٤ .
(٢) التَّوى : الهلاك .
(٣) الفتات : كسارة الشيء بعد أن يتفتت .

نـاطَ مِنْـهُ القلـب بـالغيـبِ الكَنيـن ... ومحا الحاضرَ بالسِّحْرِ المُبين[1]
ويعيـبُ المـرءُ للغيـبِ النَّظَـر ... أيـنَ شـيءٌ ليس يبـدو لِلْبَصَـر[2]
الضَّـريـرُ مَـنْ لغيـبٍ يَسْجُـدُ ... يـا لهـذا الـدِّيـن أعمـى يُبْعِـد

مـا السُّجـودُ ولـربٌ لا يُحَـد
الصَّلاةُ ما ارتضاها قطُّ عَبْد !

فـي قـريـشٍ بـتَّ أصـلاً للنَّسـب ... يـا لـديـنٍ منكـرٌ فَضْـلَ العرب[3]
الـوضيـعُ كـالـرَّفيـعِ عِنْـدَهُ ... لِلْخِـوانِ فَهْـوَ يـدعـو عَبْـدَهُ[4]
مـا دریٰ فضـلاً لأحـرارِ العـربْ ... وِدَّ أحبـاشٍ غـلاظٍ قَـدْ خَطَـبْ[5]
ولحمـرِ القَـوْمِ بـالسُّـود اجتمـاعْ ... يـا لعمـري عـزُّنـا هـذا مُضَـاعْ
المســاواةُ أراهــا أعجميَّــه ... دانَ سلمـانُ بـديـن المـزدكيَّـه[6]
ابــنُ عبــد اللهِ مَخْــدوعٌ بــه ... فــأذاقَ العُـرْبَ مِـنْ تخـريبـه
وبنـي هـاشِـمَ جـافـى قـومُهـم ... بـالصَّـلاة فـي ظـلامِ عَيْنُهـم !
أيـنَ مِـنْ عـدنـانَ أصـلُ الأعجمـي ... أيـنَ مِـنْ سَحْبَـانَ صَمْـتُ الأبْكَـمِ[7]
لخــواصِّ العُــرب عيــنٌ لا تُــرى ... قـمْ زهيـرٌ شُـقَّ مـركـومَ الثَّـرى[8]

---

(١) الكنين : المستور .
(٢) يقول : إن الشيء الكائن وحده هو الذي يشاهد .
(٣) بت : قطع .
(٤) الخِوان : ما يوضع عليه الطعام .
(٥) خطب الودَّ : طلبه .
(٦) لم يكن الصَّحابيُّ الجليل سلمان الفارسي على الدِّيانة المزدكية قبل إسلامه بل على الزرادشتية . والمزدكية تدعو إلى المشاع في الأموال والنساء . ولكن الشاعر هنا يبالغ في التهكم بأبي جهل وجهالته ، فيقول إنَّه توهم أنَّ النبيَّ ﷺ عرف المساواة عن سلمان ، وهو يُجري على لسان أبي جهل من الكلام ما يؤيد أنَّ أبا جهل من الكافرين .
(٧) سحبان مضرب المثال في الفصاحة عن العرب .
(٨) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى من أصحاب المعلقات ، وجاء في سيرته أنه رأى قبل موته بعام كأنه رفع إلى السماء ثم انقطعت به الحبال . وفسر رؤياه لبنيه =

أنت في صحرائنا خيرُ الدَّليل
قُمْ وحطِّم سِحْرَ لَحْنِ جِبْرَئيل

قُـلْ وَحـدِّثنـا طـويـلاً يـا حَجَـرْ ! ما رأينا منه ؟ واصـدُقنـا الخَبَـرْ
قـابـلَ الأعـذارَ أنـت يـا هبـل عَنْـكَ ذُدْ مـنْ ديننـا مـا إنْ عَقَـلْ
رأسَهُـمْ ألـقِ لـذئـبٍ أو هَصُـور ولْيَكُـنْ فـي نخلهـم مُـرُّ التُّمـور(١)
صَـرْصَـراً واجعـلْ هـواءَ البـادِيـهْ إنَّهـم أعجـازُ نخـلٍ خَـاوِيَـهْ
لاتُ دومـي ، لا تَـريمـي يـا منـاةْ أنتمـا فينـا قلـوبٌ خـافِقَـاتْ(٢)

تَسْكُنـانِ بيـنَ جَفْنَيْنَـا الحِـدَاقـا
مهلةٌ إنْ كنتِ أزْمَعْتِ الفِراقا(٣)

* * *

= بقوله : سيكون بعدي أمرٌ يعلو من اتبعه فخذوا بحظِّكم منه . وما حال الحول حتَّى بُعِثَ النبي ﷺ . والمركوم : الذي بعضه فوق بعض .

(١) الهصور : الأسد . والتُّمور : جمع تمر .

(٢) اللَّات ومناة : من الأصنام التي كانت العرب تعبدها في جاهليتها . لا يريم : لا يفارق مكانه .

(٣) الحِداق : جمع حَدَقة ، وهي معظم سواد العين . والشَّطر الثاني من البيت مما اقتبسه إقبال عن شاعرٍ عربي .






القسم الثاني

فَلكُ عُطارِد






ساعةٌ مع السَّيِّد جمال الدِّين الأفغانيِّ[1]

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربِّيه الروحي والفكري ـ الشيخ جلال الدِّين الرومي ـ في سياحةٍ روحيَّةٍ فكريَّة ، ومرَّ في جولته ـ الخيالية ـ بمنازل كثيرةٍ ، التقى فيها بشخصياتٍ ماضية ، من أصحاب الدِّيانات والفلسفات ، وقادةِ الفكر والرِّجالات ، وتحدَّث معهم في مسائلَ كثيرةٍ .

ومرَّ في رحلته بمنزلٍ بكرٍ ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدُّنيا بسهولها ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلةٍ من المدنية والصناعة الإنسانيَّة ، وأعْجَبَ الشاعرَ جمالُ الطبيعة ، ورقةُ الهواء ، وخريرُ الماء في هدوء الصَّحراء .

وأقبل إلى شيخه الرُّوميِّ ، فقال وقد قَرَعَ أذنهُ صوتٌ عذبٌ رقيق : **ما لي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالمٌ ؟**

قال الرُّوميُّ : **إنه منزلُ الصُّلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدمُ يومـاً أو يومين ، لمَّا هبط من الجنة ، قد شَهِدَ هذا المكانُ زفراتِه وأنَّاتِه في السَّحر ، وبلَّتْ دموعُه التراب ، يزورُه أصحاب المَقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيدٍ ، وأبي يزيد ،**

---

(۱) هو جمال الدين الأفغانيُّ ، ذلك المصلح الدِّينيُّ ، والسياسيُّ ، والاجتماعيُّ ، ورجل الفكر الحرِّ والأدب العالي ، ومن له الرِّيادة في دعوته إلى الحقِّ ومكافحته للباطل . وكان الدَّاعي إلى التجديد في الإسلام ، راغباً في إصلاح العالم الإسلاميِّ بالرجوع إلى القرآن . بعد أن فترت عنه همم المسلمين ولم يأخذوا بتعاليمه الدَّاعية إلى شحذ الهمم وتحرير العقول ، كان الأفغاني عظيمَ الأثر ، واسع النفوذ ، دائبَ العمل في مصر على الخصوص ، توفي عام ١٨٩٨م .

فلنقُم ولنُسْرِع لندركَ الصَّلاة في هذه البقعةِ المباركة ، وننالَ لذَّةَ الروح ، ونعمةَ الخشوع التي حُرِمناها في العالم المادّي .

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلَيْن يُصلِّيان ، أحدُهما أفغانيٌّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمالُ الدين الأفغانيُّ ، يصلِّي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الروميُّ : **إنَّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضلَ منهما ، وقد حلَّا كثيراً من عقدي والغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعسِ روحَ النَّشاط ، ودبَّت بدعوته الثائرةِ الحياةُ في الأموات والجمادات ، وأمَّا الزَّعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدَّامي ، والفكر المحلِّق السَّامي ، والرُّوح القلقة ، والعقلِ الكبير المستنير ، إنَّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضلِ العباداتِ ، وأعظم القربات .**

وقرأ السيد جمالُ الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوءُ المكان والزَّمان ، وشخصيةُ الإمام ، وجمالُ القرآن جواً خاشعاً رهيباً ، رقَّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءةً لو سمعها إبراهيمُ الخليل لأعْجِبَ بها ، ولو سمعها جِبْرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءةٌ تقلق النفوسَ ، وتذيب القلوبَ ، وتعلو بها صيحةُ التكبير ، والتهليل في القبور ، وكانت قراءةً ترفع الحجاب ، وتتَّضح بها معاني أمِّ الكتاب .

ونِدعُ محمد إقبال يحكي قصَّته ، قال : **« قمتُ بعد الصلاة ، وقبَّلتُ يده في أدبٍ ومحبةٍ وقد قدَّمني أستاذنا الرُّوميُّ إلى السيد ، وقال : إنَّه جوَّالٌ جوَّابٌ في الآفاق ، لا يستقرُّ في مكان ، ويَحْمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرفْ غيرَ نفسه ، ولم يخضع لأحدٍ ، فيعيش حراً طليقاً » .**

وأقبلَ عليَّ السيدُ جمال الدين ، فقال : **حدّثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلُهم تراب ، وينظرون بنورِ الله .**

قلتُ : يا سيدي ! لقد رأيتُ في ضمير الأمَّة التي خلقت لتسخير العالم

معركةً حامية ، وصراعاً دامياً بين الدِّين والوطن ، لقد ضعُف الإيمانُ في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحَها ، وقطعتِ الأملَ من سيطرة الدِّين وسيادته ، فلجأتْ إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراكُ والإيرانيُّون سُكارى بصهباء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسةَ كيدها ودهائها ، أصبح الشَّرقُ خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبتِ الشُّيوعيَّةُ ببهجة الدِّين وبهاء الملة .

سمعَ الأفغانيُّ كل ذلك في صبرٍ وأناة ، وفي تألُّمٍ وحزن ، ثم انفجر قائلاً : إنَّ الباقعةَ الأوربيَّ هو الذي علَّم أهلَ الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزالُ يبحثُ عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنَّه بذر في الشرق بذورَ الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصرَ والشامَ والعراقِ ، فتحرَّرْ أيُّها المسلمُ الشرقيُّ ! من قيود الوطنية والقومية ، وكنْ « عالمياً آفاقياً » يعتبرُ كلَّ بلدٍ وطنه ، وكلَّ أرضٍ أرضَه ، إنْ كنتَ تميز بين « الجميل » و« القبيح » فلا تربطْ نفسك وقلبك بالتُّراب والحجارةِ والقرميد ، إنَّ الدين هو أن ينهض الإنسانُ من الحضيض ، ويعرفَ قيمةَ نفسه ، إنَّ الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصرْ في الجهات ، إنَّ الحشيش ينبتُ على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكنَّ النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إنَّ آدم لو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنَّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إنَّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَّ « الحرَّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا حُبس في « التراب »[1] اضطرب وثار ، لأنَّ الصقور لا تستريحُ ولا تهدأ في الأوكار .

إنَّ هذه الحَفْنَةَ من التُّراب ، التي نسمِّيها « الوطن » ونطلقُ عليها أسماء « مصر » و « إيران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسبٌ ؛ لأنَّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ،

---

(١) يعني به « الوطن » .

وتنحصرُ في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنَّها لا تلبث أن تتحرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطرَ على العالم وتحتضِنَه . إنَّ فطرتها بريئةٌ من الشرق والغرب ، وإن كان مولدُها وظهورُها في الشرق .

أما الشيوعية يا عزيزي! فإنَّ مصدرها ذلك الإسرائيليُّ ، الذي خلط الحقَّ بالباطل ، وآمن قلبهُ وكفر عقلُه ، إنَّ الغربيين فقدوا القيم الرُّوحية ، والحقائق الغيبيَّة ، وذهبوا يبحثون عن الرُّوح في « المعدة » إنَّ الروح ليست قوَّتها وحياتُها من الجسم ، ولكنَّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانةُ « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إنَّ الأخوة الإنسانية لا تقوم على وَحْدة الأجسام والبطون ، إنَّما يقوم على محبَّة القلوب ، وألفة النُّفوس .

إنَّ المُلوكيَّة سمنٌ يطرأ على الجسم ، صدرُها مظلمٌ خاوٍ ، ليس فيها قلبٌ خفَّاق ، إنَّها كالنحلة تجلس على كلِّ زهرة ، وتتشربُ منها الرُّضاب ، وتغادرها إلى زهرةٍ أخرى ، وتبقى هذه الزَّهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنَّها أوراقٌ بالية ، وحشائش ذاوية ، كذلك المُلوكية تستحوذُ على الشعوب والأفراد ، وتمتصُّ منها دماءها ، وتتركُها أجساداً هامدة .

إنَّ « الملوكيَّة » و« الشيوعية » تلتقيان على الشَّره والنَّهامة ، والقَلق والسآمة ، والجهل بالله ، والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج »[١] ، وعند الملوكية « خراج » ، والإنسانُ البائسُ بين هذين الحجرين قارورةُ الزُّجاج ، إنَّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفنِّ ، والمُلوكية تنزع الروحَ من أجسام الأحياء ، وتسلُبُ القوتَ من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادَّة ، وجسمُهما قويٌّ ناضر ، وقلبُهما مظلمٌ فاجر .

---

(١) يعني : تجرُّد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

ألا ! منْ يبلغُ « روسيا » أنَّ القرآن وتعاليمه في وادٍ والمسلمين في وادٍ ، لقد انطفأت شرارةُ الحياة في صدورِ المسلمين ، وانقطعتْ صلتُهم عن النَّبيِّ ﷺ إنَّ المسلم اليوم لا يؤسِّسُ حياته ، ولا ينظِّمُ مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدِّين والدنيا ، لقد ثَلَّ عَرْش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربَّع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغيَّر نظرُه إلى الحياة ، وتغيَّر منهج تفكيره .

لقد حطَّمت « القيصريةُ والكسرويةُ » مُثُلَ المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الرُّوسية ! من تاريخنا ، عليك بالثباتِ والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنامَ « الملوكية والوطنية » فلا تعودي إليها ، ولا تطوفي حولها مرَّةً ثانية . إنَّ العالم اليوم يطلب أمةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرَّحمة والشدَّة ، فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته ، لقد أصبحت دياناتُ الإفرنج ودساتيرُهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودي إليها مرَّة ثانيةً ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكمِّلين مهمَّتَك ، وتُتمين رحلتك العظيمة ، إنَّك تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساسٍ مُحْكمٍ ، وليس هو إلا الدينُ والعقيدةُ .

لقد محوت يا روسيا ! أساطيرَ الأولين أسطورةً أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورةً سورةً ، وما أدراكِ ما القرآن ؟ إنَّه نعيٌ للملوكية والسُّخرة ، وحتفٌ للاكتناز والأثرة ، وحياةٌ للصعلوك ، وبشرى للملوكِ ، إنَّه يذمُّ الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحثُّ على إنفاق كلِّ ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] إنه يحرِّم الربا ، ويحلُّ البيع ، ويحثُّ على القرض الحسن ، وهل يتولَّد من الربا إلا الشرورُ والفتن ، والقساوةُ والضَّراوة ؟ إنَّ اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكلُّ ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاعٌ

للعبد ، والإنسانُ أمينٌ في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه ، وخلقه ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، قد انتكست رايةُ الحقِّ بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدنُ بظلمهم ، وعبثهم . إنَّ المبدأ الذي يقرِّره القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدةٍ واحدة ، وأنَّ الأسرة الإنسانية كلَّها كنفسٍ واحدة[١] .

إنَّه لما قامت دولةُ القرآن ، اختفى الرُّهبان والكهَّان ، أقول لك ما أؤمنُ به وأدين : إنه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم . إنَّه ظاهر ومستترٌ ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطقٌ ، إنَّه يحتوي على جدود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجديرٌ بك أنْ تنظري إلى العالم بنورِ القرآن نظراً جديداً »[٢] .

* * *

والآن إليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً :

يقول إقبال :

التـرابُ كـلُّ مخلـوقٍ شـأى	وتجلِّيـه جليـاً قـد رأى[٣]
أبكـانَ أم يكـونُ سقطتـي	والـوجـودُ قَنَصـتْ أحبـولتـي[٤]
أنـا فـي الـزرقـاء لـي شقـاً شققـتُ	إنَّنـي منهـا وإيَّـاهـا مَلَكْـتُ[٥]
أفـؤادي فـي حنـوٍّ عـانقـت	أم أراهـا منـه فـي الصَّـدرِ ارتمـت

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] .
(٢) مأخوذ عن « روائع إقبال » لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدوي ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .
(٣) شأى : تفوَّق على غيره .
(٤) السَّقطة : المرَّة من الوقوع والتردِّي . وقَنص : اصطاد . والأحبولة : المصيدة .
(٥) الزرقاء : السماء .

مـا الـذي يخفـى ومـا شـيءٌ ظَهَـرْ لسـتُ أدري كُنْـهَ مـا تَحْـتَ البَصَـر
فـي سمـاء غيـرهـا طيـراً خفقـتُ فـرأيـتُ عـالمـاً مـا إن رأيـتُ
عـالـمٌ بـالبـرِّ والـدَّأمـاء مُفعـمْ مـنْ ثـرانـا إنَّـه خيـرٌ وأقْـدَمْ[1]
عـالـمٌ مـنْ بَعْـضِ أرمـاءِ ظَهَـرْ ليـس لـلإنسـانِ فيـهِ مِـنْ أثَـرْ[2]
مـا عَلَيْـهِ صـورةُ لـوحِ الـوجـود ليسَ للفِطْـرَة مـن نقـدٍ حَـديـد[3]
قلـتُ للـرُّومـيِّ يـا حسـنَ اليَبَـابْ فـي الجبـال حبـذا هَـدْرُ العُبَـابْ[4]
أيـنَ آثـارُ الحيـاة هـاهنـا ؟ والأذانُ فـاضَ مِنْـه سَمْعُنـا ![5]
قـال لـي « هـذا مقـامُ الأوليـاء أرضُنا والأرضُ في فيءِ الإخاء[6]
آدمٌ عـنْ خُلْـدِهِ حيـنَ ارْتَحَـلْ ذلـك العـالـمَ يـومـاً فيـه حَـلْ
ورأى هـذا الفضـاءُ زفْـرَتَـهْ وبفجـرٍ وهـو يشكـو ، رنَّتَـهْ[7]
زائـروه مـنْ خـواصِّ الكُمَّـلِ كلُّهـمْ فـي قـومِـهِ هـذا العَلـي
بـوسعيـدِ والفضيـلُ بينهـمْ بـايـزيـدُ والجُنَيـدُ عِنْـدَهـمْ[8]

---

(١) الدأماء : البحر .
(٢) الأرماء : جمع رمي ، هو السَّحابةُ الصَّغيرة .
(٣) النقد الحديد : النقد الشديد الحاد .
(٤) اليباب : الخراب . والعباب : الموج .
(٥) يعجب الشاعر لوجوده في أرض خراب ، ومع ذلك يسمع صوت المؤذن .
(٦) الفيء : الظلُّ .
(٧) الرَّنةُ : الصَّوت ، أو صوتُ القوس .
(٨) أبو سعيد بن أبي الخير من مشاهير المتصوفة في أوائل القرن الخامس الهجري . وممن أذاعوا بين الناس في خراسان نظرية وَحْدة الوجود . وله رباعيَّات يعبِّر فيها عن مذهبه الصُّوفي وهو رقيقُ المعاني أصيلُ الشاعرية . والفضيل شيخ الحرم المكي كان في الحديث ثقةً ، أخذ عنه خلقٌ كثير منهم الشافعيُّ . وهو في عداد زهاد المسلمين كانت وفاته عام ١٨٧هـ وبايزيد أو أبو يزيد البسطامي أوَّلُ صوفي نسبت إليه الشطحات ، وأراد ابن تيمية أن يدفع عنه غلوه في شطحاته ، وتوفي عام ٢٦١هـ. أما الجنيد فصوفيٌّ بغداديٌّ مرموقُ المنزلة من أهل الصَّحو لا أهل السُّكْر ، أي أنَّه لم يكن من غلاة =

قُـمْ معـي كيمـا نصلـي ركعتيـن
ونـذابُ بـرهـةً أو بـرهتيـن »

إنَّمـا الـرومـيُّ دومـاً فـي الحضـور   مشـرقُ الطَّلعـةِ ذوقـاً فـي السُّـرور
قـال : « إنَّ الشـرق قـطُّ مـا وَلَـدْ   مثـلَ هـذيـن فقـدْ حـلاَّ العُقَـدْ
سيِّـدُ السَّـادات مـولانـا جمـال   منـه يحيـى الطِّيـن والصَّخـرُ المقال
ورئيسُ التُّـرك مـنْ يُـدْعـى حليمـا   كـانَ فـي فكـرٍ وفـي جـاهٍ عظيمـا

مَـعَ هـذيـن الصَّـلاةُ طـاعـةٌ
وجـزاءُ مـنْ يُصلِّـي جَنَّـةٌ

سـورةُ النَّجـم تـلاهـا شيخُنـا   غَمَـرَ الصَّحـراء صَمْـتٌ هـاهنـا
ويثيـرُ اللَّحـنُ وَجْـداً فـي الخليـل   وكـذا فـي عمـقِ رُوْحِ جِبْـرئيـل
ويـذودُ الصَّبْـرُ عـن قلـبٍ صَبُـور   يـرفـعُ « إلا الله » مـنْ كـلِّ القبـور
يَهَـبُ النَّـار دخـانَ الـزَّفْـرَة   وَلـداودَ ضِـرَامُ السَّكْـرَةِ
وبـذا اللَّحـنِ الظُّهـورُ للغيـاب   وارتفـاعُ السِّتْـرِ عـنْ أمِّ الكتـاب
والصَّـلاةُ بَعْـدَ أنْ تَمَّـتْ نَهَضْـتُ   ويَـدَيْـهِ فـي خشـوعٍ قَـدْ لَثَمْـتُ
قـال « هـذي ذرةٌ تَطْـوي الفَلَـكْ   عـالـمٌ مِـنْ حُـرْقَـةٍ فيهـا اعْتَـرَكْ[1]
ذاتُهـا منهـا تَلَقَّـتْ نظـرةً   لـمْ تَهَـبْ قلبـاً وكـانَـتْ حُـرةً
وحثيـثٌ فـي الـوجـودِ سيـرُهـا   زنـده رودِ إنَّنـي سمَّيتُهـا[2]

* * *

= المتصوِّفة ، ويعدُّ أولَ المتكلمين في التوحيد ببغداد ، وكانت وفاته عام ٢٩٧هـ .

(١) اعترك : اختلج واضطرب .

(٢) زنده رود في الفارسية بمعنى النَّهر الحي ، وهو اسمُ نهرٍ عظيم يجري بمدينة أصفهان في إيران . ولكن الشاعر آخذ عن الشاعر الألماني كوته في منظومةٍ له بعنوان « نشيد محمد » وقد عرفها إقبال وترجمها ، وفيه يشبّه الشاعر الألماني روح النُّبوَّة بالنَّهر المتدفق المزبد ، كما قال المستشرق الإيطالي باوزاني .

الأفغانيُّ

زنــده رود ، تِلْـكَ دنيـانـا تكلَّـمْ أرضَنا صِفْ أو سمانا أنْتَ أعْلَمْ
يــا تُــــرابيَّـــاً سمـــاويَّ البَصَـــر أمَّــةُ الإسـلامِ عنهـا مـا الخبـر ؟

زنده رود

أمـــةٌ قـــدْ دوَّخَـــتْ كــلَّ الأمـــم فيهــا فكــرُ الـدِّيـن والأوطـانِ عـمْ
وتمـوتُ الـرُّوح مِـنْ ضَعْـفِ اليَقيـنْ بـأسُهـا مـنْ قـوَّةِ الـدِّيـن المبيـن
الفِـــرَنْـــجُ المسلميـــنَ أسْكـــرُوا وبِشَــصٍّ فــي الحُلـوق جـرَّروا[1]
منْ نُفُوذِ الغَرْبِ في الشَّرق الخراب والشُّيـوعُ لانحطـاط الـدِّيـن بـاب

***

الأفغانيُّ
الدِّين والوطن

مَكْـرٌ لـوردِ الغَـرْبِ كـمْ أعيـا الفطَـنْ فطَّـنَ القـومَ بمعنـىً لِلْـوَطـن[2]
مــركــزاً يبغــي وأنــت فـي النِّفـاق انسَ حتَّى الشَّام ، دَعْ أمْرَ العراق
أنــتَ إنْ أدْرَكْــتَ مـــا خيــرٌ وشــرْ فَلْتَفُـكَّ عنـك قيـداً مـن حجـر[3]
مـا هـو الـدِّيـن ؟ القيـامُ مـن ثـرى ذاتَــه القلــبُ الطَّهُــورُ كـي يـرى
« الله هُـو » مـنْ قـالهـا قـولًا يجـود لم تَعُدْ تحويهِ هاتيْكَ الحدُودْ[4]

---

(١) الشصُّ : حديدةٌ معقوفةٌ يُصاد بها السَّمكُ حين يتعلَّق من فمه . يقول إقبال : إنَّ الأوربيين خدعوا العرب ، والفرس ، والترك ، وجذبوهم إليهم كما يجذبُ الصيَّادُ السمك .

(٢) فطن : فهم .

(٣) يريد بالحجر المنازل التي تتألف منها المدن .

(٤) يجود : يحسن .

قشَّةٌ في الأرضِ قامت منْ تُراب   ويلُ روحٍ في التُّراب منْ تَبَابْ[1]
يُخلقُ الإنسانُ مِنْ ماءٍ وطِيْن   لونُهُ كالوَرْدِ منْ ماء مَعِيْن[2]
بئسَ للإنسانِ في الطِّينِ الدَّوام   إنْ بِهِ لمْ يَغلُ ذيَّاكَ المَقَامْ
يا حكيمُ ، الرُّوحُ تسمو عن جهاتْ   ضاقَ حرٌّ بقيودٍ مُثْقَلات

من ظلامِ الأرض حرٌّ قد يَثُوْرْ
ما كفأرٍ فَعَلَتْ تِلْكَ الصُّقُوز !

قَبْضَةُ الطِّينِ تسمِّيها الوطن   دَعْكَ مِنْ مِصْرَ وفُرْسٍ واليَمن[3]
بينَ أوطانٍ وقومٍ نسبةٌ   إنَّهم في الأرض منها نَبْتَةٌ
أنْتَ إنْ أمْعَنْتَ في هذا النَّظَرْ   دقةٌ أدْرَكْتَ دَقَّتْ كالشَّعَرْ
فَمِنَ الشَّرْقِ ذُكاءٌ تَطلُعُ   باجتراءٍ وَتَجلٍّ تَسْطعُ[4]
في عذابٍ واصبٍ منْ نارِ قَلْبِ   عِنْدَ فَكِّ القَيْدِ منْ شَرْقٍ وَغَرْبِ[5]
بالتَّجلِّي أسْكِرَتْ في شَرْقها   أفقاً ما أفْلَتتْ منْ غَزْوها

مِنْهُما قد قطَّعت أصلَ السَّبَبْ
إنَّها للشَّرق لَكنْ في النَّسَبْ[6] !

***

الشُّيوعيَّة والرأسماليَّة

صاحبُ « المالِ » سليلٌ لِلْخَلِيلْ   وبلا جِبْريلَ أضحى كالرَّسول[7]

---

(١) التباب : الهلاك والخراب .
(٢) المعين : الجاري .
(٣) الفرس هنا بمعنى بلاد الفرس .
(٤) ذُكاء : الشمس .
(٥) الواصبُ : الدائم .
(٦) يقول : إنَّ الشمس قطعت كلَّ صلةٍ بينها وبين المشرق والمغرب .
(٧) يريد كارل ماركس صاحب كتاب رأس المال .

مبطـلٌ ، فـي الـزَّيْـغِ حقّـاً يُضْمـرُ مـؤمـنُ القَلْـبِ بعقـلٍ كـافِـرُ
إنَّ أهـلَ الغـربِ أفـلاكـاً أضـاعـوا طلبوا الرُّوح ببطنٍ حينَ جاعوا !
مـا استمـدَّ الـروحُ حسناً مـنْ جَسَـدْ وعلـى الجِسْـمِ الشُّيـوعـيُّ اعْتَمَـدْ
قـولُـه فـي كُفْـرِه هـذا المُبيـن ليـس إلا فـي مسـاواة البُطـون

فـي صميـمِ القَلْـبِ ذيّـاكَ الإخـاءْ
مـا احتـوى أصـلاً لـه طيـنٌ ومَـاءْ[1]

الجســومُ بــالثَّــراءِ سُمِّنَــتْ والصُّـدورُ مِـنْ قلـوبٍ جُـرِّدَتْ[2]
يـا لَـهُ الـزُّنْبُـورُ يـرعـى وردَهُ ثـم يمضـي ، نـالَ مِنْـهُ شَهْـدَهُ
إنَّ غُصْـنَ الـوَرْدِ هـذا حُسْنُـهُ ولـهُ البُلْبُـلُ هـذا لَحْنُـهُ[3]
عَـنْ جمـالٍ رَاقَ فَلْتَطْـوِ النَّظَـرْ اقْصِـدِ المعنى وَدَعْ عَنْـكَ الصُّـوَرْ

أنْ تـرى لِلْقَلْـبِ مـوتـاً يَضْعُـبُ
أنْ تسمِّـي الطِّيـن وَرْدَاً يَكْـرُبُ[4]

يَمْلِكَـانِ الـرُّوحَ نـدَّ صَبْـرُهـا تَخْـدَعُ النَّـاسَ ويَبْـدُو كُفْـرُهـا[5]
لهمـا العيـشُ الخـروجُ والخَـرَاجْ حَجَران ، والورىٰ هذا الزُّجَاجْ[6]
هـذه دينـاً وعلمـاً حَطَّمَـتْ تِلْـكَ روحـاً ورغيفـاً حَـرَّمَـتْ
لهمـا فـي المـاءِ والطِّيـنِ الغَـرَقْ أظْلَـمَ القَلْـبُ وذو الجِسْـمِ ائْتَلَـقْ

والحيـاةُ الاحتـراقُ والعَمَـلْ

---

(١) يقول : إنَّ الإخاء في الروح لا في الجسد .
(٢) يراد بالثراء الرأسمالية .
(٣) درج شعراء الفرس على قولهم : إنَّ البلبل يَعْشقُ الوردة ، ويغني لها ، وهم يشبهون بالبلبل عاشق الذَّات الإلهية .
(٤) كل في الفارسية بفتح الأول بمعنى الوردة وبكسره بمعنى الطين ، ولبلغاء الفرس ولوع بذكر هذين الاسمين على أنهما رمز للنقيضين . ويكرب : يثير الحزن .
(٥) يتحدَّث الشاعر عن الشُّيوعية والرأسمالية . ونَدَّ : بعد .
(٦) يريد بالخروج والخراج : الإنتاج ودفع الضريبة .

والسُّـوَيْـداءُ لِتُلْقَـىٰ فـي الـوَحَـلْ[1]

***

سعيد حليم باشا[2]

الشَّرقُ والغربُ

إنَّ في الغَرْبِ الذَّكا أصلُ الحياة والهوى في الشَّرْقِ سرُّ الكائنات

وبعشـقٍ يَعْـرفُ اللهَ الـذَّكـاء ولعشـقٍ بـالـذَّكـاء ذا العَـلاء

وإذا العِشْـقُ الـذَّكـاءَ صـادقـاً عـالمـاً آخَـرَ قَطْعَـاً حقَّقـا

انْهَضَـنَّ العـالَـم الثـانـي اصْنَعَـنْ بـالـذَّكـاءِ ذلـكَ العِشْـقَ امْـزُجَـنْ

لِلْفِـرَنْـجِ شعلـةٌ قَـدْ بُلِّلَـتْ قَلْبُهـم مـاتَ وعيـنٌ فُتِّحـتْ

جُـرِّحـوا لكـنْ بحـدِّ سَيْفِهـمْ يـا لَهُـمْ صَـرْعَـىٰ كَمِثْلِ صَيْـدِهِـم[3]

نشـوةٌ مـنْ كـرْمِهِـمْ لا تَطْلُبَـنْ جِـدَّةً مـنْ عَصْـرِهـمْ لا تَـأْمُلَـنْ[4]

للحيـاةِ النَّـارُ فلتُشْعَـلْ بنـارِكْ

اصْنَـعِ العـالَـمَ وارْفَـعْ مـنْ مَنَـارِكْ

و « كمـالُ » حِيْـنَ نـادىٰ بـالجـديـدْ قـالَ : إنَّ المَحْـوَ لِلْعَهْـدِ العهيدْ[5]

لَيْـسَ لِلْكَعْبَـةِ تَجْـديـدُ الحيـاة إنْ أتـى الكعبـةَ غـربـيٌّ بِـلاتْ !

مـا تَغَنَّـى التُّـركُ مـا قـالـوا نشيـدا بـلْ قـديـمُ الغَـرْبِ سَمَّـوْهُ الجـديـدا

---

(١) السُّويداءُ : حبَّة القلب .

(٢) هو سعيدُ حليمُ باشا الصَّدر الأعظم الذي قتل عام ١٩٢١ في روما . ولقد فَرَضَ إجلاله حتى على خصومه لِسَدادِ رأيه ، ورجاحة عقله . والجامعُ بينه وبين الأفغاني أنَّ كلًّا منهما صاحب نزعةٍ إسلاميَّةٍ إصلاحيَّة .

(٣) الصَّيد : ما يصاد .

(٤) الكرم : شجر العنب .

(٥) كمال هو مصطفى كمال أو كمال أتاتورك رائد تركية الحديثة . والعهيد : القديم .

نَفَــسٌ آخــرُ فيهــم مــا خَفَــقْ   عــالــمٌ فـي القلـب منْهُـمْ مـا انْبَثَـقْ
وافقــوا العـــالــمَ هــذا لا جَــرَمْ   فيـه ذابـوا شمعـةً تَحْـتَ الضَّـرَمْ[1]
فــي الصَّميــمِ طُـرْفـةٌ للكــائنــات   لـمْ تَكـنْ تقييـد تقـويـم الحيـاة[2]
إنَّ حــيَّ القلــبِ خــلأَق الــدُّهــور   ومــنَ التقليــد كــانَ ذا النُّفــوزْ
مسلمــاً إنْ كُنْــتَ ذا عقــلٍ منيــر   في الكتابِ انظرْ وفي هذا الضَّمير[3]
كــمْ دُنـى تَظْهـرُ فيـه مـنْ سُتُـوزْ   والعصــورُ مَــرُّهــا تلـوَ العُصــور
إنَّ دنيــا مِنْــهُ تكفــي عَصْــرَنــا   إنْ عَقَلْــتَ أنــتَ فــاجْعلهــا لنــا
يــؤمــنُ الإنســانُ مــن آيــات ربِّــه   كــلُّ دُنيــا يَـرْتـديهـا مِثْـلُ ثـوبـه
وإذا دنيــــاهُ رثَّــــتْ ثــــوبهــــا   قــدَّم القــرآنُ دنيــا غَيْــرَهــا[4]

* * *

زنده رود

زورقٌ نَحْــنُ بــلا هــدي جــرىٰ
عـــالــمُ القــرآنِ أيــنَ ؟ مــن درىٰ

الأفغانيُّ

عــالــمٌ فـي صــدرنــا هــذا اختفــى   فـي انتظــارِ « قُـمْ » لإنسـانٍ غفـا
ليــسَ فيــه أيُّ لــونٍ أو دِمــاء   مــا لغــربِ مــا لَــدَيْــهِ مــنْ بَهــاء

---

(١) الضَّرم : الحطب المشتعل والمراد به هنا النار .
(٢) الطُّرفة : الشيء العجيبُ النادر .
(٣) الكتاب : القرآن .
(٤) رثَّ الرجل ثوبه : جعله رثاً أي غير صالح .

ليس فيه مِنْ ملوكٍ أو عبيد ... مثلُ قلبٍ في خلوٍّ منْ حُدُود[1]
عالمُ الحُسْنِ ، ومنْ فَيْضِ النَّظر ... بذرُه ألقي بقلبِ منْ عُمَر[2]
سرمديٌّ فيه أحداثٌ تَدُومْ ... محكماتٌ فيه تهدي منْ يَرُومْ[3]
لا يهابُ باطنٌ فيه التَّغَيُّرْ ... ولهُ الظَّاهرُ دوماً في التطوُّرْ

بينَ جنبيكَ ، عليكَ بالنَّظر
محكماتٌ ، ألق سمعاً للخبر[4]

* * *

مُحْكماتُ العالَمِ القُرآنيّ
خلافةُ الإنسان

أثرُ العِشْقِ بدا في العالَمِيْن ... ويرى في المرءِ منَّا رأي عَيْن
ليسَ سرُّ العِشْقِ من دنيا الرَّحم ... ما إلى سامٍ وحامٍ يَحْتَكم[5]
كوكبٌ ، ما منْ شروقٍ أو غروبْ ... لا ولا يَدْري شمالاً مِنْ جَنُوب
قول ﴿ إني جاعل ﴾ تقديرُه ... بَيْنَ أرضٍ وسما تفسيرُه[6]

---

(١) يشبه هذا العالم بقلب المؤمن الذي يخلو من الحدود .

(٢) يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم بعد أن ألقى نظرة على آيةٍ قرآنية ، وهو يهمُّ بقتل أخته التي كانت قد أسلمت سراً .

(٣) السَّرمديُّ : الدائم الخالد . والمحكمات : الآيات التي أحكمت فلا تمس حاجة سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء . ويقابلها المتشابهات .

(٤) أي أن هذا العالم في داخلك وبين جنبيك . فانظر في نفسك واستمع إلى الآيات المحكمات .

(٥) الرَّحم : القرابة . وسام أحد أبناء نوح ؛ وينسب إليه الجنس السَّامي ، وكذلك حام وهو أبو السُّودان .

(٦) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا =

الحيـاة مِنْـهُ كـانـتْ والـرَّدى		نـورَ دُنيـانـا ونـاراً أوْجَـدا
الإمـامُ والصَّـلاةُ والحَـرَمْ		والمِـدَادُ والكِتـابُ والقَلَـمْ
غيبُـهُ يُمسـي رُويـداً ذا الحضـوز		مُلْكُـهُ مـا فيـهِ حَـدٌّ أو ثُغُـوز
منْـهُ كـانَ اعْتبَـارُ الكـائنـات		واعتـدالٌ فيـهِ قـاسَ المُمْكِنـات
يـا لـه بحـراً بـلا شـطٍّ يفـور		قلبُـه قـد أُغـرقـتْ فيـه الـدُّهـور
إنَّمـا الإنسـانُ دُنيـا قـدْ وَسِـعْ		هـذه الـدُّنيـا لَـهُ لـمْ تَتَّسِـعْ
وتجلَّـى فـإذا نـورُ السَّمـاء		واختلىٰ يـومـاً فجبـرائيـلُ نـائـي[1]

وعـنِ الأفـلاكِ أعلـى قَـدْرَهُ
والحميـدُ مـنْ تغنَّـى شُكْـرَهُ

مـا الحيـاةُ يـا بصيـرٌ هـل فَهِمْتَـا		أنْ تُـرى اثنيـنِ ، وَفَـرْدْ مـنْ عَشِقْتَـا
يَـرْبِـطُ الجنسيـنِ مـوصـولُ الصِّلات		يَـرْسُمـانِ شـوقَ تِلْـكَ الكـائنـات[2]
تُشْعِـلُ المـرأةُ نيـرانَ الحيـاة		طبعُهـا لـوحٌ لأسـرارِ الحيـاة[3]
أضْـرَمَـتْ فـي الـرُّوح منهـا نـارَنـا		جـوهـرٌ فيهـا أتـمَّ خَلْقَنـا
ممكنـاتُ العَيْـشِ مِنْهَـا فـي الضَّميـر		وثباتُ العيشِ في وَهْجِ الشُّعور[4]
إنْ يَغِـبْ عـن هـذه النَّـارِ الشَّـرَرْ		لـمْ يَلُـحْ جسـمٌ وروحٌ للنَّظَـرْ
مـا لنـا مـنْ قيمـةٍ ، منهـا لنـا		رَسَمتْنَـا وأجـادتْ رَسْمَنـا

إنْ حبـاكَ اللهُ عقـلاً لِلتَّفَكُّـرْ
طهِّـر النَّفْـسَ بتقـديـسٍ لهـا انْظُـرْ

أفسـدَ الإيمـانُ فيـكَ عَصْـرَنـا		يَكْشِـفُ السِّـرَّ الخفـيَّ قـولُنـا

= تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ومعنى استخلاف الله آدم في الأرض أنه سيكون له سلطانٌ عليها ، وسيتصرَّف في موادها ليجعلها ملائمةً لحاجاته .

(١) يقول : إنَّ جبريل لم يقتحم عليه عزلته .
(٢) الجنسان : المراد بهما الرجل والمرأة .
(٣) اللوح : ما يكتب فيه .
(٤) الوهج : اشتعال النار .

فـي الجسـومِ الخلـقُ نـارٌ تَتَّقِـدْ — أيُّ فـردٍ حـولَهـا لـمْ يَسْتَفِـدْ ؟

مـنْ يَنَـلْ مـنْ هـذهِ النَّـارِ النَّصيبـا — يَجْعَـلِ النَّفسَ علـى الفِعْـلِ الرَّقيبا

إنَّـه ذو الـرأي فيمـا قـدْ عَمِـلْ — لا يـرى الغَيْـر وَلٰكـنْ يَعْتمـلْ[1]

مُـدَّةً فـي الغـارَ ظـلَّ المصطفـى — غَيْـرَ آثـارِ لـذاتٍ مـا اقتفـى

رَسْمَنـا قـد أغرقـوا فـي مُهْجَتِـه — وأقـامـوا أمـةً مـنْ خَلْـوَتِـه

وعلـى إنكـار ربٍّ إنْ قَـدَرْنـا — كـلُّ فضـلِ المُصْطفى حتماً عَرَفْنَا

لـو أنـارتْ فيـك روحٌ كـالكليـم — لَشَقِيْـتَ أنـتَ بـالفِكْـرِ العَقِيْـم

فـالخيـالُ فيـك تحيـي عـزلـةٌ

ثـم تـأتـي بعـد بحـثٍ ضـالَّـةٌ[2]

مـن مقـامـاتٍ لنـا علـمٌ وَشَـوْق — لهمـا فيمـا جـرى لِلْقَـوْمِ حَـقْ

بهجـةٌ لِلْعِلْـمِ تحقيـقٌ دقيـق — متعـةٌ لِلْعِشْـقِ خَلْـقٌ قـدْ يَلِيـقْ

صـاحـبُ التَّحقيـق رامَ المُنْجلـي — صـاحـبُ الخَلْـقِ بـذاتٍ يَخْتَلـي

عيـنُ مـوسـى رؤيـةَ الـدُّنيـا أرادتْ — وإليهـا رغبـةَ التَّحقيـق سَـاقَـتْ

﴿ لن تراني ﴾ إنَّها المعنى الدَّقيق — وَلْتَضِـعْ فيـهِ فـذا البحـرُ العَمِيـق[3]

إنْ تَلْـخْ للعيـنِ آثـارُ الحيـاة — تستمـدُّ النبـعَ جـوفَ الكـائنـات

هـذه الآفـاقُ بـالعيـنِ ازمُقَـنْ — وتجلِّـي ربِّهـا لا تَطْلُبَـنْ

---

(١) اعْتَمَلَ : عَمِلَ عملاً يتعلّق به دون سواه . والمبتكر : المجدِّد لا يقلِّد غيره .

(٢) الضَّالة : الناقة الضائعة التي لا يعرف لها صاحب . والمراد هنا ما يراد معرفته .

(٣) الشاعر يريد قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة . وفي شعرٍ لجلال الدين الرُّومي : أنَّ الله خالقُ الوجود من العدم ، والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق .

خلــوةٌ تحفــظُ كــلَّ مَــنْ صَنَــعْ
جـوهـراً فـي خـاتـمٍ كـانـت لَمَـعْ[1]

***

الحكمُ الإلهيُّ

إنَّ عبــدَ اللهِ لا يبغــي المقــامــا — مـا لـه عبـدٌ ولا كـانَ الغُـلامـا

إنَّــه حــرٌّ وذو نَفــسٍ زكيَّــة — مُلْكُـه هـذا مـن المـولـى عَطِيَّـة[2]

دينُـه والعُـرْفُ مـنْ ربٍّ كـريـم — حُلْـوُهُ والمـرُّ مـنْ ربٍّ عظيـم

جـازَ عقـلٌ فـي الغـرورِ حـدَّهُ — ولـه النَّفْـعُ تمنَّـى وَحْـدَهُ[3]

خيـرُ كـلِّ النَّـاسِ يبغـي وحـيَ ربِّـي — ويـرى الخَيْـرَ نـداءً كـيْ يُلَبِّـي

ويكـونُ السِّلْـمُ أو حتَّـى المَصَـافْ — لا يـراعـي منصفٌ بـل لا يَخَـافْ[4]

وإذا الإنســانُ أضْحــىٰ آمــرا — كـانَ لِلْمِسْكيْـنِ حتمـاً قـاهِـرا

ومــنَ القَهْــرِ صُــدُوْرُ أيِّ أمْــر
ولغيــرِ اللهِ أمْــرٌ مَحْــضُ كُفْــر

آمــرٌ بــالأمــرِ زكَّــى عَقْلَــهُ — مـنْ قـوانيـن بنـى حصنـاً لـه

إنَّ صقــراً فــي ذُرىٰ جــوٌّ يَطيْــرِ — صعـوةً فـي أمْـرِه قـدْ يَسْتَشيـرْ[5]

قهـره القـانـون ، مفقـودُ البَصِيْـرَة — يضعُ الإثْمدَ في العَيْنِ الضَّريرة[6]

---

(١) يقول : إنَّ الخلوة تحمي كلَّ من أوجد شيئاً ، وهي فصٌّ من الجوهر لخاتمه .

(٢) الزكية : الطاهرة .

(٣) جاز : تجاوز .

(٤) المصاف : الموقف في القتال .

(٥) الذُّرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . والصَّعوة : أنثى الصَّع وهو عصفور صغير .

(٦) الإثمد : الكحل .

صاحبُ الأرضِ البدين ، كان شِرْعَه
والنَّحيـلُ زارعٌ مـا اقتـاتَ زَرْعَـه[1]

بئسَ ما في الغربِ حقّاً حُكْمُهُـمْ ويـزيـدُ الميـتَ مـوتـاً صُـوْرُهـم[2]
يسحـرونَ ، خَـدْعُ دَهْـرٍ خَـدْعُهُـمْ من شعوبِ الأرضِ كان نَرْدُهُمْ[3]
يَسْـرِقُـون ، ذا ثـريٌّ ذاكَ كَـادِح بالعداءِ بعضُهم للبعضِ كاشِحْ[4]
يَكْشِـفُ السـرَّ جليّـاً قـولُنـا سلعـةٌ نحـنُ وَهُـمْ تُجّـارُنـا
جَفْنُهُـمْ فـي المـالِ حُبّاً قـد جَمَـدْ كـلُّ أمٍّ آدَهـا ثِقْـلُ الـوَلَـد[5]
ويلهـمْ ! خـوفـاً علـى حُلْـوِ الثَّمَـرْ يُخْرِجُون الماءَ منْ جِذْعِ الشَّجرْ !
ولِكَيْـلا يبعـثُ العُـودُ الـرَّنينـا فـي البطـونِ قَتَلُـوا حتَّـى الجنينـا
عِنْـدَهُـمْ مـنْ كـلِّ فـنٍّ كثـرةٌ كـلُّ مـا حصَّلْـتَ منهـم عَبْـرَةٌ

يـا أسيـراً كـانَ مِـنْ تقليـدِهـم
الكتـابَ اقـرأ ، وَعُـذْ مـنْ أسْـرِهـم[6]

***

الأرضُ ملكٌ للهِ

إنَّمـا الإنسـانُ فـي شـرقٍ وَغَـرْب لامتلاكِ الأرضِ في حربٍ وَضَرْب
كعـروسٍ ولهـا كُنّـا الـرِّجـالا سَحَـرَتْنـا ، قـطُّ مـا نلنـا الـوِصـالا

---

(١) البدين : السَّمين . والشِّرْعَةُ : الشريعة . واقتات الشيء : اتخذه قوتاً .
(٢) الصُّور : ما ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة ليبعث من في القبور .
(٣) النرد : شيءٌ معروفٌ يلعب به مع تحريك قطعٍ من العاج على لوحٍ من الخشب .
(٤) كشح له بالعداوة : أضمرها له .
(٥) جمدت العين : قل دمعها ، أو انقطع . وآده الحمل : أثقله .
(٦) الكتاب : القرآن الكريم .

ضمَّنــتْ كـــلَّ خـــداعٍ دَلَّهـــا فــي هــواهــا إنَّنــا لسنــا لهــا[1]

أيُّ شــيءٍ رُمْــتَ مــنْ ذاكَ الحَجَــرْ إنَّــه البــاقــي وَأَنْــتَ فــي سَفَــرْ[2]

وعــنِ اليقظــانِ مــنْ نَــامَ افتــرقْ ومــعَ السَّيَّــار ضــدٌّ مــا اتفــق[3]

هــذه الأرضُ منحنــاهــا مَتَــاعَــا مــنْ شَــرَاهــا منحــةً يــومــاً وبــاعــا[4]

مــالــكَ الأرضِ إليــكَ القــولُ عَنْهــا اتَّخــذْ رِزْقــاً وقبــراً ثُــمَّ دَعْهَــا[5]

وإلامَ لَيْـــتَ شِعْـــرِي تبْقَيَـــان قَــدْ تَظَــلُّ وَتَغِيْــبُ عَــنْ عِيَــان[6]

طُــفْ بــأفــلاكِ السَّمــاءِ كــالعُقَــاب كنْ طهوراً واجْتَنِبْ رِجْسَ التُّراب[7]

إنَّمــا الأرضُ لــربِّــي ، ذاكَ ظــاهــر

كــلُّ مــن أنْكَــرَ هــذا فَهْــوَ كــافــر

لــم أقــلْ دَعْ عنــكَ هــاتيــك الــدِّيــارا عــالمــاً تملــك مــنْ حســنٍ أنــارا

ارفعــنْ عــنْ جــوهــرِ الأرضِ التُّــرابــا الْتَقِــطْ حَــبَّ النُّجــومِ طِــرْ عُقَــابــا

في الجبال اضْرِبْ بفأسٍ صَخْرَهــا وبنـــورٍ منـــك أوْقِـــدْ نـــارهـــا

وطـــريـــقُ آزرَ فلتجتنبهـــــا وكمــا تهــوى لــك الــدُّنيــا أقِمْهَــا[8]

بــالجمــالِ لا تَصِــلْ قلبــاً سَقِيمــا أعْطِهــا قلبــاً لهــا كــانَ الحَــريمــا[9]

---

(١) الدَّل : الدلال . ويقول : إنها لا تقبل عشاقها .

(٢) الحجر هنا رمز إلى الدار والوطن . والإنسان سوف يرحل عن دنياه وما البقاء إلا لوطنه وداره من بعده .

(٣) السَّيار هو الكوكب السيار ، وضدُّه الكوكب الثابت .

(٤) شرى الشيء : اشتراه . والمنحة لا تباع ولا تشترى .

(٥) يقول : حسبك أن تجني من الأرض رزقَك ، وتحفرُ فيها قبرك .

(٦) ليت شعري : ليتني أشعر أي ليتني أعلم .

(٧) العقاب : من جوارح الطير . والرِّجس : القذر .

(٨) آزر : هو أبو إبراهيم عليه السلام . وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ ۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٩) الحريم : كل موضع تلزم حمايته . يقول : إنَّ القلب يحيطُ بتلك الأرض وتلزمُ حمايتها وحمايته .

أنمــوتُ ؟ مــا لنــا مــالٌ وقَبْــرُ أنضيــعُ ؟ ولنــا أهــلٌ وَوَفْــرُ[1]

« لا إلــه » ولهــا القلــبُ اتَّسَــعْ عــالمــاً فــي الـذَّاتِ إنســانٌ جَمَــعْ

كيــفَ فَقْــرُ الجــوعِ أو فَقْــرُ العُــراة

حُكْــمُ سلطــانٍ ، فَـدَعْ ذِكْـرَ العُفَـاة[2] !

* * *

(١) الوفر : الكثير من المال .

(٢) يقول : إنَّ الفقر هو حكمُ الحاكم . والعُفاةُ : السائلون والفقراء . والمراد بهم هنا الزُّهَّادُ .




القسم الثالث

فَلَكُ زُحَل






الحكمةُ خَيْرٌ كثير

قــالَ ربِّــي إنَّهــا الخَيْــرُ الكَثِيْــرْ　　إنْ تَجِــدْهُ فــاغْتَنِمْــهُ يــا بَصِيْــرْ[1]

ولحــرفٍ وَهَــبَ العِلْــمُ الجنــاحــا　　للخَسِيْسِ رونـقَ الغـالـي أتـاحـا[2]

وإلــى الأفــلاكِ عِلْــمٌ قَــدْ طَلَــعْ　　نظــرةً مــنْ مُقْلَــةِ الشَّمْــسِ اقْتَلَــعْ

للــوُجُــوْدِ ، مــا يــرى تَفْسِيْــرَهُ　　والمَصِيْــرُ للــوَرَىٰ تَقْــدِيْــرُهُ[3]

للصَّحــارى قــال جـودي بـالحَبَـابْ　　للْبِحـارِ قـال مُـوْجـي بـالسَّـرَابْ[4]

عينُــه دومــاً علــى مــا قَــدْ جَــرَىٰ　　أصــلَ تِلْــكَ الكــائنــاتِ كــي يَـرَىٰ

كَنَبــيٍّ ، ربَّــه إمَّــا ذكــر　　وبقطــعِ الفِكْــرِ عــنْ ربٍّ كَفَـرْ[5]

وَبِغَيْــرِ القَلْــبِ عِلْــمٌ كــانَ شَــرَّا　　نــورُه الظَّلمــاءُ بحــرٌ ضــلَّ بَــرَّا

مِــنْ دخــانٍ عــالــمٌ أضحــى كَفِيْفــا　　والرَّبيعُ فيه قَدْ أمسى الخَرِيفا[6]

الفَيــافــي والــرِّيــاضُ النَّــاضِــرَاتْ　　والجبــال هَــدَّمَتْهــا الطَّــائــرات

صَــدْرُ أهــلِ الغربِ يُضْنِيْـهِ اللُّهَـابْ　　لــذةٌ للسَّطْــوِ والغَــزْوِ اسْتَطَـابُـوا[7]

نَكَّسُــوا الأوضــاعَ فــي أيــامِنَــا　　نَهَبُــوا الأمــوالَ مِــنْ أقــوامِنــا

---

(١) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(٢) أتاح : هيّأ .

(٣) أي أنَّ ما يراه العلم ، ويحكم به ، هو وحده ما يفسِّر الوجود .

(٤) الحَبَابُ : النفاخات على سطح الماء . والسَّراب : ما يشاهد نصف النهار كأنه ماء .

(٥) إمَّا : تتألف من إن الشرطية وما الزائدة .

(٦) الكفيف : الأعمى . أي أنَّ المتصاعد من الدخان والغاز يعمي العيون .

(٧) اللهاب : مصدر من لهبت النار أي اشتعلت .

واستمـدُّوا بَطْـشَ إبليـسَ الـرَّجيـمْ تُضبِـح الأنـوارُ نـاراً بـالجَحِيـمْ[1]
قَتْلُـهُ مـا زالَ كـالأمـرِ الصَّعُـوب إنَّـه قـد ضـاعَ فـي عُمْـقِ القُلُـوب[2]
كـان أولـى مـؤمنـاً أنْ تَجْعَلَـهُ وبسيـفِ لِلْكتـابِ تَقْتُلُـه[3]
مـا جـلالٌ لَيْـسَ فيـهِ مـنْ جَمَـالْ ! أيُّ هجـرِ ذاكَ يخلـو مِـنْ وِصَـالْ !
عِلْمُنـا بـالعِشْـقِ عِلْـمُ المـؤمنينـا وبِغَيْـرِ العِشْـقِ عِلْـمُ الكـافِـرِيْنـا
جثـةٌ عِلْـمٌ لنـا مـا لَـمْ نُحـبْ ولنـا العَقْـلُ كَسَهـمِ لـمْ يُصِـبْ
هـبْ عُيُـوْنَ العُمْـي نـوراً تَشْهَـدُهْ
واهـدِ لـلإيمـان مـنْ تَبَّـتْ يَـدُهْ[4]

زنده رود

محكمـاتٌ لـي أبنـتَ فـي الكتـابْ عالمٌ ما زالَ يطوي في الحِجاب[5]
النِّقَـابُ عـن جبيـنِ مـا رَفَـعْ ولمـاذا مـنْ فُـؤادٍ مـا طَلَـعْ
وَلَـدَيْنـا عـالـمٌ فيـهِ الـدَّبيـبْ للبلـىٰ ، والنَّـوم فيـه لِلشُّعـوبْ
فـي التَّتـارِ خَمَـدتْ نـارُ الغِـلابْ ألِمَـنْ أسْلَـمَ مـوتٌ والكِتَـاب[6]

سعيد حليم باشا

إنَّ ديـنَ الحـقِّ كـالكُفـرِ الصُّـراح إنْ تردَّى الشَّيْخُ في الكُفْرِ المباح ! ![7]

---

(١) يقول إنهم عززوا قوتهم بقوة إبليس . ومعاشرة أهل الجحيم تجعل النور ناراً .
(٢) الصَّعوب : الصَّعب . ويصعب قتل إبليس لأنه اختفى في القلب .
(٣) الكتاب : القرآن .
(٤) يقول : هب عيون العميان بصراً لرؤية الله بقلوبهم : ومنْ تَبَّتْ يداه هو أبو لهب . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] .
(٥) الكتاب : القرآن .
(٦) غالبه غلاباً بمعنى قاهره .
(٧) الصُّراح : الخالص . وتردَّى في الشيء : سقط .

طَلُّنــــا يَبْــدُو كبحــرٍ عنــدنـــا ... وَيُـرىٰ فـي البحـرِ هـذا طلُّنـا ![1]

مِـنْ أعـاجيـبِ لِمَـنْ بـاعَ الكِتـابـا ... كم تعالى صوتُ جِبْرِيْلَ انتحابا

فـي السَّمـاء لَـمْ تَشُقْـهُ جـولـةٌ ... عِنْـدَهُ أمُّ الكِتـابِ قَـوْلـةٌ[2]

مـا نصيبـاً نـالَ مـنْ دِيْـنِ النَّبـيِّ ... فـي ظـلامٍ لِضَيـاعِ الكَـوْكَـبِ

وضـريرُ القَلْـبِ يهـذي فـي النِّفـاق ... تَعْمـهُ الأمَّـةُ منْـهُ فـي الشِّقـاق[3]

مكتـبٌ ، شيـخٌ ، وأسـرارُ الكتـاب ... أكْمهُ والشَّمْسُ كُمْهـا لا تحـابي[4]

ديـنُ مـنْ يَكْفُـرُ تـدبيـرَ الجهـاد

فـي سبيـلِ اللهِ شيـخٌ فـي الفَسَـادْ

« رَجُـلُ اللهِ لِـدُنيـا الـرُّوح كـانـا » ... قُلْ لمنْ في عزلةِ الرُّكْنِ استكانا !

أنْـتَ يـا مـنْ للحيـاةِ الفكـرُ مِنْكـا ... وثبـاتُ الشَّعْـبِ قـولٌ قِيْـلَ عَنْكـا

حفــظُ قَـوْلِ الله كـان دَيْـدَنُـكْ ... نَشْـرُهُ فـي النَّـاسِ كـانَ مَـذْهَبُـكْ

ارْفَـعِ الـرأسَ تَكَلَّـمْ يـا كَلِيْـم ... مـنْ يَـدَيْـكَ يَصْـدُرُ الأمـرُ العَظِيْـم

عـن بيـاضِ الشِّعْـبِ حـدَّثنـا طـويـلا ... وَلْتَـذَكَّـرْ بـالفـلا ظبيـاً جميـلا[5]

أنْـتَ حقّـاً مستنيـرٌ مـنْ مُحمَّـدْ

وَضْعُنا الحالي فصفه ، أينَ نُوْجدْ !

مـا استمـدَّ رجـلُ اللهِ البَشَـرْ ... واستمـدَّ مـنْ إلـهٍ قَـدْ غَفَـرْ

---

(١) الطَّلُّ : النَّدى .

(٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ . وكلُّ العلوم منسوبة إليه ومتولدة منه . يقول : إن هذا الشيخ لا يبحث فيما وراء الطبيعة ، ولا يعرف القرآن حقَّ المعرفة .

(٣) يهذي : يتكلم بغير معقول . ويعمه : يتردَّد في الضلال ، ويتحيَّر في طريقه ، وكلامُ هذا الشيخ يوقعُ الناس في الحيرة والخلاف .

(٤) الكمه : جمع أكمه وهو من ولد أعمى .

(٥) قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه : ٢٢] وبيضاء ؛ أي : مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة . والفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

كـلَّ يــومٍ سَعِــدَتْ روحٌ بِقُــرْبِـهْ كـلَّ يـومٍ كـانَ فـي شـأنٍ كَـرْبِـهْ
مـؤمنـاً أوْقِـفْ علـى السرِّ الخفـيِّ « كلَّ يومٍ » مُدَّ بالشَّرْحِ الجليِّ[1]
مــا لــركــبِ نــزلٌ إلا الحَــرَمْ فــي قلــوبٍ منهــمُ اللهُ الحَكَــمْ
وطــريقــاً آخــراً مــا إنْ ذَكَــرْت
نظــرةً أخــرى لهــمْ مــا إنْ عَــرَفْــت

***

الأفغانيُّ

منْ حديثِ المُصْطفىٰ نِلْتَ النصيبا ؟ كانَ دينُ الحقِّ في الدُّنيا غَريبا[2]
إنَّــه قــولٌ مِــنَ الأقــوالِ بكــرْ مـا عنـى بـالفقـر قـطُّ أهـلُ ذِكـرْ
عَنْــهُ مَشْغُــولٌ بِبَحْــثِ حُقْبــةْ نــدرةُ الآيــاتِ كــانــتْ غُــرْبــةْ[3]
إنَّهــا فــي كــلِّ عَصْــرٍ تَخْتَلــفْ افْهَمَــنَّ مــا أقــولُ يــا ثَقِــفْ[4]
امْنَــحِ القــرآنَ مــنْ فِكْــرٍ مــزيــدا وكمـا شِئْـتَ افْتَتِـحْ عصـراً جَـدِيـدا
عَــنْ كتــابِ اللهِ مــنْ زاحَ السِّتــارا فيه أهْلُ الشَّرقِ والغَرْبِ الحَيَارىٰ[5]
هــؤلاء الــرُّوسُ شيئــاً أبْــدَعــوا أوْجَــدُوا الخُبْــزَ وديــنــاً ضيَّعُــوا

---

(١) جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ بمعنى يفتقر إليه كل من فيهن ويطلب منه الرزق والعون . وهو يغفر ذنباً ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويغفر غنياً ويغني فقيراً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

(٢) التلميح إلى قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) أي : أن المؤمنين المُتَمسِّكين بإيمانهم سوف يجدون أنفسهم في مقبل الأيام بين قومٍ غرباء ، كما كان شأنهم في أول أمرهم . وهذا يذكرنا بحديثٍ آخر ، وهو : (يأتي زمانٌ يكون فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر) .

(٣) الحُقْبة : المدَّة من الدَّهر ، لا وقت لها .

(٤) الثَّقِفُ : الحاذق الفطن .

(٥) زاح : أزاح .

بـالِلّسـانِ الحـقَّ قُـلْ وانْظُـرْ بِعَيْـن
أبْلِغَـنَّ القَـوْمَ منِّـي لَفْظَتَيْـن

***

رسالةُ الأفغانيِّ إلى شَعْبِ رُوْسيا

إنَّ للقـرآنِ قَصْـداً آخـرا ... وَيرى في الشَّرْعِ هذا من يَرَىٰ
قَلْبُـهُ مـا فيـه نـارٌ تَسْتَعِـرْ ... صَـدْرُه فيـهِ النَّبـيُّ لـمْ يَسْتقِـرْ
ثَمَـرَ القُـرْآن عَبْـدٌ مـا أكَـلْ ... فـي يَـدِ كـأساً دِهـاقـاً ما حَمَـلْ[1]
قيصـراً أفنـى وكِسْـرَى حطَّمـا ... واعتلـى عـرشـاً لـهُ كـي يَحْكُمـا
دوحـةُ السُّلطـانِ طَـالَـتْ واسْتَـوَتْ ... صـورةٌ للمُلْـكِ فـي الـدِّيـن انطوت

ومـنَ الملْـكِ اختـلافُ النَّظْـرَةِ
واختـلافُ العُـزفِ بـلْ والفِكْـرَةِ

أنـتَ أرْسَيْـتَ الأسـاسَ المُخْتَلِـفْ ... ومـنَ المـاضـي قلـوبـاً تَقْتَطِـفْ
نحن في الماضي هَدَمْنَا الكِسْرَوِيَّهْ ... أنْـتَ قَـوَّضْـتَ بنـاءَ القَيْصَـرِيَّـه
كـي تُنِيْـرَ اليَـوْمَ مصبـاحَ الضَّمِيْـر ... عِبْـرَةً منَّـا اتَّخِـذْ عَبْـرَ العُصـوز
وَلْتُثَبِّـتْ قَـدَمَيْـكَ فـي المَصَـافِ ... حـولَ أصنـام حـذارِ مـنْ طَـوَاف[2]
هـذه الـدُّنيـا العجـوزُ قـدْ أرادتْ ... شَعْبَهـا شيخـاً ومنْ شَيْخٍ أفَادَتْ[3]
ثُـمَّ ولِّ الـوَجْـهَ نَحْـوَ المَشْـرِقِ ... كَيْـفَ تَنْسَـىٰ يَـوْمَ مـاضٍ مُعْـرِقِ[4]
شعلـةً أخـرى بـروحٍ تُـوْقـدُ ... ولـكَ العَصْـرَ الجـديـدَ تُـوْجـدُ

---

(١) الدِّهاق : الممتلئة .
(٢) المصاف : موقف القتال .
(٣) أفاد : استفاد . وكأنها تستفيد من شيخ يعظها وينصحها .
(٤) وَلِّ : وجِّه . المُعْرِق : العريق في الكرم . يريد ليقول : إنَّ بين الرُّوس والشرق صلاتٌ تاريخيةٌ مجيدةٌ .

إنَّ دينَ الغرب قد أمسى رَمِيمَا   لا تشاهدْ ذلكَ الدَّيْرَ القَديما[١]
وَتَلَلْتَ الحاكمينَ اليَوْمَ تلاَّ   اترُكَنْ « لا » وَلْتُيَمِّمْ نحو « إلا »[٢]
إنَّ « لا » ضِمْنَ كلامٍ كان نفيا   أنت بالإثباتِ خُذْ دوماً لتحيا[٣]

وإذا شِئْتَ نِظَامَ العَالَمِ
فليكنْ فَوْقَ الأساسِ المُحْكَمِ

ومنَ التَّاريخِ تَمْحُو كلَّ بابْ   فاقبسِ الأنوارَ منْ أمِّ الكتاب
من يقولُ ماتَ كِسْرَىٰ ماتَ قَيْصَرْ؟   بين سودٍ باليد البيضاءِ بشَّر ؟[٤]
دَعْكَ منْ هذا التَّجَلِّي لِلشِّياتْ   اتركِ الغَرْبِ وأَدْرِكْ كُنْهَ ذَاتْ[٥]
وَبِمَكْرِ الغربِ إنْ كَنْتَ الخبيرا   لا تُقَلِّدْ ثعلباً بلْ كُنْ هَصُورا[٦]
أملُ الثَّعْلَبِ في الدُّنيا طَعَامْ   قولُ أُسْدِ الله « حُرٌّ أو حِمام »[٧]
يُصْبِحُ الثعلبَ ذيَّاكَ الأسد   دون قرآنٍ ، ومُلْكٍ ما اسْتَنَدْ
فَقْرُهُ مُلْكٌ وَذِكْرٌ ثمَّ فِكْر   واهبَ الفكرِ الكَمالَ كانَ ذِكْر
كانَ تهذيباً لأشواقٍ وَذَوْق   إنَّه في الرُّوح ، لم يُوْجَدْ بِحَلْق
في الصُّدورِ منهُ نارٌ تَلْتَهِبْ   وأجيجُ النَّارِ لمَّا تَسْتَطِبْ[٨]

يا شهيداً في هوى الفِكْرِ الجميل
ذا تجلِّي الفكرِ في قولٍ طويل

---

(١) الرميم : العظم البالي .
(٢) تل : صرع . ويمم : وجه . والإشارة في « لا » و« إلا » إلى « لا إله إلا الله » .
(٣) دوماً : دائماً .
(٤) السُّود : العرب .
(٥) الشيات : الألوان .
(٦) الهصور : الأسد .
(٧) الحِمام : الموت . والمعنى نعيش أحراراً أو نموت .
(٨) أجيج النار : تلهبها . لما تستطب : لم تستحسن إلى الآن .

مـا هـو القـرآنُ ؟ هُلْـكُ الظـالمينا والخـلاصَ كـانَ للمُسْتَعْبـدينـا[1]
أهــلُ حِــرْصٍ أيَّ خيــرٍ حقَّقُــوا ﴿ لَنْ تَنالوا البرَّ حتَّى تُنْفقوا ﴾[2]
لَيـس مِـنْ هـذا الـرِّبـا إلا الفِتَـنْ مِـنْ دَرَىٰ ما لـذةُ القَرْضِ الحَسَنْ؟
يَجْعَـلُ الإنسـانَ صَخْـريَّ الفـؤادْ أو كليـثٍ أدْرَدَ وَسْـطَ المَصَـادْ[3]
عـن منـالِ رِزْقُ أرضٍ مـا امتنـاع ! مُلْـكُ ربٍّ وهـيَ لِلْعَبْـدِ المتَـاع
الأميـنُ العَبْـدُ والـرَّحمـنُ مـالِـك كـلُّ شـيءٍ غَيْـرَ وَجْـهِ الله هَـالِك[4]
الملــوكُ نَكَّسُــوا للهِ رَايَــة والقُرَىٰ منْ ظُلمهم في الذلِّ غايَة[5]

خبـزُنـا والمـاءُ تحـوي مـائـدة
إنَّمـا النَّـاسُ كنفـسٍ واحـده[6]

صـورةُ القُـرآن لمـا أظْهَـرَتْ صُـوراً أخرى سِـوَاهـا أبْطَلَـتْ
وأقــولُ مـا بقلبــي يُضمــرُ أكتــابُ ذاك ؟ شــيءٌ آخــرُ ؟
مشبهُ الرَّحمٰنِ يخفى وَهْوَ ظاهِرُ دائـمٌ حـيٌّ وَمِنْطيـقٌ يُجاهِـرُ[7]
وَلِغَـربِ فيـهِ أقـدارٌ وشــرقُ كُنْ سريعَ الفَهْمِ أسْرعْ مِثْلَ بَرْقِ
قـال جُـذْ بـالـرُّوح جُـدْ لِلْمُسْلِم فـوقَ مـا تحتـاجُ طـوعـاً قَـدِّمِ
أنْـتَ يـا مـنْ ذلـكَ الشَّرْعَ اتَّخَذْتـا فـي كتـابِ اللهِ نـوراً لَـوْ رأيتـا

---

(١) الهلك : الهلاك .
(٢) قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .
(٣) الأدرد : من ذهبت أسنانه . والمصاد : مكان الصيد .
(٤) يذكر بقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .
(٥) الإيماء إلى قوله تعالى في سورة النَّمل : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .
(٦) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .
(٧) المنطيق : البليغ . ويجاهر : يرفع الصوت .

لَعَـرَفْـتَ مـا تَعـالـى وانْحَـدَرْ
فـي الحيـاةِ وَفَهِمْـتَ مـا القَـدَرْ

مـا مَعَ السَّـاقـي حـوانـا المَحْفَـل مِغْـزَفُ القـرآنِ دومـاً يَهْـدِلُ[1]
لـوْ خَـلا عـزفٌ لَـدَيْنَـا مـنْ أثَـرْ فـي السَّمـاءِ لاسْتَمَعْنـا لِلْـوَتَـرْ
ذكـرُ ربِّـي عـن شعـوبٍ فـي غنـى لـزمـانٍ ومكـانٍ مـا انثنـى[2]
أيـنَ مِـنْ ذِكْـرِ لـربِّـي مـنْ ذَكَـرْ مـا لـرومِ مـا لشـامِ مـنْ خَبَـر[3]
لـو أرادَ اللهُ عنَّـا حَمْلَـهُ لاستطـاعَ لِسـوَانـا نَقْلَـهُ[4]
ذلـكَ التقليـدُ فينـا قـدْ رأيـتْ رِغْدةً للرُّوح في جسمي وَجَدتْ[5]

فـي غـدٍ قـدْ يُحْـرَمـون ذِكْـرَهُ
وبقلـبِ الغَيْـرِ يلقـي نـارَهُ

* * *

جلال الدِّين الرُّوميُّ

يرغب إلى زنده رود أن يقول شعراً

إنَّمـا الـرُّومـيُّ فـي جَـذْبٍ تَفَجَّـر وَعَـرَفْـتُ القـولَ فيـهِ كَيْـفَ أثَّـر
صعَّـد الـزَّفْـرَةَ نـاراً لِلْكُبـودْ سَكَـبَ الـدَّمْـعَ دمـاءً لِلشَّهيـدْ[6]
بـالسِّهـام راشـقٌ قَلْـبَ الـرِّجـال سيِّـدُ الأفغـانِ خُـصَّ بـالمقـال[7]

---

(١) المِعْزَفُ : آلة الطرب . وهَدل الحمامُ : صوَّت .
(٢) يقول : إنَّ ذكرَ الله ليس خاصاً بشعبٍ خاصٍّ ، ولا ينتسبُ إلى زمانٍ ولا مكان .
(٣) يريد ليقول : إن ذكر الله منفصلٌ عن ذاكره ، ولا صلة له بالمكانية .
(٤) غرضُ الشاعر أنَّ الله لا يخصُّ بذكره قوماً بعينهم .
(٥) يعيب التقليد عند المسلمين .
(٦) الكبود : جمع كبد .
(٧) المراد بسيد الأفغان السيد جمال الدين الأفغاني .

« حمرةٌ لـلأفـق ضَعْهـا فـي الـوَتيـن وسمـوطَ الحـقِّ أمْسِـكْ بـاليميـن[1]

بـالمُنـى الأرواحُ سيـلٌ ذو زَبَـدْ إنَّمـا اليـأسُ لهـا مـوتُ الأبَـدْ »

وأشـار ثـم قـال « زنـده رود فَلْيَكُـنْ بـالشِّعـرِ نـاراً ذا الـوُجـود

نـاقـةٌ مـنْ أيْنِهـا ضـاقَـتْ خُطـاهـا آدَهـا الحِمْـلُ وأنَّ مـنْ حَـدَاهـا[2]

امتحـانُ الطَّـاهـريـنَ بـالبـلاء فَلْنَـزِدْ فـي طـولِ جُهْـدٍ للظُّمـاء[3]

وَعَـنِ النِّيـلِ ابْتَعِـدْ مِثْـلَ الكَلِيْـم كـالخليـلِ فَلْتَسِرْ نَحْـوَ الضَّـريـم[4]

مـن حبيـبٍ نغمـةٌ مـاجَـتْ بطِيْـب

أمَّـــةٌ تَسْكُـــنُ داراً لِلْحَبِيْـــب »

* * *

غَزَلُ زنده رود

لَيْسَ زهرٌ في الرِّياضِ بالمقيم أبَدا إنَّه يمضي كأمواجِ النَّسيم أبَدا

أينَ معنى ما وَجَدْنا بَعْدَ بحثٍ يا تُرَىٰ مكتبٌ يبقى وحانٌ كالعَقيمِ أبدا

وَمِنَ الذَّاتِ تَعَلَّمْ أنتَ حرفاً واحْتَرِقْ تَعْدَمُ الخانقاه ناراً لِلْكَليمِ أبدا[5]

---

(١) حمرة الأفق هي الشفق . والوتين : عرق في القلب . والسُّمُوط : حبالٌ تتدلى من السَّرج .

(٢) الأين : التَّعب . آده الحمل : أثقله . وحدا الإبل : ساقها ، وغنَّى لها . يقول : إنَّ غناء من يسوق الناقة يبغي أن يصبح أنيناً بعد تعب ناقته .

(٣) الظُّماء : جمع ظامىء . وهذا البيت يتصل بما قبله وما بعده في وجوب الشعور بالجهد والعذاب لامتحان النفس .

(٤) الضَّريم : الحريق وهو هنا نارُ إبراهيم عليه السلام . والشاعرُ يذكر بما وقع لكليم الله موسى ، فقد أوحى الله إلى أمه أن تقذفه في النيل ليلقيَه بالسَّاحل .

(٥) الخانقاه : مبنىً يقيمُ فيه المتصوِّفة . والكليم : موسى عليه السلام . والشاعر يلمح إلى تلك النار التي آنسها موسى ، وهي عند الصوفية رمزٌ للمعرفة .

لا تحدَّثْ عَنْ صفاءٍ منْ بخانقاه سَكَنْ   وَسِـخَ الشَّعْـرِ تـراه والأديـمِ أبـدا[1]
كَمْ بيوتٍ شَيَّدوها وَسْطَ بيتٍ واحدٍ   لا يثيـرُ القَلْـبُ ريبـاً للمُقيـمِ أبـدا[2]
لَيسَ خَطْباً أنْ يَضيْقَ بالنَّدامىٰ مجلسي   إنَّـه ألَّا تـرى كـأسَ النَّـديـم أبـدا !

***

---

(١) الأديم : الجلد المدبوغ ، ووجه الأرض ، وقد ترجمنا به كلمة سجادة في الأصل رغبةً منا في الاحتفاظ بنفس القافية والوزن في الترجمة العربية . أما الرديف وهو الكلمة التي تكرر بعد كل بيت فهي في الأصل (كل) وترجمناها بـ(أبداً) وهي ظرف زمان للتأكيد في المستقبل .

(٢) يريد الشاعر بالبيوت بيوت العبادة . ويقول : إنَّ الموحِّدين لهم جميعاً فكرةٌ واحدةٌ لا ريب فيها ، وهو يَعْجبُ لانقسامِ القَوْمِ فرقاً وطوائف .

فلكُ الزُّهَرَة

يَحْجُبُ النُّورَ بدا بَيْنَ السَّحَابْ — مِنْ فضاءِ الصَّفِيْقُ مِنْ حِجَابْ[1]

واجَهُونا بالسُّتور عُلِّقت — للتَّجلِّي كُلُّ نارٍ أخمِدَتْ

كي تَزِيدَ النَّارُ في القلبِ اشتعالا — وترى غُصْناً وبالأثمارِ طَالا

وبوقدِ منه في وردِ دِمَاء — زئبقاً بالرَّقصِ مِنْهُ كانَ ماءْ

هكذا مِنْ تُرْبِها الأرواحُ قامَتْ — وبما لا تَشْهَدُ العينانُ لاذَتْ[2]

والطريقُ يحتوي موتاً وَحَشْرا — فيهِ لَكِنْ زوَّدوا بالنَّارِ سَفْرا[3]

في الفضاءِ دارَ مُزْرَقُّ الفَلَكْ — هابطٌ يعلو وما يَعْلُو انْسَبَكْ[4]

وهي إبراهيمُ أو ذاكَ الحَرِيم — كالذَّبيحِ ، في الفِدَاءِ لا يلُومْ ![5]

السمواتُ وهذي خيبرُ — لا يُجِيْدُ الطَّعْنَ إلا حَيْدرُ[6]

---

(١) الصفيق : ضدّ الرقيق .

(٢) التُّرب : التراب .

(٣) السَّفْر : المسافرون . يقول : إنَّ النار كانت زاداً لهم .

(٤) انسبك الذَّهب : ذُوِّبَ وأُفرِغَ في قالب . وبذلك يشبّه انخفاض واستواء ما ارتفع .

(٥) الذبيح : هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أطاع واستسلم .

(٦) حيدر هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي غزوة خيبر أرسل النبي ﷺ إلى علي لفتح أحد الحصون وكان عليٌّ أرمد . فقال : ما أبصرُ سهلاً ولا جبلاً . فذهب إليه وقال : افتح عينيك ففتحهما فما رمد بعدها ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا بالنصر له ومن معه . وشدَّ عليٌّ على الأعداء فانكشف المسلمون وثبت هو وقتل من بارزه . وانهزم اليهودُ إلى حصنهم وبارزه يهوديٌّ آخر وضربه ضربةً شديدة حطَّمتْ تُرْسه . فتناول كرم الله وجهه باباً عند الحصن لِيُتَرِّس به عن نفسه . ولم يزل معه حتى فتح الحصن . قيل وكان هذا الباب ثقيلاً فلم يحمله أربعون رجلاً .

طهَّـر الـرُّوْحَ الصّـراعُ المُسْتمـرْ إنَّهـا تجـري بـه أو تَسْتَقِـرْ
وهـي فـي نـورٍ علـى نـورٍ تَطيـرْ وَلَـديْهـا الصَّيْـدُ جبـريـلٌ وَحُـوزْ[1]

ثمَّ ﴿ ما زاغ البصر ﴾ يضحىٰ النَّصيبا
لمقـام « عبـده » تمسـي الـرَّقيبـا[2]

فـي مَقَـامـي لَسْـتُ أدري أيْـنَ كُنْـتُ إننـي عـنْ كـلِّ خُـلاَنـي نَـأَيْـتُ
تَغْـدَمُ الحـربُ بصـدري عسكـرا مـنْ لـهُ عيـنٌ كعينـي قـدْ يَـرَىٰ
منْ دَرَىٰ ما الحربُ في كفرٍ ودين وَخْدَها نفسي كزينِ العَابدين[3]
أيُّ معنـىً للطَّـريـق والمَقَـام ؟ إنَّ شكـوايَ السِّـراجُ فـي الظَّـلام[4]
أهلَـكَ اليـمُّ الشيـوخَ والشَّبـابـا هـاكَ شَيْخـاً واحـداً جـازَ العُبَـابـا[5]
قَـدْ رَفعْـتُ السِّتْـرَ والسِّتْـرُ انطـوىٰ أرهـبُ الـوصـلَ وتبكينـي النَّـوى[6]
الـوصـالُ آخـرُ الشَّـوقِ ! الحـذَرْ ! مـا لشكـوى وزفيـرٍ مـنْ أثَـرْ !
سـالـكٌ مـا إنْ رأى مَتْـنَ الطَّـريـق مـنْ فـراغ إنْ يَكُـنْ غَيْـرَ المُفيـق[7]

---

(١) الصيد : ما يصاد .

(٢) يريد الشاعر قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] . أي ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما تجاوزه بل أثبته أو ما عدا عن رؤية ما أمر برؤيته من العجائب . وقد رأى من آيات الله الكبرى ليلة المعراج .
أما قوله (عبده) فالمقصود به قوله تعالى في السورة نفسها ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] ؛ أي أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريلُ إلى النبيِّ ولم يذكر المُوحَىٰ تفخيماً لشأنه .

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين رضي الله عنه ، رابعُ الأئمة الاثني عشر عند الإمامية . وقد عرف بصدقة السرِّ ، والحلم ، والورع . وهو الوحيد الذي نجا من موقعة كربلاء . وكانتْ وفاتُه عام ٩٤هـ .

(٤) السِّراج : المصباح .

(٥) اليَمُّ : البحر . والعُباب : الموج .

(٦) النَّوى : البعاد .

(٧) الفَراغُ هنا هو : سكون النفس .

إنَّ لـي قلبـاً ومـنْ ذَوْقِ النَّظَـرْ عالماً يَشْتاقُ ، بالشَّوْقِ اسْتَعَرْ[1]
إنَّما الـرُّومـي بـروحـي تلك أعْلَـمْ قـالَ يـا مـنْ عـالمـاً تبغـي تَسَلَّـمْ
في يمينِ العِشْقِ نَحْنُ وهوَ يَلْعبْ فتـأمَّـلْ ، يحتـوينـا أيُّ كَـوْكَـب[2]
عـالـمٌ والأسُّ مـنْ طيـنٍ ومَـاءْ منْ سواد المِسْكِ يَبْدُو في كِسَاءْ[3]
وبعيـنٍ مَـزَّقَـتْ كـلَّ الحُجُـبْ انظـرنَّ واختَـرِقْ كـلَّ السُّحُـبْ
ستـرى الأربـابَ حتمـاً كلَّهـا وأنـا أعْلَـمُ حقَّـاً حـالهـا
(بعلُ ومردوخُ ويعوقُ ونَسْرُ وفسرُ رم خن ولاتُ ومناةُ وعسرُ وغسرُ)

إنَّهـا لِلْبَعـثِ تـأتـي بـالـدَّليـلْ
فـالـزَّمـانُ لَيْـسَ فيـهِ مـنْ خَلِيـلْ[4]

* * *

عودةُ الجاهِلِيَّة

مرَّ شاعرُ الإسلام ـ في بعض زياراتِه الرُّوحيَّةِ وسياحاتِه الفكريَّة ـ بوادٍ ، اجتمعت فيه الآلهةِ القديمة التي عبدتها أممُ الجاهلية ، ونحتَتْ أصنامَها وتماثيلَها ، وبَنَتْ عليها هياكلَ ومعابد ، وعَكَفَ عليها السَّدنةُ والكُهَّان ، وتغنَّى بها الشعراءُ والأدباء ، وكان مَجْمعُ الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلادٍ مختلفة ، وعصورٍ مختلفة ، فهذا إلهُ المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التابعة ، والأذواءِ من اليمن ، وهؤلاء آلهةُ عربِ الجاهلية ، وأولئك آلهةُ وادي الفرات ،

---

(١) استعرت النار : اشتعلت .
(٢) هذا الكوكب هو كوكب الزُّهرَة .
(٣) الأس : الأساس . وهو يشبه هذا العالم بالكعبة وعليها الكسوة السوداء .
(٤) يقول إنَّ هذه الآلهة تقدّم الدليل على بعثها . فما في زماننا إبراهيمُ الخليل عليه السلام محطِّمُ الأصنام . وقد أوردنا أسماءها كما وردت في الأصل الفارسيّ ، فلتنطق كُلُّ واوٍ ضمَّةً ليستقيمَ الوزنُ كما هو الشأن في الفارسية .

وهذا إلهُ الوَصْلِ ، وذلكَ ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشَّمس ، وذلك خَتَنُ القَمَر ، وهذا زوجُ المُشتري .

ثم إنَّهم أشكالٌ وألوان ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلَّد حيَّةً ولواها حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمَّديِّ ، الذي أحدث الثَّورةَ الكبرى عليهم ، وأفْسَدَ عليهم العيشَ ، وولد العالم الجديد القائم على نبذِ الأصنام ، والمُؤَسَّس على عقيدةِ التَّوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضَرْبَةِ إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سُرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحَّبَ بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءَه به : أبشروا يا إخوتي ! فإنَّ إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السَّماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاءَ يتمتَّع بالآثار العتيقة ، ويتحدَّث عن مجدنا ، إنَّها بارقةُ أملٍ لاحَتْ بعد مدَّة ، ونفحةٌ هبَّتْ من أرضٍ حكمناها طويلاً ، ونعِمْنا فيها كثيراً .

وكان بعلُ ـ إله الفينيقيين والكنعانيين القديم ـ أولَ من اهتزَّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغنِّي في طربٍ ومَرحٍ ، ويقول : « **إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنحُ له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنَّه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود .**

حيَّا الله الإفرنجَ الذين عرفوا طبيعةَ الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذَّهبيَّةَ ؛ التي أتاحها لنا الدهاةُ الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدةَ التَّوحيد ، ونسوا العَهْدَ والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذَّته .

إنهم صحبوا الغربيين مدَّةً من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ،

وضيَّعوا ذلك الدِّينَ الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بَعَثَ فيهم الإيمانَ واليقين .

إنَّ الرجلَ المؤمنَ الحرَّ الذي لم يكن يعرف الحدودَ والجهات ، ولا يعبدُ غير الإله الواحد الذي خلق السمواتِ والأرضَ أصبحَ يؤمنُ بالوطن ، ويقدِّسه ، ويعبُده ، ويقاتلُ في سبيله ، ويكفرُ بالله ، ويهجرُه ويتناساه .

لقد خَضَعَ المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبح شيوخُهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلَّدون شعارَهم ، ويقتفون آثارَهم ، فلنستبشرْ ولننتهزْ هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشبابُ ، وحُقَّ لنا أن نَطْرَب ، فقد انهزم الدِّين ، وانتصرت الوطنيةُ والجنسيةُ . إنَّ المصباحَ الذي أناره محمَّد ، تألَّبَ عليه مئةُ « أبي لهب » يطفئونه ، إنَّنا لا نزال نسمع صوت لا إله إلا الله ، ولكنَّه صوت يصدرُ عن الشفتين ، ولا يصدر عن القلب ، وكل ما غابَ عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحرُ الغرب دولةَ إله الشرِّ والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدِّين الإلهي مهدَّداً ، فطوبى لنا ولإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلواتِ والمغاراتِ .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرُّفُ المُطْلَق ، والحريةُ الكاملة في حياتهم ، لم نثقلهم بعبادةٍ وطاعةٍ ، وإنَّما طلبنا منهم ركعةً لا سجود فيها ، وقد أثرنا فيهم العاطفةَ الدِّينيَّةَ بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتُهم إلا مكاءً ، وتصدية ، ونغمةً ، وأغنية ، وأيُّ لذةٍ في صلاة لا غناء فيها ، ولا موسيقا ؟!

إنَّ الناسَ لابدَّ يفضِّلون عبادةَ طاغوتٍ مشهودٍ على عبادة إلهٍ غائب ، وربٍّ لا يُرىٰ بالأبصار »[1] .

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي . صفحة ١٧٥ ـ ١٧٨ .

وإليك هذه الأبيات المترجمة للعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

أظْلَــمَ الغَيْــمُ وَلِلــرِّيــحِ الخُفُــوقْ ... في الظَّلام تَفْقِدُ النُّورَ البُروقْ ![1]

الــريــاحُ البحــرُ فيهــا قــدْ تعَلَّــقْ ... شَقَّــتِ الثَّــوْبَ بــدُرٌ كــمْ تَــأَلَّــقْ

لا يــرى شــطٌّ ومــوجٌ يَهْــدرُ ... مــا على صَـرْعِ الـرِّيـاحِ يَقْـدِرُ[2]

ومَـع الـرُّومـيِّ فـي بحـرِ السَّـوادْ ... حُلمــاً كنَّــا بســوداءِ الفُــؤادْ[3]

إنَّــه المِسْفَــارُ لَكِــنْ لــمْ أُسَــافِـرْ ... وعلـى هـذا رآنـي غَيْـرُ صَـابِـرْ[4]

عــاجــزاً قُلْــتُ كــلامــاً كُــررا ... « عــالمــاً آخــرَ عَيْنــي لا تَــرَىٰ »

وإذا للعيــــنِ أطـــوادٌ تلـــوحْ ... وغـديـرٌ فـي مـروجٍ وهـي فَيْـح[5]

وإذا فـي النَّجْـدِ والسَّهْـلِ الـرَّبيـع ... والنَّسيْـمُ يـا لـهُ مِسْكـاً يَضُـوْع[6]

ولنــا الطَّيْــرُ تَغَنَّــتْ بــالجَــوَىٰ ... واليـنـابيـعُ وعُشْـبٌ مـا استـوى[7]

ذاكَ فَيْــضٌ مِنْــهُ للجســمِ البَقَــاء ... وَلِعَيْـنِ الـرُّوحِ فـي الجِسْـمِ الجـلاءْ

وَمِــنَ الطَّــوْدِ نَظَــرْتُ نَظْــرةً ... لأرىٰ الــدُّنيــا تــرفُّ نَضْــرةً[8]

واستــوى الــوادي ومــدَّ جــانبيْــه ... إنَّ مــاءَ الخضــرِ مشتـاقٌ إليــه ![9]

---

(١) الخفوق : الخفق والخفقان .

(٢) هَدَرَ البحرُ : ارتفع خريره .

(٣) الروميُّ : هو جلالُ الدِّين الروميُّ ، وسوداء القلب وسويداؤه : حبته .

(٤) المِسْفارُ : الكثير الأسفار .

(٥) الأطواد : الجبال . والغدير : النَّهر . والفيح : الواسعة .

(٦) النَّجد : ما ارتفع من الأرض . وضاعَ المسك : انتشرت رائحته .

(٧) الجوى : الحزن . ما استوى : ما ارتفعت سوقه .

(٨) رفَّ النباتُ : تلألأ نضرةً .

(٩) استوى : أصبح مستوياً ، جاء في الروايات الفارسية أن الإسكندر رغب إلى الخضر عليه السلام أن يكون دليله في رحلة طويلةٍ تكتنفها المصاعب والمعاطب إلى ماء الحياة وهو ينبوعٌ في أرضٍ بعيدةٍ تسمَّى دار الظلمات . ومنْ نَهَلَ نهلةً منه ضَمِنَ أن يكون من الخالدين . ومضى الخضر مع الإسكندر ، وشاهد الخضر هذا الماء كأنَّه خيطٌ من =

كـلُّ ربٍّ فيـه مـنْ ذاكَ الـزَّمَـنْ ... ربُّ مِضْـرَ ذا وذا ربُّ اليَمـنْ
ذاكَ مِـنْ أربـاب عُـزبٍ أو عِـرَاقْ ... ذاكَ ربُّ الـوَصْـلِ ذا ربُّ الفِـرَاقْ
وسليـلُ الشَّمْـسِ صِهْـرٌ لِلْقَمَـرْ ... مِـنْ بـزوج المشتري خصَّ النَّظَـرْ
واحـدٌ يختـالُ بـالسَّيـفِ الحُسـامْ ... آخـرُ فـي لِيْتِـهِ أفعـى السِّمـامْ[1]
كلهـم يـرتـاعُ مـنْ ذِكْـرِ الجميـل ... ويخـافُ كلُّهـم بَطْـشَ الخَليْـلْ[2]
« إنمـا المـرءُ مـن المـولـى هَـرَبْ ... والمصلَّى»، قال مردُخ ، وانتَحَبْ[3]
« وكـأنَّ العقـلَ منـه أومضـا ... وهـو لا ينسىٰ زمـانـاً قـدْ مَضَـى[4]
ظـلَّ يستحسـنُ مـا كـان القَـدِيما ... فـي تجلِّينـا يـرىٰ شيئـاً عَظيمـا
ويَجِـدُّ الـوَهْـمُ فـي هـذا الـزَّمـانِ ... وتهبُّ الـرِّيحُ ريحـاً لـلأمـانـي »[5]

ثـم غنَّـى بعـلُ مـنْ فَـرْطِ الطَّـرَب
سـرَّنـا أفشـاهُ عِنْـدَ كـلِّ رَبّ[6]

***

أغنيةُ بَعْل

مـزَّقَ المـرءُ السِّتـارَ الأزرقـا ... مـا استطـاعَ ربُّـه أن يَـرْمُقَـا[7]

= فضة . فشرب منه ، وتلفَّت حوله ، فما وجد الماء ولا الإسكندر . ولماء الحياة هذا ذكرٌ متردِّدٌ في الشِّعر الفارسي الصُّوفيِّ على أنَّه رمزٌ للحقيقة .

(١) السيف الحسام : القاطع . والليت بكسر اللام : صفحة العنق . والسِّمام : السموم .
(٢) الجميل : هو الله تعالى . والخليل : إبراهيم عليه السلام .
(٣) المولى : الله جل وعلا . المصلى : مكان الصلاة والمراد به المعابد بجميع أنواعها . ومردوخ : أكبر آلهة البابليين .
(٤) أومض البرق : ومض ولمع .
(٥) يجد : يصبح جديداً .
(٦) بعل : اسم إله عند الساميين .
(٧) رمقه : نظر إليه طويلاً . وهذه المنظومة مما يعرف عند الفرس : ترجيع بند . =

مَـوْجـةٌ لِلفِكْـرِ تغشـى قَلْبَـهُ   مَـوْجـةٌ أخـرى لهـا أنْ تَفْـرَقـا[1]

روحُـه بـالحـسِّ أمْسَـتْ فـي قَـرَارْ   منيةَ الماضـي عسى أنْ تصدقـا[2]

نحـنُ حـابـونَ بِعِلْـمِ فَلْيَعِـشْ   عـالِـمٌ أحيـا بعلـمٍ مَشْـرِقـا[3]

أيُّهـا الأربـابُ قـد آن الأوانْ

قِـفْ تـأمَّـلْ وَحْـدةً قَـدْ شُتِّتَـتْ   و ﴿ ألست ﴾ عِنْدَ قـومٍ أُبطِلَـتْ[4]

حُطِّمَـتْ كـأسٌ بـأيـدي ثُلـةٍ   خمـرُ جبـرائيـل منهـا أُسْكِـرَتْ[5]

كـلُّ حـرٍّ فـي قيـودٍ مـن حـدود   وصْلَـةٌ بـالله مِنْـهُ صُـدِّعَـتْ

سـؤددُ الأسـلافِ بـردٌ فـي دمـاء   وزنـانيـرُ الشُّيـوخِ شُـوهِـدَتْ[6]

أيُّهـا الأربـابُ قـدْ آن الأوان

بَعْـدَ دَهْـرٍ عـادَ يـومٌ لِلطَّـرَب   أصبـح الـدِّيـن صـريعـاً لِلنَّسَـبْ[7]

= والترجيع : بند يحوي عدة أبيات تكون كلُّ مجموعةٍ منها قسماً ، وتلك الأبيات متفقةٌ في الرَّوي ، ويتلو كلَّ قسمٍ بيتٌ مستقلٌّ يُكَرَّرُ . وقد التزمنا في الترجمة رويَّ هذه الأبيات في الأصل .

(١) غشيه : غطاه . ويَفْرَقُ : يخاف .

(٢) المنية : الأمل .

(٣) الحابي : واجدُ الحياة . وكأنَّ هذا الإله يدعو بطولِ البقاء لذلك العالم المستشرق الذي أحيا الشرقَ بعلمه .

(٤) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهذا من باب التمثيل ؛ أي أنه أقام الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت عقولهم بها ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقررنا بوحدانيتك .

(٥) الثلَّة : الجماعة من الناس .

(٦) الزَّنانير : جمع زُنَّار . وهو ما يَشُدُّ به النصراني وسطه .

(٧) يقول : إنَّ العنصرية طغت على الدِّين .

لا تفكــرْ فــي ســراجِ المُصْطفــى   أخمـدَ الشُّعْلَـةَ فيـه « بـولهـب »[1]
« لا إلــه » فــي لســانِ نــاطــقٍ   عــن فــؤادٍ شُـرِّدَتْ يـا لِلْعَجَـبْ !
إنَّ سِحْـرَ الغَـرْبِ أحيـا أهْـرَمـنْ[2]   وَجْـهُ يـومِ اللهِ مـنْ لَيْـلٍ شَحَـبْ
أيُّهـــا الأربـــابُ قَـــدْ آنَ الأوانْ

دينُـك القيــدُ تحــرَّرْ مــنْ قُيُــود   عبـدُنـا قـد كـانَ حُـرّاً فـي عبيـد
وعليــهِ كــي نَشُــقَّ فــي صــلاة   ركعتيـن نبتغـي ، مـا مـنْ سُجُـود
إنَّمــا النَّغْمــةُ تُعلــي جــذبــةً   مـا الصلاةُ وهـي تخلـو مـنْ نَشِيْـد
إنَّ خيــراً مــنْ إلــهٍ قــد تــوارىٰ   ذلـكَ الشَّيطـانُ يبـدو فـي الشُّهـود
أيُّهـــا الأربـــابُ قـــدْ آنَ الأوانْ

* * *

الغوصُ في بَحْرِ الزُّهَرَة ومشاهدةُ روحِ كتشنر وفرعون

مَيَّــزَ الــرُّومــيَّ ذكــرٌ لِلْجَمِيْــلْ   ضــربُــه يُشبـهُ ضَـربـاً لِلْخَليـل
غــزلًا قــالَ وَبــالسُّكْــرِ اتَّقَــدْ   كــل رب فــي خشــوعٍ قــدْ سَجَـدْ

غزل

«خصّ ما يمضي ويأتي بالنَّظر، ذاكَ أوْلَى   انْهَضَنَّ خذ بأفكارٍ أُخَرَ ، ذاكَ أوْلى
نـاقـةُ الأيـامِ أوسـاقـاً لِعِشْـقٍ حُمِّلَـتْ   ارْحَلَنَّ في المساءِ والسَّحَرْ، ذاكَ أولى[3]

---

(١) السِّراج : المصباح . وبو لهب في الفارسية هو أبو لهب في العربية .
(٢) أهرمن : هو إله الشر أو الشيطان في دين المجوس .
(٣) الغزل نوع من المنظومات الفارسية ، وتلك المنظومة ذات روي واحد ولا تقلُّ أبياتها عن سَبْعَةَ عشر . وفي هذا الغزل ما يعرف بالرَّديف ، وهو كلمةٌ أو كلامٌ يُكرَّر بعدَ كلِّ=

قالَ شَيْخٌ ما لِدُنيانا أساسٌ مُحْكَمُ ... يَنبغي عمَّا بها قَطْعُ النَّظَرْ ، ذاكَ أولى

أنْتَ بالتَّرك أتنساها ولَوْ حاولته ... قلْ وُجودي ليس عِنْدِي ذا خَطَرْ ذاكَ أولى[1]

قلتُ في قلبي مناةٌ وكثيرٌ غَيْرُها ... قال في المعبد حطِّمْ ذا الحَجَرْ، ذاك أولى»

قال « فانْهضْ مُسْرِعاً واقْدَمْ إليَّا ... بي تَمسَّكْ لا تَدَعْني يا بُنيَّا

الجبالُ وهيَ مِنْ موسى خَلَتْ ... بالثُّلوج منْ لُجَيْنٍ أصْبَحَتْ[2]

خَلْفَها قَدْ لاحَ بحرُ الجَوْهَرِ ... وانجلى بالجَوْفِ لا بِالمَظْهَرِ

أيُّ بأسٍ من عُبابٍ أو أتيٍّ ... قرَّ عيناً بسكونٍ سَرْمَديٍّ[3]

إنَّ في هذا مَقَامُ مِنْ تجَبُّرْ ... ووجودُ كلِّ ما قدْ غابَ أنْكَرْ

ذاكَ شرقيٌّ وذا منْ أهْلِ غَرْبِ ... معَ أهْلِ الحقِّ في حربٍ وَضَرْبِ[4]

وعصا موسى على هذا تَهاوَتْ ... والرفيقَ مديةُ الدَّرْويشِ غالَتْ[5]

مِثْلُ فِرْعَوْنَ الصَّغيرِ والكبيرْ ... ظامئانِ بَيْنَ أمواجٍ تَثُورْ

يعرفانِ الطَّعْمَ مرّاً للرَّدىٰ ... مَوْتُ جبارٍ كآياتٍ بَدَا[6]

سِرْ ورائي يا بنيَّ لا تَخَفْ ... هاكَ كفِّي فما قلبٌ وَجَفْ[7]

وكموسى البَحْرَ إنِّي فالقُ ... فيهِ يَحْويك فؤادٌ خافقُ

شقَّ مِنْهُ البَحْرُ صدراً كالضِّياءْ ... أهَواءٌ كان يبدو مِثْلَ ماءْ

قاعُه منْ كلِّ لونٍ قدْ خلا ... إنَّه وادي الظلام في الفَلا

= بيت تُلْتَزَمُ قبله قافيةٌ موحَّدة . وقد احتفظنا في الترجمة بقافية الأصل . والأوساق : جمع وَسْق ، وهو حمْلُ البعير .

(١) الخطر : الأهمية وارتفاع القدر .

(٢) اللجين : الفضة .

(٣) الأتي : السَّيْل . والسَّرمدي : الدائم .

(٤) الحقُّ هنا هو الله .

(٥) المدية : السكين . وغاله : أهلكه .

(٦) يقول : إنَّ هلاك الجبار منْ آياتِ الله .

(٧) وجف القلب : اضطرب .

ومـــنَ القُــرآنِ طــهَ الشيــخُ يتلــو فإذا القمراءُ جوفَ البحرِ يَجْلُو[1]
ونَضَــتْ عنهــا الجبــالُ ثَــوْبَهَــا رَجُـــلانِ حـــائـــرانِ بينهـــا
لــم تشــاهــدْ وجــهَ شيخــي مَــرَّةً بعضُهـــا ألقـــى لبعـــضٍ نَظْـــرَةً
قــال فــرعــونُ أيُجــري البحــرَ نُــوْر ! أصبــاحٌ مِــلْءَ عينــي أمْ ظُهُــوز !

الروميُّ

الخفـــي منـــه وَضَّــاحُ الجَـــلاء واليَــدُ البيضــاءُ أصْــلٌ للضِّيــاء[2]

فرعون

آهِ عقلـــي آهِ دِينـــي قَـــدْ فَقَـــدْت ونظـــرتُ والضيـــاءَ مـــا عَـــرَفْـــت
امنحـــونـــي نظـــرةً يـــا مـــنْ مَلَكْتُـــمْ وهبـــونـــي لَفْتـــةً يـــا مـــنْ ظَلَمْتُـــمْ[3]
بِئْسَ مِنْ حرصٍ لهم أعمىٰ البَصائِرْ يُخرِجُوْنَ التِّبْرَ منْ جَوْفِ المقَابِرْ[4]
ذلــكَ التِّمثــالُ فــي دارِ العَجــائِــب صَمْتُــه يــروي لنــا كــلَّ الغَــرائِــبْ
جــاءنــا عَــنْ غــاصبيــنَ بــالخَبَــرْ عيـــنَ عميـــانِ أنـــارَ بـــالبَصَـــرْ
مـــا يـــريـــدونَ لنـــا غَيْـــرَ الشِّقـــاق والأســـاسُ أحكمـــوهُ بـــالنِّفـــاق
ولهـــذا دبّ فـــي الحكـــم الخَـــوَرْ والفســـادُ ، وتَفشَّـــى كـــلُّ شَـــرْ[5]

لـــو بـــدا مـــوســـى كليـــمُ الله لـــي
لالتمســـتُ منـــه قَلْـــبَ العـــاقِـــلِ

---

(١) القمراء : نور القمر . ويجلو هنا بمعنى يخرج ، فكأن جوف البحر يُظْهِرُ نور القمر .
(٢) يلمح إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٢٢] .
(٣) يوجه الخطاب إلى المستعمرين من أهل الغرب .
(٤) التبر : الذهب . وإقبال يتحدث عن علماء الغرب المنقبين عن آثار الفراعنة .
(٥) الخور : الضعف . وتفشى : انتشر .

الرُّوْميُّ

إنَّ نُـوْرَ الـرُّوْحِ لِلْحُكـمِ الفـلاحْ ‏ ‏ ‏ ‏ واليدُ البيضا بها المُلْكُ المُبَاحْ
حـاكـمٌ يقـوى بِضَعْـفِ مـنْ حُكِـمْ ‏ ‏ ‏ ‏ وبحــرمــانٍ لكــلٍّ مــنْ حُــرِمْ
يَلْبَــسُ التَّــاجَ بجمــعٍ لِلْخَــراج ‏ ‏ ‏ ‏ ورجالَ الصَّخْرِ كانوا منْ زُجَاجْ
المغيْــرُ مَــنْ لــه جيــشٌ وَقَيْــدْ ‏ ‏ ‏ ‏ حـاكـمٌ عـنْ مِثْلِ هـذا مـنْ يَصُـدّ

اللورد كتشنر(١)

إنَّ للغــربــيِّ قصــداً قَــدْ ظَهَــرْ ‏ ‏ ‏ ‏ ولأجــلِ التِّبْـرِ كـمْ قبـرٍ حَفَـرْ
إنَّ تــاريخــاً لِمصْــرَ والكَلِيْــم ‏ ‏ ‏ ‏ مـا نـراهُ اليـوم فـي سِفْـرٍ قَـدِيْـم(٢)
إنَّمــا بــالعلــمِ للســرِّ الظُّهــور ‏ ‏ ‏ ‏ حكمةٌ والبَحْثُ ، أو شيءٌ حَقِيْر(٣)

فرْعون

بــالعُلــومِ كشَّفــوا عنَّــا الحَجَــرْ
كــان للمهــديِّ قبــرٌ ، مــا الخبــر ؟

---

(١) قائد بريطاني حارب أتباع المهدي في السودان ، وغلب على مدينة أم درمان عام ١٨٩٨ . وعرف بتناهيه في الضراوة والفظاظة حين عقد العزم الأكيد على استئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم . ولما حقَّق من ذلك بغيته ، أمعن في التشفي منهم ، وضرب الذلة عليهم ليدرك بثأر القائد غوردون الذي انكسرت جيوشه قبله ، وقتل شر قتله . وقد أمر كتشنر بنبش قبر المهدي ، وإلقاء عظامه في النيل ، وإرسال جمجمته إلى متحف في لندن . وشاءَ الله له أن يذوق كأساً كان يسقي بها . فقد مات غريقاً عام ١٩١٦م بعد أنْ هَوَتْ به السفينةُ إلى قاعِ اليمّ .

(٢) السفر : الكتاب .

(٣) يقول : إنَّ الحكمة بلا بحثٍ تُعَدُّ شيئاً حقيراً .

ظهورُ دَرْويشِ السُّودان

هـو ذا فـي المـاءِ بـرقٌ يـأْتَلـقْ ثُـمَّ يعلـو المـوجُ حتَّـى يَنْـدَفِـقْ
وَمِـنَ الفِـرْدَوْسِ ضـاعَ نَفْـحُ عِطْـر لاحَ بـالـرُّوحِ لنـا درويشُ مِصْـر[1]
إنَّ منهـا الـدُّرُّ فـي القـاع اسْتَقَـرْ « كشنر » في صَدْرِهِ ذابَ الحَجَرْ[2]
قـال « كشنـر انْظُـرَنَّ يـا فَهِـم إنَّمـا هـذا تـرابـي يَنْتَقِـمْ[3]
مـا حبـاكَ الله مـن قبـرٍ يَضُمُّـكْ بـل رُمِيْـتَ بيـنَ أمـواجٍ تَطُمُّـكْ »[4]
ثُـمَّ ضـاعَ فـي اللِّسـانُ المَنْطِـقُ والـزَّفيـرُ مـنْ حَشَـاه يَخْـرِقُ
قـال « هبِّـي أنـتِ يـا روحَ العَـرَبْ قلدي الأسلافَ في ماضي الْحُقَبْ[5]
يـا فـؤادُ ! ابـنَ السُّعـود ، فيصـلُ كلكـم مِثْـلَ الـدُّخَـانِ يَـرْفُـلُ[6]
أوْقِـدُوا فـي الصَّـدْرِ نـاراً أُخْمـدَتْ أرْجِعُـوا أيـامَ دُنيـا ضُيِّعَـتْ
واديَ البطحـاءِ أنجـبْ خـالـدا نشتهـي التَّـوْحيـد فيـكَ غَـرَّدا
أمـةَ الإيمـانِ ، يـا سـودَ الجلـود منكـمُ أستـافُ عِطْـراً لِلْخلـود[7]
فـإلامَ تَجْهَلُـونَ سَيْـرَكُـمْ وتـولُّـون سِـوَاكُـمْ أمْـرَكُـمْ
ليـت شعـري هَـلْ تخـافـونَ البـلاء

---

(١) ضاع العطر : انتشرت رائحته . نفح : فاح .
(٢) كشنر هو اللورد كتشنر . وهكذا أورد الشاعر اسمه مراعاة لوزن الشعر . واستعر : التهب .
(٣) الفَهِمُ : السريع الفهم .
(٤) طم الماء : غمر .
(٥) الحُقَبُ : جمع حِقْبة : وهي السَّنةُ والمدَّة من الزّمان لا وقْتَ لها .
(٦) فؤاد الأول المتوفى عام ١٩٣٦ كان ملكاً لمصر . وابن السعود المتوفى عام ١٩٥٣ كان ملكاً للمملكة العربية السعودية : وكان فيصل ملكاً للعراق وتوفي عام ١٩٣٣ .
(٧) السُّود : هم العرب . واستاف : شمَّ .

البــلاءُ كـــانَ لِلْمـــرءِ الصَّفـــاء[1]

قـد سَكَنَّـا يثـربـاً والحِـبُّ نَجْـدَا — أيـنَ يـا حـادي حـداءٌ هـزَّ وَجْـدَا[2]

ديمـــةٌ تهمـــي وأرضٌ خُضِّـــرتْ — فكـــأنَّ الخَطَـــواتِ أُثقلَـــتْ[3]

الفـــراقُ وهـــو يُضنينـــي طَـــويـــل — امـضِ فـي أرضٍ بهـا عُشْـبٌ قليـل

نشـوةُ النَّـاقـةِ عشـبٌ ، لـي حبيـب — لكَ حبلٌ ، وَلِمَنْ أهْوَىٰ قُلُوبْ[4]

جعلـوا للمـاءِ فـي الصَّحـرا سبيـلا — فـي الجبـال بَلَّـلَ المـاءُ النَّخيـلا

وتتـــالـــتْ فـــي التِّـــلال ظبيتـــان — فتـأمـــلْ ، كيـــف مِنهـــا تَهْبِطـــان

تـــرشفـــان مِـــنْ ميـــاهِ النبـــع قَطْـــرا — تـــرمُقـــانِ مـــنْ بتلـــكَ الأرض مُـــرَّا

وَمِـــنَ المـــاءِ الـــرِّمـــالُ كـــالحـــريـــر — هـــانَ فيهـــا كـــلُّ سيـــرٍ لِلْبَعيـــر[5]

مثـــلُ رِيشـــاتِ السَّمـــانَـــاةِ الغَمـــامْ — أرهـب الغيـثُ فَقَـدْ شـطَّ المَقَـام[6]

قـــد سكنَّـــا يثـــربـــاً والحـــبُّ نَجْـــدَا

أيـــنَ يـــا حـــادي حُـــدَاءٌ هـــزَّ وَجْـــدَا »

* * *

---

(١) يذكر الشاعر بحديثٍ للنبيِّ قال فيه : (أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثلُ إلى أن قال : فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) .

(٢) يثرب : المدينة المنورة . والحبُّ : الحبيب . والحادي : منْ يسوق الإبل . ويغني لها .

(٣) الديمة : المطر يدوم في سكون . ويهمي : ينهمر . وخضَّر الشيء : جعله أخضر اللون . يقول : إنَّ المطر يُنبتُ العشب في الأرض ، فيصبح سيرُ الإبل في الأرض المعشبة صعباً .

(٤) يوجه الكلام إلى الحادي قائلاً : إنَّ الناقه تجد في العشب لذَّتها ونشوتها . أما هو فنشوته بالحبيب . الحادي يملك الحبل الذي يعقل به ناقته ، أما الحبيب فيملك قلب من يهواه .

(٥) هان : سهل .

(٦) السماناة : مفرد السُّمانى ، وهو نوعٌ معروفٌ من الطيور . وشطَّ : بَعُدَ .




القسم الرابع

فَلَكُ المِرِّيْخ






أهْلُ المِرِّيخ

تَحْتَ هذا الماءِ عَيْني أُطبِقَتْ ... ثمَّ عنِّي الذَّاتُ منِّي أُبْعِدَتْ
نَحْوَ دُنْيا طابَ لي أنْ أرْحَلا ... والزَّمَانُ والمكانُ بُدِّلا
شَمْسُنا في الأفْقِ منها أشْرَقَتْ ... ولها ليلاً وصبحاً أوْجَدَتْ
فإذا بالجسمِ روحاً يَجْهَلُ ... عن زمانٍ ومكانٍ يُفصَلُ
روحُنا كلَّ لهيبٍ تُخْمِدُ ... إنَّها في كلِّ وقتٍ تُسْعِدُ
لم تَشِخْ ، واليومُ مرَّ كالطيور ... إنَّ للأيامِ مِنْها ألفَ نُوْر[1]

هذه الأيامُ مِنْها كمْ توَالَتْ
الدُّنى منها وَلَوْلاها لَزَالَتْ[2]

ذلكَ المَرْصَدُ في مرجٍ سَمَقْ ... الثُّريا قَدْ يَصيدُ بالوَهَق[3]
القِبَابُ الخضرُ لاَحَتْ أشْهَدُ ... عالمٌ هذا لَدَيْنَا أسْوَدُ
لاتساعٍ ما أرىٰ حدّاً طَلَبْت ... في فضاءٍ لِلسَّماءِ كمْ نَظَرْت
قالَ شَيْخُ الرُّومِ وَهْوَ مرشدي ... « أنتَ في المرِّيخ فاسمغ واشْهَدِ
مثلُ دنيانا له لونٌ وَرِيح ... فيهِ بلدانٌ وبُنْيانٌ وَسُوح[4]
وكأهلِ الغَرْبِ فيه منْ سَكَنْ ... سبقونا كلَّنا في كلِّ فَنْ

---

(١) شاخ : صارَ شيخاً .

(٢) الدُّنى : جمع دنيا .

(٣) سَمَقَ : ارتفع . الوَهَقُ : حبلٌ في طرفه أنشوطة يطرح في عنقِ الدَّابة حتى تؤخذ . والشاعر يشبه المنظار الطويل الذي تشاهد به النجوم في المرصد بالوَهَق .

(٤) السُّوح : جمع ساحة . والرِّيح : الرائحة .

قَهَـرُوا حتَّـى الـزمـانَ والمكـانـا ... فـي علـومِ لِلفَضَـا كـلٌّ شـآنـا[1]
إنَّ وعـراً فـي العقـولِ مَهَّـدُوا ... الخفـايـا فـي الفَضَـاءِ شـاهَـدوا
قلبُ أهـلِ الأرضِ بـالطِّيـن المُقيَّـدْ ... وهناكَ الجِسْمُ بالقَلْبِ المُصَفَّدْ[2]
كـانَ بـالطِّيـنِ لقلـبِ مَنْـزِلُ ... كـلَّ مـا شـاء بيـنِ يَفْعَـلُ
تَهَـبُ الـرُّوحُ الخُمـارَ والسُّـرورا ... تمنحُ الغيـبَ لجسـمٍ والحُضُـورا[3]
الـوجـودُ عنـدنـا فـي مَظْهـريـنْ ... جسمنـا والـرُّوحُ مـا لاحَـتْ لِعَيـنْ
جسمنـا والـرُّوحُ طَيْـرٌ فـي قَفَـصْ ... ساكنُ المرِّيخ عنْ فِكْرَىٰ نَكَصَ[4]
وإذا مـا جـاء يـومٌ لِلْفِـراقْ ... أصبـحَ الإنسـانُ حيَّـاً بـاحْتِـراقْ
بـالمنـونِ ذلـكَ الإنسـانُ يُخْبَـرْ ... ويقـالُ بَعْـدَ يـومٍ سـوف تُقْبـرْ[5]
روحُهـم بـالجسـمِ مـا إنْ رَبَّـوه ... ولهـذا جِسْمُهـم لـم يـألفُـوه[6]
انـدمـاج الجسـمِ في النَّفْـسِ الفَنَـاءْ ... وَمِـنَ الـدُّنيـا فـرارٌ وانطـواءْ[7]
وكـأنـي قُلْـتُ مـا لا يُفهـمُ ... لـكَ روحٌ وبجسـمٍ تُحْكَـمُ !

بـرهـةً لا غَيْـرَ تبقـىٰ هـاهنـا
لـمْ يُشـاهِـدْ مثـلَ هـذا غَيْـرُنـا

* * *

---

(١) شأىٰ : سبق .
(٢) صفد : قيد .
(٣) الخمار : صداع السكر والمراد هنا السكر .
(٤) الفكرى : إعمال الخاطر في الشيء .
(٥) المنون : الموت .
(٦) ربيه : رباه .
(٧) يقول : إن الفرار من الدُّنيا ، والانطواء على النفس موتٌ كإدماج الجسم في النفس .

ظهور فلك المِرِّيخ من المَرْصَد

ذاكَ شَيْخُ العِلْمِ بالثَّلج التحىٰ ... ممسياً كانَ بعلمٍ مصبحا[1]

كشيوخِ الغَرْبِ في الفِكْرِ السَّبُوْح ... كنصارى الغربِ في لُبْس المُسُوحْ[2]

وهو هِمٌّ بقوامٍ مِثْلَ سرو ... مشرقُ الوَجْهِ كأتراكِ بِمرو[3]

وعلى علمٍ بمعنى لِلطَّريقْ ... لَمَعَتْ عيناهُ بالفِكْرِ العَمِيقْ

وكوردٍ كان قد ألقى الكِمَاما ... قال كالخيَّام والطوسي كلاما[4]

« قالبُ الطِّينِ أسيرُ الكيفِ والْكَمْ ... وهو في « تحت » و« فوق » لم يُقَمْ

وأطارَ التُّرْبَ ، ريشٌ ما نَبَتْ ... جوهرَ السَّيارِ أعطى ما ثَبَتْ »[5]

عَقْلُهُ والقول كالماءِ النَّميرْ ... منهما شاهَدْتُ عَرْضَ المُسْتَحِيرْ[6]

كانَ حلماً ما أرىٰ أمْ كان سِحْرا ... ساكنُ المريخ هذا قال شِعْرا !

قال « في عهدِ النَّبيِّ المصطفى ... بيننا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصَّفا

---

(١) أمسى وأصبح : دخل في المساء والصباح .

(٢) الفرس السَّبوح : السريع . والمسوح : جمع مسح بالكسر وهو الكساء من شَعْرٍ ، كثوب الرُّهبان .

(٣) الهِمُّ : الشيخ الفاني . ومَرو : عاصمة خراسان بإيران . والأتراك مضرب المثل في الحسن عند شعراء الفرس .

(٤) الخيَّام : هو العالم الفلكي المفكِّر عمر الخيام صاحب الرُّباعيات المشهورة من أهل القرن السادس الهجري . والطوسي هو نصيرُ الدين الطوسي من أهل هذا القرن . وله المؤلفات في المنطق والحكمة ، والأخلاق ، والعقائد . وله شهرةٌ مستفيضةٌ بحذقه في علم الفلك . وقد ارتقى هذا العلم بفضلٍ منه ، وأسَّس هولاكو مرصداً في مدينة مراغة كان نصير الدين يرأس العمل فيه .

(٥) التُّرب : التراب . يقول : إنه أطار الترابَ وما للتراب ريش ولا جناح ليطير ، ثم أشار إلى الكواكب السيارة والثابتة .

(٦) الماء النمير : الماء الكثير . والمستحير : الطريق المعترض لا يدرى أين منفذه . واعتراضه يثير الحيرة .

هــذهِ الــدُّنيــا بعقــلٍ أبصــرا ورأى الإنســـانُ مـــاذا دبَّـــرا
الجنـــاحَ فـــي سمـــوات بَسَـــطْ فـي الحجـاز وَسْـطَ بيـداءِ هَبَـطْ[1]
مـا رأى فـي الخـافقيـنِ قَـدْ رُقِـمْ فـي كتـابٍ كـان أبهـىٰ مِـنْ إرَمْ[2]
فـارسـاً شـاهَـدْتُهـا والغَـرْبَ زُرْت أرضَ مِصْرَ جبْتُها في الهند كُنْت[3]
وعـــن الأرضِ تَيَقَنْـــتُ الخَبَـــرْ وَبِبَحْـــرٍ وَبِبَـــرٍّ لـــي سَفَـــرْ[4]

وعــراكَ المــرء فــي الــدُّنيــا رَعَيْنــا
وهــو حقّــاً لَيْـسَ يـدري مـا لـدينـا[5]

* * *

الرُّوميُّ

من سماءٍ كنتُ من أرضٍ رفيقي ثملٌ ما ذقتُ طعماً للرَّحيق[6]
رجـــلٌ نجْـــدٌ يُسمَّـــىٰ زنـــده رودا خرَّ سكراً إذ رأى هذا الوُجودا[7]
أرضُكـــم هـــذي إليهـــا قـــدْ وصلنـــا نحـنُ فـي الـدُّنيـا وَلٰكِنَّـا خـرجنـا
التَّجلِّـــي نَحْـــنُ عنـــه البـــاحثـــونـــا والـدَّليـلُ أنـتَ نـرضـىٰ أن تكُـونـا

* * *

---

(١) البيداء : الصحراء .
(٢) الخافقان : المشرق والمغرب . ورقم : كتب . وإرم : تلميح من المؤلف إلى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٧] وقال بعض المفسرين : إنَّ إرم ذات العماد مدينةٌ عظيمةٌ قصورها من الذَّهب والفضَّة وأساطينُها من الياقوت والزَّبَرْجَد .
(٣) جاب البلاد : قطعها .
(٤) تيقن الأمر : علمه وتحققه .
(٥) رعى : راقب .
(٦) الرَّحيق : الخمر . يقول : إنه سكران ولم يذق خمراً .
(٧) النجْدُ : الشُّجاع . خرَّ : سقط .

حكيمُ المِرِّيْخ

مـرغـديـن تلـك أرضُ بـرخيـا ... بـرخيـا جـدٌّ لأجـدادِ ليـا[١]

فـرز مـرزَ بـالشـرور الآمـرُ ... ولـديـه فـي الجنـانِ الحـاضـرُ[٢]

قـال : « أنـت هـانـىءٌ كـالعـادة ... طـالمـا أُلـزمـتَ سيـرَ الجـادَّةِ[٣]

عـالـمٌ ، مـا أنـت فيـه يَفْضُـلُ ... يجعـلُ الجنَّـةَ زهـراً يَـذْبُـلُ[٤]

وعـلا حتَّـى علـى تِلْـكَ الجِنـانْ ... إنَّـه فَـوْقَ الـزَّمـانِ والمكَـانْ

أيـراه الله ؟ إنـي مـا دَرَيـتْ ! ... مثلَـهُ حـرّاً وحقِّـي مـا رأيـتْ ![٥]

قَـدْ خَـلا حتَّـى مـنَ الـربِّ الـدَّخيـلْ ... لَيْـسَ فيـهِ مـنْ كتـابٍ أو رَسُـولْ !

لَيْـسَ فيـه مـن طـوافٍ أو سُجُـودِ ... لا ولا فيـهِ الـدُّعـاء لِلْحَميـدِ

قـالَ فـانهـضْ دبـرنَّ خـدعتَـكْ ... اذهبـنَّ فيـهِ أفـرِغْ صَـورَتَـكْ[٦]

مـا بهـذا السِّحْـرِ أُغـوي جـدُّنـا ... فـالإلـهُ عـالَمـاً أعطـىٰ لنـا

إنَّـه مـنْ فَضْـلِ ربِّ العـالمينـا

امـضِ فيـه وتـأمَّـلْ مَـرْغَـدِينـا

* * *

---

(١) برخيا : اسم الجدِّ الذي يتخيله إقبال لسكان المريخ . ولم يُلْقِ سمعاً إلى وسوسة الشيطان .

(٢) فرز مرز : اسم يتخيَّله الشاعر كمرغدين .

(٣) الجادة : وسط الطريق : وألزمه السير في الجادة كناية عن إلزامه عدم الانحراف إلى الشر .

(٤) يحدثه عن عالم آخر أحسن مما هو فيه ، وحسنُه ربيعٌ دائم ، وكأنَّ الجنَّة قياساً عليه ربيع لا يدوم ، أو زهرة سرعانَ ما تذبل .

(٥) يبالغ الشاعر في وصف هذه الشخصية الخيالية بالكفر . والمبالغة من مقوِّمات الشعر وسماته .

(٦) هذا كلام برخيا .

التَّجْوَالُ في مدينة مرغدين

البنـاءُ فـي السَّمـاء كـان طـولا فـي السُّمُـوِّ مـا عَسَيْـتُ أنْ أقـولا

سـاكِنُـوهـا قـولُهـم مثـلُ الشِّهـاذ زانَهـم حُسـنٌ وطِيْـبٌ فـي الفُـؤاذ(1)

مـا بتحصيـلٍ وكـدٍّ فِكْـرُهُـمْ سـرُّ تلـكَ الشَّمْـسِ أفشـى عِلْمَهُـمْ

مـن أرادَ المِلْـحَ فـي نـورٍ وَجَـذ مثـلُ ملـحٍ مـنْ بحـارٍ يُسْتَمـذ

العلـومُ والفنـونُ تَخْـدُمُ وازنـوهـا بـالنُّضَـارِ مـنْ هُـمُ ؟(2)

إنَّمـا الـدِّينـارُ كـانَ كـالصَّنـم أبعـدوا الأصنـامَ عـنْ هـذا الحَـرَم

آلـةُ الشَّيطـانِ لـم تقهـر طبيعـه ما الدخانُ في السموات الوسيعه(3)

إنَّ للفـلاح مصبـاحـاً أنـارا مـالكـاً لـم يَخْـشَ حتى إنْ أغـارا

آمنـاً يـروي نبـاتـاً يَمْلِكُـهْ مـا لَـهُ فـي مِلْكِـهِ مـنْ يُشْـرِكُـهْ

هـاهنـا مـا لاحَ جنـديٌّ لـرائـي لا ولا منْ عاشَ مِنَ مصِّ الدِّماء

مـرغـديـنُ ليـس فيهـا مـنْ قَلَـمْ فِـرْيـةً للخـادعيـن قَـدْ رَقَـمْ(4)

ليـس فـي السُّـوقِ نِـدَاءُ مـنْ تَبَطَّـلْ لا ولا في الأذْنِ نَوْحُ منْ تَسَوَّلْ(5)

***

حكيمُ المِرِّيْخ

لا مكـانَ هـاهنـا للسَّـائلينـا

والعبيـدُ لا تُـرى والمـالِكينـا

---

(١) الشُّهاد : جمع شَهْد .

(٢) النُّضار : الذَّهب .

(٣) يقول : إن الآلة شيطان لا تقهر الطبيعة ، ودخانُها لا يعكِّر صفو السماء الواسعة .

(٤) الفريةُ : الكذب واختلاقه . ورَقَم : كتب .

(٥) تبطَّل : تعطَّل ، ولم يَعْملْ .

زنده رود

بقضـــاءِ اللهِ هـــذا مـــنْ حُــرِمْ　　وبـــأمـــرِ اللهِ ذَاكَ مـــنْ حُكِـــمْ
إنَّمـــا التقـــديـــرُ للهِ المقـــدِّرْ　　لَيْسَ مِـــنْ تَـــدْبِيْـــرِ إنســـانٍ مُـــدَبِّـــرْ

***

حكيمُ المريخ

القضـــاءُ إنْ عَـــدِمْـــتَ خَيْـــرَه　　مِنْ إلهِ الكَوْنِ فاطلبْ غَيْرَه[1]
بِسُـــؤالِ اللهِ كُـــنْ أنـــتَ الجـــديـــرا　　يملـــكُ اللهُ الكثيـــرَ والكثيـــرا[2]
كـــلُّ مـــالِ الـــذَّاتِ فـــي قَـــوْمٍ هَـــدَرْ　　إنَّهـــم لَـــمْ يُـــدْرِكـــوا معنـــى القَـــدَرْ[3]
رمـــزُه حـــرفـــانِ ، هَـــلْ أدْرَكْتَـــهُ　　« إنْ تَغَيَّـــرْتَ فَقَـــدْ غَيَّـــرْتَـــهُ »
كُـــنْ تـــرابـــاً لِتَطِيْـــرَ فـــي الهـــواء　　حجـــراً كُـــنْ بـــكَ تحطيـــمُ الإنـــاء !
أنـــت طَـــلٌّ ؟ فـــالسقـــوطُ فَـــوْقَ زَهْـــر　　أنْـــتَ بحـــرٌ ؟ فـــالخُلـــود كـــلَّ دَهْـــر[4]
قـــد صَنَعْـــتَ لـــكَ دومـــاً أنْـــتَ لاتـــا　　مـــا ثبـــتَّ ، فَلْتُعَلِّمْـــكَ الثَّبـــاتَـــا
أنْتَ ما لم تَرْفُضِ الإيمانَ نَفْسُكْ　　عـــالـــمَ الأفكـــارِ فيـــهِ كـــانَ حَبْسُـــكْ
قـــد ينـــالُ المـــالَ مـــنْ يَلْقَـــى التَّعَـــبْ　　وعـــديـــمُ الأيْـــنِ مَـــوفُـــورُ النَّشَـــبْ[5]
كـــانَ هـــذا أصـــلَ ديـــنٍ يـــا غـــريـــر ؟!　　فليـــزد فـــي فَقْـــرِه هـــذا الفَقِيْـــر[6]

---

(١) القضاء : ما يقدِّره الله للإنسان .
(٢) يريد الشاعر ليقول : إن الإنسان يستطيع أن يسأل الله قدراً آخر ، وكأنَّه بذلك يستطيع اختيار قدرٍ يوافقه .
(٣) هدر الدم : ذهب باطلاً ليس فيه قَوَدٌ . واستعير ذلك للمال إذا ضاع في غيرِ نفعٍ .
(٤) الطل : الندى أو أضعف المطر . وإقبال يلمح إلى قدر الضعيف وقدر القوي .
(٥) الأين : التَّعب . والنَّشب : المال .
(٦) الغرير : من لا تجربة له . وإقبال ينزه الدين عن الدعوة إلى الكسل ، لأنَّ الغنى والفقر ما قدر الله للمرء بقطع النظر عن كسله أو توفره على عمله .

أيُّ دينٍ ! وإلى نومٍ دعاكا ... فأطلت النَّوْمَ لا تبدي حَرَاكا

أَفَسِحْرٌ ذاك أمْ دينٌ لَكَا
نشوةُ الأفيونِ تمحو وَعْيَكَا ؟

أعَلِمْتَ أنْتَ مِنْ أينَ النُّهى ... هذه الحوراءُ أينَ طِيْنُها

قوةٌ في الفِكْرِ كانت للحكيم ... طاقةٌ بالذِّكر كانَتْ لِلْكَلِيم

ذلكَ القَلْبُ عليه ما خَطَرْ ... وجميعُ المُعْجِزَات مِنْ فَطَرْ[(١)]

أفصيحٌ أنْتَ ؟ ما هذا بِقَوْلِكْ ... تُنْجِزُ الأعمالَ ؟ لكن ما بحوْلِكْ[(٢)]

كلُّ هذا كانَ فيضاً للرَّبيعْ ... أوْ ربيعِ فطرةُ اللهِ البَديعْ

ما الحياةُ ؟ مَعْدنٌ للجَوْهَرِ ... الأمينُ أَنْتَ ، مُلْكُ الآخَرِ[(٣)]

يَشْرُفُ الإنسانُ بالطَّبْعِ الجواد ... خدمةُ الخلقِ لَهُ كلُّ المُرَاد

تِلْكَ كانَتْ شيمةً للأنبياء
تاجرٌ منْ نَالَ ربحاً كالجزاء[(٤)] !

هكذا تِلْكَ الرِّياحُ والمَطَرْ ... والبساتينُ وكلُّ ذي ثَمَرْ

أتقولُ ما لَدَيْنا مُلْكُنا ؟! ... يملكُ الملكَ جميعاً رَبُّنَا

كلُّ أرضٍ أرضُ ربِّي فاشْهَدُوا ... في الكتابِ قولَهُ ﴿ لا تفسدوا ﴾[(٥)]

سلَّمَ المرءُ لإبليسَ القِيَادَا ... إنَّما إبليسُ منْ يَسْعَىٰ فَسَادا

---

(١) فطر : أوجد .

(٢) الحول : القدرة . يقول : إنَّ الفصاحة ليست للفصيح ولكنَّها هبة من الله . وكذلك الشأن في القدرة على إنجاز العمل .

(٣) المعدن : المنجم . يقول : إن الإنسان أمين على هذا المنجم والله صاحبه .

(٤) لا ينبغي لمن يخدم الناس أن يتوقع منهم جزاء على خدمتهم ، وإلا كان كالتاجر الذي لا يتوقع إلا الربح .

(٥) يشير إقبال إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل .

مَــنْ أميــنٌ مُنْجِـزٌ أعمــالَــه ؟ ... لَيْتَــــه لله ردَّ مــــالَــــهُ

قَـدْ أَخَـذْتَ أنْـتَ شيئاً غَيْـرَ مِلْكِـكْ ... يا لعمري ليس هذا شأنُ مِثْلِكْ !

امْلِكَــنَّ الشــيءَ فيــه رَاغبــا ... أو فخـاطـبْ مِنْـكَ نَفْساً عـاتِبـا[1]

إنَّ مُلْــكَ اللهِ هــذا فلتــردَّه ... كي تَحُلَّ أنْتَ في الأعمال عُقَدَه

ولمـاذا اليـوم نشكـو فَقـرَنـا ؟ ... مـا لـربِّ الكـونِ قُلْتُـم : ذا لَنـا !

كـلٌّ مــنْ طينـاً ومـاءَ لازَمَـا ... كـأسُـهُ بـالصَّخْـرِ طَـوْعـاً حطَّمـا

منـزلٌ ذا أمْ طـريـق ؟ مـا عَـرَفْنـا ... كـلَّ شـيءٍ كـان يَبْـدُو لـو نَظَـرْنـا

جــوهــرٌ هــذا لَكِــنْ إنْ مَلَكْتَــهْ ... والحَصَى إنْ لم يَكُنْ في الكَفِّ دُسْتَهْ[2]

***

قصَّةُ فتاةِ المرِّيخ التي ادَّعت النُّبُوَّة

بِقُصُــورٍ وَبِسُــوحٍ قــد مَــرَرْنـا ... جـانـبَ الأسـوارِ مَيْـدَانـاً رأينـا

مِــنْ رجـالٍ ونسـاءٍ فِيْـهِ حَشْـدُ ... وفتـاةٌ ، ولهــا كـالْبَـانِ قَـدُّ

وأنــارَ وَجْهُهــا مــنْ غَيْــرِ رُوحْ ... والكـلامُ لَيْسَ فيـهِ مـنْ وُضُـوحْ

لَفْظُهـا صلْـدٌ وَعَيْـنٌ مـا جـرت ... بَهْجَــةَ الآمــالِ قَــطُّ مـا دَرَتْ

الشَّبــابَ قلبُهــا مــا إن سَعَــرْ ... ولهـا المـرآةُ لا تُبْـدِي الصُّـوَرْ[3]

وَعَـنِ العِشْـقِ أتـدري مـا الخَبَـرْ !؟ ... صَعْـوةٌ والعِشْـقُ شَـاهِيْـنٌ كَسَـرْ[4]

هكــذا قــالَ الحكيــمُ شَيْخُنــا ... « هـذه الحسنـاءُ لَيْسَـتْ مـنْ هُنَـا »

---

(١) يقول : إذا لم تكن مالكاً لشيء من حقِّك أن تَمْلُكَه ؛ فعاتب نفسك على ذلك .

(٢) يقول : إذا ملكت الجوهر فأنت تنعم به ، وعليه فقد حقَّقت متعتك بامتلاكه . أما إذا ملكه سواك فأي متعةٍ وفائدة لك منه ، وكأنه لا يكون الجوهر حقاً إلا إذا كان لك .

(٣) سَعَر النَّار : أوقدها .

(٤) الصَّعوة : أنثى الصَّعو ، وهو عصفورٌ صغير . والشَّاهين : طائر من جنس الصقر . وكَسَرَ : ضمَّ جناحيه لينقضَّ على فريسته .

فَـزِزُمَـرْزُ فـي حـديـثٍ قَـدْ صَـدَقْ   « مِـنْ بـلادِ الغَـرْبِ إيَّـاهـا سَـرَقْ
لَقَّـــن الحَسَنـــاءَ أسْـــرارَ النُّبُـــوَّهْ   ثُـمَّ فـي العَـالَـمِ ألقـاهـا بِقُـوَّه !
مِنْ سمائي قَدْ هَبَطْتُ اليَوْمَ قَالَتْ   دعـوتـي فـي آخـرِ الأيَّـام كـانَـتْ
عـــن نســـاءٍ ورجـــالٍ مـــا تَقُـــوْل   وصريحُ القول ما عافَ الخَجُول !
سـأقـولُ مـا المصيـز مـا القَـدَرْ ،
بلســـانٍ تَفْهَمُـــونَ يـــا بَشَـــرْ »

***

رسالةُ نَبِيَّةِ المِرِّيخ

يـا نسـاءُ ، أنـتِ يـا أمِّـي الجَلِيْلَـهْ   قُلْنَ لي حتَّامَ عيشي كالْحَلِيْلَهْ[١]
عيْشُهـــا مـــا كـــانَ إلا ظُلْمُهَـــا   إنَّمـا الحِـرْمَـانُ فـي الـدُّنيـا لَهَـا
إنَّنـا بـالمشـط نُـرْخِـي شَعْـرَنـا   فـي الـرِّجـالِ قَـدْ وَجَـدْنـا صَيْـدَنَـا
الـرِّجـالُ صـائـدونَ ، حِـذْرَكُـنْ !   ولأجْـلِ الصَّيْـدِ داروا حَـوْلَكُـنْ[٢]
وإذا أَبْـدَوْا هيـامـاً مـاكَـرُونـا   وَبِشَـــوْقٍ وشُجُـونٍ خـادَعُـونـا
كـــافـــرونَ ، ويُقيمُـــون الحَـــرَمْ   ولكـــنَّ فيـــهِ ألـــوانُ الألـــمْ[٣]
وعلـــى العيـــشِ إذا تـــمَّ اتفـــاقُ   فالوصالُ السُّمُّ والشَهْدُ الفِرَاقُ[٤]
الأفـاعـي ؟ مـنْ تُطِيْـقُ لَـدْغَهُـمْ   لا تُـرِقْـنَ فـي الـدِّمـاءِ سُمَّهَـمْ[٥]

---

(١) الحليلة : الزوجة . والشاعر يجري الكلام على لسان فتاة المريخ موجهاً إلى النساء ، وإنما أراد بكلامها التلميح إلى تبرُّج فتاةِ الغرب وصراحةِ تعبيرها عن مبادىء المرأة المنحرفة التي تفضِّل الخليل على الخليل .

(٢) حذركن : احذَرْنَ .

(٣) الحَرَم هنا : بيت الزوجية .

(٤) الاتفاق على العيش : الاتفاق على الحياة الزوجية .

(٥) يشبّه الرجال في نظر هذه المرأة بالأفاعي .

كـلُّ أمٍّ سـوفَ تَضْـوَىٰ فـي ذُبـولْ
طـابَ عَيْـشٌ ليس فيـهِ مـنْ حَلِيـلْ[1]

إنَّ هـذا الـوحـيَ يـأتينـي تِبـاعَـا   طـابَ لـي الإيمـان عُمْقـاً واتِّسـاعـا
عصـرُنـا أبـدىٰ لنـا إعجـازَ فَـنْ   الجَنِيـنُ قـد نَـرَىٰ فـي طـيِّ بَطـنْ
فَلَـدَيْـكَ أنْـتَ مِـنْ حَقْـلِ الحيـاة   مـا أرَدْتَ مـن بنيـنٍ أوْ بنـات
إنْ وَجَـدْتَ غَيْـرَ مـرغـوبٍ لَـدَيْـكْ   كـانَ دِينـاً قتلُـه مـنْ غَيْـرِ شَـكْ
إنَّ هـذا العَصْـرَ تتلـوهُ العُصـور   ولأسـرارٍ وأسـرارٍ ظُهُـوز
فـالجنيـنُ هـذه الـدُّنيـا قَـدِم   مـا رأى قـطُّ ظـلامـاً فـي الـرَّحِم.
فَلْيَمُـتْ ! يَبْـدُو كَشَيْطـانٍ مَـرِيْـد   حيـوانـاً كـان فـي العهـد العَهِيـدْ[2]
لِلْـوُرُود الحُمْـرِ مـنْ أرضٍ طُلُـوعْ   للنَّـدَىٰ مـا همَّهـا قـطُّ الـوُقُـوعْ !
وَحْـدَهُ سـرُّ الحيـاةِ قـدْ ظَهَـرْ   مـا لَـدَيْـهِ مِضْـربٌ هـذا الـوَتَـرْ[3]
دَعْـكَ مـنْ غَيْـثِ الـرَّبيـع يـا مَحَـارْ   وَلْتَمُـتْ ظمـآنَ تَطْـوِيـكَ البِحَـارْ[4]
غـالبـي مـا النَّـاسُ قـد سمَّـوه فِطْـرَهْ   والفتـاةُ فَلْتَكُـنْ مـنْ بَعْـدُ حُـرَّه

بـافتـراقِ الجسـديـنِ وَحْـدِي
كـي تُصـانـي ، عـن رجـالٍ فـابْعُـدِي[5]

---

(١) ضوي : ضَعُفَ ونَحَلَ . يقول : إنَّ المرأة إذا ولدت اعتراها الضَّعْفُ والذُّبول . والحليل : الزوج .

(٢) المريد : الخبيث . وهذه المرأة تريد للرجال أن يموتوا ويصبحوا حيواناتٍ منقرضةً . والعهيد : القديم .

(٣) المضرب : ما يضرب به العود وغيره . وكأنَّ سرَّ الحياة وترٌ يرسل الأنغام من غير عازفٍ .

(٤) المحار : صَدَفُ اللؤلؤ . وفي عقيدة القدماء أنَّ مَطَرَ الرَّبيع إذا سَقَطَ في المحارة تكوَّن اللؤلؤ بها .

(٥) يبالغ الشاعرُ في التهكُّم فيقول : إنَّ افتراق المرأة عن الرجل في الحياة الزوجية دينُ التوحيد عندها ! لأنَّ تلازمَ الجسدين أو الشخصين في الزواج يعدُّ ثنويةً لا توحيداً !! .

الرُّوميُّ

مَذهبُ العَصْرِ الجديدِ ! قِفْ لِتَنظُرْ   يـا لعمـري كلُّهـم بـالله يَكْفُـرْ
إنَّ هـذا العِشْـقَ شَـرْعٌ لِلْحَيَـاهْ   فـي الحيـاةِ مـا لنـا ديْـنٌ سِـوَاهْ[1]
وَهِـيَ فـي الظّـاهِـر نـارٌ تَحْـرُقُ   وبنـورِ اللهِ قـاعٌ يُشْـرِقُ
نـارُهُ قـد أوْجَـدَتْ كـلَّ الفُنـونْ   كـلُّ فـنٍّ كـانَ مِـنْ فَـرْطِ الجُنُـونْ !

إنَّ عِشْقـاً بـوَّأ العليـاءَ دِينـا
ذلـكَ الـدِّيـنُ فَخُـذْ عـنْ عاشِقِيْنـا[2]

***

(١) المرادُ بهذا العشقِ عشقُ الصُّوفية للذَّات الإلهية .

(٢) العلياء : المكان العالي وكلُّ ما علا من شيء . والمعنى : أنَّ العِشْقَ الإلهيّ يسمو بالدِّين . والعاشقون : عاشقو الذَّات الإلهية .




القسم الخامس

فَلَكُ المُشْتَرِي






أرواحُ الحلاَّج[1] وغالبٍ[2] وَقُرَّةِ العَينِ الطَّاهِرَة[3]

لم تجدْ لها مستقراً في الجنة
فَجَعَلَتْ تطوف على الدَّوام وإلى الأبد

قلبي المجنونَ إنِّي قد فَدَيْتَ	كلَّ يومٍ منه صحراءَ وَجَدْتُ[4]
إنْ بلغتُ منزلًا لي قال قُمْ	القويُّ بحرُه كوبٌ يَضُمْ[5]
ما لآياتِ لِربِّ الكَوْنِ آخِرْ	ما انتهى هذا الطريقُ يا مُسافر ؟
الحكيمُ مَنْ يرى شيئاً ويَخْبُو	والعَلِيْمُ ما يَراهُ سوف يَرْبو[6]

(١) الحلاَّج هو الحسين بن منصور ، ذلك الصُّوفي المعروف بشدَّة الغلو والتطرُّف في نزعاته الصُّوفية التي كان حريصاً على نشرها في الناس . فما ركن إلى الكتمان ، ولا كان منطوياً على نفسه . بل كان يصيحُ في الأسواق ، وهو في حالةٍ من الجذبةِ والطَّرَب . وقال بالاتحاد مع بقاء كلِّ عنصرٍ من عنصريه على ما هو عليه ، واتُّهم بالحلول والكفر لقوله : (أنا الحق) فصُلِبَ عام ٣٠٩هـ .

(٢) غالبٌ : هو من أعظم شعراء القارة الهندية ، نظمَ بالفارسية والأوردية ، ويتَّسمُ شعره ببعد الخيال ، ودقة التصوير ، وهو مفكرٌ عميق التفكير في تحليل النفوس ووصف الطباع . كانت وفاته عام ١٨٦٩م .

(٣) الطاهرة : شاعرةٌ إيرانية تُعْرَف كذلك بقرة العين . وقد شايعت من يسمَّى « الباب » في حركةٍ دينيةٍ تُعَدُّ في الإسلام بدعةً مذهبيةً ، فصدر الحكم بقتلها في إيران عام ١٨٥٢م . وشهرتُها بشدَّة الجرأة في التعبير عن الرأي ، كما كان من دعوتها إلى السُّفور .

(٤) المجنون هنا هو العاشق المشبَّه بمجنون ليلى ؛ الذي دلهه الحبُّ ، فهام على وجهه في القفار .

(٥) المنْزِلُ هنا : مكانُ نزولِ المسافر .

(٦) الحكيم هنا هو العالم . والعليم هو الصوفي . وتخبو النار : تخمد وتنطفىء . ويربو : يزيد .

الحكيمُ طِبْق فنٌ ما اخْتَبَرْ لِلْعَليم كانَ ميزانَ النَّظَرْ[1]
الحكيمُ الطِّينَ بالكفَّيْنَ جسَّا والعَلِيْمُ مسَّ تِلْكَ الروح مسَّا

التَّجَلِّي كانَ هذا مِنْ رَآهُ
غَيْرَ أنَّ ذاكَ في ذاتِ طَوَاهُ

عن جديدٍ مِنْ تَجَلٍّ قَدْ بَحَثْتَ طفتُ بالأفلاكِ مِثْلَ الناي نُحْتُ
كلُّ هذا كانَ فيضاً مِنْ طَهُوْر ألهبَ الرُّوحَ بمَسٍّ مِنْ سَعيْر[2]
وصلا مِنْ بَعْدِ أنْ طالَ الرَّحِيلْ وبشطِّ المُشْتَري كانَ النُّزُولْ[3]
ذلكَ العالَمُ للتُّرْب المَقَرْ حوله شاهَدْتُ أقماراً تَمُرْ[4]
كرُمه ما فيهِ منْ كأسٍ لنا أرضُه ما أخْرَجَتْ قَطُّ المُنىٰ
كان جوفُ اللَّيلِ بالقمراءِ ظَهْرَا ما عَرفْنا جَوَّهُ بَرْداً وحرًّا[5]
في السَّماء تلكَ عيني تَنْسَرِبْ وأرى الكوكبَ مني يَقْتَرِبْ
دخلتني هيبةٌ مِمَّا أرى ما أراهُ كلَّ شيءٍ غَيَّرا
هذه أرواحُ طُهْرٍ تَظْهَرُ قَلْبُها بالنَّارِ دنيا يَصْهَرُ
ترتدي ثوباً جميلاً أحمرا وجْهَها ، والقَلْبُ نارٌ ، نوَّرا
مِنْ ﴿ ألست ﴾ هزَّها فَرْطُ اضْطِرابْ سَكِرَتْ، مِنْ لحنها رَشْفُ الشَّرابْ[6]
« الزَمِ الذَّات » بها الرُّومي حباني « عِشْ بأنفاسٍ لِمَنْ غَنَّى الأغاني »
ما رأيتُ مِثْلَ هذا الشَّوقِ فانْظُرْ وعلى تِلْكَ الحُمَيَّا أيْنَ تَعْثُرْ

---

(١) المراد بالفن أصول العلم .
(٢) الطهور : الطاهر . والشاعر يشير إلى رجل طاهر النفس . والسعير : النار .
(٣) يريد بمن وصلا : العالم والصوفي .
(٤) التُّرب : التراب . ومن أسماء الدُّنيا في الفارسية (خاكدان) بمعنى مجمع التراب .
(٥) القمراء : نورُ القمر .
(٦) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

قُـرَّةُ العَيْـنِ ومَنْصُـورٌ وغَـالِـبْ حَرَمُ الأرواحِ مِنْهُمْ شِبْهُ جَالِبْ[1]

لَحنُهُـمْ روحـاً يَمُـدُّ بـالثَّبـاتْ

نـارُهـم مـنْ جَـوْفِ تِلْـكَ الكَـائِنَـاتْ

***

لحنُ الحلَّاج

مِـنْ تـرابي لـي لهيبٌ مـا رَأَيْتُـه مثـلُ هـذاك التَّجَلِّـي مـا طَلَبْتُـهْ

نَظْـرَتـي أمْعَنَـتْ فـي ذاتـي طـويـلاً فِتَـن الـدُّنيـا حبيبـي مـا شَهِـدْتُـهْ !

ذاكَ شِعْـرٌ أيـنَ مِنْـهُ مِلْـكُ جَـمٍّ غيـرُ مقتـولٍ بعشـقٍ مـا نَسَبْتُـه[2]

عقلُنـا إنْ كـان يَغْـزو أيَّ بـأس ؟ عِشْقُنـا هـذا وحيـداً مـا عَـرَفْتُـه

الطَّـريـقَ والمَقَـامَ لَسْـتَ تـدري أي لحـنٍ لِسُلَيْمـىٰ مـا سَمِعْتُـهْ

---

(١) قرَّة العين ومنصور اسمان للطاهرة والحلَّاج . وجلب : لغط وصاح وضج . والجالب : اسم الفاعل من جلب ولكن المراد هو ضجيج الأرواح لا ضجة الحَرَم .

(٢) جَمْ أو جَمْشِيد مِنْ مُلوك الفرس في العهد الأسطوري ، وكان مشهوراً بعظمته ، واتساع ملكه . ويريد الشعر بالشطر الثاني من ذلك البيت وهو لشاعر يُسمَّى نظيري عاش في الهند ، وأصله من إيران ، وكانت وفاته عام ١٦١٢م .

وهذا الشاعر يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ عِشْقاً لَيْسَ منَّا . وهو يذكِّرنا بترديد شعراء الصُّوفية لهذا المعنى ، ومنهم الشاعرُ العربيُّ عمرُ بن الفارض القائل :

هو الحبُّ فاسلم بالحَشَا ما الهوى سَهْلٌ فمـا اخْتَـارَهُ مُضْنـىً بـه ولـه عَقْـلُ

وَعِـشْ خَـاليـاً فـالحُبُّ راحتُـه عَنَـاً وأولُـــه سُقْـــمٌ وآخِـــرُه قَتْـــلُ

وقيل في شرح هذا : إنَّ الموت في الحب عنده حياة تفضَّل الحبيب بها على العاشق . والوفاءُ للحبيب بالوفاة . والموت فيه حياة . والميت خارج عن دعوى قدرته ، وهذا ما يظهر أنَّ القُدْرَة لله . وبـذلـك يكـون قـد مـات المـوتَ الاختياريَّ قبـلَ المـوتِ الاضطراري . وعليه فموتُه حياةٌ لانكشاف الحياة الحقيقية الأزلية ، وفي هذا يقول شاعر آخر :

ولكـنْ لـديَّ المـوتُ فيـه صَبَـابـةٌ حيـاةٌ لمن أهـوى علـيَّ بهـا فَضْـلُ

صِفْ لنا النُّونَ وبيِّن كَيْفَ صَيْدُه لا تَقُلْ لي زورقٌ ما إنْ رَكِبْتُه[1]
إنَّ شيخي قال لي : لولا صِعَابٌ صادفتني في طريقي ما سَلَكْتُهْ !
أرشفُ الصَّهْباءَ في حَشْدِ النَّدامىٰ
قلْ لنا شيخَ النضالِ ما اجتنبتُه[2]

* * *

لحن غالب

السَّماءُ مِثْلَمَا شِئْتَا نُدِيْر والقضاءُ الكأسَ أرْوَتْنا نُدِيْر[3]
شِحْنَةُ السُّلْطانِ نَحْنُ ما رَهِبْنَا للنَّوَال كفَّنَا مِنَّا نُدِيْر[4]
الكليمُ لمْ يَنَلْ جواباً لِلْخَليلِ وَجْهَنَا كُنَّا نُدِيْر[5]
سارقَ البُستانِ ماذا أنتَ تَبْغي سلَّةٌ قدْ أُفْرِغتْ إنَّا نُدِيْر[6]
نَحنُ في رِفْقٍ طيورَ الرَّوْضِ صبحاً نَحْوَ أعشاشٍ لها كنَّا نُدِيْر[7]

---

(١) النُّون : الحوت .

(٢) الحشد : الجماعة من الناس . والشاعر يطرق المعاني الصُّوفيَّة دون سواها . وقد ترجمنا هذه المنظومة ملتزمين أسلوب إقبال في الأصلِ الفارسي .

(٣) أدار الكأس : قدَّمها بالتناوب إلى جماعةِ الشاربين . وكلمةُ ندير هي الرديف في الأصل الذي التزمنا تكراره مع القافية الموحدة التي تسبقه .

(٤) الشِّحْنَةُ : منْ يضبط البلد منْ قِبَلِ السُّلطان . والنَّوال : العطاء . وإدارة الكفِّ للنوال كنايةٌ عن رفضه .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والشاعر يجنح إلى مبالغة الصُّوفية في معانيهم الرَّمزية . فهو يقول : إنَّه لا يردُّ على موسى إذا كلمه ، ولا يستقبل إبراهيم ضيفاً .

(٦) يقول : إنَّ السارق إذا أفعم سلَّته بثمارٍ سرقها من البستان أفرغنا تلك السَّلَّةَ مما فيها ، فعاد بها فارغةً .

(٧) المعنى في هذا البيت متعلق بالمعنى في البيت الأول ؛ لأنَّه يقول : إنَّه عنيفٌ مع العنيف ، رقيقٌ مع الرقيق .

حَيْــدَرٌ جَــدٌّ لنــا ، لا تَعْجَبُــوا نَحْـوَ غَـرْبِ شَمْسَنـا إنَّـا نُـذِيْـر[1]

***

لحْنُ الطَّاهِرة

« آهِ لَــوْ كــانَ اللِّقــاءُ بــالعُيــونْ
لَكَشَفْــتُ لــكَ مكنــونَ الشُّجُــونْ[2]
كــي أراكَ مِثْــلَ أنْسَــامِ الصَّبــا
بــالــدِّيــارِ طُفْــتَ تــوَّاقَ الحَنِيْــنْ[3]
مِــنْ نــواكَ فــي عيــونــي ذابَ قلبــي
مَــنْ رأى بحــراً جــرى بَيْــنَ الجُفُــونْ[4]
إنَّ للــرُّوح شُفُــوفــاً خــاطَهــا
بهــواكَ مِخْيــطُ القلــب الحَــزِيْــنْ[5]
طُفْــتُ بــالقلــبِ طــويــلاً لــمْ أجــدْ
غَيْــرَ مــن أهــوى ، ويخفــىٰ بــالكُمُــونْ[6]
وجْـدُ مَـنْ يَعْشَـقُ بـالقَلْـبِ الصَّـدِيْـع تِلْكَ روحي مِنْهُ في الحُزْنِ الوَجِيعْ[7]
مشكـلاتٌ لـي تَـوارتْ قـدْ بَـدَتْ كـلَّ فِكْـرِي كـلَّ ظَنّـي أطْبَقَـتْ[8]

---

(١) حيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه .
(٢) الشُّجون : الأحزان .
(٣) الأنْسَام : جمع نَسَم ، وهو نَفَسُ الرِّيح إذا كان ضعيفاً . والتواق : المشتاق .
(٤) النَّوى : البعاد .
(٥) الشُّفوف : جمعُ شِف ، وهو الثَّوب الرَّقيق الذي يُسْتَشَفُّ ما تحته . والمِخْيطُ : الإبرة .
(٦) كَمَنَ كُموناً : توارىٰ .
(٧) الصَّديع : المصْدوع ؛ أي المشقوق . الوَجِيْعُ : المؤلم .
(٨) أطبق الشيء : غطاه .

بَحْـرُ فكـري فيـه مـوجٌ مُضْطـرِبْ شطُّه منْ عَصْفِ هوجاءَ خرِبْ[1]
لا تضيِّـــعْ مِـــنْ زمـــانٍ مُـــدَّةً إنْ أرَدْتَ أنْ تَحُـــلَّ عُقْـــدةً[2]

وإلامَ أنـــــتَ لِلْفِكْـــــرِ الأسيــــر
ومِـــنَ البَلْبَـــالِ فَلْيَخْـــلُ الضَّمِيْـــر[3]

***

زنده رود يعرضُ مشكلاتِه على الأرواح

عَـنْ مقـامِ المـؤمنيـنَ قَـدْ بَعُـدْتـا ؟
مِنْ جنانِ الخلدِ هَلْ طَوْعاً خَرَجْتا ؟

الحلَّاج

مَـــنْ رأىٰ خيـــراً وشـــراً بـــالجَنَـــانْ ما استقرَّتْ منْهُ رُوحٌ بالجِنانْ[4]
جنَّـــةُ الـــزَّاهِـــدِ حُـــوْرٌ أو غـــلامْ جَنَّـــةُ الأحـــرار فـــي سَيْـــرٍ دَوَام[5]

---

(١) الهوجاء : الريح التي تقلع البيوت .
(٢) هذا البيت هو قول جلال الرومي للشاعر .
(٣) إلامَ : أيَّ وقت . والبلبال : الهمُّ وَوَسْوَاسُ الصَّدر .
(٤) الجنان بالفتح : القلب وبالكسر : الجنَّات .
(٥) يجري إقبال على مألوف شعراء الصُّوفية من الفرس الذين يتهكمون بالزاهد في شعرهم الرَّمزي الذي يحتمل معنيين أحدهما قريبٌ غيرُ مقصودٍ والآخر بعيد هو المقصود . وإنما أرادوا بذلك أن يقولوا : إنَّ العاشق الإلهيَّ ، أو الصُّوفي يتلقى الحقيقة إلهاماً من ربه ، ونوراً يشرق به قلبه ، ولا حاجة به إلى ترديد النظر في العلم ؛ لأنَّ القلب عنده مصدرُ المعرفة . أما الزاهد أو غير الصوفي الذي يأخذ بظاهر النَّص ولا يتجاوزُ القشور إلى اللباب فهو يعتمد على العقل وحده مصدراً للمعرفة . ومن ثَمَّ كان الخلاف بين الصُّوفيَّة وغيرهم . وهم يبالغون في التحسين والتقبيح محاولين البلاغة ، وكلامُهم غير محمولٍ على ظاهره . ويدعون إلى التحرُّر من قيود منْ يَعْجِز في نظرهم عن إدراك =

جَنَّــةُ الــزَّاهِــدِ نــومٌ فــي التَّبَطُّــلْ جَنَّةُ العاشِقِ في الكَوْنِ التأمُّلْ[1]
حَشْــرُ مــنْ يَــزْهــدُ شَــقٌّ لِلْقُبــوز إنَّ هــذا العِشْــقَ صُبْــحٌ للنُّشُــوز[2]
وَأســاسُ العِلْــمِ خَــوْفٌ أوْ رَجَــاء مــا لِعُشَّــاقٍ علــى هــذا اتِّكــاء[3]
يُــرهِــبُ العلــمَ مِنَ الكــونِ الجــلالْ يُغــرِقُ العِشْــقَ الــرُّواءُ والجمــالْ
مــا مضَــى لِلْعِلْــمِ أوْ مــا قَــدْ حَضَــرْ وإلــى الآتــي مــنَ العِشْــقِ النَّظــر
مــذهــبٌ لِلْعِلْــمِ كــانَ وَهــوَ جَبْــر مــا لــدَيْــهِ كلُّــه جَبْــرٌ وَصَبْــر
يــا لهــذا العِشْــقِ مِــنْ حُــرٍّ غَيُــوز ويــرى الكــونَ بِعَيْــنِ لِلْجَسُــوز
عِشْقُنــا معنــىٰ الشَّكــاةِ مــا درىٰ دمعُــه فــي نَشْــوَةٍ لمَّــا جَــرَىٰ.
كــان مجبــوراً وَحُــرّاً قَلْبُنــا لَيْسَ مِــنْ أجفــانِ حُــوْرٍ سَهْمُنــا[4]
الفــراقُ كــانَ نــاراً فــي الفُــؤادْ روحُنــا يحلُــو لهــا مــرُّ البُعــاد
وبــلا وخْــزٍ وَحَــزٍّ كَيْــفَ تحيــا قِفْ على نارٍ كَوَتْ ساقَيْكَ كيًّا !
الحيــاةُ هكــذا ، تقــديــرُ ذاتِــكْ وهو تعميرٌ لها ، سِرْ في حَيَاتِكْ
ذرةٌ لِلشَّــوقِ شمــسٌ حــاسِــدَهْ صَــدْرُهــا فيــهِ السَّمــاءُ راقِــدَهْ

إنْ يكُــنْ لِلشَّــوقِ فــي الــدُّنيــا الهُجُــومْ
يَمْنَــحُ الخُلْــدَ لفــانٍ لا يَــدُومْ

= الحقيقة ، ولا يُدْرِكها إلا القلب العامر بعشق الذّاتِ الإلهيَّة .

(١) التبطل : التعطُّل عن العمل ، والشاعر يرمز إلى ضرورة التأمُّل في الكون لأنه مظهرٌ لِلْقُدْرَة الإلهية . وشعرُ الصوفية من الفرس خصوصاً زاخرٌ بِمثل تلك الرموز التي تجد مبالغاتُها مساغاً في ذوقهم .

(٢) نشر الله الموتى نشراً ونشوراً : أحياهم .

(٣) يشير إقبال إلى منْ يعبد الله رغبةً في ثوابه ورهبةً من عقابه ، ويقول إنَّ الصُّوفي يعبدُ الله ويحبُّه لمجرَّد العبادةِ والمحبَّة .

(٤) يقول : إنَّ قلبنا كان حُرّاً مع خضوعه لقضاء الله وقدره ، ولا يريدُ أن يكون القضاء سهماً ، ولو كان من عيون الحُوْرِ العين .

زنده رود

بـــالـــرَّدىٰ والعيـــشِ تقـــديـــرٌ جـــرىٰ
ذلـــكَ التَّقـــديـــرُ مِنَّـــا مـــنْ دَرَىٰ[(١)]

الحلّاج

مَـنْ لـه التَّقْـديـرُ سَهْـمٌ سُـدِّدا   يَفْـزَعُ الشَّيْطـانُ مِنْـهُ والـرَّدىٰ[(٢)]
كـانَ جبـراً ديـنُ أصحـابِ الهِمَـمْ   والقُـوى عِنْـدَ رجـالٍ فـي القِمَـمْ[(٣)]
الحَصِيْـفُ زادَ فـي عقـلٍ بِجَبْـرِ   والغـريـرُ مِنْـه فـي أعْمـاقِ قَبْـرِ[(٤)]
خـالـدٌ بـالجَبْـرِ هـدَّ عـالمـا   أسَّنـا جبـرٌ لنـا قـدْ هـدَّمـا[(٥)]
الـرِّضـا مـنْ شـأنِ ذيَّـاك البَطَـلْ   وهـوَ ثـوبٌ فيـهِ فَسْـلٌ مـا رَفَـلْ[(٦)]

ولمـــولانـــا عَـــرَفْـــتَ مـــا المَقَـــامْ
فليشنِّـــــفْ أذْنَيْـــــكَ ذا الكَـــــلامْ

المجـوسـيُّ زمـانَ بـايـزيـدْ   مهتـدٍ قـال لـه جِـدٌّ سعيـدْ
يـا أُخـيَّ كُـنْ كمثلـي مُـؤمِنـا   لِتَكُـوْنَ للنَّجـاةِ ضـامِنـا
إنَّمـا الإيمـانُ هـذا يـا مُـريـدْ   وهْـوَ إيمـانٌ يـراهُ بـايـزيـدْ

فـــأنـــا عَـــنْ حَمْـــلِ ذاكَ أضْعُـــفُ
وبـــروحـــي وهـــي تُعيـــي يَعْنُـــفُ

---

(١) التقدير : قضاء الله .
(٢) يريد بالسَّهم السِّلاحَ الذي يتسلَّح به ، وهو القَدَرُ الذي يفزع الشيطانَ والموت .
(٣) المرادُ برجال في القِمَمِ رجالٌ في أوج العظمة وعلوّ القدر .
(٤) الحصيف : العاقل . والغرير : من لا تجربة له .
(٥) الأس : الأساس .
(٦) الفسل : الضعيف الذي لا مروءة له . ورفل : جرَّ ذيله وتبختر .

غَيْـرُ خـوفٍ ورجـاءٍ مـا لـدينـا   وجميعـاً سلَّمـوا ؟ لا مـا رأينـا
أنْـتَ قُلْـتَ : كـلُّ شـيءٍ بـالقَـدَرْ   وَهْـوَ قَيْـدٌ ، يـا تُـرى أيـنَ المفـر
قـد أسـأت الفهـم يـا هـذا كثيـرا   مـا رأيـتَ الـذَّاتَ واللهَ القَـديـرا[1]
بـالـدُّعـاء المـرءُ كـان مـؤمنـا   « لـكَ نَحْـنُ يـا إلهـي كُـنْ لنـا »
وقضـاءُ الله كـان عَـزْمَـهُ
سَهْمُـه فـي الحـرب كـان سَهْمَـهُ[2]

***

زنده رود

فتنـةً هـا قَـدْ أثـارَ الغـافلـون   هو ذا المصلوبُ يبدو لِلْعُيون[3]
الـوجـودُ وَهْـوَ سـرٌّ قـدْ عـرفتـا   أيَّ ذنبٍ قُلْ لنا كُنْتَ اجْتَرَحْتَا[4]

الحلَّاج

إنَّ فـي صـدري لَصُـوراً للنُّشـوزْ   هـوذا شَعْـبٌ مضـى نحـو القُبُـور[5]
مـؤمنـونَ يُشْبهُـون الكـافـرينـا   مُسْلِمُـون وَلِـذاتٍ مُنْكِـرُونـا
قـولهـم : الـرُّوح شـيءٌ بـاطـلُ   قُيِّـدَتْ بـالطِّيـن وَهْـوَ زائـلُ

---

(١) رأيت هنا بمعنى رأيت بالقلب لا بالعين .
(٢) أي أنَّ عزمه كان قدراً ، وسهمُه سهمُ الله .
(٣) يشيرُ إقبال مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ إلى صَلْبِ الحلَّاج .
(٤) اجترح الذنب : ارتكبه .
(٥) الصور : القرن ينفخ فيه يوم القيامة فيجعل الله ذلك سبباً لعود الصُّور والأرواح إلى أجسامها .

الحيـاةُ أشْعِلَـتْ مِـنْ نـارِ ذاتـي ... ميِّتـاً بصَّـرتُ أسـرارَ الحيـاةِ[1]
عـالَـمٌ مِـنْ ذاتِهِـمْ مـا يصنعونـا ... رقـةً بـالعُنْـفِ كـانـوا يَمْـزِجُـونـا
أيْـنَ تبـدو الـذَّاتُ أو أيْـنَ اخْتَفَـتْ ... العيـونُ قـطُّ هـذا مـا رَأَتْ
يَسْتُـرُ النِّيـرانَ ستـراً نـورُهـا ... بـالتَّجَلِّـي الكـونَ يُبـدي طَـوْرَهـا
قَلْبُنـا بـالـذَّات كَـمْ كـانَ الحفِيَّـا ... مـا ونـى عَـنْ ذِكْـرِهـا ذكـراً خَفِيَّـا[2]
مِـنْ لظـاهـا كـلُّ معـدومِ النَّصيـبْ ... ماتَ عَنْ نَفْسٍ له مثلَ الغَريبْ[3]
نـارُ فُـرْسٍ نـارُ هِنْـدٍ هـلْ عـرفتـا ... أنـتَ وصَّـافـاً لهـا مـا إنْ رأيتـا
نـارُهـا والنُّـور إنـي قَـدْ وَصَفْـتْ ... يا أنيسَ القَلْبِ هذا ما اجْتَرحتْ

مـا فَعَلْـتَ قَـدْ فَعَلْـتَ فـاحْـذَرِ
ودعـوتَ ميِّتـاً للمَحْشَـرِ

* * *

الطَّاهرة

مِـنْ ذُنـوبٍ وخطـايـا لِلْغُـلاة ... قَدْ بَدا ما لم يَكُنْ ، منْ كائناتْ
إنَّ فَـرْطَ الشَّـوْقِ ستـراً مـزَّقـا ... وعَـنِ العَيْـنِ القَـدِيْـمَ فـرَّقـا
نـالَ مـنْ عُـوْدٍ ومـنْ حَبْـلٍ نَصِيْبَـه ... لـمْ يَعُـدْ حيًّـا وَقَـدْ وافـىٰ حَبيبَـه[4]
بـالتَّجلِّـي بَيْننـا هـا قَـدْ ظَهَـرْ ... لا تَظُـنَّ أنَّـه الـدُّنيـا هَجَـرْ

عَضْـرُه كـانَ ضميـراً وَهْـوَ فيـهْ
عـزلـةٌ مهمـا تكُـنْ لا تَحْتَـويـهْ

---

(١) بَصَّرَهُ الأمرَ : عرَّفه إياه .
(٢) الحفيّ : البرُّ اللطيف .
(٣) اللظى : النار ، أو لهبها .
(٤) وافى : أتى .

زنده رود

أَنْتَ يا منْ جَهْدَ بحثٍ قد أَلِفْتَهْ اشْـرَحَـنَّ لـيَ بيتـاً أنْـتَ قُلْتَـهْ

« مِـــنْ رمـــادٍ قبضـــةٌ قُمْـــريـــةٌ ، قَفَـــصُ اللَّـــونِ الهـــزارُ

يـــا شكـــاة فلتجيبـــي : أيـــن رمـــزٌ لفـــؤادٍ فيـــه نـــارُ »[١]

غالب

يشتكي النِّيرانَ في القلب الدَّنِفْ وشكـاةٌ عـنْ شكـاةٍ تَخْتلِـفْ[٢]

أحـرق القُمـريَّ منهـا فـي اللهيـبْ وبدا البلبلُ في الثَّوْبِ القشيبْ[٣]

وتضـمُّ المـوتَ فـي حِضْـنِ الحيـاة فحيـاةٌ ، أوْ لهـا شـأنُ الممـاتْ[٤]

يـا للـونٍ كـانَ منـه سِفْـرُ مـانـي أوْ زوالُ اللَّونِ مسلوبَ المعاني[٥]

أفتـدري مـا للـونٍ مـنْ مَقَـام ؟ ونصيـبُ القَلْـبِ مِقْـدارُ الهِيَـام[٦]

أنـتَ بـاللَّـون تعـالَ ، أوْ فسِـرْ[٧]

كـي تـرى آثـارَ قلـبٍ يَسْتَعِـرْ

---

(١) يقول المستشرق الإيطالي باوزاني : إنَّ هذا البيت ترجمةٌ لإقبال عن بيت بالأوردية لغالبٍ يكتنف الغموضُ معناه ، وهو « إذا كانت مظاهر الطبيعة كلها غير جديرةٍ بأن تكون رمزاً للقلب العاشق ، فأي شيء يمكن أن يعد له رمزاً حقيقياً » وفي رواية أخرى لهذا البيت : « قفص الصدأ » في موضع « قفص للألوان » .

(٢) الدَّنِف : من لازمه المرض .

(٣) القشيب : الجديد .

(٤) أي أنَّ الشكاة إمَّا حياةٌ أو موت .

(٥) السِّفْرُ : الكتاب . وماني من أنبياء الفرس قبل الإسلام ، وكان عظيم المهارة في الرَّسم. وارثرنگ عنوان كتاب يحوي تصاويره التي خدع بها أتباعه ويعدُّها من معجزاته .

(٦) يقول : على قدر ما يجدُ القلب من لوعة الأسى والهيام يكون ما قدر الله له .

(٧) أي أقدِمْ باللون أو امضِ بدونه .

زنده رود

أَلـــفُ دنيـــا فـــي الفَضَـــاءِ الأَزْرَقِ
وبهـــا كـــلُّ نبـــيٍّ متَّقـــي

غالب

أنظُـرَنَّ فـي الـوجـودِ والعَـدَمْ كمْ دُنىً تأتي لنا مُنْذُ القِدَمْ[1]
نحـنُ دنيا فـي الـوجـودِ إنْ رأينـا رحمـةً للعـالميـن قَـدْ رأينـا

زنده رود

وضِّـحِ القَـوْلَ فـإنِّـي مـا فَهِمْـت

غالب

أنـا إنْ زِدْتُـكِ تـوضيحـاً غَلِطْـت

زنده رود

لا يفيـدُ قـولُ أصحـابِ الجَنَـان[2]

غالب

مشكـلٌ قـولٌ دقيـقٌ فـي اللِّسـان[3]

---

(١) الدُّنى : جمع دنيا .
(٢) الجنان : القلب .
(٣) أي : يصعب على الإنسان أن يعبر عن قول دقيق عميق .

زنده رود

اشْتَعَلْـــتَ أنــتَ مــنْ نَــار الطَّلَــبْ
لفظـــةٌ مـــا قُلْتُهـــا يـــا لِلْعَجَـــبْ

غالب

إن خلقـــــاً وقضـــــاءً ابتـــــداءْ[1]
رحمـــــةٌ للعـــــالميـــــنَ انْتِهـــــاءْ

زنده رود

المعـــانــي عـــاجِـــزٌ عَـــنْ فَهْمِهَـــا
لـــكَ نـــارٌ ؟ قُـــمْ وأحْـــرِقْنـــا بِهَـــا

غالب

أنْتَ يا منْ تُبْصِرُ الأشْعَارَ مِثْلي   وعليهـــا لِلْكـــلامِ أيُّ فَضْـــل
أمـــراءُ الشِّعـــرِ زانـــوا جَمْعَهُـــمْ   واليَـــدُ البَيْضـــاءُ لَيْســـتْ عِنْـــدَهُـــمْ
لَيْـــسَ مـــا تبغيـــهِ منِّـــي غَيْـــرَ كُفـــر   إنَّـــــه كُفْـــــرٌ وراءَ كـــــلِّ شِعْـــــر

الحلاَّج

وإذا أبْصَـــرَتْ دُنيـــا للشِّيَـــات   فالمُنَىٰ في أرْضِها مِثْلُ النَّبات[2]

---

(١) يلمح الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٢ـ٣] .
(٢) الشِّيَات : الألوان .

إنَّ نُــورَ المُصْطَفـى فيــه البَهَــاءْ أوْ رســولَ الله ، هــذا مــا تَشَــاءْ

زنده رود

النبــيُّ المُصْطَفــى مــا أمْــرُهُ جـوهـرٌ ، أفْصَح أجِبْ مـا سِرُّهُ
فــي الـوُجـودِ آدمـي أوْ جَـوْهَـرُ ؟ تــارةً يَخْفَــىٰ وأُخْــرَىٰ يَظْهــرُ

الحلاَّج

عفَّــرَ العَــالــمُ خَـدّاً عِنْـدَه نَفْســه سمَّــىٰ النَّبــيُّ « عَبْـدَه »
« عبــده » فهمــاً لَــدَيْــكَ تَبْهَــرُ إنَّــهُ الإنســانُ وَهْــوَ الجَـوْهَــرُ[1]
لَيْـسَ مـنْ عُـرْبٍ وَلَيْـسَ الأعجمـا آدمٌ بــلْ كــان منْــه الأقْــدَمـا[2]
« عبـده » قـد شَكَّلَـتْ هـذا القَـدَرْ بالفَيَافي الخصْبُ مِنْها قدْ ظَهَرْ[3]
أخْيَـــتِ الأرْوَاحَ وهـــي تَقْتُــلُ والــزُّجـاجُ ، وهــي صَخْــرٌ يَثْقُــلُ
غيــرُ « عبـدٍ » « عبـدُه » فَلْتَعْتَبِـرْ ولهــا طــالَ انتظــارُ المُنْتَظِــرْ[4]
عبـدُه الـدَّهْـرَ وكـانَ الـدَّهْـرُ منهـا كلُّنــا لــونٌ وينــأىٰ اللــونُ عنهــا
ولهــا البَــدْءُ ومــنْ غَيْــرِ انتهــاء مــا لــديهـا مثْـلُ صُبْـحٍ أوْ مَسَـاء
مــا درى الإنســانُ قــطُّ ســرَّهــا ســرُّ « إلا الله » كــانَ ذِكْــرَهــا
لا إلــه السَّيْــفُ وهـــي حـــدُّه وَلْتُصَــرِّحْ وَلْتَقُــلْ « هــو عَبْــدُه »
« عبــدُه » كُنــهُ جميــع الكــائنـات « عبــدُه » فيهــا معــانٍ مغلقــات

---

(١) بهر : غلب .
(٢) في الأصل الأعجم وهو الذي في لسانه لُكْنَةٌ وعَدَمُ فصاحةٍ . والمراد الأعجمي أي غير العربي .
(٣) الفيافي : جمع فيفاء ، وهي الأرض لا ماء فيها .
(٤) اعتبر : نظر في الشيء واختبره .

ولهــذا الشِّعْــرِ معنــىً مــا فَهِمــت قبلَ فَهْمِ قَوْلِ ربِّي ﴿ ما رمَيْتَ ﴾[1]

دَغْــك مــن هــذا الكــلام زِنــده رود

امــضِ وَلْيُغْــرِقْــكَ ذيّــاكَ الــوُجــود

زنده رود

إنَّ هــذا العِشْــقَ شــيءٌ مــا عَــرَفْتُــهْ

أهُــوَ للــرؤيــةِ ذوقٌ مــا عَهِــدْتُــهْ ؟

الحلَّاج

هــذهِ الــرُّؤيــةُ معنــاهــا النَّبــيّ يَحْكُمُ النَّفْسَ ، بِذَا وهُوَ الرَّضيّ

أنت في دنياكَ عِشْ مِثْلَ الرَّسول ومــنَ الخَلْــقِ ستحظــىٰ بــالقَبُــول

ذاتَــك انْظُــرْ إنَّ هــذا رُؤيتــه ســرُّه الســرُّ العظيــمُ سنَّتــه

زنده رود

رؤيــــةٌ للهِ أفــــلاكــــاً نَثَــــرْ ؟

وأدارَ الشَّمــــس فيهــــا والقَمَــــرْ[2]

---

(١) يريد قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ أي لم تقتلوهم ببدر بقوتكم ولكن الله قتلهم بنصره إيَّاكم . . . وما رميت يا محمد عين القوم إذ رميت بالحصا ، فإنَّ كفاً من الحصا لا يمكن أن تملأ عيون الجيش العظيم إنْ كان الرَّامي من البشر ، ولكنَّ الله رمى ، ليقهر الكافرين .

(٢) أي اللهُ الذي نثر الأفلاك في السماء .

الحلاَّج

صــورةُ الحــقِّ بــروحِ اطْــرَحَــن ثــمَّ فــي الــدُّنيـا إليـه انظُــرَن[1]
وإذا كَــانــتْ بــروحٍ صُــوْرَتُــه فلكــلِّ العــالَمِيــنَ رؤيتــه
إنْ جَرَتْ « هُو » يا حظيظُ مِنْ لِسَانِكْ طافَتِ الأفلاكُ طوفاً حولَ دَارِكْ[2]
ويــلُ درويــشٍ بفيــه قــدْ جَــرَتْ ثــمَّ ضــمَّ شفتيــه أوْ صَمــت
إنَّــه لــم يُجــرِ حُكْــمَ ربِّــه ما الشعيرُ ؟ حَيْدرٌ في حَرْبه ؟[3]
طلــبُ الــزُّهــد تحــاشــى خيبــرا راهباً أضحى ، مليكٌ يا ترى ؟![4]
صورةُ الحقِّ ، هي الدُّنيا لديكا والقَضـاءُ كـالـزِّمـام فـي يـديكـا

القتــالُ بُغْيَــةُ العَصْــرِ المَــرِيْــد
ألقهــا فــي لــوحِ كفّــارٍ عَنِيــدْ

زنده رود

كــان فــي الــدُّنيـا لَــدَيْنـا رَمْيُهـا
لســتُ أدري كيــف كــان رَمْيُهــا !

---

(١) الحق : هو الله تعالى .

(٢) الحظيظ : السعيد الحظ .

(٣) أكلُ خبز الشعير رمزٌ إلى شدة التقشف والقناعة من الدُّنيا بأقلّ قليلها . وحيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المشتهر بالنجدة وشدة البأس في القتال . والشاعر يتهكم بالمسرف في الزهد ، ويفضل عليه المحارب المناضل .

(٤) يشير إلى ما يروى من عجائب الأخبار عن قوة عليٍّ وشجاعته في غزوة خيبر، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك . ويتهكم ثانيةً بالزاهد الذي يتوهم نفسه بالزهد أعظم من ملوكِ الأرض .

الحلاَّج

بِحُنَيْنٍ كان لِلْوَجْدِ الرَّهيف أمْ بقَسْرٍ كانَ لِلْقَهْرِ العَنيف[1]
إنَّ في الرِّقَّةِ ربي أظْهَرُ هي مِنْ عُنْفٍ شديدٍ أجْدَرُ

زنده رود

أنتَ يا مَنْ تَعْرِفُ الأسرارَ شَرْقا
بَيْنَ زُهْدٍ هل ترى والعِشْقَ فَرْقا ؟

الحلاَّج

إنَّما الزَّاهِدُ في الدُّنيا الغَريبْ
ذلكَ العاشِقُ في العُقبىٰ الغَريبْ

زنده رود

إنْ عَرَفْتَ فانتهاءٌ بالفناءْ مَنْ سعيدٌ في الفَناءِ بالبَقاء ؟

الحلاَّج

تُسْكِرُ الكأسُ خَلَتْ بَعْدَ امتلاء وَعَنِ العِلْمِ اغترابٌ كالفَنَاء
في الفَنَاءِ لكَ شوقٌ واحْتَدَمْ ذلكَ الموجودَ لا يلقى العَدَم[2]

زنده رود

من على آدم أغلَىٰ قَدْرَهْ لمْ يَجِدْ في قاعِ دنٍّ خَمْرَهْ[3]

---

(١) الرَّهيف : الرَّقيق .

(٢) احتدم: اشتد. يقول: أنت في الفناء تطلب شيئاً . والعَدمُ لا يصادف الشيء الموجود .

(٣) الدَّنُّ : جرَّةُ الخمر . ويعلى قدره على قدر آدم : يدَّعى أنَّه خير من آدم ، وهذا ما ادعاه=

يعــرفُ الأفــلاكَ حقَّــاً طينُنــا أيــنَ نــارٌ للمَــريــد هــاهنــا[1]

الحلَّاج

أوجـزِ الأقـوالَ عَـنْ شَيـخِ الفِـرَاقْ ذي الهُيَامِ والنَّجيع في الدِّهاقْ[2]
وجهلُنــا ، كــلَّ شــيءٍ قــدْ دَرَىٰ وبِكُفْــرٍ كــلَّ ســرٍّ أظْهَــرا
السُّقــوطُ بَعْــدَهُ طــابَ الصُّعــودْ بَعْـدَ نقـصٍ قـرَّ عينـاً مـنْ يَـزيـدْ
إن عَشِقْـتَ فـي لهيـبٍ فـاخْتَـرِقْ كـانَ منْـهُ ، أو فَلَسْـتَ المُحْتـرِقْ !
إنَّـــهُ فـــي العِشْـــقِ منَّـــا أقـــدم ســــرَّهُ مــــا لَيْــــسَ يــــدري آدَمُ
إنَّ للتقليــدِ ثــوبــاً ، مَــزِّقَنَّــهْ
وَخُــذِ التَّــوحيــدَ عنــه وافْهَمَنَّــهْ

الحلَّاج

المقــامُ لَيْــسَ فــي طــوْقٍ لنــا ونَطيــرُ ، كــانَ ذا ذَوْقــاً لنــا[3]
نحــنُ دوْمــاً مــنْ رَأَيْنــا أو خَفَقْنــا مــا لَـدَيْنــا مـنْ جنــاحٍ ، حَسْبُنــا[4]

***

ظهورُ رأسِ أهلِ الفراقِ إبليس

وحــديــثُ الحكمــاءِ بُــرهتــان الــوجــودَ والفَنــاءَ تَصْنَعــان

= إبليس أو الشيطان .

(١) المراد بالطِّين هنا هو الإنسان . والمَريد : الخبيث .

(٢) الهُيام : الظمأ . والنَّجيع : الدم . والدِّهاق من الكؤوس : الممتلئة .

(٣) الطَّوْق : الطَّاقة والقُدْرة .

(٤) دوماً : دائماً . وحسبنا : كافينا .

أضــرَمَ العِشــقَ علينــا وانْصَــرَف وَهَـبَ الـرؤيـةَ عقـلاً ، مـا وَقَـفْ
أغمــضِ العينيــن حتَّــى أمْلكَــه فـي فـؤادي طـابَ لـي أن أسْلُكَـهْ
وظــلامٍ كُــفَّ منــهُ النَّــاظــران فـي المكـانِ وإلـى غيـرِ المكـان[1]
شعلــةٌ لاحــتْ بليــلٍ قــدْ وَقَــبْ وإذا مــنْ جَـوْفهـا شيـخٌ وَثَـبْ[2]
وهــو شيــخٌ يـرتـدي سـودَ الثِّيـابْ والــدُّخــان لَفَّــهُ مِثْــلَ السَّحــابْ

قــال مــولانــا أرى شَيْــخَ الفِــراق
يتلظَّــى والنَّحيــعُ فــي الــدِّهــاق[3]

طالَ منهُ الصَّمْتُ في طولِ الوُجُومْ ويرى الأرواحَ وهي في الجُسُومْ[4]
مــاجــنٌ شيــخٌ حكيــمٌ زاهِــدُ يُشْبِـه الـزُّهـادَ وهـو الجَـاهِـدُ[5]
مــا درىٰ طَبْـعٌ لـه ذَوْق الـوِصَـالْ زُهْـدُهُ تـركُ الخلـودِ فـي الجَمَالْ[6]
وهـوَ عـنْ هـذا الجمـالِ مـا انْقَطَـعْ وامتنــاعٍ عــن سجـودٍ مـا صَنَـعْ
قِـفْ تـأمَّـلْ بُـزهـةً مـا قَـدْ عـراه ثـابتـاً فـي المُشْكـلاتِ كـي تـراه[7]

وبــه الهيجــاءُ مــا زالــتْ تَــدُوز
كــم نبــيٍّ قــد رأى وهْــوَ الكَفُــوز

مِنْ لظاهُ الرُّوحُ في جسمي ارْتَعَدْ وزفيـرُ الحُـزْنِ مـنْ فِيْـهِ اصَّعَـدْ[8]
فَتَــحَ الْعَيْــنَ وقــالَ واعْتَــدَلْ مثلُنـا مـنْ كـانَ ميمـونَ العَمَـلْ

---

(١) كُفَّ بصرُه : ذهب . النَّاظران : العينان .
(٢) وقب الظلام : دخل على الناس .
(٣) يتلظَّى : يتلهب . النَّجيع : الدم . والدِّهاق من الكؤوس : الممتلئة .
(٤) الوجوم : الحزنُ مع الصَّمت .
(٥) الماجن : الذي لا يبالي ما صنع . والجاهد : المجد .
(٦) الذَّوق : الإدراك . وفي الأصل أنَّ زهده قطع النظر عن الجمال الخالد .
(٧) عراه : اعتراه ، وغشيه .
(٨) اللظى : النار . اصَّعد : صَعِدَ .

انهَمَكْتُ فـي شُـؤونـي واجْتَهَـدْت لِلصَّــلاة قلَّمــا وَقْتــاً وَجَــدْت[١]

مــا لَـدَيَّ مـنْ مَـدَدْتُ مِنْـهُ قُـوَّهْ إنَّ وَحيــي لا يَمُــنُّ بــالنُّبُــوَّة[٢]

لَيْسَ عِنْدي منْ حَدِيْثٍ أوْ كِتَابْ والفَقِيْه منْ دَحَرْتُ في الغِلابْ[٣]

كــالفَقيـهِ غَـزْلَ ديـن مـنْ غَـزَلْ جَعَــلَ الكَعْبَــةَ آثــارَ الطَّلَــلْ[٤]

مــا عَـرَفْنـا مِثْـلَ هـذا المَطْلَـبِ مــا لإبليـسَ انشقــاقُ المَـذْهَـبِ

يــا جهـولُ ، إنَّنـي مـا إنْ سَجَـدْت أرغُنـي هـذا عليـه قَـدْ عَـزَفْـت[٥]

لــوجــودِ اللهِ لســتُ مُنْكِــرا أبْصِـرِ البـاطـنَ واتـركْ ظَـاهِـرا

أجَهِلــتُ كــي أقــولَ مــا وُجِـد كيـفَ هـذا ، إنَّ ربِّـي قـدْ شُهِـد[٦]

و« نَعَمْ » في سِتْرِ « لا » ما قَدْ نَطَقْت مـا سكـتُّ ، فـأنـا خيـراً صَنَعْـت

آدمُ مِــنْ هَمِّــهِ نِلْــتُ النَّصِيبــا ولــذاكَ عَنْــهُ هــدَّأتُ الحَبيبــا[٧]

مِـنْ مـروجـي نَبَتَـتْ نـارٌ ونـارْ بَعْـدَ جبْـرٍ قَـدْ هَـدَاهُ الاختيـارْ

إنَّني أظهـرتُ قُبْحي ، قُمْ بشأنِكْ ثُـمَّ قلـتُ : أنْـتَ فلتختَـرْ لِنَفْسِـكْ

تلـكَ نـاري صَـدَّ عنِّـي حـرَّهـا عُقْـدتـي حُـلَّ وَدَبِّـرْ أمْـرَهـا

أنـت يـا إنسـانُ فـي أسـري وَقَعْـت أنْـتَ عصيـانـاً لِشَيْطـانٍ أبَحْـت

وهُمـامـاً كُـنْ ولا تَخْشَ الخُطـوبـا وَلْتَعِشْ يـا مُسعدي عنِّي غـريبـا[٨]

دَعْكَ منْ حُلوي ومُرِّي وانسَ ما بي لا تـزدنـي مـنْ سـوادٍ فـي كتـابـي

---

(١) في الأصل أنه ما وجدَ وقتاً لصلاة الجمعة .

(٢) مددت منه قوة : أخذتها منه . والمن : التعيير بالصنيعة .

(٣) دَحَرَ : طرد ، وهزم . الغلاب : من غالب .

(٤) يجري إقبال على مألوف الصُّوفية في تهكمهم الرمزي بالزهاد والفقهاء .

(٥) الأرغن : آلةٌ يعزف عليها .

(٦) شهد : رُئي .

(٧) الحبيبُ : هو اللهُ جلَّ وعلا .

(٨) الهمام : العظيم الهمَّة . المُسْعدُ : المواسي والمعين .

يَـرْصُـدُ الصَّيَّـادُ مـا يَـرْميـهِ حَتْمـا إنْ بدوتَ في مَصَادي نِلْتَ سَهْما[1] !

مـا هـوىٰ مـنْ طـارَ فـي أوجِ السَّمـاء

يَغْلِـبُ الصَّيـادَ صيـدٌ بـالـذَّكـاء[2] !

قلـتُ : « فـاطْـرَحْ لِلْفَـراقِ مَـذْهَبَـا في الطلاق ليس لي أنْ أرغبا »[3]

« الفــراقُ للحيــاةِ مِثْــلَ شَطْــر نشـوةٌ فـي يَـوْمِـهِ لَيْسَـتْ لِخَمْـر

الـوِصَـالُ بلسـانـي مـا ذَكَـرْت فهو في الوَصْلِ امَّحى بي وامَّحَيْت»[4] !

لفظُـه عَـنْ نَفْسِـه كـانَ الغـريبـا ثُـمَّ زادَ القَلْـبُ بـالحُـزْنِ اللَّهيبَـا

وتَلَـوَّى فـي الـدُّخـان واخْتَلَـجْ ثـمَّ ضلَّ وهـو منـه فـي الْحَـرَجْ[5]

الشَّكـاةُ للـدُّخـانِ فـي انْسِكـابْ

تَسْعَـدُ الـرُّوحُ بـآلامِ العَـذَابْ

***

شكوى إبليس

ربَّ مَـنْ أخْطَـا وربَّ مَـنْ أصَـابَـا صحبةُ الإنسانِ لي كَانَتْ مُصابا[6]

ذلكَ الإنسـانُ حكمـي لـمْ يُخَـالِـفْ أغْمَـضَ العَيْـنَ وذاتـاً لـم يُصـادِفْ

طينُـه لـمْ يَـدْرِ ذَوْقـاً لـلإبـاء لا ولا معنـىً لنـارِ الكِبْـريـاء

---

(١) المصَاد : موضعُ الصيد .

(٢) الصَّيْد : ما يصاد .

(٣) التلميحُ هنا بحديث للنبيِّ ﷺ ، وهو قوله : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » . وأورد الشاعر هذا الحديث بتمامه في الشطر الثاني من البيت .

(٤) يريد فناء الصُّوفي في الذَّات الإلهية .

(٥) الحرج : مكان ضيق كثيرُ الشجر .

(٦) المصاب : النازلة الشديدة .

ويقـولُ الصَّيْـدُ للصَّيـادِ خُـذْنـي   وخضوعُ العَبْدِ أمرٌ لم يَرُقْني[1]
وَمِنَ الصَّيْد ، إلهي ، خلِّصَنّي   بخضوعي لكَ بالأمسِ اذْكُرَنّي
مِنْهُ ذُلّي ورماني مِنْ علائي   ويحَ نفسي واشقائي وابلائي !
وَضَعيفُ العَزْمِ فَجٌّ الفِطْرَةِ   ويَخِرُّ إنْ ضَرَبْتُ ضَرْبَتي[2]
وجديرٌ بي حصيفٌ ذو نَظَرْ   منْ يُجيلُ الرأيَ في كلِّ الفِكَرْ[3]
دُمْيَةَ الطِّينِ استردَّ منْ يَدَيّا   لَيْسَ كالأطفالِ منْ يَعْتُو عِتِيّا[4]
ما هو الإنسانُ ؟ ضِغْثٌ من غُثاء   حَسْبُهُ مِنّي الشَّرارُ لِلفَناء[5]
للغُثاءِ وَحْدهُ كانَ الوُجودْ   كلُّ تلكَ النَّار عندي هَلْ تُفِيْد ؟
أيُّ شيءٍ للزُّجاج كانَ صهر   أعظَمُ الأعمالِ حقّاً صَهْرُ صَخْر
مِنْ فتوحي ها أنا ذا قَدْ سَئِمْتُ   وإليكَ لِتَجازيني قَدِمْتُ
مُنْكِرَ الذَّات أريدُ منْكَ فامنحْ   رَجُلَ اللهِ الطَّريقَ نَحْوَهُ افْتَحْ
وأريدُ طُليتي منْ يَعْصِرُ   وارتياعي مِنْهُ حينَ يَنْظُرُ[6]
من يقول : « أُخْرُجَنَّ مِنْ حُضُوري »   لا أساوي عِنْدَهُ حَبَّ الشَّعِيْرِ

يا إلهي فَلْتَهَبْ حُرّاً أبيّا
في انهزامي متعةً كانَتْ لَدَيّا

* * *

---

(١) لم يرقني : لم يعجبني .
(٢) الفج : ما لم ينضج من الثمار . وخر : سقط .
(٣) الحصيف : العاقل الحكيم .
(٤) عتا الشيخ : طعن في السن .
(٥) الضغث : قبضة حشيش مختلطة اليابس بالرطب .
(٦) الطلية : العنق .




القسم السادس

فَلَكُ زُحَل






الأرواحُ الخبيثةُ الَّتي غَدَرَتْ بالوَطن ولم تقبلْها جهنَّم

كـانَ لـلأحـرارِ مـولانـا الإمـامـا ... كـلَّ حُـرٍّ بـوَّأ الشَّيْـخَ المَقَـامـا[1]

السمـاء قـالَ يـا مَـنْ قَـدْ طَـوَيـتْ ... أعلـى العـالَـمِ زُنَّـاراً رأيـتْ ؟[2]

وكمـا شـاهَـدْتَـه أنْـتَ انْتَطـقْ ... بـذيـولٍ لنجـومٍ قـدْ سَـرَقْ ![3]

وبطـيءٌ كـالسُّكـونِ عِنْـدَ سيْـر ... خيـرُه مـا كـان إلا كـلَّ شَـر

جسمَـــه مـــاءً وطينـــاً شَكَّـــلا ... خطوُه في الأرضِ صَعْبٌ أُشْكِلا[4]

تَصْعَـقُ النَّـار بـأيـدٍ لِلْمَـلائـكْ ... قَسَمَتْ سُخْطاً لربي مِنْ هُنالِكْ[5]

دِرَّةٌ قـد أوْجَعـتْ تِلْـكَ النُّجـومـا ... مَنَعَتْهـا فـي المَـدَارِ أنْ تَحُـومـا[6]

عـــالَـــمٌ منـــه النُّفُـــورُ لِلْفَلَـــكْ ... وهو مِنْ بُخْلِ الشُّمُوْسِ في الحَلَكْ[7]

مـــا لأرواحٍ بـــه يَـــوْمَ النُّشُـــور ... لَـمْ تُعَـذِّبْهـا الجحيـمُ بـالسَّعيـر[8]

إنَّ شَيْطَـــانَيْـــنِ فيـــهِ يَسْكُنَـــانْ ... أزْهَـقَ الـرُّوْحَ لقـومٍ قـاتـلانْ

ذاكَ فـي البنغـال هـذا فـي الـدَّكَـنْ ... وهمـا للـدِّيـن عـارٌ والـوَطَـنْ[9]

---

(١) مولانا هو الصوفي الفارسي جلال الدين الرُّومي .

(٢) الزُّنار : ما يشدُّ به النصارى وسطهم والإيماء إلى زحل .

(٣) انتطق : شدَّ وسطه بالمنطقة .

(٤) أشكل الأمر : التبس .

(٥) الملائك : الملائكة ، والنَّار هنا : الصاعقة .

(٦) الدِّرَّة : السوط .

(٧) الحلك : الظلام .

(٨) يوم النشور يوم القيامة الذي تعود فيه الحياة إلى الموتى . والسَّعير : النار .

(٩) مير جعفر : هندي قبل أن يكون حاكماً للبنغال تحت نفوذ الإنجليز ؛ الذين توطدت=

أبْغَضَا في اليأس من نيلِ المُراد   الفسادَ قَدْ أشاعا في البِلادْ
أمَّـةٌ كلَّ الصِّلاتِ قَطَّعتْ   مُلْكَها والدِّينَ حتماً ضَيَّعَتْ[1]
وبلادُ الهند هلْ أُنسيتها ؟   ولها في كلِّ قلبٍ ما لها[2]
فَتَجَلِّيها أنارَ العالما   ما تزالُ أرضُها تجري دَمَا
في ثراها مَنْ رَمىٰ بِذْرَ العبيد ؟   ذاكَ فِعْلٌ كانَ منْ رُوْحِ مَرِيْد

برهةً قِفْ أنتَ في هذا الفضاء
ما ينالُ المرءُ شاهدْ منِ جزاء

***

بَحْرُ الدِّماء

ما رأيتُ ، وَصْفُهُ يُعْيي اللسِن   يُرعبُ الرُّوحَ ويُنْسيها البَدَنْ[3]
إنَّه بحرُ الدِّماء قَدْ جَرَىٰ   فَوْقَهُ ريحٌ وأخرى أضْمَرا
يُشْبِهُ الحيتانَ تِنِّينٌ يَطِيرْ   بجناحيْ زئبقٍ والكفُّ قِيرْ[4]
موجُهُ اللَّيْثُ الهصورُ ذو المَنَاصِلْ   ماتَ رُعْباً منه تِمْسَاحٌ بِسَاحِلْ[5]

= أقدامُهم ، واستقامتْ أمورُهم ، وسيطروا على الهند بعد أن هزموا سراج الدولة حاكم البنغال عام ١٧٥٧ . وصادق الدَّكني خائن خان السلطان تيبو الحاكم المسلم لميسور المتوفى عام ١٧٩٩ .

(١) يريد قطع الصلات بينها وبين غيرها من الأمم .

(٢) أي لها في كل قلبٍ ما لها من علوِّ المنزلة .

(٣) اللسن : الفصاحة .

(٤) التنين : العظيم من الحيات . يقول إن التنانين في الجو كالحيتان في البحر وجناحاها في لون الزئبق ومخالبها سود في لون الليل . والقير : القار ، وهو مادة سوداء تُطلى بها السفن .

(٥) الهصور : المفترس . والمناصل : جمع منصل وهو السيف . وكأن أنياب الأسد سيوف .

لَـمْ يَنَـلْ مِنْـهُ الأمـانَ الشَّـطُّ قَـطْ   فـي الـدِّمـاء تِلْـكَ أعـلامٌ تُغَـطْ[1]
هـذه الأمـواجُ دومـاً فـي نِـزَاعْ   تُهْبِـطُ الـزَّورَق مِـنْ بَعْـد ارتفـاع
فيـه يَبْـدو رَجُـلانِ شَـاحِبـانْ
أشْعَثَـانِ مـنْ ثِيَـابِ عَـاريـانْ

* * *

روحُ الهِنْدِ تَظْهَر

تِلْكَ بنتُ الحورِ في شَقِّ السَّماء   ترفع البُرْقُعَ عَنْ وَجْهِ الضِّياء
ولهـا نـارٌ ونـورٌ فـي الجَبِيـنْ   وسـرورٌ أبـديٌّ فـي العُيـون
تـرتـدي ثـوبـاً أرقَّ مـنْ غَمَـامْ   نَسَجَتْـهُ مِـنْ وُرُودٍ فـي الكِمـامْ[2]
مَـعَ هـذا الحُسْـنِ نـاءت بـالقُيـود   تَصْدَعُ الشَّكْوىٰ لها قلبُ الحَدِيدْ[3]
قـال : روحَ الهنـدِ مـولانـا اشْهَـدا
نـوحُهـا فـي القَلْـبِ نـاراً أوقـدا

* * *

روحُ الهِنْدِ تَنُوْحُ وتَنْتَحِب

أيْـنَ نـورُ الـرُّوحِ فـي مصبـاحهـا   مـنْ وَعَـىٰ مجـداً لهـا مـنْ أهْلِهـا
مَـنْ علـى سـرٍّ لهـا لـم يَطَّلِـعْ   أَلِلَّحْـنِ مِنْـهُ مُشْـجٍ نَسْتَمِـعْ
ويـرى المـاضـي بعيـنٍ جـامِـدَهْ   يَخْـرِقُ القلـبَ بنـارٍ خـامِـدَهْ
وقيـودي مِنْـهُ يُعيـي ثِقْلُهـا   وشَكـاتـي ليـس يُجْـدي قَـوْلُهـا

---

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل العالي . وتغط : تغطس في الماء .
(٢) الكِمَامُ : جمع كِمٍّ ، وهو غلافُ البُرعم .
(٣) ناء بالحمل : نَهَضَ به مُثقلاً .

ومضى شوطاً بعيداً عن « أنا » مِنْ تقاليدِ له سِجْناً بَنى

عَيْشُه آلمَ حتّى قَومَنا

طُهْره بالحُزْنِ أضنى عَصْرَنا[١]

دَعْكَ مِنْ فَقْرٍ به عُزيٌ وجب حبذا الفَقْرُ إذا مُلْكاً وَهَبْ[٢]

دَعْكَ مِنْ جبرٍ وصبرٍ ، الحَذرْ فلأهلِ الجَبْر سُمٌّ قَدْ بَدَرْ[٣]

إنَّ هذا منْ يُدِيْمُ صَبْرَهُ ذاكَ مَنْ يرضى ويهوى جَبْرَه

يألفانِ الظُّلْمَ مُرّاً في التَّحَسِّي

لَيْتَ قومي يعلمون ، ويحَ نَفْسي

ألِلَيْلِ الهندِ صبحٌ قَدْ يَلُوحْ جعفرٌ أودى وتحيَا مِنْهُ رُوحْ[٤]

إنَّ قَيْدَ الجِسْمِ عَنْهُ قَدْ خَلَعْ وَبِجِسْمٍ آخرٍ عشَّاً وَضَعْ

تارةً كانَ ألُوفاً للكنائِسْ وهو منْ في الدير أحياناً يُجانِسْ[٥]

دينُه ما كانَ غَيْرَ المتْجَرِ عنترٌ يَبْدُو كمِثْلِ حَيْدَرِ[٦]

إنَّهُ عنْ كلِّ هذا لا يَحِيدْ طالَما كانَ لِدُنيانا وُجُودْ[٧]

وقديماً لِسِوىٰ هذا سَجَدْ وطناً في عَصْرِنا ما قَدْ عَبَدْ

وعلى الدِّين لنا يَبْدُو حَزِينا وهو في الباطِنِ مِثْلُ المُلْحِدِينا

جَعْفرُ الأمَّةِ هذي مَنْ قتل مسلماً والقَتْلُ كانَ ما فَعَلْ

---

(١) يقول : إن وجوده كان ألماً للبشرية كلِّها . ومما أحزن العصر الحديث أن يحار فيما طَهُرَ وما لم يَطْهُرْ .

(٢) يقول الصوفية (الفقر فخري) والفقر عندهم خيرٌ منْ مُلْكِ الملوك .

(٣) الجَبْرُ والصَّبْرُ هنا هما القَدَرُ والاستسلام له .

(٤) أودى : هلك .

(٥) الألوف : الكثير الألفة . ويشير إلى ولائه للإنجليز . وجانسه : كان من جنسه .

(٦) المتجَر : الاتِّجار .

(٧) يحيد : يعدل وينحرف .

باسمٌ ، ما شاق يوماً خِلَّهُ يبسمُ الثُّعبانُ لَكِنْ ما لَهُ ؟[1]
الشِّقاقُ بثَّه في قَومِهِ واللئيمُ شَغْبُه منْ لُؤْمِهِ
الفساد في بلادٍ حينَ يَظْهَرُ صادقٌ أصْلٌ له أو كانَ جَعْفَرُ

جعفرٌ منْ رُوحِه رَبِّي أغِثْنا
منْ مَثِيلِ جعفرٍ ربِّي أجِرْنا

***

صيحةُ راكبٍ في زورقِ بَحْرِ الدِّماء

حائرٌ بَيْنَ الوُجودِ والعَدَمْ وَيْحَ نفسي منْ وُجودٍ كمْ ظَلَمْ
نَحْنُ منْ شرقٍ إلى غربٍ عَبَرْنا وإلى بابِ الجَحِيمِ قدْ وَصَلْنَا[2]
ما رَمَتْ هَذينِ حتَّى بالشَّرَرْ ما لنا كفُّ رمادٍ في الشَّعَرْ[3]

ثُمَّ قالتْ إنَّ ضِغْثاً أفْضَلُ
فهو أنقى ، فيه ناري تَشْعلُ

في السَّمواتِ مضينا مُصْعِدِينا ورأينا بَغْتةً تِلْكَ المَنُونا[4]
قالتِ الأرْوَاحُ : أسرارٌ لَدَيَّا حفظُ روحٍ هَدْمُ جِسْمٍ في يديَّا
إنَّ رُوحَ الشرِّ شيء يُحْقَرُ امضِ عنِّي! ما بموتٍ تَظْفَرُ[5]

---

(١) شاقَ : هيج الشوق . أي : أنه كان باسم الوجه إلا أنه لم يعجب خليلاً يصادقه وقد يبسم الثعبان ولكن عن نابين يمجّان السُّمَّ .

(٢) يقول : إنهم لكثرة ما كابدوا من المشقة في سفرتهم وشدة ما لقوا من تعب كأنَّهم في نهاية المطاف وقفوا بباب جهنم .

(٣) أي لم تنثر حفنةٌ من الرَّماد على رؤوسهم .

(٤) أصعد : مضى في أرض أعلى من الأخرى . والمنون : الموت .

(٥) يقول : إنَّ قبض الروح أمر يسير وروح الشر شيء حقير ، ومع ذلك لا يريد قبض روحه .

راحــةُ الأرواحِ لَيْسَــتْ فــي الحِمــام
لا يُــريــحُ المــوتُ روحــاً لِلِّئــام

يــا ريــاحُ ، يــا محيطــاً لِلــدِّمــاءْ　　أنتِ يا غَبْرَاءُ ، يا لونَ السَّماءْ[1]
يــا ذُكَــاءُ ثُــمَّ يــا بَــدْرُ الظُّلَــمْ　　والكتــابُ ومَــعَ اللَّــوْحِ القَلَــمْ
يــا إلهــاً أبيضــاً يــا لِــوَرْدٍ غَــرْبِ　　تَمْلُكانِ عالماً مِنْ غَيْرِ حَرْبِ ![2]

مــا لِــدُنيــانــا ابتــداءٌ وانتهــاءْ
ألِعَبْــدِ حــانَ بــالمــولــى لِقَــاء[3]

ثُــمَّ دوّى بَغْتــةً صَــوْتٌ رَهِيــبْ　　شقَّتِ الصَّـدرَ البحـارُ والسُّهـوب[4]
تِلْــكَ أوصــالُ الجســومِ فُكِّكَــتْ　　والصُّخُــورُ وهــي تهــوي فُتِّتَــتْ
والجبــال كــالسَّحــاب فــي المــرور　　هــذه الــدُّنيا انتَهَتْ مِنْ غَيْرِ صُوز
والبــروقُ أضلُهــا نــارُ الخَفَــاءْ　　عُشُّهـا تَطْلُـبُ فـي بحـرِ الـدِّمـاء
جـاشَــتِ الأمــواجُ وهــي تَسْتَبِــقْ　　في الدِّماء الطُّورُ كالسَّهلِ الغَرِقْ[5]

للنُّجــومِ مــا بــدا أو غــابَ عَنْهــا
لــمْ يُثِــرْ أدنــى اهتمــامٍ كــانَ منْهَــا

***

---

(١) الغبراء : الأرض . يا لون السَّماء : أي : أيَّتها السَّماء الزرقاء .

(٢) في الأصل أيتها الأصنام البيض ويالوردات الغرب . فذكرنا المفرد مع إرادة الجمع . ويقول : إنَّ هؤلاء يريدون أن يملكوا العالم بكلِّ يسرٍ وهينة .

(٣) المولى : السَّيِّد .

(٤) السُّهوب : السهول .

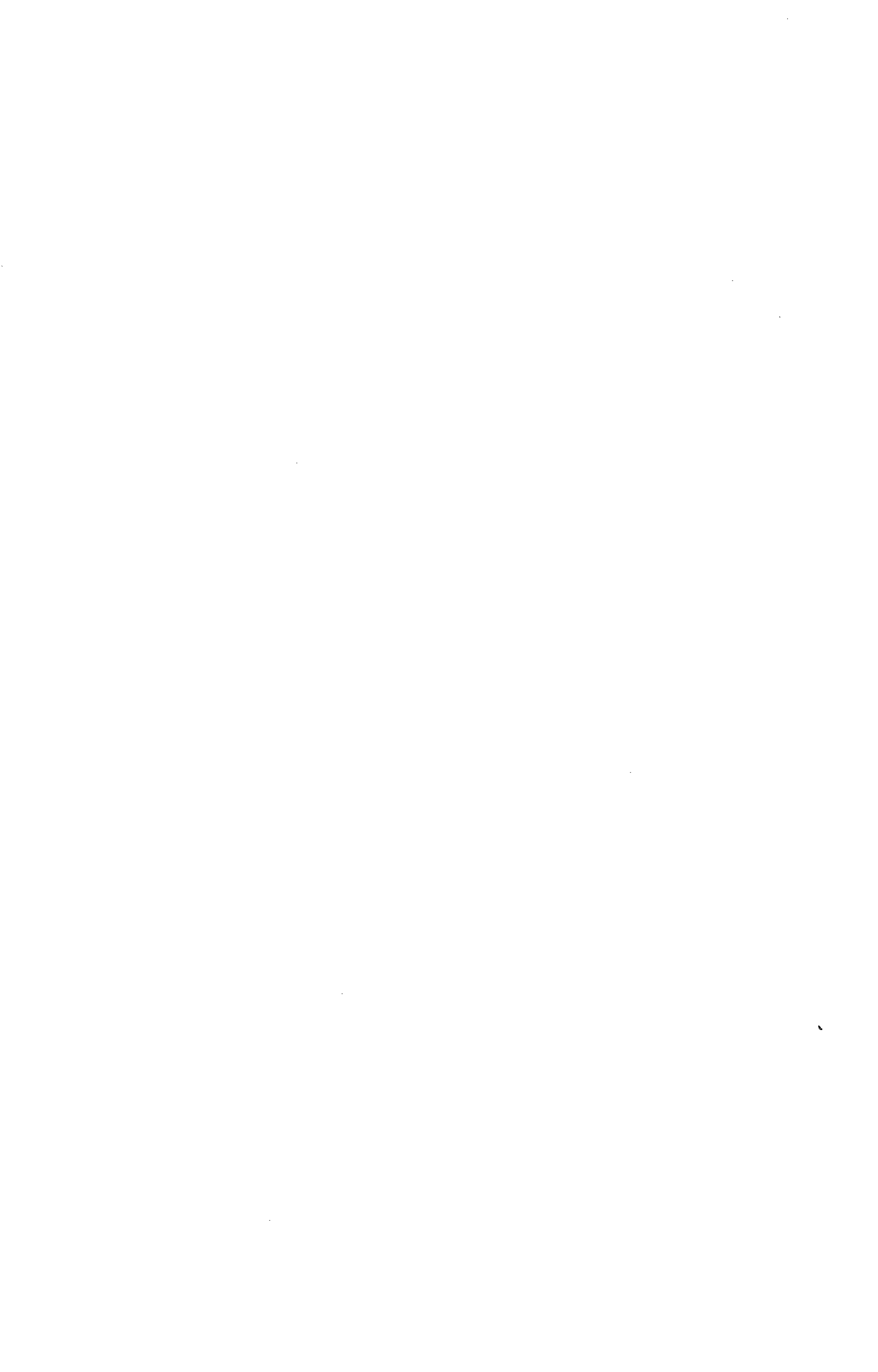
(٥) جاشت : ارتفعت ، واضطربت . تستبق : تتسابق .




القسم السابع

مَا وراءَ الأَفْــلاك



منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه[1]

للفنــــاءِ والبقـــاءِ مُعْتَــــركْ ... لَيْسَ يدري المرءُ سرّاً لِلْفَلَكْ[2]
للحيـاةِ يَحْمـلُ المـوتُ الـرِّسـالـهْ ... والسَّعيدُ من وَعَىٰ لِلْمَوْتِ حالَهْ !
الــريــاحَ أشْبَهَــتْ هــذي الحيــاة ... ما استقرَّت ، كلُّ ما تبغي الثَّبَاتْ !
كــم دُنًــى لــي نــاظــرانِ شــاهَــدَا ... ثــمَّ حــدُّ الكــائنــاتِ لــي بــدا
كــلُّ دُنيــا كــانَ فيهــا نــورُهــا ... قــطُّ مــا إنْ أشْبَهَتْهَــا غيــرُهــا[3]
إنَّ فيهــا الــوقْــتَ يجــري كــالبِحَــارْ ... فهـي تجـري أو لهـا بَعْـضُ القَـرَارْ
عــامُهــا شَهْــرٌ وحتَّــى بُــرْهــةٌ ... قِلَّـــةٌ طَـــوْراً وطَـــوْراً كَثْــرةٌ[4]

عقلُنَــا فــي عــالَــمٍ كــانَ الــذَّكيَّــا
فــي سِــــوَاهُ لــم يَكُــنْ إلا الغبيَّــا

ثَغْـرُه القــاصـي بـه مـنْ قَـدْ ظَهَـرْ ... صـوتُـه المحـزونُ بـالحـزنِ انْفَطَـرْ
ولـــهُ العَيْـــنُ كَعَيْـــنٍ للعُقـــابْ ... كاسفَ الوَجْهِ لأهوالِ المُصَابْ[5]
والتَّبــاريــحُ تــزيــدُ فــي الجَنَــانْ ... بَيْـتُ شِعْـرٍ مـا طَـوَاهُ عَـنْ لِسَـانْ[6]

---

(١) نيتشه : فيلسوف ألماني مستفيض الشهرة ، يُعدُّ بحقٍّ منْ أهمِّ قادة الفكر الذين كان لتفكيرهم أثرٌ في العصر الحديث . وأكثر كتبه سيرورة كتاب بعنوان : « هكذا قال زرادشت » وإن كان أشدَّ ما كتب غموضاً . وقد تناول المسيحية بالنقد ، واختلط عقله قبل وفاته عام ١٩٠٠م .

(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد أنَّ الفناء والبقاء في حربٍ إلى الأبد .

(٣) في الأصل أنَّ كلَّ عالمٍ له قَمَرُه وثريَّاه ، وهو مختلفٌ عنْ غيره .

(٤) أي أنَّ القلة في عالم كثرةٌ في غيره . وهذا مطَّردٌ في كلِّ تِلْكَ العوالم .

(٥) كاسفَ الوَجْه : عابسٌ منْ هول الشدائد .

(٦) تباريح الشوق : توهجه . والجنان : القلب . ولم يطو بيت شعر عن لسانه : لا يكف=

« أجبريلُ أم اللهُ وحورُ الخُلْدِ ؟ تَنساقْ !
تراب أنت في نارٍ لروحٍ وهي تَشْتَاقْ »[١]

قلتُ للروميِّ ذا المجنونُ مَنْ ؟ قال : في الألمانِ مَشْهورُ الزَّكَنْ[٢]
كانَ بَيْنَ العالمينَ مَوْضِعُهْ وقديمُ اللَّحْنِ منْهُ نَسْمَعُهْ
إنَّه الحلَّاجُ لَكنْ أينَ عُوْدُه ؟ قال قولًا وسواهُ لا يُعيدُهْ[٣]
وجريءُ القَولِ برَّاقُ الفِكَرْ قولُه السيفُ الفِرَنْجَ قَدْ شَطَرْ
الجليسُ لَيْسَ يَدْري جَذْبَتَهْ تَحْسبُ المجذوبَ جُنَّ نَظْرَتَهْ
من خُمارِ العِشْقِ معدومو النَّصيب نبضُه قدْ أودعوا كفَّ الطَّبيب[٤]
عِنْدَ أهْلِ الطبِّ خَتْلٌ ما وُجِد ويلُ مجذوبٍ لإفرنجٍ وُلِدْ[٥]
ابنُ سينا في كلامٍ قالَ أفْصِد أو بِحَبٍّ منْ شَكَا الأوجاعَ أزْقِدْ

كانَ حلاجاً بأرضٍ كالغَريبْ
فرَّ مِنْ قَتْلِ الفَقِيْهِ لا الطَّبيب !

الطَّريق في الفِرَنْجِ منْ عَرَفْ ؟ فَعَلَىٰ قيثارةٍ دوماً عَزَفْ[٦]
الطَّريقُ لَيْسَ فيه منْ دَلِيلْ ضلَّ في سيرٍ وفي سيرٍ وَبِيْل[٧]
كانَ مالًا لَمْ يَجِدْ منْ عَدَّهُ يُنْجِزُ الأعمالَ لَكِنْ وَحْدَهُ
عاشقٌ لَكِنْ طَوتْهُ زَفْرَتُهْ سالِكٌ قَدْ تَيَّهَتْهُ خُطْوَتُهْ[٨]

= عن ذكره وترديده .

(١) ترجمنا هذا البيت ببحره في الأصل ، وهو الهزج الذي يستخدمه الفرس ثمانياً .

(٢) الزَّكن : الفطنةُ والذَّكاء .

(٣) العود هو الذي صلب عليه الحلاج . وقال قولًا لا يعيده سواه : أي لا يشبهه فيه .

(٤) الخمار : الصُّداع من شدَّة السُّكرِ .

(٥) الختل : الخداع . وما وجد : بمعنى الذي وجد .

(٦) دوماً : دائماً .

(٧) السَّير الوبيل هنا هو السير الذي تخشى عاقبته .

(٨) تيَّههُ : أضلَّه ، وضيَّعه .

حَطَّمَ الكـاسـاتِ ذيّـاكَ الثَّمِـلْ وَعَـنِ اللهِ وذاتِ مُنْفصـلْ
ورأىٰ لَـٰكِـنْ بِعَيْـنِ الظَّـاهِـرِ الـرَّقيـقِ فـي العنيـفِ القَـاهِـرِ
وانْطِـلاقـاً شـاءَ مِـنْ طِيْـنِ البَـدَنْ وخـروجُ الحَـبِّ فـي قلـبِ قَطَـنْ
ومَقَـامٌ لـلإلـٰـه مـا يـريـد وعَـنِ العَقْـلِ البَعيْـدِ والبَعيـد !
إنَّ تِلْـكَ الـذَّاتِ شَـرْخٌ لِلْحَيـاة « لا » و « إلّا » مِنْ مقاماتِ لِذَاتْ
ظلَّ في « لا » وَحْدَها هذا العَجِيب عَـنْ مَقَـامِ « عبـده » وَهْـوَ الغَـرِيـبْ
عَـنْ تجـلٍّ مـا لـديـهِ مـنْ خَبَـرْ كثمـارٍ أبعـدوهـا عـنْ شَجَـرْ !
طَلْعـةُ الإنسـانِ راقَـتْ مِنْـهُ عَيْنَـا ثـمَّ صَـاحَ ذَلِـكَ الإنسـانُ أينـا
أوْ عـنِ النَّـاس تـراه رَاغِبـا وكَمُـوسـىٰ لِلقـاءِ طَـالِبَـا
لَيْتَـهُ مـنْ عَـاشَ فـي عَصْـرٍ لأحْمَـدْ لِيَعِيْشَ في الحُبُورِ وَهْوَ سَرْمَدْ[1]
عَقْلُـهُ لِلـذَّاتِ قـالَ : اسْتَمِـرْ أنْـتَ فـي خيـرِ طـريـقٍ ، فَلْتَسِـرْ
وَتَقَـدَّمْ قَـدْ دنـا هـذا المَقَـامْ
طـالَ فيـه ، وبـلا حـرفٍ ، كَـلامْ

* * *

الرَّحِيْلُ إلى جنَّة الفِرْدَوْس

انْطَلَقْـتُ مِـنْ حُـدُوْدِ الكـائِنَـاتْ عالماً وافَيْتُ يَخْلُو مِنْ جِهَاتْ
لَيْـسَ فيـهِ مِـنْ يميـنٍ أو يَسَـارْ لا ولا ليـلٌ أتـى بَعْـدَ النَّهـارْ
عِنْـدَهُ قِنْـدِيْـلُ إدْراكـي خَمَـدْ هيبـةً مِنْـهُ كـلامـي قَـدْ جَمَـدْ
بِلِسـانِ الطِّيـن لِلـرُّوح المَقَـالْ !؟

---

(١) أحمد : هو الشيخ أحمد السَّرهندي المتوفى عام ١٥٦٤م ، ذلك الصُّوفي الهندي الذي عاصر أكبر ، وجهانكير من أباطرة المغول في الهند . وقد عرف بمجتهد الألف الثاني ، وكان ضدَّ غُلاة المتصوِّفة .
والحبور : السرور . والسَّرمد : الدائم .

طيرانُ الطَّيْرِ في السِّجْنِ المُحَالْ[1]

عالماً للرُّوحِ خُصَّ بالنَّظَرْ فَبِنُورِ الذَّاتِ نورٌ لِلْبَصَرْ
ما الفؤادُ ؟ عالمٌ لا لَوْنَ لَهْ لَيْسَ فيهِ الحدُّ فانْظُرْ كلَّه
ساكنٌ والسَّيْرُ منه في ازدياد كلَّ حالٍ كلُّ فكرٍ في الفؤاد
حارَ هذا العقلُ في تِلْكَ الحقيقه سارَ وهو لا يرى حتَّى طَرِيْقَه
والخيالُ غَيْرهُ عَنْهُ اخْتَلَفْ ذاكَ في الجوزا وهذا قَدْ أَسَفّ[2]
مَنْ يقولُ إنَّ هذا في السَّما بجوارِ مَنْ على الأرضِ ارْتمىٰ
أسرورُ مَنْ رأىٰ يوماً حَبِيبَا مِنْ سُرُوْرِ ناشقٍ كانَ القَريبا[3]
أيقظِ العَيْنَيْنِ أوْ خُذْ بالكرى فَبِدُونِ الشَّمس قَلْبٌ قَدْ يُرَىٰ

فضِّلِ الدُّنيا على دُنيا الفُؤادْ
بالقياسِ جِزْتُ في شَرْحِ المُرَاد

هذه دنياكَ فيها غَيْرُها « كنْ فكانَ » غَيْرُ تِلْكَ نَجْرُها[4]
وتدومُ ، وبها دامَ التَّغَيُّرْ لا يراها الوَهْمُ ، إنَّ العَيْنَ تَنْظُرْ
ولها دوماً جديدٌ مِنْ كمال كلَّ يوم كانَ لونٌ مِنْ جمال[5]
لا تُرى فيها الشُّموسُ والبُدور تسعةُ الأفلاكِ فيها ما يَدُوز
كلُّ ما في الغَيْبِ يبدو في سُفُوز قَبْلَ أنْ يَخْفِقَ قَلْبٌ بالشُّعوز
بلساني هَلْ أصيبُ وَصْفَها يا لها نورُ الحياةِ يا لها ![6]
الجبالُ أنْبَتَتْ حُمْرَ الزُّهوز في الرياض النَّهْرُ يجري بالخَرِيْز

---

(١) المقال : القول . والمراد بالسجن هنا : قفص الطير .
(٢) الجوزاء : برج في السماء . وأسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .
(٣) نشق ريحاً طيبة : شمها . والمعنى أنَّ سرور من يشاهد الحبيب ليس كسرور من يشمُّ الرِّيح التي تأتي من محلته .
(٤) النجر : الأصل .
(٥) لون : نوع . وكان هنا تامة .
(٦) في الأصل : إن هذه الدنيا هي النور والحضور والحياة .

البَــراعِيــمُ زَهَــتْ ألــوانُهــا نفخــةُ الأبــرارِ منهــا كــونُهــا[1]

اللُّجَيْــنُ المــاءُ والأنســامُ عَنْبَــرُ والقِبَابُ للقُصورِ ، تِلْكَ جَوْهَرُ[2]

الخيــامُ مِــنْ يــواقيــتٍ وتِبْــرِ وجبيــنُ الغِيْــدِ بــالمــرآةِ يُــزْرِي

قال لي « الرومي » أسيرٌ للقياس ؟ عَنْــكَ دَعْ كــلَّ اعتبــارٍ لِلْحَــواس

بــالتجلِّــي الخيــرُ كــانَ والشُّــرور جَنَّــةٌ كــانَــتْ كمــا كــانَ السَّعِيــر

القُصُــورُ كــالــرَّبيــعِ فــي النَّظَــرْ أصلُهــا الأعمــالُ لا ذاكَ الحَجَــرْ !

مــا تُسمِّيــهِ بحــورٍ أو بِكَــوْثَــرْ لِسُــرُورٍ ولجــذبٍ كــانَ مَظْهَــرْ

الحيــاةُ ، هــاهنــا هــذا النَّظَــرْ

وسِــوَاهُ وَسِــوى قــولٍ فــذَرْ

* * *

قَصْرُ شَرَفِ النِّسا[3]

عُــشٌ يــاقــوتٍ أراهُ فــي عُــلاه ومِــنَ الشَّمْــسِ الخــراجُ قَــدْ جَبــاه

ذَاكَ قَصْــرٌ ذو قِبَــابٍ عَــالِيَــاتْ ضــمَّ حــوراً فــي ثيــاب المُخْــرِمــات

رغبــةُ العِلْــم وُهِبْــتَ سَــالِكَــا مــنْ لهــذا القَصْــرِ كــانَ مَــالكــا[4]

---

(١) البراعيم : جمع برعوم : وهو الزهرة قبل تفتحها . يقول : إنَّ الأبرار نفخوا نفخة أوجدتها .

(٢) اللجين : الفضة . والأنسام جمع النسم ، وهي الريح اللينة .

(٣) شرفُ النِّسا : حفيدةُ أحد حكام البنجاب على عهد الإمبراطور المغولي بهادرخان . ويقال : إنَّها أقامت في قصرها منصةً لتتلو القرآن عليها كلَّ صباح وإلى جانبها سيف . وكانَ المصحف والسيف على تلك المنصَّة دائماً . وأوصت بدفنها بعد موتها مع السَّيف والمصحف في ذلك الموضع .

(٤) السَّالك : المريد في أول عهده بالتصوف .

قال « هذي ، عُشُّها البادي هنالك وتغنَّى طيرُه بَيْنَ الملائك[1]

جوهرٌ ، ما إنْ حَواهُ بحرُنا وفتاةٌ لم تَلِدْها أمُّنا

أرضُ لاهورَ بها أضْحَتْ سَمَاء سرُّها يخفىٰ على الدُّنيا خَفَاء

ولما بالذَّوْقِ والشَّوْقِ الشُّعُوزْ ولعينِ حاكمِ البنجابِ نُورْ

وهي نورُ الأهل في عبد الصمد فَقْرُها ذِكْرى ستبقىٰ لِلأَبَدْ

تَقْرَأُ القرآنَ ، نفساً طهَّرت برهةً في تَرْكِهِ ما فَكَّرَتْ

تَحْملُ المُصْحَفَ والسَّيْفَ الحُسَاما إنَّها السَّكْرى وما ذاقت مُدَاما[2]

خلوةٌ سيفٌ وقرآنُ الصَّلاة حبَّذا عُمْرٌ تَقضَّى في التُّقاة[3]

آخرُ الأنفاسِ وهي تُخْتَضَرْ أمَّها خصَّتْ بِمُلْتَاعِ النَّظَرْ

ثُمَّ قالتْ إنْ عَرَفْتِ الآنَ سِرِّي شاهدي ما في يَدِيْ أوْ ما بِخَصْرِي[4]

قوَّتانِ بهما أيْدُ الثَّباتْ مِحْوراً كانا لِدَوْمِ الكائِنَاتْ[5]

في حياتي ، وجميعاً نُقْبرُ ليس لي يا أمُّ شيءٌ آخَرُ

قَبْلَ مَوْتي ذاكَ مِنْكِ مَطْلَبي مُصْحَفي والسَّيفَ منِّي قرِّبي

كلُّ هذا منْ كلامي فلتعي لا تزيني في التُّرابِ مَضْجَعي[6]

الكتابُ والحُسَامُ حَسبُنَا

بهمَا يَزْدَانُ حقَّاً قَبْرُنا

وقروناً تَحْتَ تِبْرٍ لِلقِبَابْ قَدْ تحلَّى بالحسامِ والكِتَابْ[7]

---

(١) أي تَغَنَّى الطيرُ الذي حطَّ على سطح هذا القصر مع الملائكة .

(٢) السَّيفُ الحسام : القاطع .

(٣) التقاة : التقوى .

(٤) المصحف في يدها ، والسَّيف معلقٌ بخصرها .

(٥) الأيْد : القوة .

(٦) وعى الكلام : حفظه وتدبره . وهي ترغب إلى أمِّها ألا تقيمَ لها قبراً يزدانُ بالقبابِ والقناديل .

(٧) التبر : الذَّهب .

ولنـا المَـرْقَـدُ فـي دُنيـا الشَّتَـاتْ ... علَّـم المـؤمـنَ معنـىً لِلْحَيَـاة[1]
نَفْسَـهُ المسلـمُ حقّـاً قَـدْ ظَلَـمْ ... فـالبسـاطُ مـا طـوىٰ دَهْـرٌ وَضَـمّ
وهـو فـي غيـرِ الإلـهِ فَكَّـرا ... أَصْبَـحَ الثَّعْلَـبُ ، كـانَ القَسْـوَرا[2]
ولهيـبُ القلـبِ فيـه مـا انْـدَلَـعْ ... أنتَ في البنجاب تدري ما وَقَعْ ؟
مِنْـهُ سَيْـفٌ وكتـابٌ مـا حُمِـل
ولـذا الإسـلامُ فيـهِ قَـدْ قُتِـل »[3]

* * *

زيارةُ الأميرِ الكبيرِ سيِّد علي همداني ومُلاَّ طاهر غني كشميري[4]

حَـرَّقَ الأضـلاعَ لِلـرُّومـيِّ قـولُ ... آه يـا بنجـابُ ! يـا أرضـاً تُجَـلُّ
مِثْلَ خِلاَّني اضطربتُ في الجنانِ ... وَمِـنَ الهـمِّ ذكـرتُ مـا عَـرَانـي[5]
وإذا صـوتٌ لآلامٍ وَحُـزْنِ ... منْ ضِفَافِ الكَوْثَرِ الصَّافي بأُذْني
« وأردتُ حَرْقَ نفسي ولذا جَمَّعتُ قشًّا

---

(١) الشَّتات : التفرق .
(٢) القَسْوَرُ : الأسد .
(٣) يقول : إنَّ طائفة السِّيخ هي التي أبعدت القرآن والسيف عن البنجاب . وفي عقيدةِ السِّيخ : أنَّ كل إنسانٍ جديرٌ بالإجلال والتقدير بقطع النظر عن دينه ومذهبه ، ومرَّت الأيامُ وحاربَ السيخُ المسلمين .
(٤) الأمير سيد علي همداني صوفيٌّ مرموقُ المنزلة عالي القدر . كان صاحب مشورة أمير كشمير ، ولد في همدان ، وعاش طويلاً ، وأفاد الناس بعلمه في كشمير ، وتوفي عام ١٣٨٥م . ومُلاَّ طاهر غني كشميري ، شاعرٌ من أهل كشمير ، كانت وفاته عام ١٦٦٩م . كان واسع الخيال ميالاً في شعره إلى التمثيل والتخييل ، وعلى فقره ورقة حاله عُرِفَ بغنى النفس ، فكان اسماً على مسمًّى .
(٥) عراه : أصابه .

ويظنُّ الوردُ أنّي في الرياض رُمْتُ عُشًا » ![1]

قالَ لي الروميُّ « ما يأتي انظُرَنْهْ يـا بُنَـيَّ مـا مَضَـىٰ لا تَـذْكُـرنَّـهْ
هو ذا « طاهر غني » أو خير شاعِر الفقيـرُ ، وغِنَـاهُ مِنْـهُ ظَـاهِـرْ
إنَّــهُ النَّشْــوانُ غَنَّــى فــي دوام عِنْـدَ هـذا السَّيِّـدِ العـالـي المَقَـامْ
سيِّـدُ السَّـاداتِ مـنْ سَـادَ العَجَـمْ كفُّـه مِغمَـارُ تقـديـرِ العَجَـمْ[2]
الغــزالــي دَرْسَــهُ لمَّــا تَلَقَّــى اسْتَمَــدَّ آلــهُ فِكْــراً وحقَّــا
فــي بــلادٍ وهــي لِلْخُلْـدِ النَّظيـر مـرشـدٌ لِلْكُـلِّ بـلْ نِعْـمَ المُشيـرْ
فــي البـلادِ ذلـكَ البَحْـرُ المَعيـنْ فَضْلُـهُ عِلْـمٌ وَتَهْـذيـبٌ وَدِيْـنْ[3]
إنَّــه مــنْ شَـادَ إيـرانَ الصَّغِيـرَهْ بصفـاتِ الخَيْـرِ والحُسْـنِ الكثيـره

عقــدةً بــالعَيْــنِ حــلَّ كــالحكيـم
قُـمْ تلـقَّ مـا لـديـهِ فـي الصَّمِيـمْ »[4]

* * *

في حضرة أميرِ همدان

زنده رود

أفهمنّـي سـرَّ ربِّـي ، أنـت تَصْـدُقْ يَطْلُبُ الطَّاعةَ والشيطانَ يَخْلُقْ !
كـلُّ شـرٍّ فـي الـوجـود زيَّنـه وابتغـي ممَّـا عَمِلْـتَ أحْسَنَـهْ ![5]
ذاكَ سِحْـرٌ مِنْـهُ لـي شـكٌّ يخـامـرْ ما ابتهاجي صاحبي بِئْسَ المُقَامِرْ

---

(١) هذا البيت لطاهر غني كشميري . وقد ترجمناه طبق وزنه في الأصل .
(٢) كان طاهر غني ينظم بالفارسية ، ويقول : إقبال عنه : إنَّه قرَّرَ مصير الفرس .
(٣) مَعَنَ الماءُ فهو مَعِيْن : أي جرى .
(٤) ما لديه : أي ما لديه من فضلٍ وصفاتٍ حميدة .
(٥) أي : أراد منّي ألا أعمل إلا خيراً .

مِـنْ تـرابٍ حُفْنـةٌ ، وهـو الفَلَـكْ أطـريـقٌ لَيْـتَ شعـري مـا سَلَـكْ !
مـا عَمِلْنـا ، مـا ذَكَـرْنـا ، والألَـمْ كـانَ عضًّـاً للبَنَـانِ مِـنْ نَـدَمْ
كـلُّ مـن يـدري عـن الـذَّات الخَبَـر يخلـقُ النَّفـعَ لـديـه مِـنْ ضَـرَرْ
حُـبُّ إنسـانٍ لشيطـانٍ وَبَـالْ هـزمـه الشَّيطـانَ فـي حـربٍ جمَـالْ
وعلـى الشيطـانِ أنـتَ فـاخمِلَـنْ كُـنْ حُسـامـاً وَلْيَكُـنْ نِعـمَ المسَـنْ
فَلْتُجـاهـرْ وَلْتُجـالِـدْ ، كـنْ وَحيًّـا لا تَكُـنْ فـي العـالميـنَ ذا الشَّقيًّـا

زنده رود

كـلُّ إنسـانٍ أخـاهُ يـأكـلُ لِيَعيـشَ الشَّعْـبُ شَعْبـاً يَقْتُـلُ[1]
تتلظَّـى الـرُّوحُ مِـنْ هـذا البَلَـد ويئـنُّ القَلْـبُ أضنـاهُ الكَمَـد[2]
شعبُـه بـالعَقْـلِ والحُسْـنِ اشْتَهَـرْ وهـو فـي الآفـاقِ معـروفُ الخَبَـرْ
دُخْـرِجـتْ كـأسٌ ولكـنْ فـي دِمَـاه نـاحَ نـابـي لـلأليـمِ مـنْ أَسَـاه
مُنْـذُ أنْ ضَيَّـعَ مِـنْ ذاتٍ نصيبـا كـان فـي أوطـانِـه هـذا الغـريبـا
ظَـلَّ فـي أيـدي سِـوَاه أجـرُه وشبـاكَ الغَيْـرِ أرضـىٰ نَهـرُه
ومَضَـتْ فـي سَيْـرِهـا كـلُّ القـوافـل أفْسَـدَ الأعمـالَ شـأن كـل غـافـل
مـاتَـتِ الجـذْبَـةُ فيـه وَهْـوَ عبـدُ ولنـارٍ فـي العُـروقِ كـانَ خَمْـدُ[3]
لا تظـنَّ أنَّـه كـانَ المهينـا فـي التُّـرابِ دائمـاً أدلـىٰ الجَبينـا[4]
إنَّـه فيمـا مضـى خـاضَ الحُـرويـا
وتحـدَّى وهْـوَ ذو البـأسِ الخُطـوبـا
قمـةً للثَّلْـجِ فـاغمُـزْ بـالنَّظَـرْ وكفـوفُ النَّـارِ تَبْـدُو فـي الشَّجَـرْ

---

(١) في الأصل أنَّ الشعب يرعى شعباً غيره كما ترعى الماشية العشب في المرعى لتعيش .
(٢) يتلظَّى : يشتعل . الكَمَدُ : أشدُّ الحزن .
(٣) الخمد : الخمود .
(٤) المهين : الحقير .

اليــواقيــتُ حصــاهُ فــي الــربيــع   والتُّــراب مــاجَ بــاللَّــونِ البَــديــع
والسَّحــابُ حــول أجْبــالٍ يَــدُورْ   مِثْــلَ قُطْــنٍ عِنْــدَ نــدّافٍ يَطِيــرْ(١)
ذاكَ قــرصُ الشَّمــس في بحرٍ غَرَبْ   قــد رأيــتُ الله عنــي مــا احْتَجَــبْ(٢)
في « نشاطٍ » سِرْتُ في ركبِ النَّسيم   وتلوتُ شِعْرَ « مولانا » العَظِيمْ(٣)
قــالَ طيــرٌ كــانَ فــي أعلى الغصــون   مــا الــرَّبيــع غَيْــرَ ذا الشــيء المَهيــنْ
نَــرْجِــسٌ يَــزْكُــو وزَهْــرٌ أحْمَــرُ   بــالنَّسيــم شُــقَّ ثــوبٌ أخَضَــرُ(٤)
مِــنْ قــديــمٍ فــي الجبــالِ قَــدْ ظَهَــرْ   نَــرْجِــسٌ فــي طُهْــرِهِ فــاقَ القَمَــرْ

كـــمْ رأينـــا مـــنْ ورودٍ أيْنَعَـــتْ
كشهـــابٍ أرضُنـــا مـــا أنْبَتَـــتْ(٥)

بــالشَّكَــاةِ نــاحَ غِــرِّيــدُ السَّحَــرْ   فــأُوارُ الــوَجْــدِ فــي رُوحــي اسْتَعَــرْ
ورأتْ عَيْنــايَ مجنـــونَ الطَّـــرَبْ   كــلَّ مــا جمَّعــتُ مــنْ صَبــري سَلَــبْ

* * *

امـــضِ عنَّـــا ، دَعْـــكَ مـــنْ نـــوحٍ ثَمِـــلْ
عـــن طِلسْـــمِ اللَّـــونِ فـــي الأزهـــار مِـــلْ
قلـــــت إنَّ الطـــــلَّ فـــــي أوراق وَرْد
مـــنْ بَكـــىٰ فـــي الشَّـــطِّ غِـــرٌّ أوْ خبـــل(٦)

---

(١) الأجبال : الجبال . والنَّداف : ضارب القطن بالمندف ليرقَّ .
(٢) يقول : إنه شاهد قدرةَ الله في روعة الطبيعة .
(٣) نشاط : اسم حديقة في كشمير . ونشاط في الفارسية بمعنى سرور . يقول : إنه أنشد شعراً مشهوراً لمولانا جلال الدين الرومي نظمه على لسان الناي ومنه بيت يقول فيه إنَّ ما يتردد في الناي ليس هواء بل نارُ العِشْقِ الإلهي .
(٤) زكا الزهر : نما . ويريد بذلك الثوب الأخضر الذي يشقه النسيم أكمامَ الزهر .
(٥) أينعت الثمرة : بلغت نضجها . وقد استعير ذلك للزهرة ، وشهاب الدين المتوفى عام ١٣٧٤هـ من سلاطين كشمير ، وقد بلغت بلاده في عصره ذُروة التقدُّم في تاريخها .
(٦) الغر : من لا تجربة له . والخبل : المجنون .

أيـن ضِغـثُ الـرِّيـش مـن تلـك الأغـانـي
عيـــن روح لغنـــيٍّ تَنْهمـــلْ[1]
إنْ مَـــرَرْتِ بجنيـــفٍ يـــا صَبَـــا
بلغـــي العُصْبَـــة عنِّـــي مـــا نُقِـــلْ[2]
بيْـــعَ فـــلاحٌ وتِلْـــكَ الأرضُ بيعـــت
وأنـــاسٌ ، ولَهُـــمْ سِعْـــرٌ مُـــذِل[3]

***

أمير همدان

اسْمَعَـنَّ القَـوْلَ لا يُنْسَـىٰ ويُـذْكَـرْ
التُّـرابُ جِسْمُنـا والـرُّوحُ جَـوْهَـرْ
ولأجـلِ الـرُّوحِ جِسْـمٌ يُضْهَـرْ
مـنْ تـرابٍ إنَّـه لا شـكَّ أطْهَـرْ
يـا بنـيَّ ، منْـهُ إنْ جـزءاً قَطَعْتَـا
ذلـكَ الجـزءُ بـلا ريـبٍ أضَعْتـا
إنْ بذلْتَ الرُّوح لَكنْ وهي سَكْرَىٰ
عـادتِ الـرُّوح إليـكَ وهـي حَيْـرَىٰ
قُـلْ أجبنـي أيـنَ للـرُّوح النَّظِيْـر
فهـي فـي قيـدٍ ومِـنْ قَيْـدٍ تَطِيْـر !
إنْ حَفِظْـتَ الـرُّوْحَ ميْتـاً أصْبَحْـتْ
إنْ بَـذَلْـتَ الـرُّوْحَ نـوراً أشْـرَقَـتْ
مـا هـي الـرُّوحُ وفـي سُكْـرِ التَّجَلِّـي
مـا هـي الـرُّوحُ ومـا عنهـا التَّخَلِّـي
ولـربـي قُـلْ أجِبْنـي كَيْـفَ تُنْثَـرْ
وبهـا الطُّـورُ العَظِيْـمُ كَيْـفَ يُصْهَـرْ
بتجلِّـي السُّكْـرِ أنـتَ الـذَّاتَ تَطْلُـب
في الليالي السُّودِ لاحَتْ مِثْلَ كَوْكَبْ
إنْ فقَـدْتَ الـذَّاتَ حَقَّقْـتَ الفَنَـاء
والـوجـودُ ، كـانَ لِلـذَّاتِ العَطَـاءْ[4]
مَـنْ رأى الـذَّاتَ ، وشيئـاً مـا رآه
سِجْنَـهُ أخـلاهُ مِمَّـا قَـدْ حَـواه

---

(١) انهملت العين : سال دمعها . وفي الأصل أنَّ روح غنى في حداد على أملها .
(٢) العصبة : هي عصبة الأمم وكان مقرها مدينة جنيف بسويسرا .
(٣) أردنا بالسِّعْرِ المذل : السِّعْرِ الرخيص للغاية .
(٤) الوجود هنا هو وجود الذَّات .

ذاكَ نَشْوانُ التَّجلِّي ، وهي مَطْلَبْ لسعةٌ من شَهْدِهِ أحْلَىٰ وَأَطيَبْ !
وترىٰ الرُّوحَ رياحاً نَظْرَتُهْ سجنُه سِجْنٌ تهُولُ رَجْفَتُهْ[1]
يرفعُ الفأسَ لِتَحْطِيمِ الصَّفاة لنصيبٍ قدْ ينالُ منْ حياة[2]
تَركَ الرُّوحَ لِتَغْدُو خَلْفَهُ
وَبِغَيْرِ التَّرْكِ كانت ضَيْفَهُ

***

زنده رود

أنتَ خيراً ثُمَّ لي شرّاً شَرَحْتَا يا حكيمُ غَيْرَ هذا لوْ ذَكَرْتَا[3]
وإلى لُبِّ المعاني قَدْ هَدَيْتَ كلَّ أسرارِ الملوكِ كمْ وَعَيْتَ
فقراءٌ ، حاكمٌ يبغي الخَرَاجا قُلْ لماذا مجَّدوا عرشاً وتاجا[4]

أمير همدان

أصْلُ هذا المُلْك في شرقٍ وَغَرْبِ ؟ كانَ إرْضاءَ لِشَعْبٍ أوْ لِحَزْبِ
وأقولُ لَكَ يا عالي المَقَامْ لسوى اثنينِ الخراجُ كالحرام[5]
لأولي الأمر و« منكم » شأنُهُمْ في الكتابِ قولُه برهانُهُمْ[6]

---

(١) يشبه الروح بالريح على أنَّ الريح لا ثمن لها .
(٢) الصفاة : الحجر الضَّخم الصَّلد .
(٣) لو هنا للتمني .
(٤) أي : نحن فقراء .
(٥) أي : أنَّ أداء الخراج حرامٌ إلا إلى اثنين .
(٦) قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، فالأمر بطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله ورسوله .

أو نَجيـدٍ مِثْـلَ ريـحٍ عـاتِيَـةْ جـادَ فـي الحـربِ بنفسٍ غَـالِيَـه[1]
بـالقتـالِ يَفْتـحُ البُلـدانَ فَتْحَـا وهـي تمس مُلْكَـهُ إنْ شـاءَ صُلْحَـا
فـارسٌ والهنـدُ ممَّـا يُشْتَـرىٰ لا يُنـالُ المُلْـكُ مـنْ هـذا الـوَرَىٰ[2]
جـام جمشيـد العجيـبُ والنَّفيـس أيبـاعُ مِثْلَمـا بيعـت كـؤوس[3]
الـزُّجـاجُ لـكَ مـالٌ إنْ شَـرَيْتَـهْ أيُّ نَفْـعٍ للـزُّجـاجِ إنْ كَسَـرْتَـهْ

***

غني

مـنْ أفـادَ الهِنْـدَ تَخطيـمَ القُيُـوذْ أيكونُ الصَّيْدُ يوماً كالصَّيُوذْ[4]
عقـلاءُ يُنْسبُـونَ لِلْبَـراهِـم عِنْدَهُمْ قَدْ أُخجلت حُمْرُ البَراعِمْ[5]
مـنْ أولـي العِرْفـان أصحـابُ النَّظر أي غـربـيٍّ رآهـم لـم يَحَـرْ
أرضُنـا كِشْميـرُ منهـا أصْلُهـم وبهـا لا بِسـوَاهَـا نَجْمُهُـمْ
إنْ حَسِبْتَ الأرضَ تخلـو مـنْ شَـرَرْ قَلْبَـكَ افتـحْ وأطِـلْ فيـه النَّظَـرْ[6]
أصلُ تِلْكَ النَّارِ أينَ ؟ لَيْتَ شعري ونسيـمٌ للـرَّبيـعِ وَهْـوَ يَسْـري[7]
فـي الجبـالِ عنـدنـا خفـقٌ لـريـح

---

(١) النجيد : الشجاع .
(٢) الورى : الناس .
(٣) يقال : إن ملك الفرس الأسطوري جمشيد كانت له كأس رسمت في قاعها الأقاليم السبعة . وهذه الكأس في شعر الفرس الصُّوفي رمز لقلب المتصوِّف .
(٤) الصَّيدُ : الفريسة التي تصاد . والصيود : الكثير الصيد .
(٥) البراهم : البراهمة .
(٦) الشرر : ما يتطاير من النار .
(٧) سرى : سار عامة الليل .

وبهـا تختـالُ فـي لـونٍ وريـح[1]

هـلْ عَلِمْـتَ أنَّ يـومـاً فـي وُلَـر — مـوجـةٌ قـالـتْ لمـوجـاتٍ أُخَـرْ[2]

طالَ في البحر بنا عُنْفُ الصِّراع — لو حوانا البرُّ يوماً في اجتماع[3] !

وابننا أي ذلكَ النَّهرُ القديم — منه في الوادي وفي السَّفْحِ الهَزِيْم[4]

يَضْربُ الأحْجَارَ في عرض الطريق — كي يُزِيْلَ شأفة الطَّوْدِ العَتيقْ[5]

مِنْ فتىً في كلِّ أرضٍ قَدْ غَلَبْ — أرضعته ألف أمٍّ ثُمَّ شَبّ

إنَّه بالعُنْفِ أبْدَىٰ المَخْشَرا — لمْ يَجدْ عِنْدَ سوانا المَصْدرا

ما الصَّوابُ عيشُنا في حدِّ ساحِلْ — في الطَّريق حطَّ ما صَخْراً يُمَاثِلْ[6]

إنَّ إلفَ الشَّطِّ موتٌ للأبَدْ — يا مُديم السَّبْحِ في لُجِّ الزَّبَدْ[7]

الحياة السيرُ في غورٍ وَنَجْدِ

يُسْعِدُ الموجةَ جزرٌ بَعْدَ مدِّ

أنْتَ في وَجْهِ الحياةِ مَنْ قرأتَ — ذلكَ الشَّرْقَ الحياةَ مَنْ وَهَبْتَ

الزَّفيرَ لكَ هذا القَلْبُ أحْرَقْ — ضقتَ صَدْراً وَلدَيْنا الصَّدْرُ أَضْيَقْ

النُّواحُ للطُّيورِ مِنْ رَجِيْعِكْ — والوَضوءُ للنباتِ مِنْ دُموْعِكْ[8]

وَفَتَحْتَ الزَّهْرَ مِنْ طَبْعٍ هُنَاكَا — والمنى في الرُّوحِ كانَتْ مِنْ مُنَاكَا

إنَّ مِنْكَ الصَّوْتَ أجراسُ القوافِلْ — ولكشميرَ أراكَ غَيْرَ آمِلْ

---

(١) الريح : الرائحة .

(٢) ولر : اسم بحيرة في كشمير .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) الهزيم : صوت الرعد .

(٥) شأفة الطود : أصل الجبل .

(٦) أي : أنَّ عيشنا على الساحل ليس صواباً لأنَّ صخر الساحل عقبةٌ في طريقنا . ويماثل : يشبه .

(٧) اللج : معظم الماء .

(٨) الرَّجيع : كلُّ متردِّدٍ . والمرادُ هنا الكلام والشعر . الوضوء : ماء الوضوء .

فـي الصُّـدُورِ لـم يُمِـتْ يـأسٌ فـؤادا تَحْـتَ ثلـجٍ لـم يَصِـرْ جَمْـرٌ رمـادا
قِـفْ تَمَهّـلْ لِتَـرَىٰ مِـنْ غَيْـرِ صُـوز كيفَ قَامَ الشَّعْبُ مِنْ جَوْفِ القُبُوز
وتـأوَّهْ يـا فَتَـىٰ لا تَبْتَئِـسْ أخضـراً أحْـرِقْ وأحْـرِقْ مـا يَبِسْ[1]
كَـمْ بـلادٍ تَحْـتَ أفْـلاكِ السَّمـاء أحـرقتهـا نـارُ قَلْـبِ الأشقيـاء[2]
إنَّ هـذا المُلْـك أوهـى مـنْ حَبَـابْ وهوَ بالأنفاسِ محتومُ الخَرابِ[3]
إنَّمـا الشِّعْـرُ المصيـر قـدَّرا والشعـوبَ قـدْ بنـى أوْ دمَّـرا
أنـتَ إنْ جَـرَّحْـتَ هـاتيكَ القُلـوبـا لم تَجِدْ في هذه الدُّنيا ضريبا[4]
الغنـاءُ لـكَ مِـنْ شِعْـرِ تَلَـوْتَـهْ مـا وراء الشِّعْـرِ شعـرٌ أنْـتَ قُلْتَـهْ
جَـدِّدِ التَّحْـرِيـكَ والتـأثيـرَ جَـدِّدْ
ردِّدِ الألحـان فـي الجنَّـاتِ رَدِّدْ

* * *

زنده رود

اغْـزِفَـنَّ ، نَشْـوةَ الـدَّرويـشِ هـذي فـاثْلفـنْ
إنْ نضجت ملكَ جمشيد العريضَ فامْلُكَنْ[5]
ثُـمَّ قـالـوا هـذه الـدُّنيـا لنـا هَـلْ تـرتضيهـا ؟
قلـتُ لا ، لا أرتضيهـا ، قِيْـلَ هيَّـا هـدِّمَـنْ
ليس في الحانات كفءٌ بالرِّضا مِنَّا جَدِيرْ

---

(١) ابتأس : حزن .
(٢) الأشقياء : ضد السعداء .
(٣) الحباب : النفاخات التي تعلو الماء والشراب ، وهو يزول حتماً إذا نفخ فيه .
(٤) الضريب : النظير .
(٥) جمشيد : ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

رُسْتُم الأبطالِ حارِبْ ، ومَعَ الساقي امْزَحَنْ[1]
أنْتَ يا زَهْرُ الصَّحارى ، قُلْ أحقَّقْتَ احتراقاً[2]
فـي قلـوبِ لـلأنـاسـي ، هـذه النَّـارُ اضْـرِمَـنّ
كنـتَ فـي قلـبِ لهيبـاً ، ولهيبـاً فـي دِمَـاءْ
وإذا لـم تَقْتنِـعْ بـالقـوْلِ ذا الكـونَ اشْطُـرَنّ
ألكَ العَقْلُ سِرَاجٌ ؟ في الطريق سِرْ تَقَدَّمْ
وَلَـكَ العِشْـقُ مُدَامٌ ، فمعَ الحِـبِّ اشْـرَبَـنّ[3]
فَلْذَةُ القَلْبِ بدمعٍ مِنْ عيوني في انسكاب
مِنْ يواقيتِ بدَخْشانَ الفُصُوصَ فاصْنَعَنّ[4]

***

حديثٌ مع الشَّاعرِ الهنديِّ بَرْترِي هري[5]

تَسْكُـنُ الحـورُ القصـورَ والخِيَـامـا بشكاتي يُصْبحُ القَلْبُ الضِّرامَا[6]
هــذهِ مِــنْ خيمــةٍ أبْـدَتْ جَبِيْنَــا أختُهـا مِـنْ غـرفـةٍ أدْلَـتْ عُيُـونـا[7]
كـلُّ قلـبٍ فـي الجِنَـانِ قَـدْ وَجَـدْتُـه بـالأسىٰ مِـنْ هَـذِهِ الـدُّنْيـا غَمَـرَتْـهْ

---

(١) رستم : بطل من أبطال إيران في عصر الأساطير .
(٢) يريد الزهر الأحمر الذي يشبه النار .
(٣) الحب : الحبيب .
(٤) بَدَخْشَان : مدينة تشتهر بالياقوت .
(٥) برتري هري : شاعر هندي عاش في منتصف القرن السابع الميلادي . وله أشعار باللغة السنسكريتية في الحبِّ والخلق القويم والزهد .
(٦) الضرام : النار .
(٧) أدلت عيوناً : نظرت .

قالَ لي الشَّيخُ وبَسْماً قَدْ حَجَبْ ... « أنتَ سحَّارٌ » وهنديُّ النَّسَبْ[1]
شاعِرُ الهند ! وهذي جِزْئَتُهْ ... تَجْعَلُ الطَّلَّ اللآلي نَظْرَتُهْ[2]
(بَرْتري) يزدانُ بالعِلْمِ العُجَابْ ... فطرة كانت له مِثْل السَّحَابْ
بُرْعُمٌ بَيْنَ يديهِ ما رَأَيْنَا ... دَفَعَتْهُ مِنْكَ أنْغَامٌ إلينا
إنَّه مَلْكٌ عظيمٌ بالغناء ... وهو بالفقرِ العظيمُ ذو العَلاء
يَرسُمُ الشَّكْلَ البديعَ بالذَّكاء ... يُظْهِرُ الدُّنيا بحرفٍ مِنْ خَفَاء
أمرَ هذا العَيْشِ يدري كلَّه ... وهو جمٌّ شِعْرُهُ جامٌ لَهُ[3]

قد عرفنا فنَّه فنَّاً عليَّا
وأدَرْنا بيننا قولاً طَلِيَّا

* * *

زنده رود

أنتَ يامَنْ قُلْتَ قولاً عَبْقَرِيّا ... يَعْلَمُ الشَّرْقُ به سرّاً خَفِيَّا
قلْ ، لهذا الشِّعرِ مِنْ أينَ اللَّهَبْ ... أضْرَمَتْهُ الذَّاتُ أوْ رَبٌّ وَهَبْ ؟

* * *

برتري هري

شاعرٌ أينَ يُقيمُ ، مَنْ عَزَفْ ؟ ... ولهُ بَمٌّ وزيرٌ إنْ عَرفْ[4]

---

(١) السَّحَّار : الكثير السحر .
(٢) الطَّلُّ : النَّدى .
(٣) جم : هو جمشيد من ملوك الفرس الأقدمين . قيل إنه كان يملك كاساً رسمت في قاعها الأقاليم السبعة .
(٤) اليم : أغلظُ أوتار العود . والزيرُ : أدقُّها .

قلبُه في الصَّدرِ وهّاجُ الأُوار وأمامَ اللهِ مَعْدُومُ القَرَار[1]
وببحثٍ روحُنا كانَتْ تَطِيبْ وَطَلَبْنَا ، فلذا الشِّعْرُ اللَّهِيبْ
مِنْ كرومِ القَوْلِ يا مَنْ قَدْ ثَمِلْتا مِثْلَ ذيّاك المقامِ لَوْ بَلَغْتَا ![2]
وببيتٍ قيل في دنيا الحَجَرْ في الجِنان تُسْتَبَى ذاتُ الحَوَرْ[3]

زنده رود

إنَّ أهلَ الهِنْدِ كانوا في العَذَابْ
أظْهِرَنَّ السرَّ مِنْ خَلْفِ الحِجَابْ

برتري هري

هذه الأربابُ شَحَّتْ وهيَ مِنْ طينٍ وصَخْر
« برتري » كان بعيداً عَنْ كنيسٍ بَلْ وَدَير
سجدةٌ مِنْ ذَوْقِ أعمالٍ خَلَتْ لا خَيْرَ فيها
عملٌ تِلْكَ الحياةُ ، وَهوَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرّ
عالَمٌ أنتَ تراهُ لَيْسَ من آثارِ رَبّ
مِغْزلٌ بالخَيْطِ دوَّرْتَ ولكنْ لَسْتَ تدْري
أسْجُدَنَّ عندما للعاملين مِنْ جَزَاء
ما لهمُ هذا النَّعِيْمُ والجَحِيْمُ غَيْرَ أَجْر[4]

* * *

---

(١) وهاج الأوار : متأجج النار .
(٢) لو هنا للتمني .
(٣) استباه : سباه في الحرب .
(٤) المراد بالأجر هنا : الجزاء سواءٌ أكان على الخير أم على الشرّ .

السَّفرُ إلى قَصْرِ سلاطين المَشْرِق

نادر وأبدالي والسُّلطان الشهيد(١)

« بزتري » قَدْ هَزَّ روحي بالنداء — أسْكرتني منه صهباءُ الغِنَاء
قال لي الروميُّ « عَيْنُ القَلْبِ أفْضلْ — والخروجُ عنْ إطارِ الفِكْرِ أمْثَلْ(٢)
بِمَقَرٍّ للدراويشِ اعبُرَنْ — وقصوراً للسلاطينِ انْظُرَنْ
وملوكُ الشَّرْقِ في حَفْلٍ كَعِقْدْ — عزةُ الأفغانِ أو فرسٍ وَهِنْدْ(٣)
« نادرُ » النِّحريرُ رمزُ الاتِّحاد — كانَ للإسلام بُشْرَىٰ بالوِدَاد(٤)
ثم « أبدالي » وَقَدْ كانَ البَطَلْ — مَنَحَ الأفغانَ أُسَّاً لِلْعَمَلْ(٥)
وإمامُ شُهَداءِ العَاشِقينا — شرفَ الأقوامِ كانَ أجْمعينا(٦)

---

(١) نادر : هو شاه أفشار الذي كان قائداً في جيش الشاه طهماسب الثاني آخر ملوك الصفويين ، وقد تأتّى له أن يدفع غارة الأفغان على إيران ، فتربَّع على عرشها عام ١٧٣٦م كان سُنِّياً ، وبذل وُسْعَه في التقريب والتوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي الذي كان المذهب الرَّسمي للدولة الإيرانية في عهد الصفويين .
وأبدالي هو أحمد شاه دراني المتوفى عام ١٧٧٣م كان من قادة جيش نادر كما حكم من قبله إقليم مازندران . وبعد مقتل نادر مضى إلى أفغانستان حيث أصبح ملكاً ، واتخذ من مدينة قندهار عاصمةً له . ويعدُّ مؤسساً لدولة الأفغان .
أما السلطان الشهيد فهو تيبو سلطان الذي كان له المُلك في الدَّكن . وقد حارب الإنجليز الذين غلبوا على عاصمته ، ثم قتل في حومة القتال عام ١٧٩٩م .

(٢) الأمثل : الأفضل والأدنى للخير .

(٣) يشبه هؤلاء الملوك في مجلسهم بحبات العِقْد ، ويقول : إنَّ عزَّة الأفغان والفرس والهند بهم . وأو هنا للجمع .

(٤) النحرير : العاقل الحاذق .

(٥) الأس : الأساس . وفي الأصل : أنه منح الأساس للشعب .

(٦) العاشقون هنا عاشقو الذات الإلهية من الصُّوفية .

أينَ مِنْ نورٍ اسمهُ نورُ الكواكبْ وتراه عَيْشَنا هذا يُواكِبْ[1]
إنَّه كشَّفَ سرَّ العَاشِقِ جادَ بالرُّوح بِشَوْقٍ دَافقٍ[2]
وبفضلٍ منْ بِبَدْرٍ أوْ حُنَيْن قَدْ حباهُ فقرُه جَذْبَ الحُسَيْن[3]

زايلَ السلطانُ قصراً زائلا
مُلْكُه في الهِنْدِ ظَلَّ ماثلا »[4]

ناقصَ العقلِ ، عجزتَ عن كلامي لَيتَ شِعْري كيف وصفي للمَقَامِ
بِتَجَلِّيه رأى أهْلَ السَّماء مازَهُم لَكِنْ عجيبٌ مِنْ ذُكاء
ذاكَ قَصْرٌ ومنَ الفيروزِ بَابَه السَّماءُ كلُّها تَحْوي رحابَه
في السُّمُوقِ ما له كَيْفٌ وَكَمْ يَجْعَلُ التفكيرَ ذا عجزٍ يُذَمْ
هذه الأزهارُ في الحسن البديع صورةٌ كانت تجلَّت للرَّبيع
والنباتُ وهو فَيَّاضُ البَهاء غيَّر الألوانَ مِنْ ذَوْقِ النَّماء
والصَّبا دأبٌ لها أن تَسْحَرا تجعَلُ الأصْفَرَ توّاً أحْمَرا[5]
دَفَقَ الماءُ وكالدُّرِّ انْتَثَرْ طائرُ الفرْدَوسِ غنَّى في الشَّجَرْ
يا لقصرٍ فيه بهوٌ قَدْ سَمَقْ ذرَّةٌ منه ذُكاءٌ في الوَهَقْ ![6]
سَقْفُه كانَ عقيقاً نُضِّدا أرضُه يَشْمٌ ثَمِينٌ مُهِّدا[7]
وصفوفٌ فيه منْ قاماتِ حُوزْ ولهنَّ التِّبْرُ حَلْيٌ في الخُصُوزْ

---

(١) واكب الركب : سايرهم ، أو ركب معهم .
(٢) كشَّف : بمعنى كشف .
(٣) في الأصل بنظرةٍ من سيد بدر وحنين .
(٤) المراد بالقصر الزائل هذا العالم .
(٥) الدأب : العادة . يقول : إنَّ من عادتها أن تغيِّر الأشياء بالسِّحْر .
(٦) سمق : علا . وذُكاء : الشمس . الوَهَق : حبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة لتؤخذ به . يقول : كأنما كلُّ ذرةٍ في هذا القصر صادت الشمس بهذا الحبل .
(٧) نضده : وضع بعضه على البعض . واليشم واليشب : حجر يشبه الزبرجد .

وعلـى العـرشِ ملـوكٌ يَجْلسُـونـا ومـلوكَ الفُرْسِ كـانـوا يُشْبهُـونـا[1]
ذلـكَ الـرُّومـيُّ مـرآةُ الأدَبْ فـرَّجَ الغـمَّ بمـا زادَ الطَّـرَبْ[2]
« ومِـنَ المَشْـرِقِ هـذا شَـاعِـرُ لسْـتُ أدري ، شـاعـرٌ أمْ سَـاحِـرُ
فِكْـرُهُ دَقَّ وفـي الـرُّوح الألـمْ
شِعْرُه في الشَّرْقِ قد أذكى الضَّرَمْ »[3]

***

نادر

مرحباً يا شاعرَ الشَّرْقِ العَظيما مِنْ كلامِ الفُرْسِ أنْشَدْتَ القَوِيما
نَحـنُ أهـلُ السـرِّ قـلْ سـرّاً لنـا ثـمَّ عـن إيـرانَ حـدِّثْ أنْبِـنـا[4]

زنده رود

نَظَـرَتْ إيـرانُ فـي ذاتٍ مليًّـا وَهَوَتْ في قاعِ أشراكٍ هُوِيّا[5]
وقتيـلُ دَلِّ أصنـامِ الجَمَـالْ تُشْبهُ الإفرنجَ في خَلْقِ الكَمالْ !
فِكْـرُهـا فـي مُلْكِهـا أو فـي النسب مَـدْحُ سـابـور وَذَمٌّ لِلْعَـرَب[6]

---

(١) ذكر من هؤلاء الملوك جمشيد وبهرام وهما مشهوران بعزة الجانب .
(٢) فرج : فتح . والطرب : خفة تعتري الإنسان من فرحٍ أو حزن .
(٣) أذكى : أوقد . والضرم : الحطب يطرح في النار .
(٤) أنبنا : أنبئنا .
(٥) هوى هوياً : سقط . والشراك : جمع : شرك ، وهو الحبالة .
(٦) سابور : ملك من ملوك الفرس . وهو سابور الثاني المعروف بذي الأكتاف ؛ لأنه في حربه مع قبائل العرب خلع أكتافهم ، أو ثقب ألواحها وجعل فيها حبلاً إمعاناً في التشفي منهم .

يـومُهـا خـالٍ ، ومـنْ كـلِّ المهـامْ الحيـاةُ طَلَبَتْهـا فـي الـرِّجـام[1]
وطنـاً رامَـتْ وذاتـاً لا تَـرَىٰ وتَنَـاسَـتْ رُسْتُمـاً بـلْ حَيْـدرا[2]

بـاطـلَ الإفـرنـج مـا قَـدْ حَصَّلَـتْ
ولهـا التـاريـخُ مِنْهُـمْ شَكَّلَـتْ

كـانـتِ الشَّيْـخَ ، وفـي عهـدٍ بعيـد شـاحبَ الـوَجْـهِ دِمَـاهُ مـنْ جَلِيدْ
عُـزفهـا بـالٍ لهـا ديـنٌ قَـدِيـمْ وكـذاكَ الصُّبْحُ واللَّيْلُ البَهِيـمْ ![3]
كـرْمُهـا مـا فيـه أمـواجٌ لخمـرِ تُـرْبُهـا مـا فيـهِ مـنْ وَهْـجٍ لجمـرِ[4]
ومِـنَ الصَّحـراءِ كـانَ المَحْشَـرُ فَلَـدَيْهـا مِنْـهُ عُمْـرٌ آخَـرُ[5]
رحمـةُ اللهِ ومـنْ تَحْنـانِـه فـارسٌ ظلَّـت وروما أيـنَ هِـي ![6]
مـا مضـى عـن جِسْمِهـا روحٌ رؤوم أبغيـرِ الحَشْـرِ مـنْ تُـرْبٍ تَقُـومْ[7]
رجـلُ الصَّحـراءِ روحـاً قـد مَنَـخ وإلـى صحـرائِـه عنهـا نَـزَخ[8]
ومحـا مـنْ لـوْحنـا كـلَّ القـديـم جَـدَّدَ العَصْـرَ ، وليـس بـالمقيـم

إنَّهـم لـم يـذكـروا فَضْـلَ العَـرَبْ
وَمِـنَ الإفـرنـجِ ذابـوا فـي اللَّهَـبْ !

***

(١) الرجام : جمع رجم ، وهو القبر .
(٢) رستم : أعظم أبطال الأساطير عند الفرس . وحيدر : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٣) البهيم : الذي لا ضوء فيه إلى الصباح . يقول : إنَّ كل شيء فيها كان قديماً بالياً حتى ليلها ونهارها .
(٤) الترب : التراب . والوهج : اتقاد النار .
(٥) يشير إلى فتح العرب لفارس ، ويشبهه بالبعث والحياة الأخرى .
(٦) التحنان : الرَّحمة .
(٧) الرؤوم : الرحيمة . وفي الأصل الطاهرة .
(٨) نزخ : بعد ورحل .

ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها وإنشاد غزل رقيق[(١)]

لِلْحُسامِ واليَراعِ تجعلُ الكفَّ المدارا
منْ جَوَادِ الجسم بَعْدُ ، أَنْتَ لا تخشى العِثارا[(٢)]
الحسامُ واليَرَاعُ منهما فَضْلٌ عميم
يا أخيَّ مَصْدَرُ النُّورِ لدينا كانَ نارا[(٣)]
عِنْدَ كفارٍ أجنبي أيُّ خيرٍ فيهما
لهما بالدِّين سِعْرٌ يشتري حتى النُّضارا[(٤)]
عِزَّةُ الدِّين بعلمٍ وبجهلٍ ذلَّةٌ
دينُ جُهَّالٍ كزهرِ الثَّورِ قَدْ جابَ القِفَارا[(٥)]
مِثْلُ كَرْباسٍ وإلياسٌ يَخيطُ نِصْفَهُ

---

(١) ناصر خسرو : من شعراء إيران في القرن الخامس الهجري ، وكان من دعاة المذهب الإسماعيلي ، وجمهرة أشعاره في المسائل المذهبية والفلسفية . ولما قدم مصر ، وكل إليه الخليفة الفاطمي نشر المذهب الإسماعيلي في خراسان ، وجعله رأس الباطنية في تلك الجهات .

(٢) الحسام : السيف . واليراع : القلم . وهذا الشعر نوني القافية في الأصل . ويقول الشاعر : إنك إذا جعلت من كفك ميداناً يجول فيه القلم والسيف ، فإن جواد جسمك لا يكبو من بعد .

(٣) أخي : تصغير أخ . وهو يقول : إنَّ الحسام واليراع مصدر الخير ، كما أن النار مصدر النور .

(٤) النُّضار : الذهب . وإذا اقترن القلم والسيف بالدِّين غلا ثمنهما ، وعظمت قيمتهما .

(٥) يقول : إنَّ الدين يعزُّ بالعلم . والدين عند الجاهل كالزَّهرة عند الثور الذي يتجوَّل في الصحارى .

ويهــوديٌّ لكفْــنِ نِصْفِــه الثــانــي استعــارا[١]

أبداليّ

وفتـىً مُلْكـاً عظيمـاً قـد أقـامـا للجبـالِ عـادَ واختـارَ المَقَـامـا
أضْـرَمَ النيـرانَ فـي تلـكَ الجبـال أحْـرَقَتْـهُ ؟ أمْ شجـاعٌ لا يبـالـي

* * *

زنده رود

الشعـوبُ بينهـا صَفْـوُ الإخـاء إخوةٌ ، في حَرْبِها أو في المِرَاء[٢]
وحيـاةُ الشَّـرْقِ كـانَـتْ مـنْ حَيَـاتِـه ابنُـه الجنـديُّ أمسـى مـنْ حُمَـاتـه !
ذاتَـه مِـنْ ذاتِـه جهـلاً سَلَـبْ مـالَـهُ مِـنْ ممكنـاتٍ مـا حَسَـبْ[٣]
ولـه قلـبٌ وعنـهُ غـافِـلُ للجسومِ والقُلوبِ منْ فراقٍ فَاصِلُ[٤]
إنَّمـا الجـوَّالُ ضـلَّ كـلَّ غـايـه روحُـه مـا إنْ دَرَتْ معنـى النِّهـايَـهْ

---

(١) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض وقيل هو الثوب الخشن . والكفن : تكفين الميت .
وإقبال يومىء إلى حقيقة تاريخية هي ظهور النبي إلياس في اليهود بعد انقسام مملكتهم قسمين شمالي وجنوبي . وقد أراد أن يهدي اليهود إلى دين قويم أساسه توراة موسى ، وكان يلبس قباء أبيض . وما زال اليهود إلى اليوم يصلون بقباء أبيض لا يجيزون الصّلاة إلا به .
وقد تلقينا هذه المعلومات عن الأستاذة منى ناظم المعيدة بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من جامعة عين شمس ، فلها الفضل وإليها الشُكر .

(٢) المراء : الجدال . يقول : إنَّ الشعوب إخوة إلا أنَّها على الدوام تتحارب وتتجادل .

(٣) حسب الشيء : عدَّه وأحصاه .

(٤) يقول : إن الفراق حدٌّ يفصل بين الأجسام والقلوب .

يعـــرفُ الأفغـــانَ حقًّـــاً شـــاعـــرُ   قـــالَ مـــا قَـــدْ قـــالَ وهـــو السَّـــادِرُ[1]
إنَّـــه كـــانَ حَكِيْـــمَ شَعْبِهـــمْ   بـــذلَ الـــوُسْـــعَ بِقَصْـــدِ طَبِّهـــم[2]
ســـرُّ قـــومٍ قَـــدْ دراهُ ثـــمَّ قـــالا   مـــا رآه الحـــقُّ لـــم يَخْـــشَ الـــوَبـــالا[3]

« فتـــى الأفغـــانِ لـــو يلقـــي البعيـــرا
يحمـــلُ الجـــوهـــرَ والـــدُّرَّ الـــوفيـــرا
مـــا تملَّـــى ذلـــكَ الـــوَسْـــقَ الكبيـــرا[4]
وأرادَ جُلجُـــلَ الهـــادي الصَّغيـــرا[5]

أبدالي

إنَّ مِـــنْ قلـــبٍ لنـــا الطَّبْـــعُ اتَّقَـــدْ   وصَحَـــا منـــهُ التُّـــرابُ أوْ رَقَـــدْ
وبمـــوتِ القَلْـــبِ جِسْـــمٌ غُيِّـــرا   ودمـــاً أمســـى النَّضِيـــحُ أحمـــرا[6]
بفســـادِ القلـــبِ مـــا هـــذا الجَسَـــدْ ؟   وَخْدَهُ كُنْ مَنْ على القَلْبِ اعْتَمَدْ
آسيـــا جســـمٌ وَمِـــنْ مـــاءٍ وطيـــن   قلبُهـــا الأفغـــانُ خفَّـــاق الـــوَتِيْـــن[7]
ولهـــا منـــه الفســـادُ إنْ فَسَـــدْ   وانطـــلاقٌ مِنْـــهُ يـــا نِعْـــمَ المـــدد ![8]
بـــانطـــلاقِ القَلْـــبِ فـــالجِسْـــمُ الطَّليـــق   أوْ لـــريـــحٍ كـــانَ بـــالقـــشِّ الخُفُـــوقْ[9]

---

(١) السادر : الذي لا يبالي .
(٢) طَبُّهم : علاجهم من المرض .
(٣) الوبال : سوء العاقبة .
(٤) تملَّى الشيء : تمتع برؤيته . الوَسْقُ : الحِمْلُ .
(٥) الجلجل : الجرس الصغير . والهادي : العنق .
(٦) النضيح : العرق .
(٧) الوتين : عرق في القلب .
(٨) المدد : العون .
(٩) يقول : إن الجسم إذا لم ينطلق بانطلاق القلب ، كان شبيهاً بالقشَّةِ إذا اشتدت بها الريح في يومٍ عاصف .

ولـه كـالجسـم بـالعُـرف القُيُـود　　دينُـه أحيـاهُ والمـوتُ الحُقُـود[1]

بمقـامِ وَحْـدةٍ قـد عـزَّ دِيـنْ

ذلـكَ الشَّعْـبُ بهـا شَعْـبٌ يكـونْ

ذاتَـه يفقـدُ ذا الشَّـرقُ المُقلِّـدْ　　لَيْتَـهُ النَّقـادُ لِلْغَـرْبِ المُفَنِّـدْ[2]

عـزُّ هـذا الغـرب لا بـالمطـربـات　　لا ولا رقـصِ الغـوانـي العـاريـات

لَـمْ يَهَبْـهُ قَـوَّةً وَرْدُ الخُـدود　　وقصيـرُ الشَّعْـرِ أو مَيْسُ القُـدود[3]

مجـدُه مـا كـانَ مِـنْ تَـرْكٍ لِـدِيْـن　　لَيْـسَ مِـنْ خـطٍّ لـديـهِ بـالمَكِيْـن[4]

العلـومُ والفنـونُ سِـرَّهُ　　وبمصبـاحٍ لَـدَيْـهِ نَـوْرُهُ

لستَ بـالثَّوبِ حكيمـاً كـالأعـاظـم　　أيُضارُّ العِلْمُ مِنْ لُبْسِ العمائم[5]

تُـذرِكُ العِلْـمَ بِعَقْـلٍ أنـتَ مـالـك　　لا بثـوبٍ تستعيـرُ مِـنْ هُنـالـك[6]

ليـسَ فـي هـذا السبيـل غيـرُ عِلْـم　　مـا علـى رأسِـك مِـنْ غَيْـرِ المُهِـمْ

إنْ مَلَكْـتَ الفِكْـرَ هـذا الفكـرُ حَسْبُـك

كـلَّ شـيءٍ عَنْـهُ مـا يُغنيـكَ ، طَبْعُـك

السَّنـاجَ فـي الليـالـي إنْ أكَلْتَـه　　فإلى العلم السبيلُ قَدْ وَجَدته[7]

من رأى يوماً حدود مُلك مُعَنَّى ؟　　يَطْلبُ المطلوب مجهوداً وأيْنَا[8]

---

(١) الحقود : الأحقاد .

(٢) فَنَّده : كذَّبه وخطَّأ رأيه .

(٣) الميس : التبختر .

(٤) هذا الخط في الأصل هو الخط اللاتيني . والمكين : صاحب الحظوة .

(٥) ضاره : ضره .

(٦) يريد بهذا الثوب زي أهل الغرب .

(٧) السناج : أثر دخان المصباح . وأكلُ سناج المصباح في الفارسية كنايةٌ عن سَهَرِ الليالي في طلب العلم .

(٨) الأين : التعب .

فَقَدَ الأتراكُ ذاتاً بالمُدَام فالفرنجُ أسْكَرُوهم بالسُّمام[1]
إنَّ تِرْياقَ العِرَاقِ ما لَدَيْهِمْ رحمةً يا ربِّ فابْسُطْها عليهم[2]
وعبيدُ الغَرْبِ يبغونَ الظُّهورا إنَّهم يُرْضُوْنَ بالرَّقْصِ الغُرورا !
روحَهم في اللَّهوِ كانوا يَفْقِدُونا يَصْعُبُ العلمُ ، بلهوٍ لنْ يكونا
يَطْلُبونَ السَّهلَ لكن منْ كَسَلْ طبعُهم ما يبتغي سَهْلَ العَمَلْ

اليَسيرُ السَّهْلُ لَكِنْ إنْ طلبتا
أنتَ روحاً لكَ منْ جسمٍ فَقَدْتا

* * *

زنده رود

الفِرَنْجُ بالرقيِّ ما أرادوا ؟ ألفَ فردوسٍ من الألوانِ شادوا[3]
ظاهرٌ مِنْهُم دياراً حرَّقا والغصونَ بالعِشاشِ مَزَّقا[4]
ظاهرٌ يبدو لعينٍ لامعا وَهَنَ القلبُ لعينٍ خانعا[5]
يزلقُ القلبُ وللعينِ النَّظَرْ وأمامَ المَعْبَدِ الخفَّاقُ خَر[6]
ومصيرُ الشَّرْقِ هذا مَنْ دَرَىٰ ؟ أيُّ تدبيرٍ وتبغي مَظْهَرا

---

(١) يقول : إن الأتراك سكروا بخمرة الغرب ، وهي كناية عن افتتانهم به . والسُّمام : جمع سم .

(٢) الترياق : دواء السُّموم . وفي أشهر كتاب من كتب الأدب الفارسي ، وهو كتاب كلستان لسعدي الشيرازي عبارةٌ مشهورةٌ مأثورةٌ ، وهي : (يُسْلم الملدوغُ الروحَ قبل أن يُحضروا له الترياق من العراق) .

(٣) شاد البناء : رفعه .

(٤) العشاش : جمع عش .

(٥) الخانع : الخاضع في ذل .

(٦) الخفاق : القلب .

أبدالي

وعلـــى تغييـــرِ ذاكَ القَـــادِرِ بهلـــوي إيـــران قُــلْ أوْ نَـــادِرِ
بهلـــوي ملـــكُ قُبـــاذٍ نـــالـــه كـــلُّ معقـــودٍ لـــديـــه حَلَّـــه[1]
ومـــن الـــدُّرَّانييـــن كـــانَ نـــادِرُ وهـو لـلأفغـانِ ذخرٌ مَنْ يُكـابِرُ ؟
إنَّـــه لِلـــدِّيـــن يَـــأسَـــىٰ والـــوَطَـــنْ قـادَ جيشـاً فـي جبـالٍ قَـدْ كَمَـنْ[2]
بطـــلُ الهيجـــاءِ حقَّـــاً والأميـــزْ والحـديـدُ عنـد قـوْمٍ والحـريـز ![3]
مـــنْ رأى ذاتـــاً لـــه إنـــي فَـــدَيْتُـــهْ وازنَ العَصْـرَ بحـذقٍ مَـنْ هَـوَيْتُـهْ
كـــم لأهـــل الغـــربِ مـــنْ فَـــنٍّ سَحَـــرْ
إنْ نَسِيْـــتَ الـــذَّات كُنْـــتَ مـــنْ كَفَـــرْ !

***

السُّلطانُ الشَّهيد

عَـنْ بـلادِ الهنـدِ حَـدَّثني طـويـلا قَشُّهـا يَفْضُـلُ بستـانـاً جميـلا[4]
مسجدٌ فيها خلا مِنْ صوتِ حَشَدْ ديـرُهـا مـا فيـهِ نـارٌ بَعْـدُ خَمَـدْ
قلبنـا حـزنـاً علـى الهنـدِ انْفَطَـرْ روحُنـا شيئـاً سِـواهـا مـا ادَّكَـرْ[5]

---

(١) بهلوي : هو رضا شاه بهلوي المتوفى عام ١٩٤٤م الذي أسس الأسرة المالكة في إيران بعد أن أسقط الأسرة القاجارية عام ١٩٢١م ورضا شاه مؤسس إيران الحديثة وعلمٌ عظيمٌ من أعلام تاريخها . وقباذ هو كيقباذ أول ملوك الأسرة الكيانية في إيران ، وفي عهده هزم البطل رستم التورانيين أي الأتراك هزيمة ماحقةً .

(٢) يأسى : يَحْزنُ .

(٣) الهيجاءُ : الحَرْبُ .

(٤) فضله : كان أفضل منه .

(٥) ادَّكر : ذكر .

حــزْنُهــا قِسْــه بــأحــزانٍ لنــا ليــس يــدري مــنْ نُجِــبُ حــالَنــا

زنده رود

الهنــودُ أنكــروا قــانــونَ غَــرْب كــلُّ سحــرٍ رَفَضُــوهُ كــلَّ خَلْــب[1]
إنَّ عُــزفَ الغيــر روحــاً يُثْقِــلُ مِــنْ سمــاءٍ إنَّــه لا يَنْــزِلُ !

* * *

السُّلطانُ الشَّهيد

وإذا الإنســان مــنْ طيــنٍ خَــرَجْ قَلْبُــهُ مــنْ رغبــةٍ فيــه اخْتَلَــجْ
لــذَّةُ العصيــانِ كــانَــتْ مُتْعَتُــهْ رؤيــةُ الــذَّاتِ رآهــا بَهْجَتُــهْ
هــذه الــذَّاتُ بعصيــانٍ تُنَــالْ وانعـدامُ الـذَّاتِ معنـاهُ الـوَبـالْ[2]
أنْتَ فــي أرضــي وفــي داري حَلَلْتــا وبعيــنٍ قبــريَ البــالــي مَسَحْتَــا
وعــرفــتَ حَــدَّ كــلِّ الكــائنــات فــي الجنــوبِ أيْــنَ آثــارُ الحيــاة[3]

زنده رود

في الجنوبِ قَدْ نَثرْتُ الدَّمْعَ حَبّا فــاكتســتْ أرضٌ بِــهِ وَرْداً وأبّــا[4]
نهرُ « كاويري » يَسيرُ في جموحهْ ورأيــتُ وَقْــدةً أخــرىٰ بِــروحِــهْ[5]

---

(١) الخلب : الخداع .
(٢) الوبال : سوء العاقبة .
(٣) اخترنا هنا كلمة جنوب عوضاً من « دكن » وهو اسم إقليم في جنوب الهند . وكلمة دكن في الأوردية بمعنى جنوب .
(٤) الأبُّ : المرعى .
(٥) اسم النهر الذي تقع عليه مدينة سرنجاباتم .

السُّلطانُ الشَّهيد

قـولُـكَ النُّـورُ بـه ضـاءت قُلـوبْ ... لـكَ دمـعٌ نـاره منهـا أذُوبْ[(١)]

عـالِـمُ الأسـرارِ دَوْمـاً مـنْ ظَفَـرْ ... مِـنْ عُـروقِ العُـوْدِ أنهـاراً حَفَـرْ[(٢)]

ونشيـدُ الـرُّوح إنْ أنشَـدْتَـهُ ... اللهيـبُ فـي الحشـا أوْقَـدْتَـهُ

عنـد مـولـى الكـلِّ كُنْـتَ حـاضِـرا ... مـنْ سِـوَاهُ كـانَ يهـدي سـائـرا

وعلـى القَـوْلِ هنـاكَ مـا شجُعْـت ... رؤيـةٌ بـالـرُّوحِ كـلٌّ مـا استطعـت

وأنـا مـنْ أحـرقتنـي نـارُ شِعْـرِكْ ... ولساني لا يني عن ذِكْرِ فِكْرِكْ[(٣)]

قـال « بَيْـتٌ قلتَـه مـنْ قـالـه ؟ ... ضجَّـةُ الـدُّنيـا ومـا فيهـا لـه »

ببيـانٍ لـكَ فـي الـرُّوح اسْتَعَـرْ ... نَهْـرَ كـاويـري فَصِـفْ وَازْوِ الخَبَـرْ

زنـده رود أنـت وهـو زنـده رود

إنَّ لحنـاً مـع لحـنٍ مـا يجـود[(٤)]

رسالةُ السُّلطان الشَّهيد إلى نَهْرِ كاويري

حقيقةُ الحياةِ والموتِ والاستشهاد

إنَّ هـذا النَّهـرَ قـد سـارَ الهُـوَينـى ... ودوامُ السَّيْـرِ مـا أضنـاهُ أينـا[(٥)]

نـائحـاً بيـنَ الجبـالِ ، كُنْـتَ تَعْبُـرْ ... وطـريقـاً لـكَ بـالأهـدابِ تَحْفُـرْ !

أنـتَ مِـنْ جِيحـونَ خيـرٌ والفـرات ... للجنـوبِ كُنْـتَ وهَّـابَ الحيـاة

يـا لأرضٍ أنـتَ قـد عـانقتهـا ... بـرواءٍ كـانَ فِيـكَ زِنْتَهـا

---

(١) ضاء : أنار وأشرق .

(٢) عروق العود هنا هي أوتاره . وفي الأصل من دماء تلك العروق .

(٣) يني : يفتر ويضعف .

(٤) يجود : يحسن .

(٥) الأين : التعب .

شِخْـتَ لكـنْ أنْـتَ فيّـاضُ الشَّبـاب والبهـاءُ لـكَ كـالسِّحـرِ العُجـاب
بنــتُ مــوجــاتٍ لــديــكَ دُرَّةٌ فلتثُــر مــوجـاً عليــك طُــرَّة[1]
حُــرْقَــةُ العيــشِ تغنّيهــا نشيــدا أعلِمْـتَ مـنْ لِـذَا كـانَ البـريـدا[2]
إنَّــه مــنْ طُفْـتَ حَـوْلَ سَطْـوَتِـه لَـكَ مـرآةٌ لِـوَجْـهِ قُـوَّتِـه[3]
الصَّحــارىٰ جنَّــةٌ مــنْ قُــدْرَتِــهْ بـدمـاهُ كـانَ رَسْـمُ صُـوْرَتِـهْ
الأمــانــي مــنْ ثــراهُ تَقْتَــربْ مــنْ دِمَـاه فِيْـكَ مَـوْجٌ يَضْطَـرِبْ

كــانَ فعــلاً كــلُّ قــولٍ قــالــه
لــم يَنَــمْ ، والشَّــرْقُ نــامَ ليلَــه

إنَّنــا الأمــواجُ فــي نَهْــرِ الحيــاة إنَّمـا التَّبـديـل شـأنُ الكـائنـاتْ
مــا الحيــاةُ غَيْــرَ تجــديـدٍ تجـدَّدْ عــالمـاً تطلـبُ فـي شـوقٍ تمهَّـدْ
الــذَّهــابُ والمجــيء مـا همـا الكيــانُ لِلْــوُجــودِ مِنْهُمـا
الطَّــريــقَ راحلــون فــي سَفَــرْ سَفَـرٌ يخفـى لكـي يبـدو الحَضَـرْ
النِّيــاقُ والصَّحــارى والنَّخيــل تِلْـكَ أشجـاهـا وأبكـاهـا الـرَّحيـل
بــرهــةً حَلَّـتْ وُرودُ الـرَّوض ضيفـا لاختبـارٍ عُـرِّضت حسنـاً وعَـرْفَـا[4]
مأتمٌ في الرَّوضِ أمْ أفراحُ سُورْ ؟ برعمٌ في الحِضْنِ ، نَعْشٌ لِلزُّهُورْ[5]
أحمــرُ الــوَرْدِ لــهُ قُلْـتُ اخْتَـرِقْ قــالَ سـرِّي مـا عَـرَفْـتَ يـا لَبِـقْ !

مِــنْ هشيــمٍ للــوُجــودِ ذا البنــاء
للظُّهــورِ حســرةً كــانَ الجــزاء

ما مضى أو ما يكونُ ، اِمْضِ عَنهُ المجـيءُ للـوُجـودِ ، دَعْـكَ مِنْـهُ

---

(١) الطرة : شعر مقدم الرأس . يشبه الأمواج بالشَّعر الثائر .

(٢) البريد : الرَّسول .

(٣) في الأصل : أنت حامل المرآة لوجه سطوته .

(٤) العرف : الرائحة الذكية .

(٥) السور : كلمة فارسية تستخدم في العربية ، وهي بمعنى الوليمة والضيافة .

لا تَضِعْ مِثْلَ الشرارِ إنْ قَدِمْت اطلبنَّ بَيْدراً إمّا مَضَيْت[١]
وإذا أشْبهتَ شمساً في الصِّفات فارتفعْ بَيْنَ الشُّموسِ المشرقات
الرياضَ احْرِقْ وآكامَ الصَّحارى والسِّماكَ أصْلِ بقاعِ اليمِّ نارا[٢]
وإذا عوَّدْتَ جُرْحَ السَّهْمِ صَدْرا فلتعشْ صَقْراً وكُنْ في الموتِ صَقْرا
السكونُ في الحياةِ للثَّباتِ ما سألتُ اللهَ طَوْلاً في حياتي !

دينُنا والعُرْفُ في تِلْكَ الحياةِ
برهةً كاللَّيْثِ لا عاماً كشاةٍ[٣] !

الحياةُ برضاكَ أحْكِمَتْ قَتَلَتْكَ أُخْذةٌ قَدْ دُبِّرت[٤]
الرَّدَىٰ ظبيٌ وهذا المرءُ ضَيْغَمْ من مقاماتِ حِمامَ المرء فاعلم[٥]
إنَّما الكاملُ يجتاحُ الحِماما كالشواهين إذا صادت حماما[٦]
ويموتُ العَبْدُ خوفاً من حِمام لَمْ يَكُنْ عيشٌ له غَيْرَ الحرام !
لكنِ الحرَّ هذا شأنُه ؟ روحُه الأخرىٰ لَدَيْهِ حَيْنُه[٧]
ليس يُجري ذِكْرُ موتٍ بتَّةً ويموتُ الحُرُّ لَكِنْ بَغْتةً[٨]
دَعْكَ مِنْ مَوْتِ القُبُورِ والتُّراب إنَّه الموتُ وَلٰكِنْ في التُّراب
ما يُرَجِّي مؤمنٌ منْ ربِّه موتُ إطلاقٍ له منْ تُرْبه
لطريقِ الشَّوْقِ هذا الموتُ غايه وهو للتكبير في حربٍ نهايه

---

(١) البيدر : الموضع الذي يدرس فيه القمح .
(٢) السِّماك : جمع سمك .
(٣) أي عش برهةً كالأسد ولا تَعِشْ عاماً كالشاة .
(٤) الأخذة : الرقية تأخذ العين كالسِّحر .
(٥) الضيغم : الأسد .
(٦) الكامل : الرجل الكامل . يجتاح : يقهر . الحمام : الموت . الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر كالصقر .
(٧) الحين : الهلاك ، والمراد هنا الموت .
(٨) بتة والبتة : بمعنى لا رجعة فيه .

ليس للمؤمن غيرُ الأطيب أيُّ موتٍ مِثْلُ موتِ ابنِ النَّبي[1]
الملوكُ حاربوا منْ أجْلِ سَلَبْ كالنَّبيِّ مؤمنٌ في خَوْضِ حَرَبْ[2]
وبها يمضي إلى دارِ الحبيب يَهْجُرُ الدُّنيا لِوَصْلٍ منْ قَرِيب
قالَ للقومِ النبيُّ ذو المحامد راهبُ الإسلام منْ كانَ المجاهد[3]
الشَّهيدُ وَحْدَهُ هذا دَرَاه
بدمٍ أجْرَاهُ في الحرب اشْتَراه

* * *

زنده رود يغادرُ الجنَّة العالية وطلبَ حور الجِنان

كأسُ صبري أصْبَحَتْ بعضَ الفُتات قال لي الروميُّ قُمْ قَبْلَ الفَوات[4]
يا حديثَ الشَّوْقِ يا جَذْبَ اليقين ! يا لإيوانٍ على الأسِّ المتين[5]
دامِيَ القَلْبِ إليه قَدْ وصَلْت وعلى أعتابِه حُوْراً رَأَيْت
قالتِ الحورُ تَعَالَ زِنْدَهْ رُود لكَ عَذْبُ اللَّحن يشجي ، والوُقود[6]
خفقاتٌ منْ ضَجِيجِ حَوْلَنا زِنده رود اجْلسْ قليلاً بيننا

* * *

(١) ابن النبي هنا هو الإمام الحسين رضي الله عنه سيد الشهداء .
(٢) أي أن المؤمن يشبه النبي ﷺ ، ويقتدي به في الجهاد .
(٣) الإشارة إلى قوله ﷺ : « الجهاد رهبانية الإسلام » .
(٤) الفتات : ما تفتت من الشيء وكسارته . والفوات : فوات الأوان .
(٥) يا هنا للتعجب . والأسُّ : الأساس .
(٦) الوقود : النار .

زنده رود

كُـلُّ مَـنْ يَعْـرِفُ سِـرّاً للسَّفَـرْ　　يَرْهَبُ المَنْزِلَ لا لصَّ الممَرْ[1]
الـوِصَـالُ مـا أراحَ قَـطُّ عِشْقـا　　بَـلْ أراحَ سـرمـديَّ الحُسْـنِ حَقّـا
وابتـداءً عِنْـدَ حَسْنـاءِ سُجُـود　　بـانتهـاءِ حُطِّمَـتْ تِلْـكَ القُيـود
سَـادِرٌ مـا كـفَّ يـومـاً عـنْ رَحِيْـل　　وهو في غيرِ المكانِ ابنُ السَّبيل[2]

دِيننـا يُشْبِـهُ مَـوجـاً أسـرعـا
مـا أقـامَ بـلْ أرادَ المَهْيَعـا[3]

حُوْرُ الجنَّة

لَـكَ دَلٌّ مِثْـلَ دلٌّ للـزَّمـان
فعلينـا لا تَضِـنَّ بـالأغـانـي

غزل زنده رود

أإلى المرءِ وَصَلْتَ ؟ لك رَبّاً كَيْفَ تَطْلُب　　وَمِنَ الذَّاتِ فَرَرْتَ أنْتَ صَحْباً كيفَ تَطْلُب
شاحبَ الوجْهَ تَعَلَّقَ بالغُصونِ الطَّلَّ وارْشُفْ　　لك شيئاً مِنْ نسيمٍ هبَّ هبّاً كَيْفَ تَطْلُبْ
قطـرتـان مـنْ دمـاءٍ ذاكَ مـا سَمَّـوْهُ مِسْكـاً　　يا غزالَ المسك مسكاً مِنْك عُجْباً كَيْفَ تَطْلُب[4]
إنَّ عـزَّ المُلْـكِ والسُّلْطـانِ معيـارٌ لِفَقْـرٍ　　الحطامَ ما طَلَبْتَ المُلْكَ وَهْباً كَيْفَ تَطْلُب

---

(١) في الأصل : أنَّ رهبةَ من المنزل أشدُّ من رهبة من قاطع الطريق .
(٢) السَّادر : الذي لا يبالي بما صنع ، والمراد به : العِشْق .
(٣) المهيع : الطريق الواسع .
(٤) يعتقد القدماء أنَّ المسك مِن دم الغزلان ، وفي ذلك يقول المتنبي :
وإن تَفُـقِ الأنـامَ وأنْـتَ منهـم　　فـإنَّ المِسْـكَ بَعْـضُ دَمِ الغـزال
والعجب : التيه والخيلاء . وفي الأصل يا غزال الحرم في الخطا ماذا تطلب .
والخطا : اسم لشمال الصين ، وهذا الإقليم يشتهر بغزلان المسك .

عَرَفُوهُ في الوُرُوْدِ الحُمْرِ بالبستانِ يَبْدُو لحنُنا الدَّامي الحزينُ قدَّ قلباً كَيْفَ تَطْلُب
مَـنْ لـه قلـبٌ مُنيـرٌ زادَ نـوراً كـلَّ عيـنِ ليت شعري لِعَشَى العَيْنَيْنِ طَبّاً كَيْفَ تَطْلُب
زاهـدون ، رؤيـةُ الـدُّنيـا كـرامـاتٌ لنـا
نظرةٌ منا ، وما يغويك خلباً كَيْفَ تَطْلُب

في الحَضْرَةِ الإلهيَّة

مِـنْ تَجلِّـي اللهِ كـانَـتْ جَنَّتُـه لا يـريـحُ الـرُّوْحَ إلا رُؤْيَتُـه
نَحْـنُ قـومٌ قَـدْ جَهِلْنَـا أصْلَنَـا نحـنُ طَيْـرٌ وأضعنـا عُشَّنَـا[1]
علَّمَنَـا إنْ كـانَ سـاءَ جَـوْهـرا كـانَ لِلْعَيْـنِ الحِجَـابَ الأكبـرا
وإذا بـالعِلـمِ حَقَّقْنـا النَّظَـرْ فـالسَّبيـلُ والـدَّليـلُ يُعْتَبَـر
وَيُـريـكَ للـوجـودِ قِشْـرَه ويقـولُ سَـلْ تبيَّـنْ سِـرَّهُ
رامَ تمهيـدَ الطَّـريـقِ دائمـا أيْقَـظَ الشَّـوْقَ وكـانَ نـائمـا
وَهَـبَ النَّـارَ لقلـبِ والـوجيبـا وبجوفِ اللَّيْلِ قَدْ أهدىٰ النَّحيبا[2]
إنَّـه مـا فسَّـرَ الـدُّنيـا لَنَـا عَيْنَنَـا رَبَّـى وَرَبَّـىٰ قَلْبَنَـا
وإلـى جَـذْبٍ وَشَـوْقٍ يَـرْفَعُـكْ مِثْـلَ جبـريـلَ أراهُ يُبْـدِعُـكْ[3] !
هَـلْ يُتيـحُ العِشْـقُ يـومـاً عـزلَـةً إنَّـه يَحْسُـدُ مِنْـهُ مُقلَـةً[4] !
كـان فـي البَـدْءِ الـرَّفيـقَ والطَّـريقـا
ثـم يمضـي بَعْـدَ أن يَنْسَـىٰ الـرَّفيقـا
عَنْ قصورٍ سِرْتُ عَنْ حُورٍ بَعُدْت زورقـي روحـي وفـي نـورٍ فَقَـدْت

(١) الطير : الطيور .
(٢) الوجيب : خفقان القلب . والنَّحيب : رفعُ الصوت بالبكاء .
(٣) يبدع : يخلق .
(٤) أي إن العشق لا يتيح للعاشق خلوةً مع الحبيب .

والغـريـقَ كُنْـتُ فـي هـذا الجمـال وهـو بـالتَّبـديـل يحمـي مـنْ زوال !
وَفَقَـدْتُ فـي ضَميـرِ الكـائنـات فـالحياةُ كـالـرَّبـابِ الصَّـادِحـات[1]
إنَّمـا أوتـارُهـا كـانَـتْ رَبـابـا كـلُّ لحـنٍ كـانَ فـي قلبـي جِـرَابـا
أسـرةٌ نَحْـنُ بهـا نـارٌ وَنُـوْر آدمٌ والشمـس جبـريـلٌ وَحُـوْر
وأمـامَ الـرُّوحِ مـرآةٌ أُقيمـت بـاليقيـنِ حَيْـرَةٌ طـالـتْ فَشِيْبَتْ[2]
وصبـاحُ اليـومِ مـلءُ العَيْـنِ نُـور لغـدٍ فيـهِ ولـلأمْـسِ الظُّهـور
وبـأسـرارٍ لـه ربِّـي بـدا نَفْسَـه بـالعيـن منِّـي شـاهـدا
وازديـادٌ لا يَحُـوْرُ أنْ يُـرىٰ بلْ خروجُ الجسم مِنْ قَبْرِ الثَّرى[3]
ردَّدَ العَبْـدُ ومـولاهُ النَّظَـرْ فـإذا شكـواهُمـا شَكْـوىٰ الحسَـر[4]

طلـبٌ تِلْـكَ الحيـاةُ حَيْـثُ كـانَـتْ
أيُّنـا الصيـدُ ؟ رمـوزٌ مـا اسْتَبـانَـتْ

لـذةُ الـرؤيـة كـانـت فـي جَنَـانـي وَمِنَ العِشْق جَرُؤتُ في لساني[5]
« أنـتَ نـورَ العـالميـن قَـدْ وَهَبْنـا فـإلـى دنيـا الثَّـرى هـلاَّ نَظَـرْتـا
مـا رأى الإنصـافَ مِنهـا الحـرُّ مَـرَّةْ غير شوكٍ لم يَجِدْ في كلِّ زَهْرَه
غـالـبٌ فـي العَيْـشِ مسـرورٌ طَـرِبْ والليـالـي عـدَّهـا مـنْ قَـدْ غُلِـبْ !
إنَّ الاستعمـارَ مِنْـهُ كُـلُّ نَكْـسِ يـا لـه ليـلاً يُـريـدُ حَجْـبَ شَمْـسِ
وعلـومُ الغَـرْبِ نَهْـبٌ يُـذْكَـرُ وبـلا حَيْـدَرَ دَيْـرٌ خَيْبَـرُ[6]

---

(١) الرباب : من آلات الطرب .
(٢) شابه : مزجه .
(٣) يحور : ينقص .
(٤) الحسر : التعب .
(٥) الجنان : القلب .
(٦) المراد بيذكر أنَّ هذا النهب معروف للناس يذكرونه جميعاً . وإقبال يشير إلى ما كان مِنْ أمر عليٍّ كرَّم الله وجهه في غزوة خيبر ، وقد سبق بيان ذلك .

إنَّمــا المسكيــنُ قــالَ : لا إلهــا فِكْــرُهُ نَــدَّ وَمِنْــهُ العَقْــلُ تــاهــا[1]
نحــنُ فــي الــدُّنيــا نمــوتُ أربعــا اذكــرنْ مِنهــا المُــرابـي الأجْشَعــا[2]
أيليـــقُ بـــكَ هـــذا العَـــالـــمُ
منـــه فـــي ذَيْلِـــكَ طيـــنٌ أقْتَـــمُ[3]

* * *

نداءُ الجمالِ الأبديِّ

مِـــنْ جميـــلٍ وَقبيـــحٍ ربُّنـــا خـــطَّ نقشـــاً ، إنَّ هـــذا نَقْشُنـــا
ما الوجودُ هَلْ عَرَفْتَ يا نجيب ؟ مِنْ جمالِ الله أنْ يُلفىٰ النَّصيب[4]
كــانَ هــذا الخَلْـقُ نِشْـدانـاً لِعِشْـق والظهـورُ بـالجمـالِ عِنْـدَ خَلْـقِ[5]
وضجيـــجٌ مـــا يكـــونُ أو غَبَـــرْ بجمـــالٍ عنـــدنـــا يبـــدي الأثـــر[6]
الفنـــــاءُ للحيـــــاةِ والبَقـــــاء إنَّهـــا خَلْـــقٌ وَشَـــوْقٌ لِلِّقـــاء
أنــت حــيٌّ ؟ حــنَّ شــوقــاً واخلُــقِ كـــلَّ أفـــقٍ مِثْلَنـــا فلتَطْـــرُقِ
مـــا تـــراهُ لا يـــواتـــي فَلْتُحطِّـــمْ عـــالمـــاً مِنْـــكَ إليـــكَ فَلْتُقَـــدِّمْ[7]
كــلُّ حُــرٍّ كــان مَكــروبــاً حــزينــا أنْ حَــوَاهُ عــالــمٌ لــلآخــرينــا
أعلــى الإبــداع أنْــتَ غَيْــر قــادر ؟ لَسْـتَ فـي رأيٍ لَـدَيْنـا غَيْـرَ كـافِـر

---

(١) ندَّ : نَفَر وشرد .
(٢) أي نموت أربع مرات . وفي الأصل أنَّ السبب في ذلك أربعة وهم المرابي ، والوالي ، وشيخ الطريقة ، والشيخ .
(٣) الأقتم : الذي يعلوه اللون القاتم .
(٤) يلفى : يوجد .
(٥) النشدان : الطلب . والخلق في الشطر الثاني بمعنى الناس .
(٦) غبر : مضى .
(٧) يواتي : يوافق .

وعـــدمـــت حسننـــا حتَّـــى الأثـــر　　مِـنْ نخيـلِ العَيْـشِ مـا ذُقْـتَ الثَّمـر
مِـــنْ رجـالِ الله ؟ كـنْ سيفـاً حُسَـامـا
عالمَ التَّقديرِ فاخْلُقْ ، والمَرَاما[1] »

* * *

زنده رود

عــالَـمُ الألــوانِ عَنْـهُ مـا الخبـر　　هلْ يعودُ الماءُ يجري في النَّهَرْ ؟
سِـرُّ تَكْـرارٍ عَـنِ الـدُّنيـا غَـرِيـبْ　　وهـو فـي طبـعٍ لهـا أمـرٌ عَجِيـبْ
لا تجــوز رَجْعَــةٌ تحــتَ السَّمــاءْ　　لـم يَقُـمْ قـومٌ تـلاشَـوا فـي الفَنـاءْ
لا يَقُــومُ الشَّعْــبُ مِــنْ أعمــاقِ قَبْــرِ
مــا لَــهُ مِــنْ بَعْــدُ قَبْــرٌ غَيْــرَ صَبْــرِ

نداء الجمال الأبدي

الحيــاةُ أهــي تَكْــرارُ النَّفَــس ؟　　أصلُها مِنْ قولِ « يا حيُّ » انْبَجَسْ[2]
إنَّ قُرْبَ الرُّوحِ مِنْ ﴿ إني قريب ﴾　　مِنْ حياةِ الخُلْدِ للمرءِ النَّصِيبْ[3]
يـرفـعُ التَّـوحيـدُ فـرداً بـالتُّقـاة　　يَجْعـلُ الشَّعْـبَ أحـاديـثَ الـرُّواة[4]

---

(١) السيف الحسام : القاطع .

(٢) انبجس الماء : تفجر .

(٣) قال جل وعلا في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] والله قريب علماً وإجابةً لتعاليه عن القرب مكاناً . قيل : إنَّ أعرابياً سأله ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية . والإيمانُ والعملُ الصَّالح شرط في قبول الدعاء .

(٤) التقاة : التقوى . وأردنا بجعل الشعب أحاديث الرواة أنَّ هذا الشعب مشهورٌ عند الناس رفيع القدر . =

وعَــنِ الشِّبلــي سمعــتُ أو أبــي ذَرْ　　طغــرلٌ كــانَ لِشَعــبٍ ثُــمَّ سنْجَــرْ[1]

بــالتَّجلِّــي كــانَ لِلْمَــرْءِ الثَّبــات　　إنَّــه لِلْفَــرْدِ والشَّعْــبِ الحَيَــاة

وَلَقَــدْ نــالا بتــوحيــدٍ كمــالا　　حقَّقَــا هــذا جــلالًا ذا جَمَــالا

وهمــا سلمــانُ فــي الفَقْــرِ التَّقــيّ　　وسليمــانُ لــه المُلْــكُ العلــيّ[2]

ويــرىٰ الــواحــدَ هــذا ، ذاكَ واحــدْ

جــالســنْ هــذا وذاكَ فلتُعَــاضِــدْ

= وينقسم التوحيد أقساماً عدة : أولها التوحيد الإيماني الذي يمكن أن يسمى التوحيد الامتثالي والتقليدي والتعبدي ، وهو توحيد العوام والمقلدين ، والثاني التوحيد الاستدلالي والعقلي ، وهو توحيدٌ علميٌّ تحقيقيٌّ . وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية . وثالثها توحيدُ الواصلين من الصُّوفية ، وهو توحيدٌ حاليٌّ وكشفيٌّ . وعندهم أنَّ حال التوحيد وصفٌ لازم لذات الموحِّد ، وللتوحيد نورٌ يكشف الظلمة عن الصُّوفي ، وبذلك يشاهد الجمال الإلهي ، ويفضي به الأمر إلى أن يعدَّ التوحيد صفةً له ، ويصبح أشبه شيءٍ بالقطرة التي تسقط من ذلك التوحيد في بحر .

(١) في الأصل بايزيد والشبلي وأبو ذر . وبايزيد هو بايزيد البسطامي من أهل القرن الثالث الهجري ، من كبار الصوفية ، وأول من نسبت إليه الشطحات . والشبلي صوفي بغدادي ، يقال : إنه أول من صعد المنبر لينشر في الناس مبادىء التصوف ، وكان يعظم الشرع ، ومات عام ٣٣٤هـ . وأبو ذر صحابيٌّ جليلٌ مشهور بالزهد والورع ، وأحد الأركان الأربعة عند الشيعة . طغرل بك : أول سلاطين السلاجقة ، وقد اتسع في الفتوح ، واستولى على بغداد ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتزوج ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وكانت وفاته عام ٤٥٥هـ . وسنجر : آخر عظيم من سلاطين السلاجقة ، وفي عهده أغار الأتراك على مملكته ووقع مع زوجه في أسرهم وتوفي عام ٥٥٢هـ .

(٢) سلمان الفارسي أعلى صحابة الرسول ﷺ قدراً ، وله شهرةٌ مستفيضة بالعلم ، والزهد ، والورع ، وهو مذكورٌ في الشعر الفارسي خصوصاً على أنه المثل الأعلى للمسلم التقي الذي رفعته تقواه إلى منزلةٍ ما بعدها من منزلة . أما سليمان فهو سليمان بن داود عليه السلام ، وكان عظيم الحكمة ، وسخر الله الرياح له يصرفها بأمره ، وله بساطُ الريح يطير به ، كما كان له من الجنِّ جنودٌ وملكٌ عظيم .

أنـت يـا مَـنْ « لا إلـه » قُلْـتَ مَـرَّهْ   أيُّ شيءٍ ألفُ عينٍ خَلْفَ نَظْرَهْ ؟
ولأهــلِ الحــقِّ دَعْـوى وَحَــدَثْ   وَلَهُــمْ قلــبٌ ودورٌ أبْعَــدَثْ
تُضبــحُ الــذَّرَّةُ شمســاً بــالنَّظَــرْ   نظــرةَ كُــنْ ، والإلـهُ مـا اسْتَتَـرْ !
نظــرةٌ بــاللهِ كَيْــفَ تــزدريهــا   والتَّجلّــي كــانَ لِلتَّــوحيــدِ فيهــا

وإذا التَّــوْحيْـــدُ شعبــاً أَسْكَــرا
فَمَكــانُ الشَّعْــبِ فــي أعلـى الــذُّرَى[1]

إنَّ رُوحَ الشَّعْـبِ بَيْـنَ النَّاسِ كَـانَـتْ   لِلْحُلــولِ قــطُّ جسمــاً مــا أَرَادَتْ
بــاجتمــاعِ القَــوْمِ لِلــرُّوحِ البَقَــاءْ   والشَّتــاتُ فيــهِ لِلــرُّوحِ الفَنَــاءْ[2]
نظــرةٌ شــرِّد بهــا نــومَ اللُّحــود   عِشْ طويلاً دَعْكَ منْ هذا الشُّرود[3]

وَحْــدَةُ الأفكــارِ والأعمــال حَقِّــقْ
خــاتَــمَ المُلْــكِ إليــهِ اليــومَ فــاسْبِــقْ

زنده رود

مَـنْ أنـا مَـنْ أنـتَ أيـنَ العـالَـمُ   طــالَ بُعْــدٌ بيننــا ! لا أعْلَــمُ
قـلْ لمـاذا كُنْـتَ فـي أسْـرِ القَـدَرْ   لا تمــوتُ وأمــوتُ مــا الخَبَــرْ ؟

نداءُ الجمالِ الأبديّ

أنْــتَ فــي دنيـا الحـدودِ الأربعـه   كـلُّ مـنْ فيهـا يـلاقـي مَصْـرَعَـهْ
إنْ تَـرِدْ عيشـاً فتلـك الـذَّاتُ أسْبَـقْ   بعضُها في بعضها الدُّنيا لِتَغرَقْ[4]
مـنْ أنـا مِـنْ بَعْـدُ تـدري بـلْ وأنتـا   كَيْـفَ فـي دُنْيـاكَ عِشْـتَ ثُـمَّ مُتَّـا

---

(١) الذُّرى : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء .
(٢) الشتات : التفرُّق .
(٣) أردنا بالشرود هنا ما أراد إقبال بعدم المركزية ، أي : الخروج على الجماعة .
(٤) أسبق هنا بمعنى أفضل ، وقبل كل شيء .

زنده رود

أعـذرِ الجـاهـلَ بـالجهـلِ اعتَـذَرْ   والنِّقـاب ارْفَعْـهُ عَـنْ وَجْـهِ القَـدَرْ
ثـورةٌ للـرُّوس والألمـانِ كـانَـتْ   خَفْقـةُ الأرواحِ فـي الإسلامِ بـانَـتْ
دبَّـرَ الشَّـرْقُ وهـذا الغَـرْبُ دبَّـرْ   قُـلْ أجبني مـا الـذي كـان المُقَـدَّر

ظهورُ تَجَلِّي الجلال

بَغْتَـةً دُنيـا لـذاتـي مـا رَأَيـتْ   إنَّ أرضي وسمـائـي قَـدْ شَهِـدتْ
غَـرِقَـتْ دنيـايَ فـي نـورِ الشَّفَـقْ   وَعَلَيْهَـا الأحْمَـرُ القـانـي انْطَبَـقْ
بـالتَّجلِّـي مـاجَ عُمْـقُ مُهجتـي   كـالكليـمِ بـالتَّجلـي نَشْـوتـي[1]
نُـورُه أبـدى الخفـيَّ لِلْعِيَـانْ   مِنْـهُ قَـدْ أصْبَحْـتُ مسلوبَ اللِّسـانْ

مِـنْ ضَمِيْـرِ عـالَـمِ لِلْكَيْـفِ والكَـمْ
أطْـرَبَ السَّـامِـعَ مَشبـوبُ النَّغَـمْ
« إنسَ شرقاً لا تكُنْ منْ سِحْرِ غربٍ كالأسيرْ
فـالقَـدِيْـمُ والجَـديـدُ مـا همـا غَيْـرَ النَّقيـرْ[2]
عِنْـدَ شيطـانٍ قُمِـرتَ وَفَقَـدْتَ خـاتمـاً[3]
ولَـدى جبـريـلَ رَهْـنٌ أعْسَـرَ الأمـرَ العَسيـرْ !
الحيـاةُ زانَـتِ الجَمْـعَ وَصَـانَـتْ ذاتَهـا
أنتَ في الرّكبِ وحيداً كُنْ وواكبْ في المسير[4]

---

(١) الكليم : موسى عليه السلام .
(٢) النقير : النكتة في ظهر النواة ، وهي مضرب المثل في الحقارة . يقال لا يملك شروى نقير ، أي : مثل نقير ، بمعنى : لا يملك شيئاً .
(٣) قَمَرَ : غلبَ في القِمار .
(٤) الرَّكب : أصحاب الإبل في السفر ، والمراد هنا : القافلة . وواكب : ساير ، وركب=

فُقْـتَ شمسـاً فـي ضِيَـاءٍ تَغْمُـرُ الآفـاقَ نـوراً

عِـشْ وكـلَّ ذرةٍ فـي الكـونِ فـاغمـرْهـا بنُـور

كَهَشِيْـــمٍ حَمَلَتْـــه بـــالجنـــاحيـــنِ الصَّبَـــا

انْقَضَـتْ أيـامُ خُسْـرُو ، دالَ عَصْـرٌ للجهيـر[١]

ضِيْـقُ كـأسٍ فـي يـديـكَ كـانَ للحـانـاتِ عـاراً

ارْتَشفْ كأسَ الحُميَّا وَلْتَكُنْ ذاتَ الخرِير »[٢]

* * *

= مع الراكبين .

(١) خسرو : هو خسرو برويز الذي أوفد النبيُّ ﷺ إليه رسولاً في العام السادس للهجرة يحمل كتاباً فيه الدَّعوة إلى الإسلام . ولكن خسرو غضب ، ومزَّق الكتاب ، فمزق الله ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله . وقد تطاولت الحروب بينه وبين الروم ، ويعدُّ آخر عظيم من ملوك الساسانيين .
ودال الزمان : انقلب من حالٍ إلى حال . والجهير : الخليق بالخير والمعروف . وقد أردنا به الملك دارا ، وذلك لأنَّه حين قدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد ؛ أظهر لرجال الدين من المصريين كلَّ آيات التسامح والتبجيل ، وأمر بترميم المعابد ، وعرف كيف يجذب قلوب المصريين إليه حتى عدوه من فراعينهم . وقد أصلح نظم الري . وجلب الكتب من إيران لتزويد المكتبات في مصر بها ، وبسط رعايته على العلوم ، وعلم الطبِّ خاصة .

(٢) الحميا : الخمر . ولإقبال في هذا من كلامه نزعةٌ صوفيةٌ جليةٌ ؛ لأن الخمر في شعر الصوفية رمزٌ إلى نشوة العشق الإلهي .




القسم الثامن

كلمة

إلى الجيل الجديد






وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلًا جديداً ، شبابه طاهر نقي ، وضربه موجع قوي ، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفياً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلًّا وندى ، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالًا كان شلالًا ، وإن مر في طريقه بحدائق كان ماء سلسالًا ، يجمع بين جلال إيمان الصدِّيق ، وقوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في حسن صوته[1] .

إنَّ تَنْميـقَ الكـلامِ غَيْـرُ مُجـدِ   فالفؤادُ ما احتواهُ لَيْسَ يُبْدي

---

(١) مقتبس من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٧٣ ـ ٧٤ . طبع دار ابن كثير بدمشق .

قلتُ قولًا ما عليه مِنْ حِجَاب ما تبقَّى مِنْهُ يَنْبُو عَنْ كتاب !

بالكلامِ كلُّ معنىً لي تَعَقَّدْ ويزيدُ اللَّبْسُ مِنْ صَوْتٍ تَرَدَّد

نظرتي منها افهمنَّ ما اسْتَعَرْ[1]

أو أنيني وصداهُ في السَّحَرْ

دَرْسَكَ الأولَ أمٌّ لَقَّنَتْ بالنَّسِيمِ بُرْعُماً قَدْ فَتَّحَتْ

ونسيمُ الأمِّ هذا عطَّرَكْ فَعَزَزْتَ ، وبحسْنٍ صَوَّرَكْ

دولةٌ لِلْخُلدِ منها نِلْتَها عَلَّمَتْكَ « لا إله » قُلْتَها

يا بُنيَّ أنْتَ خُذْ عنِّي النَّظَرْ واحترقْ مِنْ « لا إله » في الشَّرَرْ

« لا إله » قُلْ ومِنْ روحٍ عَمِيقْ ليكونَ الجسمُ كالمِسْكِ الفَتِيقْ[2]

إنَّها شمساً وبدراً قد أدارَتْ شعلةً في القشِّ والأطوادِ صارَتْ[3]

يا لها حرفينِ ليسا في الكلام بَلْ هما في كفِّ مِضْرابٍ حُسَام[4]

نارُها نَضْرٌ مبينٌ عِشْ بها

إنَّها ضَرْبٌ أفذُ مِنْ ضربها

مؤمنٌ دأبٌ له عَقْدُ النِّطاق مؤمنٌ بالغَدْرِ يَرْضى والنِّفاق !

وَبِفلْسٍ شَعْبَهُ والدِّينَ باعا أحْرَقَ الدَّارَ فَضاعَتْ والمتاعا

في صَلاةِ البَقاءُ والفَناءْ وهما كانا دلالًا في الدعاء[5]

إنَّ نوراً ما تبقَّى في صَلاتِه والتَّجَلِّي قدْ نأى عَنْ كائناته

كلُّ مَنْ يَعْبُدُ في الدُّنيا الحُطاما عَشِقَ المالَ كما خافَ الحِمَامَا

---

(١) استعر : اشتعل .

(٢) المسك الفتيق : المخلوط بشيء أدخل عليه ؛ لتسطعَ رائحته .

(٣) كاه في الفارسية بمعنى قش ، وكوه بمعنى جبل . وقد أراد الشاعر أن يتلاعب بهذين اللفظين .

(٤) المضراب : الكثير الضَّرب . والحُسَام : السيف .

(٥) يقول : إن لا إله هي البقاء والفناء في صلاته ، كما أنَّها دلالٌ في دعائه .

مـا انتشـى مـا ذاقَ شيئـاً مـنْ حُبُـور   وكتابُ الدِّينِ في جَوْفِ القُبُورْ[1]
ويقــولُ مــا يظُــنُّ اليَــوْمَ حقــا   عــنْ نَبِيِّــن تَلَقَّــىٰ مــا تَلَقَّــىٰ
منْ بلادِ الفُرْسِ هذا ، ذاكَ هِنْدي   « حكمُ حجٍّ وجهادٍ لَيْسَ عندي » ![2]
إنَّ حجَّــاً وجهــاداً واجبــان   لصـلاةٍ أو لصـومٍ كـالجَنَـانِ[3]
إنَّ روحـاً فـي الصَّـلاةِ والصِّيـام   إنْ نـأتْ فـالشَّعْبُ مختَـلُّ النِّظـام
ليـس للقـرآنِ فـي القلـب الأثـر   فيهمـا الآمـالُ خـابـت لِلْبَشَـر[4] !

مسلـمٌ عــن ذاتِــه تلــكَ انفَــرَدْ
قـد طغـى المـاءُ فيـا خضرُ المَـدَدْ[5] !

سَجْـدةً ، والأرضُ منهـا زُلْـزِلَـتْ   وأرادتْ ، فـالشُّمـوسُ أُجْـرِيَـتْ
والصُّخــورُ إنْ دَرَتْ عَنْهَــا الخَبَــرْ   فهـي فـي الجـوِّ دُخـانٌ وانْتَثَـرْ[6]
ذاكَ عَضْـرٌ كـان فيـه خفـضُ هـام   دبَّ ضعفُ الشَّيْخ منه في الحُطام[7]
« ربـي الأعلىٰ » أكـانَـتْ عِنْـدَنـا !   ذَنْبُــه هــذاكَ أوْ ذَنْــبٌ لَنَــا ؟
فــي سبيــلٍ كلُّنَــا قــد أسـرعـا   لــه النَّــاقَــةُ جــافَــتْ مَهْيَعَــا[8]

صـاحـبُ القـرآن مـا ذاقَ الطَّلَـبْ !
العَجَـب ثـمَّ العَجَـب ثُـمَّ العَجَـبْ

إنْ بِفَضْــلِ الله فــاضَ عِلْمُكــا   فسيــأتــي للــزَّمــان غَيْــرُكــا

---

(١) الحبور : البهجة .
(٢) ما بين قوسين كلام هذين الرجلين .
(٣) الجنان : القلب ، وفي الأصل : الروح .
(٤) أي أن أمثال هذين الرجلين اللذين لم يذكر إقبال اسماً لهما .
(٥) انفرد : تنحى ، واعتزل . وهو يستنجد الخضر بعد أن طغى الماء وخيف الغرق . والخضر هو الذي دل الإسكندر على ماء الحياة وقد أسلفنا الإشارة إلى خبره .
(٦) أي إن عرفت الصخور خبر تلك السجدة .
(٧) الهام : جمع هامة وهي الرأس .
(٨) جافت : أبعدت . والمهيع : الطريق الواسع .

لم يَخفْ عقلٌ وَقَلْبٌ لَمْ يَذُبْ ... ما اسْتَحَتْ عَيْنٌ وغاصَتْ في الكَذِبْ
كلُّ عِلْمٍ كلُّ فنٍّ كلُّ دين ... لا تكُفُّ عن طوافٍ حَوْلَ طين
آسيا أرضُ الشُّمُوسِ المُشْرِقَاتْ ... عينُها لِلْغَيْرِ ، ما كانتْ لِذَاتْ
لا جديدَ جدَّ لِلْقَلْبِ الغرير ... نِلْتُ منها الرِّيح أوْ حبَّ الشَّعِيرْ ![1]
وحواها ذلكَ الدَّيرُ القديم ... في جُمُودٍ وخُمُودٍ لا تريمْ[2]
صَيْدُ شيخٍ أوْ لسلطانٍ مَلَك ... فكرُها ظبيٌ ولكنْ في الشَّرَكْ
عَقْلُها والدِّينُ بَلْ حتَّى الشرف ... منْ ركاب « اللورد » كانت في طرف
فعلى أفكارِها كُنْتُ المغيرا ... وعن الأسرارِ مَزَّقْتُ السُّتورا

فَاضَ قَلْبي بالدِّما منْ فَرْطِ جَهْدي
ثُمَّ دُنياها أنا غَيَّرتُ وَحْدي

وبطبعِ العَصْرِ قُلْتُ لفظتين ... إنَّ لي بحرينِ في قارورتين
لَفْظَةٌ تَلْتَفُّ أخرىٰ تَلْسَعُ ... والعقولُ في شراكي أجْمَعُ[3]
لفظةٌ كانتْ بمقياسِ الفِرَنْج ... نغمةَ سكرى ومِنْ أوتارِ صَنْج[4]
أصلُ هذي الذِّكْرُ تِلْكَ بنتُ فِكْرِ ... قدْ ورثتَ ذا وهذا ، لستَ تدري[5] ؟
إنني نَهْرٌ ومِنْ نَبْعٍ لأصلي ... إنَّ فصلي كانَ فصلاً وهو وصلي[6]

طَبْعُ عصري ذاك لَمَّا أنْ تغيَّر

---

(١) الغرير : من لا تجربة له . والشعير مضرب المثل في رخص القيمة . يقول : إنه لا يظفر منها إلا بالريح والشَّعير ، فكأنه لم يظفرْ منها بشيء .

(٢) رام : فارق المكان .

(٣) يشبه إحدى هاتين اللفظتين بالأفعى التي تلتف ، والأخرى بعقربٍ تلسع ، وهو يشير بذلك من طرفٍ خفي إلى كتابٍ له بالإنجليزية بعنوان « إعادة بناء الفكر الدِّيني في الإسلام » كما يريد بجمع العقول والقلوب في شراكه : إقناعها ، وجذبها .

(٤) الصنج : معزف ذو أوتار .

(٥) أي : لتكن وارثاً للذكر والفكر .

(٦) يريد بهذا المنبع هذين البحرين اللذين أسلف الإشارة إليهما .

غَيَّــرَ الأصـــداءَ صــوتٌ لـــي تَحَــزَّزْ

ظَمِيءَ الفتيانُ ما في الكوبِ قَطْرَهْ عَقْلُهــم نــورٌ ، بــروحٍ ليــل حَسْــرَهْ

شَكُّهــمْ يَــرْبُــو ويجتــاحُ اليقينــا مــا رأوا شيئــاً ، وكــانــوا البــائسينــا

يُنْكــرونَ الــذَّاتَ ! إيمــانٌ بِغَيْــرِ ! رفعــوا مِــنْ تُــرْبهــم بُنْيــانَ دَيْــرِ[1]

ليــس يــدري القَصْــدَ منــه المكتــبُ أنْ تنــاســى مــا بقلــبٍ يُجْــذَبُ

وَمِــنَ الأرواحِ يمحــو نُــوْرَ فطــره غُصْنُــه مــا كــانَ فيــه قــطُّ زَهْــرَهْ

صَــفَّ أحجــارَ البنــاءِ لَيْــسَ يــدري وطبــاعَ البَــطِّ يَهْــدي لابــنِ صَقْــرِ

وعلـــى وَقْـــدِ إذا لـــم يَعْتَمِـــدْ لـــذةً للـــواردات لـــمْ يَجِـــدْ[2]

وبــهِ شَــرْحُ المَقَــامِ كــانَ غَــايَــهْ لــم يكــنْ حقّــاً ســوى تفسيــر آيــه

وبنــارِ الحــسِّ طــوعــاً فــاخْتَــرَقْ عَــنْ لجيــنٍ لَــكَ صُفْــرٌ يَنْفَــرِقْ[3]

بــادىء بــالحــسِّ يُنهــىٰ بــالحضُــور

آخــرُ العلــم أيبقــى فــي الشُّعــور !

كَــمْ كتــابٍ فيــهِ أعْشَيْــتُ البَصَــرْ خيــرُ علــمٍ مــا عَــرَفْــتُ بــالنَّظر[4]

إنَّ هـــذا العلـــمَ صَـــبُّ خمـــرةٍ يــا لهــا مــنْ بَعْــدُ رَشْــفُ سَكْــرَةٍ !

تُطْفِـــيءُ المصبـــاحَ أنفـــاسٌ لِفَجْـــرِ وردةُ البستــانِ منهــا كــأسُ خَمْــرِ[5]

لا تُطِــلْ فــي القَــوْلِ واقْنَــعْ بــالغِــرَازْ حــولَ ذاتــي كــنْ كَفِــرْجــارٍ مَــدَارْ[6]

منكـــرُ اللهِ لـــدى شيـــخٍ كَفَـــرْ منكــرُ الــذَّاتِ لــديَّ مِنْــهُ شَــرّ[7]

---

(١) الترب : التراب . والبنيان : الجدار .

(٢) الوقد : النار . والواردات : ما يرد على القلب من خواطر .

(٣) اللجين : الفضة . والصفر : النحاس الأصفر . انفرق عنه : انفصل .

(٤) أعشاه : جعله أعشى ، أي لا يرى ليلاً .

(٥) يقول : إن نسيم الفجر يطفىء نور المصباح ، كما يفتح البرعم ، فيصبح زهرة ينسكب فيها الندى ، فكأنها كأس خمر .

(٦) الغرار : القليل من النوم . والفرجار : آلة ذات ساقين ترسم الدوائر .

(٧) أي : أنَّ منكر الذات أشدُّ كفراً ، وأكثر شرّاً من منكر الله .

منكــــرُ اللهِ بـــإنكـــارٍ عَجُـــولْ ذا عجــولٌ وظلــومٌ بــلْ جَهُــولْ
وعلــى الإخــلاصِ شــدِّد قَبْضَتَــكْ رهبــةَ السُّلطــانِ جَنِّبْ شِيْمَتَكْ[(١)]
ارضَ عَــنْ عَــدْلِ القــوي لا تَبْتَعــدْ فــي غنــاكَ بَـلْ وفـي الفَقْـرِ اقْتَصِـد
يَصْعُـبُ الحُكْـمُ ؟ حـذارِ لا تـؤوِّلْ وعلــى قلبـك مصبـاحـاً فَعَـوِّلْ[(٢)]
يحفــظُ الأرواحَ ذِكْــرٌ ثُــمَّ فِكْــر يحفـظُ الجِسْـمَ لِتِلْـكَ النَّفْـسِ أَسْـر
كـلُّ حكـمٍ فـي انخفـاضٍ وارتفـاعِ نـالَـهُ جسمـاً وروحـاً مـنْ يُـراعـي
لــذةٌ لِلسَّيْــر غــايــاتُ السَّفَــرْ لا تَطِـرْ إنْ خِطْـتَ بـالعِشِّ النَّظَـر[(٣)]
ويـدورُ البَـذْرُ يحظـى بـالمَقَـام مـا المَقَـام عِنْـدَهُ غَيْـرُ الحَـرام[(٤)]
أنْ تَطِيْــــرَ ، للحيــــاةِ متعــــةٌ والتــزامُ العِــشِّ فيهــا ضَيْعَــةٌ

الغُــرابُ رزقُــه فــي جَــوْفِ قَبْــر
عِنْــدَ شَمْــسٍ رزقُ شـاهيــن ، وَبَـذْر

إنَّ ســرَّ الــدِّيــن أكــلٌ لِلْحَــلالْ وهــو صِـدْقٌ والتَّملِّـي للجمـال[(٥)]
كُـنْ قـويـاً وابـغِ بـالـدِّيـن اليقينـا واربـطِ القَلْـبَ بـربِّ العَـالمينـا[(٦)]
بعـض سـر الـديـن ممـا ليس يظهـر يا بنيَّ اسمعْ حَديثي عَنْ مُظَفَّر[(٧)]

---

(١) جنب شميته رهبة السلطان : أي أبعد طبعه عن الخوف من السلطان .
(٢) عول عليه : اعتمد عليه .
(٣) يقال في الفارسية : خاط عينه بكذا : أي حدَّق فيه ، ولم يبعد عنه نظره . وفي الأصل : إن كانت لك نظرة على العش .
(٤) المقام : هو المرحلة في الطريق الذي يسلكه الصُّوفي . وينبغي أن يمر بسبعة مقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .
ويريد إقبال بالمقام هنا مطلق المنزلة العالية . أما المقام بضم الميم فبمعنى الإقامة .
(٥) التملِّي : التمتع .
(٦) في الأصل : كنْ صلباً كالماس وأبْعِدْ عن نفسك الوسواس .
(٧) مُظفَّر : من سلاطين كجرات ، وهو ابن السلطان محمود الذي يسميه مسلمو الهند : بيكره .

وهـو فـي أعمـالـه فَـرْدٌ فَـريـد فـي عُلُـوٍّ لِلمَقَـام بـايـزيـد

فـرسـاً كـان يُعِـزُّ كـالـوَلَـدْ مِنْ حروبٍ خاضَ أمسى في كَبَدْ[1]

أدْهَـمٌ مِـنْ خيـرِ أفْـراسِ العَـرَب ونجيـبٌ وكـريـمٌ فـي النَّسـب[2]

ولـدى المـؤمـنِ عـزَّ أو نَفُـسْ الكتـابُ والحُسَـامُ والفَـرَسْ[3]

أيُّ وصـفٍ ؟ إنَّـه خَيْـرُ الجيـاد مـرَّ ريحـاً بـالغـديـر والنِّجـاد ![4]

فـي الحُـروبِ مُشْبِـهٌ لَمْـحَ البَصَـرْ أوْ كـريـحٍ زَلْـزَلَـتْ طَـوْدَ الحَجَـرْ

عَـدْوُهُ مـوزٌ وفـوزٌ يَـوْمَ حَشْـر يَسْحَـقُ الحـافـرُ مِنْـهُ كـلَّ صَخْـر

أشبـهَ الإنسـانَ فـاعتـلَّ الجَـواد ذاتَ يـومٍ ، قيـل أضنـاهُ الكُبـاد[5]

أحضَـرَ البيطـارُ دَنَّـاً مِـنْ شـراب وسقـاه فـانتفـى داءُ العَـذَابْ[6]

غَضِـبَ العـاهـلُ قـالَ لا أريـد ذا الجـوادَ ، فـالتُّقَـى مِنِّـي بعيـد

نِلْـتَ مِـنْ رَبِّـكَ قلبـاً مُنْخَتَـه

مسلـمٌ هـذا تـأمَّـل طَـاعَتَـهْ

إنَّمـا الـدِّيـنُ احتـراقٌ فـي الطَّلَـبْ وَهـوَ عِشْـقٌ ثُـمَّ يتلـوهُ الأدَبْ

وبلـونِ عـزَّ وَرْدٌ أو بِعِطْـر أدبٌ إنْ غـابَ كـانَ شـرَّ إصْـر[7]

إنْ رأيـتَ الشَّـابَّ هـذا قَـدْ فَقَـدْ فنهـاري ضـاعَ فـي لَيْـلِ الأبَـدْ

وتـزيـدُ حُـرقـةٌ كـانـتْ بِصَـدْري فَـلأيَّـامِ النَّبـيِّ كـانَ ذِكْـري

وأتـوبُ مِـنْ زمـانـي الحـاضِـرِ لأغيـبَ فـي الـزَّمـانِ الغَـابِـرِ

---

(١) في كبد : في تعب .

(٢) الأدهم : الأسود . وقد يكون هذا السواد شديداً أو هيناً .

(٣) عز : صار عزيزاً ، ونفس : صار نفيساً . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

(٤) الغدير : النهر . والنجاد : جمع نجد ، هو ما ارتفع من الأرض .

(٥) اعتلَّ : مرض . والكباد : داء الكبد .

(٦) البيطار : طبيب الخيل . دَنُّ الشراب : جَرَّةُ الخمر . انتفى : طرد .

(٧) الإصر : الذنب .

يَسْتُـــرُ المـــرأة زوجٌ أو تُـــرَاب والرِّجالُ حِذْرَهم كانَ الصِّحاب[1]

تَنْطِـقُ العـوراءُ ؟ ذا كـلُّ الخطـأ كـافِـرٌ أو مُـؤْمِـنٌ ربِّـي بـرأ[2]

أنْـتَ إنسـانٌ ؟ أخـاكَ فـاخْتَـرِمْ ليـسَ منَّـا غيْـرَ هـذا مَـنْ عَلِـمْ[3]

تـربـطُ النـاسَ جميعـاً عُـزْوةٌ مِنْـكَ فـي هـذا الطـريـق خُطْـوةٌ ؟

ولعبـدِ العِشْـقِ مـنْ ربٍّ طَـرِيْـق وعلـى الكـافِـر والبَـرِّ الشَّفِيْـق[4]

ضمِّـن الـدِّيـن وكفـراً قَلْبَكـا وإذا مـا الـدِّيـنُ فـرَّ ويلكـا !

لَيْـسَ هـذا القَلْـبُ إلا سجـنُ طِيْـن

إنَّ فيـه كـلَّ أفـقٍ كـالـوَضِيـن[5]

إنْ رأسـتَ القَـوْمَ أو صِـرْتَ الغنيَّـا فعلـى الفَقْـرِ احْـرِصَـنَّ يـا بُنَيَّـا[6]

إنَّـه فـي الـرُّوحِ مِنْـكَ يَتَّقِـدْ عـنْ أبٍ خمـراً وَرِثْـتَ بـلْ وجَـدْ[7]

لا تـؤمِّـل غَيْـرَ قلـبِ ذي أَلَـمْ ادعُ ربّـاً وانـسَ كـلَّ مـنْ حَكَـمْ

---

(١) يقول : إنَّ المرأة يسترها أن تتزوج أو تموت . كما يستر الرجل أنْ يأخذ حذرَه من أصدقاء السوء .

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة . وبرأ : خلق .

(٣) أي لا يعد إنساناً منَّا من تناسى وجوب احترام أخيه في الإنسانية .

(٤) البَرُّ : من يطيع الله .

(٥) الوضين : ما انطوى وانثنى .

(٦) الفقر من مقامات الصُّوفية . وهو ليس فقدان الغنى ليس إلا ، بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغي للصُّوفي أن يكون خالي اليد والقلب جميعاً ، وعلى هذا المعنى لا يتعارض الفقر مع جاه بعض الصُّوفية ، ورفعة قدرهم ، وقد يكون لهم قدرٌ من المال ، ولكن الله يخفي حقيقتهم عن أهل الظاهر . قيل : إنَّ الفقير هو الذي لا يملك ولا يملك ، والذي استصفى نفسه في فقره تقرباً . كما قالوا : إن الفقر لباس المرسلين ، وزينة الصالحين ، وتاج المتقين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريدين ، ويؤثر عن الصوفية قولهم « الفقر فخري » .

(٧) يشبه الفقر بالخمر المعتقة . والخمر في مصطلح الصُّوفية نشوةُ العشق الإلهي .

كَـمْ حصيـفٍ وهـوَ بـالحـقِّ البَصيـر غَمَـرَتْـهُ نِعْمَـةٌ فَهُـوَ الضَّـريـر[1]

فبهـا تِلْـكَ القلـوبُ أصْلَـدَتْ ودعـاءَ العَبْـدِ عنهـا أبْعَـدَتْ[2]

فـي البـلاد جُلْتُ أعـوامـاً طِـوالا لغنـيٍّ مـا رأيـتُ الـدَّمـعَ سـالا[3]

أهـلَ فَقْـرٍ مـنْ فَـدَيْـتُ ، طِبْـتُ نَفْسَـا

ويـلُ مَـنْ بـالنِّعْمَـةِ الـرحمـنَ يَنْسَـىٰ

أتـرومُ الـذَّوْقَ عِنْـدَ المُسْلِمِيْنَـا وتُـريـدُ الشَّـوْقَ فيهـمْ واليَقِيْنَـا

إنَّ لِلْقُـرآن علمـاً لَيْـسَ يُعْـرَف والـذئـابُ إنَّهـم أهْـلُ التَّصـوُّف !

الصِّيـاحُ والعَجِيْـجُ فـي الخـوانـقْ أيـنْ خِمِّيـرٌ لِحُسْـنِ الله عَـاشِـقْ[4]

قلَّـدَ الإفـرنـجَ منَّـا المسلمـونـا مـنْ سـرابٍ كـوثـرٌ مـا يطلبـونـا

وَبِسِـرِّ دِيْنِنـا مـا عِلْمُهُـمْ ؟ أهـلُ حِقْـدٍ وعـداءٍ كُلُّهُـمْ

كُـلُّ خيـرٍ لِلْخَـوَاصِّ كـالحَـرَام مـا رأيـتُ الصِّـدْقَ إلا فـي العَـوَام

التقـيَّ مِـنْ غَـوِيٍّ مَيِّـزَنْ مَـعَ أهْـلِ الحـقِّ والفَضْـلِ اجْلِسَـنْ

إنَّمـا النَّسْـرُ تقـاليـداً ألِـفْ

سطـوةُ الشَّـاهِيْـنِ طـارَ ، تختلِـف

رَجُـلُ اللهِ يَلُـوحُ مِثْـلَ بَـرْق حطبـاً يَجْعـلُ مِـنْ غَـرْبٍ وَشَـرْق

نحـنُ كُنَّـا فـي ظـلامِ الكـائنـات وَهُـوَ ذو حِـذْقٍ بِحَـلِّ المُعْضـلات

والكليـمُ والمسيـحُ والخليـلْ والنَّبـيُّ والكتـابُ ، جبـرئيـلْ[5]

إنَّ أهـلَ القلـبِ شَمْـسُ الكـائنـات نـورُهـا وهَّـابُ هـاتِيْـكَ الحيـاة

---

(١) الحصيف : العاقل .

(٢) أصلدت الأرض : صلبت .

(٣) يريد ليقول : إنه لم يصادف غنياً رقيق القلب يحزن لمصاب غيره .

(٤) الخوانق : جمع خانقاه ، وهو المبنى الذي يقيم فيه الصوفية معتزلين متعبدين . والخميرُ : مدمن الخمر . والمراد به الصُّوفي .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والكتاب هنا : هو القرآن الكريم .

وهـي فـي نـورٍ لهـا قَـدْ أحـرقَتْكـا ذلـكَ السُّلطـانَ بَعْـدُ علمتكـا
نَحْـنُ بـالنَّـار لهـا أصحـابُ قَلْـب أو فما ماءٌ وطينٌ مِثْلَ شَوْب ![1]
أنْـتَ فـي عَصْـرٍ ولـٰكِـنْ أيُّ عَصْـر غارقٌ في الجسم ، روحاً لَيْسَ يدري
قَحْـطُ رُوْحٍ سِغْـرُ جسـمٍ أنْقَصـا رَجُـلُ اللهِ لـذاتٍ نكَّصـا[2]
إنَّ هـذا مـا درىٰ معنـى الطَّلَـبْ وهـوَ بـالعَيْـنِ يَـرَىٰ يـا لَلْعَجَـبْ
ذوقُ ذاكَ البَحْـثِ لا تَتْـرُكْـهُ مـدَّهْ وَلْتُـوَاجِـهْ فـي الحيـاةِ ألـفَ عُقْـدَهْ
صُحْبـةَ النَّـدْب اللبيـبِ إنْ عَـدَمْتَـا مـا لـديَّ عـن أبـي هـلَّا أخَـذْتَـا
اجْعَـلِ الـرُّومِـيْ رفيقـاً فـي الطَّـريـق يُنْعِـمُ اللهُ بمشبـوبِ الخُفُـوْق[3]
يَعْـرِفُ الـرُّومـي لُبَـابـاً مِـنْ قُشُـور في الطَّريق كانَ مَوْصُولَ المسير
فسَّـروهُ مـا درى المعنـى أحَـدْ إنَّ معنـاه غَـزَالٌ قَـدْ شَـرَدْ
رَقْـصَ جِسْـمٍ منـه كـانـوا يَفْهَمُـونـا رَقْصَـةَ الـرُّوح تنـاسـىٰ الغَـافِلـونـا
رقصـةُ الجِسْـمِ تَـدُورُ بـالتُّـراب رَقْصـةُ الـرُّوح لهـا نَجْـمُ السَّحَـاب
رَقْصـةُ الأرواحِ عِلْـمٌ وهـي حُكَـمْ وإلينـا الأرضُ والخضـرا تُضَـمْ[4]

---

(١) الشوب : القطعة من العجين . والمراد بها جسم الإنسان .
(٢) نكص : رجع . وفي الأصل : أنه اختفى في ذاته .
(٣) المشبوب : المشتعل .
(٤) الحكم : الحكمة . والخضراء : السماء . وإقبال هنا يحدّثنا عن رقص الدراويش المولوية أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي المتوفى بقونية في الأناضول عام ٦٨٣هـ . فقد كان مريدو جلال الدين الرومي يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوُّف في قلوبهم . وجرت عادتهم بالاجتماع فيما يعرف بسماع خانه أي بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء في صدره مجلس للعازفين . ويدخل الدراويش بالطويل من قلانسهم والضيق من سراويلهم . وبعد التسليم على شيخهم تبدأ رقصتهم ، فيرفعون أذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى وراحة اليسرى إلى أسفل . ويدورون بعض أطراف أصابعهم دوران الرحى حول قطبها بينما ينفخ في الناي وتقرع الطبول ثم يصلون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهي رقصتهم . =

جــذبــةٌ لِلْفَــرْدِ منهــا كــالْكَلِيــمْ | كلُّ شَعْبٍ كانَ ذا المَلِكُ العَظِيْم[1]
إنَّ هــذا ليــس سهــلاً فــي التَّعَلُّــم | وَلِغَيْــر اللهِ فــي القلــب التَّضَــرُّم[2]
وبنــار الحــرص إنْ قلبــاً حــرقتــا | فبــروحٍ منــك قــطُّ مــا رَقَصْتَــا[3]
يُضْعِـفُ الإيمـانَ فـي الإنسـانِ هَـمْ | يــا بنــيَّ إنَّــه نِصْــفُ الهَــرَمْ[4]
هَلْ عَلِمْتَ ؟ الحرصُ فقرٌ حاضِرُ | إنَّ مــولاي لــذاتٍ قــاهِــرُ[5]
بـكَ يـا « جـاويـدُ » لـي روحٌ تطيب | آهِ لـو وافـاكَ مِـنْ هَـذَا نَصِيـبْ[6]

لَشَــرَحْــتُ دِيْــنَ خَيْــرِ الأنبيــاءِ
وأطَلْــتُ لــكَ فــي قَبْــرِي دعــائــي

* * *

= وفي رأي الصوفية أنَّ السماع وما يفضي إليه من رقص يرقق القلوب وينتزعهم من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي ، كما يثير الطرب في النفوس والخوف عند التائبين ، ويضرم نار المشتاقين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي (إذا ما ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين ، لأن أمواج البحر هي البحر نفسه ، ولكن في ارتفاعٍ وانخفاض . والموجُ بَعْدَ هبوطه إلى البحر يعود . وما مَثَلُ البحر إلا مثل بني الإنسان ، لأنَّهم أمواج الله . وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .
ومن مستطرف ما يروى عن السُّلطان سليم العثماني ، أنَّه مرَّ بإقليم قونية وعاصمته قونيه ، فتعجب من كثرة الأعاصير ، وقال له أحد رجاله متبسطاً : إنَّ ما في تلك الأرض من تلال وأحجار وغبار يرقص رقصة المولوية .

(١) الكليم : هو موسى عليه السلام .
(٢) التضرُّم : اشتعال النار .
(٣) حرق : بمعنى أحرق .
(٤) قال النبيُّ ﷺ : « الهمُّ نصف الهرم » .
(٥) يشير إقبال إلى قوله ﷺ : « إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وفي الأصل : إني عبدٌ لمن قهر ذاته .
(٦) جاويد : اسم ابن إقبال الذي أهدى إليه المنظومة ، والمراد بهذا في قوله هو رقص الروح . ووافاك : بمعنى أتاك .






الدِّيوانُ الثَّامِنُ

وَالآن... ماذا نصْنَعُ؟ يا أُمَمَ الشَّرقِ..

پس چه باید کرد ای اقوام مشرق

نَقَلَهُ إلى العربيَّةِ
الأستاذ أحمد الغازي

صَاغَهُ بالعربيَّةِ شِعْرًا
الشيخ صاوي شعلان المصري



أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيَّة ، صَاغَه على وزنِ مثنويٍّ مولانا جلال الدِّين الرُّومي من بحر الرَّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأمواج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنَّا النظرَ في هذا الديوان تبيَّن لنا أنَّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط والجذب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلِّ بيتٍ فيه قطراتُ الشَّوق والحبِّ والاضطراب الرُّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدِّين الرُّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامَّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامَّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامةٍ وفي هذا الديوان بخاصةٍ ، موضوع نهضة الشَّرق ، يقول : إنَّ الشرق هو الذي هدى الغرب إلى التقدم والرُّقيِّ العالي ، وإلّا فلقد كان أهل الغرب متخلِّفين عنَّا في كلِّ ناحية من نواحي المدنية والحضارة ، وحين كانت أوربة غارقةً في لجَّةٍ من التعصُّب ، والجهل ، والحروب الدَّاخلية الدَّامية كنا - أهل الشرق - في أرقى منزلةٍ من منازل العلم ، والفنِّ ، والمدنيَّة ، والحضارة . وهذا هو الشرق الذي هذَّب الأمم الغربية بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبِّ وغيرها .

والموضوع الثاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « **إذا أمكن تطهير الفكر في أمَّةٍ استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو**

أمعنَّا النظر في سيرة الرسول ﷺ العطرة علمنا أنَّه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير » .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولًا على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجلُّ ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنَّه يعني فراغ اليدِ من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوِّي في كيان الحقيقة كلِّها ، بأنَّ كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشراء .

وقد اصطلحت الصُّوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عمَّا سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظنَّ البعض أنَّ فقر الصُّوفيَّة هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : **إنَّ الفقر قد يعني ترك الدُّنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والزُّهد الغالي ، وإنَّما يعني تسخير الدنيا أولًا ، ثم العزَّة ، والعفَّة ، والاستغناء ، كما سخَّرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنَّهم لم ينغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .**

وليس من شأن المسلم أنْ تستعبده مادةُ الحياة الدنيا وحطامها ؛ لأنه أرفعُ قدراً ، وأعزُّ مكاناً ، وأنبلُ هدفاً لأنَّه له خلافةُ الأرض ، فالمؤمنُ الفقير ـ المؤمن الكامل ـ هو الذي يُزلزلُ بعزيمته هذه الكرة المسكونة ببَرِّها وبحرها ، والفقر النَّبيلُ العفيفُ هو احتقار زهو الدُّنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللُّغة الفارسيَّة ، فنقله منها الأستاذ أحمد غازي إلى العربيَّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميُّ المعروف الشيخ صاوي شعلان المصري شعراً بالعربيَّة ، وهو الآن بين أيديكم .

* * *

التمهيد

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبَّه لمرشده الرُّوحي مولانا جلال الدين الرُّومي ، مجدِّد التصوُّف وإمام الرُّوحانية في عصره ، ثمَّ يُلقي الضوء على المكانة العالية التي يحتلُّها الرُّوميُّ في نظر الشاعر .

ويركِّزُ في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكلُّ ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرُّومي ، يقول :

كـنْ مثـل إبـراهيـم فـي الإيمـان	حتـى تـزيـلَ معـابـدَ الأوثـان
الشَّعـبُ يبنـي عـزَّه بكفـاحـه	ليشيـد مجـداً ثـابـتَ الأركـان
ولقـد يُظـنُّ بـه الجنـون إذا بـدا	يـومـاً تمـردُهُ علـى الطُّغيـان
مـا فـوقَ أرضِ الله شعـبٌ ظـافـرٌ	ببلـوغِ آمـالٍ ونيـلِ أمـانـي
إلَّا إذا عقـلُ الجنـون وإنَّمـا	يحلـو جنـونُ الحـبِّ لـلأوطـان
المـؤمـنُ المقـدامُ يمضـي قـاهـراً	بـالعـزِّ والإقـدامِ دون تـوانـي
وإذا ارتضـى للـذلِّ أمسـى كـافـراً	بـالله أو بكـرامـةِ الأوطـان
مـن كـانَ يـدري فَـرْقَ مـا ينتـابـه	فـي دَهْـرِهِ مِـنْ عـزَّةٍ وَهَـوان
وبـأنَّ الاستعمـارَ أسـرعُ بـالـرَّدى	للنـاسِ فـي الـدُّنيـا مـن الحَـدَثـان
وبـأنَّ لـلأحـرارِ بعـد فنـائهـم	عمـراً علـى الأيـام ليـس بفـانـي
وهنـاكَ يَـرْفَـعُ سهمَـهُ نحـو العـلا	ويقيـمُ رايتـه علـى كيـوان
شُـمُّ الجبـالِ تـذوب فـي خطـواتهـا	حتـى تفـوقَ المـاءَ فـي الجـريـان
كـم ثـورةٍ للمَجْـدِ طـيُّ ثيـابـه	كـالنَّـار تَقْـذِفُ ثـورة البـركـان
لا يتـركُ الـدُّنيـا تعيـشُ وشعبـهُ	فيهـا قتيـلُ الـذلِّ والحِـرْمـان
العِطْـرُ مستتـرٌ ويسـري ظـاهـراً	كـنْ أنـت مِثْـل العِطْـرِ فـي البُستـان
لا تخـدعنَّـك فـي الـرُّبـى ألـوانهـا	كـنْ خـاليـاً فيهـا مـن الألـوانِ

قد ضلَّ أهلُ القصر عن أرواحهم ... لم يهتدوا إلَّا إلى الأبدان

فالدِّين إرضاءُ الدَّخيل وليس ... مرضاةَ الإلَه الواحدِ الدَّيَّان

فقلوبُهم وجيوبُهم وعقولُهم ... للأجنبيِّ تقرُّبٌ وتفانِ

لا تصحبنْ في شرْبِ كاسات المنى ... إلَّا وفياً صادقَ الوِجْدان

لا ترجُ في نُدَماء غدرٍ نشوةً ... ولو أنَّ فيهم قيصرَ الرُّومان

لا تُفش للأنعامِ أسرارَ الأسو ... دِ ولا حديثَ الصَّقْرِ للغِرْبان

مَنْ شابَ في نسجِ الحصيرِ فما له ... يوماً إلى نسجِ الحرير يَدَان

والذِّئبُ يأكلُ يوسفاً خيرٌ له ... من أن يُبَاع لتاجرِ العُبْدانِ

مرشدُ الأرواح مولانا جلال(١) ... شيخُنا الروميُّ علويُّ المِثال

مشرقُ الإيمانِ قدسيُّ الضَّمير ... وهو في قافلةِ العِشْقِ أمير

قد علا منزلةَ الشمس مَقَاما ... ضارباً في مسبح النَّجْم خِياما

قلبُه في مُحْكَمِ الذِّكرِ صفا ... بهدىٰ القرآنِ أضحى مُصْحفا

لو رأىٰ مرآتَه بين الملا ... جام (جمشيد) توارى خَجَلا

رَأيُه المرسلُ بالعِشْق نَدَاه ... أشْعَل الثورةَ في قلبي صداه

قالَ شيئاً سَمِعَتْه فطرتي ... وَتَجَلَّى نغماً في فكرتي

أممُ الدُّنيا صَحَتْ بعد سبات ... واستبانت كُنْهَ أسرارِ الحياة

وأفاقَ الشَّرْق من نومٍ طويل ... يكسرُ الأغلال والقَيْدَ الثقيل

جَذْبَةٌ واتته مِنْ دَفْعِ القَدَر ... فأزاحَ العِبْءَ عنه وانْتَصر

أممُ الغرب تبينتَ مداها ... ما اكتوى مِثْلُك حيٌّ بلظاها

كُنْ كإبراهيمَ سُكْراً وَهُياما ... لتصير النَّارُ برداً وسَلاما

اجْعَلِ الأصنامَ في الأرض هشيما ... لا تغادرْ هيكلاً منها قديما

مِنْ ضميرِ الشَّعب من إيمانه ... تنبتُ الثورة في وِجْدانه

هي نورٌ يجتليه المُصْلحونا ... قاصرُ العَقْل يسمِّيها جنونا

---

(١) قد سبقت ترجمته .

إنَّ قوماً للهوى يستسلمون — لم يَقُمْ فيهم جنونٌ ذو فنون

لن يقيموا نهضةً تمحو الهوان — ما لهم في ساحة المَجْدِ مكان

كلُّ مَنْ تحتَ الفضاءِ الأزرقِ — لمْ يُجَاهِدْ فكأنْ لم يُخْلَقِ

ثقةُ المؤمنِ باللهِ عَتادْ — فتوكَّل واعتزمِ نَحْوَ المُراد

شيمةُ المؤمن عزمٌ وثقة — حيثما همَّ بأمر حقَّقه

بهما يَسْمُو ويمضي قاهرا — لا أرى اليائسَ إلَّا كافرا

نظرةُ المؤمنِ مصباحٌ منير — فهو بالخيرِ وبالشرِّ بَصير

عزمُه الوثَّابُ لا يخشى الصعابا — تاركاً ما عمَّر الظلمُ خرابا

حوَّلت ضربتُه صُمَّ الصَّفا — والجبالَ الشُّمَّ قاعاً صَفْصَفا

يدركُ الآمالَ بالفقر الغَيُور — وهو للأجيالِ بعثٌ ونُشور

ومضى عازفُ ناي العاشقين — يُرسلُ الإلهام والقوْلَ الرَّصين

حين أدْرَكْتَ المُنى في صحبتي — ثملًا من خمرها في حانتي

حال في نشوتك العزمُ الصَّميم — لم تَعُدْ تحفلُ بالوَهْم القديم

كُنْ من الرَّوض قريباً نائيا — كالشَّذا يسري خفياً باديا

بين ألوان الرَّوابي واعيا — ومن الألوان(١) طرّاً خاليا

كن مع الكل على هَذي الإلَه — وبدونِ الكلِّ لا ترجو سِواه

قوةُ الرُّوح هي السِّحرُ العُجاب — أهلُ هذا العصر عنها في احتجاب

فلديهم حبُّ غيرِ الله دين — ولغيرِ الله ذلُّوا صاغِرين

ذلكَ السرُّ وهذي المعرفة — فيهما حيرةُ أهلِ الفلسفة

مُنْذُ بدءِ الخلقِ في ماضي السنينا — لم يجاوِزْ فكرُهم ماءً وطينا

حُرِمَتْ أعينهم نورَ القلوب — ومعينُ العِشْقِ منهم في نُضُوب

لم يروا في الكون إلَّا مَنْظرا — أزرقاً أو أحمراً أو أصفرا

وإذا الأبصارُ لم تُدرك هُداها — من سراج القلب ضلَّت في ضحاها

---

(١) المذهب.

فـاز حـرٌّ جَعَـلَ الحـقَّ مصيـره ... لـم يبـغ يـومـاً لمخلـوقٍ ضميـره
مـنْ وفـى لله روحـاً ودَمَـا ... صـانَ عَـنْ قَيْـدِ سِـواه القَـدَمـا
إنَّ سـرَّ الأُسْـدِ فـي حِضْـنِ الأجـم ... لا تعيـه فـي مـراعيهـا النَّعَـم
ليـس كـلُّ الخلـق أهـلاً للعهـود ... لا تَبُـحْ بـالسـرِّ إلَّا لـلأسـود
إنْ تعـاطيتَ مع الصَّحْـبِ المُداما ... أبْعِـدِ السَّفَلَـةَ عـن حَفْـلِ النَّـدامى
هَبْـهُ كسـرى هَبْـهُ أيضـاً قَيْصـرا ... لَـنْ تـرى فيـه النَّـديـمَ الخَيِّـرا
لـو غـدا يـوسُفنـا يـومـاً طعـامـا ... فـي فـم الـذِّئـب وأفنـاه التهـامـا
فهـو خيـرٌ مـن خسيـس يحتـويـه ... وَبِبَخْـس المـالِ يـومـاً يشتـريـه
أهـلُ دنيـانـا تمـادوا فـي غـرور ... لـم يبـالـوا بمقـاييـس الأمـور
بَهَـرَتْنـي نكتـةٌ مِـنْ شـاعـرِ ... بـارعِ الفكـرِ نقـيِّ الخـاطـرِ
ذاتُ معنـى نـورُه مُـؤْتَلِـق ... كـادتِ الـرُّوحُ بـه تَحْتَـرق
إنَّـه العـاشـقُ فـي أهـل الجحـود ... لـم تَـزِدْ أسمـاعُهـم غَيْـرَ الجمـود
فَهْـوَ يَحْكـي مسلمـاً بـاتَ يُعـانـي ... فـي قـرى الإفـرنـج تـرديـدَ الأذان
قلْ لأهـل الحـقِّ ما يشفـي القلوب ... قُـلْ عـن الـدِّيـن وأبنـاءِ الشُّعـوب
اقبـل الهـمَّ ولا تـأكـلْ طعـامـا ... مـنْ يَـدٍ تُطْعِمُـك الهَـمَّ دوامـا
إنْ يكـنْ عيشُـك مِـنْ طـولِ الكَـدَرْ ... فيـه مـرُّ الجـوعِ فـالـذُّلُّ أمـرْ
الـدواءُ المُـرُّ للعقـلِ الكبيـر ... فـاتـركِ الحلـواءَ للطفـلِ الغَـرِيـر
خِـرْقـةُ الـزَّاهـد عـبءٌ للفقيـر ... كُـنْ عفيـفَ القلـب وانْعَـمْ باليَسير
واسألِ الأنْسَام في الرَّوض النضير ... مـا الـذي تَحْمِلُـه غَيْـرَ العَبيـر
إنْ تكُـنْ بحـراً قـويـاً غـامـرا ... فـاجعـلِ الصَّحـراءَ سيـلاً هـادِرا
أو تكـن طَـلًّا فعش بَيْـنَ الـورود ... وابْعَثِ العِطْرَ سلاماً في الوُجود
أنـتَ فـي الحـربِ نشيـدٌ مـن دمـاء ... أنـتَ فـي السِّلْـمِ رسـولٌ لـلإخـاء
إنَّ أهـل الحـقِّ أربـابُ الـوفـاء ... ليـس سِـرُّ الحـقِّ عنهـم فـي خَفَـاء
نـذروا أنفسَهـم فـي كـلِّ حيـن ... ليعـمَّ الخيـرُ كـلَّ العـالميـن
وتـأمَّـلْ قطـرةَ الطـلِّ النَّـدي ... مِـنْ دجـى الليـلِ إلـى فجـرِ الغَـدِ

حَفِظَتْ في الكون ذاتِيَّتَها ثم حلَّت في الدُّجى عُقْدتها
وبنى عُنْصُرَها شوقُ الحياه واستقرَّتْ حيثُ أحياها الإلَه
ومَضَتْ تجتازُ في صَمْتِ الفضاء خلوةُ الأفلاكِ في جوٍّ السماء
جانبتْ أنْ تَجْعَل البَحْرَ الهدف لم تُرِدْ أنْ تتوارى في الصَّدَف
بل أقامتْ بين أحضانِ السَّحر لَمْحةٌ كانت حياةً للزَّهر
فَتَحَ الوردُ بها أجفانَه وسقى مِنْ عِطْرِه أغصانَه
هكذا المؤمنُ رمزُ التَّضحيات يتفانى في اقتناء الباقيات

* * *

مناجاة الشَّمْس

جرَتْ في حياةِ الشُّعراء سنةٌ أدبيَّة سلكها الكثيرون منهم في مخاطبة الشَّمس ، ولعلَّ أقرب مثال إلينا في الجديد قصيدة أحمد شوقي (قفي يا أخت يوشع خبرينا) فالشُّعراء خاطبوا الشمسَ ، وتحدَّثوا عنها ، وتفنَّنوا في ذلك ، وأبدعوا ، وها نحن نرى إقبال يُخاطبها قائلاً :

يا مبعثَ الإشراقِ والنُّور الذي عمَّ البريَّة منْ ضياءِ الباري
في كلِّ موجودٍ ضميرٌ مشرقٌ منْ ضوئكِ الفيَّاض كلَّ نَهَارِ
مِنْكِ الحرارةُ للحياةِ وبعثُها ونضالُها في موجها الموَّار
أوْدَعتِ كلَّ مُحَجَّبٍ شَوْقَ الظُّهو ر على هدىً منْ حكمةِ الأقْدَار
كَيَدِ الكليمِ أرى جلالَكِ سابحاً في موكبٍ مُتَجدِّدِ الأسفارِ
يطوي المَسِيْرَ على جَدَاوِلَ فِضَّةٍ في زورقٍ من عَسْجدٍ ونُضَارِ
أرسلتِ بدرَ التَّمِّ بعدكِ في الدُّجى[1] يجلو محاسنَه على الأنظار
أهديتِ للياقوتِ وَمْضَ بريقهِ ولعلّ بينَ بواطنِ الأحْجَار

---

(١) الدُّجى : سواد الليل وظلمته .

وسكبتِ في قَلْبِ الشَّقيقِ حرارةً ... صَبَغَتْ ملابِسَه بلونِ النَّارِ
بعروقه تجري الدِّماء وقد غدا ... يختالُ بين عرائسِ النُّوَّارِ
والنَّرْجِسُ[1] الغَضُّ استفاقَ من الكرى ... وأزاحَ عن جَفْنيهِ ألفَ سِتَارِ
لينالَ من هذا الشُّعاع نصيبَه ... بين الغصونِ الخُضْرِ والأشْجارِ
مَرْحىٰ لقد وافىٰ قدومُكِ بالسَّنا ... وسما بطلعةِ وجهِكِ استبصاري
حتى تجلَّى نخلُ سينا ماثلاً ... في كلِّ ما في الأرضِ من أشجار
أنت الصباح المرتجى لكنَّني ... ظلُّ المساء الغاربِ المُتواري
فهبي لِوِجْداني سراجاً مشرقاً ... يهدي خُطايَ إلى علا وفخار
وَلْيَسِرْ ضوءُكِ في ترابي شعلةً ... تصفو بها نفسي منَ الأكدار
وصلي حياتي واجعلي هذا السَّنَا ... مِنْ حولها ستراً من الأنوار
لأنِيْلَ فِكْرَ الشَّرق أوضاحَ الهُدى ... كيما يُبَدِّلَ لَيْلَهُ بنهار
وأثيرُ ناراً في الصُّدورِ جديدةً ... مشبوبةً بعزائمِ الأحْرَار
إني سَأُسْمِعُهم نشيدَ المجد من ... قيثارةٍ أوتارُها أشعاري
وأحيلُ خام الطَّبع وعياً صارخاً ... متحفِّزاً للسَّبْق في المِضْمار
وأصوغُ للأيَّام دوراً مقبلاً ... غيْرَ الذي شَهِدَتْ من الأدوار
ليحرِّروا الأرواحَ والأفهامَ من ... لغوِ الفِرَنْجِ وزيفِ الاستعمار
لا يستقي نبضُ الحياةِ حرارةً ... إلَّا بذكرِ مُقَدِّرِ الأقدار
ومجالُ تحريرِ النُّفوسِ أمانةٌ ... موصولةٌ بنزاهةِ الأفكار
والشَّعْبُ حِيْنَ يَضِلُّ في آماله ... عَنْ قَصْدِه لم يَلْقَ غَيْرَ بَوَار[2]
وتحُولُ فضَّتُه النقيةُ بهرجاً ... مَنْ ذا يسوِّي بهرجاً بِنُضَار
ويموتُ داخلَ صَدْرِه القلبُ السَّليم ... وينطوي في ذلَّةٍ وصَغَار

---

(١) النَّرجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبَّه بها الأعين .

(٢) بَوَار ، أي : هلاك .

حتَّى ترى المُعْوَجَّ في نَظَراتِه ... يبدو سليماً عاليَ المِقْدار
وإذا رأى في الكائناتِ صِرَاعها ... طَلَبَ الشَّواطئَ خَشْيَةَ الإعصارِ
فإذا الحياةُ هي السَّلامةُ والسُّكو ... نُ وفوزه مِنْ حربها بِفِرار
في بَحْرِه موجُ الأماني راسبٌ ... ما فيهِ مِنْ لُجٍّ ولا تيَّار
الخطوةُ الأولى لِنَهْضَةِ أمَّةٍ ... تحريرُها بالعَزْمِ والإضْرار
لو أمكنَ التَّطهيرُ أمكنَ بعدَه ... أنْ يَسْهُلَ التَّعْميرُ للأفكار

****

حكمة الكليم ـ سياسةُ الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصَّة ، فوجَّه منها سهاماً نافذةً إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهُّم جلال النبوَّة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصَّادق ليشحذَ من عزيمته وينفخَ فيه روح التحرُّر ، ويوقظَ في فطرته معاني القوَّة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغيةٍ ، وجبروتِ جبارٍ ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاؤه إليه دون سواه ، فنراه يتَّخذُ من صفات النَّبيِّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتذودَ عن حياضها ، وتدفع العدوَّ عن حماها :

عندما يَصْدَعُ النبيُّ بأمرِ الله جهراً في مَسْمَعِ الأكوان
يتحدَّى بوحيه كلَّ حُكْمٍ لأميرٍ في الأرض أو سُلطان
لا يرى قَصْرَه سِوى رَسْمَ ديرٍ من بقايا هياكلِ الأوثان
لا يَسِيغُ المَقام في مَوْطنِ الذُّلِّ ولا يَرْتضي بِعَيْشِ الهَوان
تَتَذَكَّى بنورِ صحبته النَّفْسُ ويهدي الرَّشَادَ للحيران
يُحْدِثُ الضَّجَّةَ الرَّهيبة في الأيام حتى تَسِير طَوْعَ الأماني
مُعْلناً في الوجود لا ربَّ غَيْرَ الله يُخْشَى ويُرْتَجى كلَّ آنِ
كَيْفَ يرضى إذلالَ عَبْدٍ لِعَبْدٍ وامتهانَ الإنسانِ للإنسانِ

قطــرةٌ مــنْ نَــداه تُشْعِــلُ نــاراً فــي عــروقِ الكُــروم والأغْصَــان
ويُجَلِّــي فــي قبضــةٍ مــن تــراتٍ بَعْــثَ روحِ اليقيــن والإيمــان
حــارسُ الفطــرة التــي فَطَــرَ اللهُ عليهــا الأرواحَ فــي الأبــدان
لا يســامــي جــلالُ حكمتــه العقــلَ ولا عبقــريــةَ الفَنَّــان
حكمــةٌ فــي غنــى عــن الحَشْــدِ والجَمْــعِ وزهــورِ العُــروش والتِّيجــان
مِــنْ جُمُــودِ الشِّتــاءِ يحيــي ربيعــاً بــاســمَ الــرَّوْضِ نــاضِــرَ الأفنــان
وثُمــالُ الــرَّاحِ المُعَتَّــقُ أشهــىمــنْ رَحِيْــقٍ مُصَفَّــقٍ فــي الــدِّنــان[1]
ابتهــالاتُ صُبْحِــهِ تــوقــظُ الكــونَ فيصحــو مــنْ ليلــه الــوَسْنــان[2]
ولــه نظــرةٌ مــن الحــقِّ فيهــا نبــأٌ يُعْلــنُ انقــلاب الــزَّمــان
ولــديــه وثيقــةُ الأمــنِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فــي مُحْكــمِ القُــرآن
وَحْيُــه يَغْمُــرُ الصُّــدورَ الخــوالــي بقلــوبٍ جــديــدةِ الإيمــان
دَرْسُــهُ العَــزْمُ والــرِّضــا المحــضُ والتَّسليــمُ منــه فــي السِّــرِّ والإعــلان
كســراجٍ يشــقُّ قلــبَ الــدَّيــاجِيْــرِ[3] بــاهــرَ الضَّــوْءِ ســاطــعَ البُــرْهَــان
قــدرةٌ حــارتِ النَّــواظِــرُ فيهــا أيُّ ســرٍّ بهــا خفــيّ المعــانــي
يَصْبُــغُ الــرُّوحَ فــي الجُســوم بلــونٍ غَيْــرَ كــلِّ الــرُّســومِ والألــوان
حَــوَّلَــتْ كيميــاؤه الصَّــدَفَ البــالــي عِقْــداً مــن الــدَّراري الحِسَــان
يتــولَّــى مــلءَ الفــراغ بحــزمٍ يَقْهَــرُ المستحيــلَ بــالإمكــان
وينــادي العَبْــدَ المُصَفَّــدَ[4] هيَّــا لا تحــاكُ القيــودُ لــلإنســان
فــإلــى المَحْــوِ والبِلــىٰ كــلُّ معبــودٍ قــديــمٍ مَــعَ الحُطــامِ الفــانــي
مَــنْ يُحــارِبْ وسيفُــه رَبِّــيَ الأعلــى يُــدمِّــرْ قــواعــدَ الأوثــان

---

(١) الدِّنان : وهي جِرَار الخمر .
(٢) الوَسنانُ : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .
(٣) الدَّياجير : واحدها الدَّيجور، وهو الظلمة، وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وليلة ديجور.
(٤) المصفَّد ، أي : المشدود .

إنْ أردْتَ الفَقْـرَ الغيـور فـلا تَفْقِـدْ مـعَ العُـدْمِ ثَـرْوةَ الإيمـانِ
فَمِـنَ الحـالِ لا مـنَ الجَـاهِ والمَـالِ دوامُ الـرِّضـا والاطْمِئْنَـان
رأسُ مـالِ الأحْـرارِ صـدْقٌ وإخـلاصٌ وَوَجْـدٌ وَحُـرْقـةٌ وتَفـانِ
لَيْـسَ فـي الحَلْـيِ والمَظـاهـرِ والثَّـوْبِ المـوشَّـىٰ والأصفـرِ الـرَّنَّـان
لا تحـاولْ دركَ المعـالـي بكـاووسَ وخسـرو فـي غـابـرِ الأزمـان
طُـفْ إذا شئـتَ حَـوْلَ ذاتِ : حـرّاً لا تَطُـفْ بـالسَّـريـرِ والإيـوان
قَـدْ تباعَـدْتَ عـن مَقـامِـك حتَّـى صِـرْتَ فـي ذِلَّـةِ الأسيـر العَـانـي
لا تَسِـرْ واهِـنَ الخُطـى كبغـاثِ الطيـر بيـن الطُّلـولِ والجُـدْران
كُـنْ نَظِيْـرَ الشَّـاهيـن فـي القِمَـمِ الشَّمَّـاءِ لا فـي مَسَـارِبِ الـوُدْيَـان
تتحـرَّى الطيـورُ عِنْـدَ بنـاء العُـشِّ أعلـى الفـروعِ فـي البُسْتَـان
لَسْـتَ دونَ النُّسـور بـأسـاً فحـاولْ دارةَ النَّجْـمِ أو ذُرى كِيـوان
مِـنْ مِهـادِ الثَّـرى إلـى التِّسْعـةِ الأفـلاكِ فَـوْقَ الـزَّمـان فَـوْقَ المَكَـان
غَيِّـرِ العـالـمَ القـديـمَ وعَمِّـر فيـه دُنيـا جـديـدةَ البُنْيـان
والـذي يَنْشُـد الجِهـاد فنـاءً في رضا الحقِّ وهو ماضي الجَنانِ
هـو سـرُّ الأقـدارِ وهـو قضـاءُ الحـقِّ فـي المُمْكنـاتِ والإمكـانِ
فَتمثَّـلْ نضـالَ أسـلافِـك الأمجـادِ نَحْـوَ العُلـى بغيـرِ تَـوَانـي
وتَـدَبَّـرْ كيـف استهـانـوا بِبَـذْلِ الـرُّوح والمـالِ فـي رضـا الـرَّحمـن
أظْهـرِ الجَـوْهَـرَ الكـريـمَ مِـنَ الأصـداف واجْعَلْـهُ بـاديـاً لِلْعيَـان
وتَحَـرَّزْ مـنْ هيكـل المـاءِ والطِّيـن وَمِـنْ ظُلمـةِ الهـوى والهَـوان
واجعـلِ الفطـرةَ النقيَّـة نبـراسـاً لعينيـكَ بَيْـنَ قـاصٍ ودان
كـلُّ مـنْ ضـاعَ حظُّـه مـنْ جـلالِ الحـقِّ بَيْـنَ الجُحـودِ والنِّسيـان
لَـم ينَـلْ طُـوْلَ عُمْـرِه مـنْ جمـالِ الحـقِّ غَيْـرَ الإبعـادِ والحِـرْمـان
مبـدأ العِشْـقِ والصَّبـابـة قَهْـرٌ وخطـوبٌ مـوصـولـةُ الأشجـان[1]

---

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهـو مـنْ بعـدهـا دلالٌ وتيـهٌ بيـن طيـبِ المُنـى وَصَفْـوِ الأمـانـي
ويعـودُ المحـبُّ بـالقُـرْبِ محبـوبـاً وَيَنْسـى لـواعـجَ الهِجْـران[1]
الـوجـودُ الأسمـىٰ هـو المـؤمـنُ الحـرُّ الأبـيُّ الـوفـيُّ فـي كـلِّ آنِ
وبقـايـا الـوجـودِ فيمـا سِـوَاهُ مَظْهـرٌ حـائـلٌ وظـلٌّ فـانِ
حِيْـنَ يَـدْعُـو أنْ لا إلَـه سـوى الله القـديـرِ المهيمـنِ الـدَّيَّـان[2]
يُـذْعِـنُ الكَـوْنُ والمكـانُ ولا يُشْـرِقُ إلَّا بفـوزِه القَمَـرانِ

***

حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

إنَّ إقبالًا قال في هذه الأبيات والتي قبلها ما يكون في حياة الناس من إقامة العدل بينهم أو من الجور عليهم في الحكم ، وقد استخدم كلمة (الحكمة) لهذا العنوان ، (حكمة الكليم) ثمَّ (حكمة فرعون) ، وهو إنّما يُريد بياناً لسياسة الحكم في إطارٍ من مصطلحاته الخاصة قصداً إلى بيان دسائس الاستعمار وتدميره لحياة الإنسان والقضاء على حرِّيته ، وهو في هذه الأبيات يقول :

قـدمـتُ حكمـةَ النَّبـيِّ لِلْعِيَـانِ والمكـرُ والخـداعُ حِكْمـةُ الطُّغـاةِ
تبقـي علـى الإنسـان جِسْـمَ الحيـوانِ وَتَسْلُـبُ الـروحَ كـرامـة الحيـاة

***

حِكْمتُهـا حـريـةٌ مـارقـةٌ[3] تَعِيشُ في الدُّنيا بها منْ غَيْرِ دينِ
والنَّفـس فـي أوهـامهـا شـاردةٌ لمْ تَعْرِفِ الشَّوْقَ إلى عينِ اليقين

***

(١) الهِجْرانُ : هو الترك أو الإعراض عن شيء .
(٢) الدَّيَّان : هو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ .
(٣) مارقة : خارجة عن دينها .

وسائلُ التهذيبِ مِنْ هذا النظام سلاسلُ الأسرى وأغلالُ العبيد
كما يرى السَّيِّدُ ينقادُ الغُلام فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

* * *

وذلكَ البارعُ في مهنتِه يَصْطَنِعُ التَّجْديدَ في الدِّين القويم
قدْ شطرَ الوَحْدَةَ في أمَّتِه فما له ندٌّ سوى عَصَا الكليم

* * *

متى يفيقُ القومُ من وَهْدَتهمْ وَهُمْ لحكم الغَيْرِ زَرْعٌ وَحَصَاد
قَدْ هدموا بناءَ ذاتيَّتِهِمْ وغيرُهم في أرْضِهِمْ سادَ وشَاد

* * *

كَمْ مِنْ غَرِيْرٍ اسْتَطالَ وادَّعى حَصَافَةَ الفِكْرِ وَدِقَّةَ النَّظَرْ
قَدْ خَبَرَ الوُجودَ والدُّنيا معاً وما لَدَيْهِ عَنْ وُجُودِهِ خَبَرْ

* * *

أزالَ نَقْشَ الحقِّ مِنْ خَاتَمِهِ وكلُّ خَيْرٍ عن ضَمِيْرِهِ اسْتَتَرْ
قَدْ وُلِدَ الرَّجاءُ في عالمه لكنَّه في المَهْدِ وَلَّى وانْدَثَرْ[1]

* * *

ما تَصْنَعُ الأيَّامُ بالقَوْمِ الأُلى لمْ يُرْزقوا حظّاً مِنَ العَزْمِ الغَيُور
قَدْ أصْبَحَتْ أرواحُهم رَهْنَ البلى[2] وما سِوى أجسامِهم لها قُبُور

* * *

ومزَّقَ الكبارُ أستارَ الحياء وقلَّد الشَّبَابُ صُنْعَ الغَانِيَات[3]

---

(١) انْدَثَرَ : دثر وامَّحَى وفني .
(٢) البِلى : الفناء ، ومنه بلي الميت أفنته الأرض .
(٣) الغانياتُ : النِّساء الغنيَّات بحسنهنَّ وجمالهنَّ عن الزينة .

كـأنَّهـم بيـنَ عـوامـلِ الفَنـاء يـأتـونَ مَـوْتـى مِـنْ بُطـونِ الأمَّهـات

* * *

وهـذه الحسنـاءُ تَقْضـي يَـوْمَهـا فـي منظـرٍ عـارٍ وصبْـغٍ مُسْتَعـار
سـاعِـدُهـا الفِضِّـيُّ يُبْـدي جِسْمَهـا بمنظـرِ الأسمَـاك فـي لُـجِّ البِحـار[1]

* * *

جمـودُ هـذا الشَّعـبِ عَـنْ كفـاحـه يحكـي رمـاداً ليـس تَحْتَـه شَـرَر
مسـاؤه رانَ علـى صبـاحِـه بظلمـةٍ فـي ليلهـا زاغَ البَصَـر[2]

* * *

كـلٌّ يعيـش فـي إطـار نَفْسِـه والعيشُ والمُتْعَـةُ فـي الـدُّنيـا مناه
يَخْشَـى البِلَـى قَبْـلَ حُلُـولِ رَمْسِـهِ[3] فـاعْجَـبْ لِمَيْـتٍ لَـمْ يَـزَلْ قَيْـدَ الحيـاه

* * *

وذو الغِنى في الشُّحِّ يحكي جَلْمَدا ومـالُـه فـي اللَّهـو يُغْـرِقُ السَّحـاب
حيـاتُـه ضـاعـت علـى الغـيِّ سُـدَىً تَشْغَلُـه قشـورُهـا عَـنِ اللُّبَـاب

* * *

يَبِيْـعُ دِيْنَـه لِـدُنيـا غيـره وفـي رِضَـا غـاصِبِـه يَسْتَشْهِـد
وَيَـوْمُـه الحـاضِـرُ كـلُّ عُمْـرِه فَلَيْـسَ فـي تـاريـخِ دُنيـاه غَـدُ

* * *

وكَـمْ تـرى فـي القَـوْمِ حَمَّـالَ كُتُـب ثقيلـةٍ يعيـا بِحَمْلِهـا جَمَـلْ

---

(1) لُجُّ البِحارِ ، أي : عُرْضُها .
(2) زاغَ البَصَرُ ، أي : مَالَ عن مستوى النظر حيرةً وشُخوصاً ، وفي التنزيل ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .
(3) الرَّمس : هو التُّراب الذي يُحثى على القبر .

يـدورُ فـي النَّـاس كحمَّـالِ الحَطَـبْ ويُـرْسِـلُ الأقـوالَ مِـنْ غَيْـرِ عَمَـلْ

* * *

ولاؤه لِلْغَيْـــرِ كُـــلُّ هَمِّــــهِ حتـى بنـى الـدَّيْرَ بـأحجارِ الحَـرَم
مــاتَ ولكـــنْ مـــا دَرَىٰ بِمَـــوْتِـــهِ قَـدْ عـاشَ وَهْمـاً ثُـمَّ واراهُ العَـدَم

* * *

كلمةُ التَّوحيد
لا إله إلَّا الله

(رباعيات)

إنَّ لهذه الكلمة تأثيرها البالغ في حياة الأمم ، فإنَّها للفرد والمجتمع عقيدة القوَّة ، وركيز التقدُّم والانطلاق ، وإفراد العبودية للخالق ، ورفضُ كلِّ عبودية لما سواه ، فالمؤمن لا يخضع الجبين إلا لله الذي يقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التَّوحيد التي تُجدِّد الصُّورة الإنسانية في القالب التُّرابيِّ هيكلاً من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشور ، يقول محمد إقبال :

فـي مقـام التَّـوحيـد يَشْـدُو خيـالـي بصـدى الحـقِّ مِـنْ رِجـالِ الحَـال
إنَّمــا تُــدْرِكُ القلــوبُ هــداهــا بِصَفــاءِ الأحــوالِ لا الأقْــوَال

* * *

حـرف (لا) مُظْهِـرٌ لسـرِّ الجـلال وهــو للجَــوْر منــذرٌ بــالــزَّوال
بَعْـدَ نفـي الظَّـلامِ والظُّلـم يبـدو عنـد (إلَّا) إشـراقُ صُبْـحِ الجَمَـال

* * *

لا وإلَّا فَتْـــحٌ لبـــابِ الحَيَـــاةِ واحتسـابُ الـوُجـودِ والكـائنـاتِ

بِهِمـا تَقْهَـرُ المهـانـةَ والضَّيْـمَ وتمضـي الأمـورُ فـي الحـادثـات

* * *

حِيْـنَ يَقْـوى مَـعَ الـرَّجـاء اليقيـنُ فجـوابُ الأقـدارِ كُـنْ فَيَكُـوْنُ
يَـدْفَـعُ النَّفـيُ للتحـرُّك والجِـدِّ وَعِنْـدَ الإثبـاتِ يـأتـي السُّكُـوْنُ

* * *

كـلُّ شَعْـبٍ يَـرُوْمُ عِـزَّ حمـاه فبنـور التَّـوحيـد لا بسـواه
ليـس يحمـي بـلادَه غَيْـرُ حـرٍّ سيفُـه (لا إلَـه إلا اللهُ)

* * *

حـرفُ (لا) آيـةٌ لبَـدْءِ المسيـر فـي طـريـقِ الجهـاد نَحْـوَ المَصِيْـر
إنَّهـا أولُ المَنَـازلِ طـرّاً لـرجـالِ الله العلـيِّ القَـديـر

* * *

كـلُّ شعـبٍ يمضـي بِخَطْـو سـديـدِ لِلْعُلـى فـي حَـرَارةِ التَّـوْحيـد
يَبْتَنـي مِـنْ تُـرابـه صـرحَ دُنيـاهُ ويحيـا فيهـا بِخَلْـقٍ جَـدِيْـدِ

* * *

قـولُ (لا) ثـورةٌ أمـام الطُّغـاة هـو عِنْـدَ الأحـرارِ معنـى الحيـاة
ثـورةٌ مـنْ نِضَـالهـا يُصْنـعُ المَجْـدُ ويبـدو تَجَـدُّدُ الكـائنـات

* * *

لَيْـسَ فـي ذلـكَ الجنـونِ العـريـقِ كـلُّ ثـوبٍ يفـوزُ بـالتَّمْـزِيـق
لا أرى في الغُثَاء[1] والقشِّ[2] يوماً حَطَبـاً صَـالحـاً لهـذا الحَـرِيْـقِ

* * *

(١) الغُثاء : هو ما يحمل السَّيلُ من رغوةٍ ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض .
(٢) القَشُّ : هو ما يتخلَّف من القمح والرز ونحوهما بعد استخراج حبِّه .

لــو يَمَــسُّ التَّــوحيــدُ فِكْــراً نقيَّــا ... وضميــــراً حيَّــــاً وقَلبــــاً أبيَّــــا

لأحـــالَ الخُمــولَ والضَّعْــفَ إيمــانــاً ... وعـــزمــاً يغـــزو نُجُــومَ الثُّــريَّــا[1]

* * *

حــرف (لا) صَيْحَــةٌ تثيــرُ العبيــدَ ... ليــزولــوا مــا لَــمْ يُــزيلــوا القُيــودا

ويقيمـوا فـي الـدَّهـر عصـراً مجيـدا ... لا تَـــرى فيـــهِ سيِّـــداً ومَسُـــودا

* * *

لو سَرتْ شعلةُ الهدى في الصُّدور ... وتمشَّـــى وميضُهـــا فـــي الضميـــر

لأقــامَ الأحـــرارُ لِلْهَـــوْلِ يـــومـــاً ... يتحـــدَّى أهـــوالَ يـــومِ النُّشـــور

* * *

صوتُ (لَا) مِنْ دَويٍّ صوتِ الرُّعود ... ليـس شكـوى نـايٍ ولا لحـنَ عُـوْدِ

لَوْ يَضيقُ الفضاءُ يوماً على الحرِّ ... تخطَّـــى بـــه نِطـــاقَ الـــوُجـــود

* * *

يـا لهـا مـنْ ذِكـرى لأمجـادِ العَـرَبْ ... آيـــةٌ كُبْـــرَى وتـــاريـــخٌ عَجَـــبْ

حـــرَّروا أقـــدارَهـــم بـــالعَـــزَمـــاتِ ... في جميع الكَوْنِ منْ كلِّ الجهاتِ

فـازْدَهـى مـنْ نـورهـم كـلُّ مكـانِ ... وتغنَّـــى بـــاسمِهـــم كـــلُّ زمـــانِ

لـمْ تَـدُمْ عُـزَّىٰ[2] ولـم تَبـقَ مناةُ[3] ... هَـوَتِ الأصنـامُ تَحْـتَ الضَّـربـاتِ

حِيـنَ نـادى المؤمنـون (اللهُ أكبـر) ... زالَ كِسْـرى وانْطَـوَتْ أعـلامُ قَيْصَـر

أيُّ سيـــلٍ هـــادرٍ عـــمَّ الصَّحـــارىٰ ... أيُّ طـوفـانٍ جـرى يغـزو البحـارَ

---

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .

(٢) عُزَّى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً وجعلوا يعبدونها، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيتَ وأحرق السَّمُرةَ.

(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

هـؤلاءِ العَـرَبُ الصِّيـدُ الأبـاه — وحَّـدوا الخَلْـقَ بتـوحيـدِ الإلـه
شعلـةٌ مِـنْ نـورهـا الحـقُّ أضـاء — مـنْ تحـدَّى نـارَهـا أضحـى هَبَـاء
قـد أبـادوا كـلَّ شيطـانٍ مـريـد — وأزالـوا كـلَّ جبـارٍ عنيـد
وسَمَـوْا فـوقَ الـدَّراري منـزلا — كـلُّ هـذا كـانَ مـنْ أنـوارِ (لا)
بينمـا العـالـمُ كـالعَظْـمِ الـرَّميـم — في سهـوبِ الأرضِ أو دَيْـرٍ قَـدِيـم
أنشـؤوا دنيـاه فـي خلـقٍ جَـدِيْـدْ — وأقـامـوهـا علـى النَّهْـج الـرَّشيـد
أيقظـوا الـدُّنيـا بتكبيـر الأذان — فجـرى الحـقُّ علـى كـلِّ لِسـان
كـلُّ خيـرٍ يُـرتجـى مـنْ غَـرْسِهـم — كـلُّ نـورٍ يُجْتَلـى مـنْ شَمْسِهـم
كـلُّ روضٍ بـالمعـالـي مُخْصِـبُ — فهـوَ مـنْ شـاطـىء نَهْـرِ العَـرَب
قـد أزالَ العُـرْبُ مـن لـوحِ القُلـوب — نَقْـشَ غيـر (الله) ، عـلَّامِ الغُيـوب
فـأقـامـوا فـي شَمَـالٍ وجنـوب — ثـورةَ الإيمـانِ فـي كـلِّ الشُّعـوب
فتـرى فـي أُمـم الغَـرْب العبيـد — حطَّمـوا القَيْـدَ بعـزمٍ مـنْ حَـدِيْـد
أعلنُـوا الحـربَ علـى ساداتهـمْ — واستـردُّوا أمْـنَ حـرِّيَّـاتِهِـمْ

***

صـارَ شعـبُ الـرُّوس نـاراً ودمـا — بـاسـم (لا) حتـى أثـارُوا الأمَمـا
فـاستهـانُـوا بتقـاليـدِ الـزَّمـنْ — وأطـاحُـوا بمعـاييـر السُّنَـنْ
وَقَـفَ الـرَّكْـبُ بهـم فـي بـابِ (لا) — لـم يـرومـوا نَحْـوَ (إلَّا) منـزلا
ستـراهُـمْ كجيـوشٍ زاحفـه — بعـد حيـنٍ يَقْهـرُون العـاصفـه
وتـرى لِلْقَـوْمِ أمـراً عَجَبـا — نحـو (إلَّا) يَـدْفَعُـون المَـوْكبـا
لا و(إلَّا) بهمـا العَـدْلُ انتظـمْ — كـلُّ نفـيٍ دُوْنَ إثبـاتٍ عَـدَمْ
إنَّ لِلْفِطْـرَةِ فـي كـلِّ ضَمِيْـر — هـاتفـاً يَـدْعُـو لِتَـوْحيـدِ القَـدِيْـر
لم يبنْ في حرف (لا) صدقُ الخليل — دونَ (إلَّا) فهـيَ لِلصِّـدق دَليـل
يـا مقيمـاً فـي زوايـا الحُجُـرات — يَحْشُـدُ الألفـاظَ حَشْـدَ المَكْتَبـات
إنْ تكـنْ فـي مثـل نيـران الخليـل — أَسْمِـعِ النَّمـرُودَ تَـوْحِيْـدَ الجليـل

والـــذي تبصــرُه حـــولَ الفَضـــاء لا يســـاوي قَـــدْرُه وزنَ الهَبَـــاء[1]
كـلُّ حـرٍّ فـي يـديـه سيـفُ (لا) ثـــمَّ لا يَقْبَـــلُ عَنْـــهُ حِـــوَلا
فهـــو للعليـــاءِ دومـــاً فـــي صُعُـــود أمـرُه النَّـافـذُ فـي كـلِّ الـوجـود
أيهـــا الشـــادي بقـــرآنٍ كـــريـــم وهـــو فـــي عُـــزْلتِـــهِ نـــاءٍ مُقيـــم
قـــمْ وأسْمِعْـــه لكـــلِّ العـــالميـــن قُـــمْ وأبْلِغْـــه البَـــرايـــا أجمعيـــن

***

فَقْر الصَّالحِين

خصَّ إقبال موضوع فَقْر الصَّالحين بهذه الأبيات على أسلوبٍ خاص من التعبير تعريفاً بقيمة الفقر ومراميه ، يقول :

يـــا عبيـــدَ المـــاءِ والطِّيـــن اسْمَعُـــوا مـــا هـــو الفَقْـــرُ الغنـــيُّ الأرْفَـــعُ
هـــو عِـــرْفـــانُ طـــريـــق العـــارفيـــن وارتـــواءُ القَلْـــبِ مـــنْ عَيْـــنِ اليَقيـــن
ذلـــكَ الفقـــرُ عـــزيـــزٌ فـــي غِنَـــاه هـــامـــةُ الجَـــوْزاء مـــنْ أدنـــى خُطـــاه
يُحْكِـــمُ الإبـــداعَ فـــي صنـــع الحيـــاه ويـــرى التَّـــوحيـــدَ نبـــراسَ هُـــداه
يَـــرْعَـــشُ الكـــونُ إذا دوّىٰ صَـــدَاه لَيْـــسَ غَيْـــرَ اللهِ فـــي الكَـــوْنِ إلَـــه
خَيْبَـــرُ حـــرَّرهـــا ذاك الفقيـــر لـــمْ يكـــنْ ثَـــمَّ سِـــوَى خُبْـــزَ الشَّعيـــر
خـــاشـــعٌ لله ذيَّـــاكَ القـــديـــر وإليـــهِ خـــاشعـــاً يَسْعَـــى الأميـــر
حـــالُـــه ذَوْقٌ وَشَـــوْقٌ وَرِضَـــا ثُـــمَّ تسليـــمٌ لمـــا اللهُ قَضَـــىٰ
يـــا لَـــهُ كَنْـــزاً بـــه العَيْـــشُ صفـــا فهـــو ميـــراثُ النَّبـــيِّ المصطفـــى
ليلـــه المُظْلِـــم لِلْمَجْـــدِ سِـــرَاجْ يَصْنَـــعُ الجَـــوْهَـــرَ مـــن أدْنـــى زُجـــاج
يَقْهَـــرُ المـــؤمـــنُ نـــامـــوسَ[2] الفَلَـــكْ فهـــو إنســـانٌ وفـــي النُّـــور مَلَـــكْ

---

(١) الهَبَاءُ : التُّرابُ الذي تُطيره الرِّيحُ ويلزق بالأشياء .
(٢) نَامُوس : القانون أو الشريعة .

فَلَقَدْ تَنْقُلُ دُنْيَاكَ إلى ... حالةٍ أسْمَى وشأنٍ أفْضَلا

في هُدى القِرآن والذِّكر الحكيم ... دائمَ الإسعادِ مَوْصُولَ النَّعيم

ذلكَ المِسْكينُ في رُقْعَتِه ... يَسَعُ العالَمَ في مُهْجَتِه(١)

صامتٌ ليس يُطيل الكَلِمَا ... وهو بالصَّمْت يربِّي أُمَمَا

ولهُ منْ طاقةِ الرُّوح جِنَان ... يَمْنَحُ الخَامِل ذَوْقَ الطَّيَران

حوَّل العصفورَ نَسْراً في الفضاء ... فبدا للأرض تفسيرُ السَّماء

بنداءِ الحقِّ يُحيي مُدُنا ... وَبِصِدْقِ العَزْمِ يَبْني وَطَنا

مسلمٌ دولتُه فوقَ الحَصِير ... كانَ يخشى بأسَهُ ألفُ سَرير

ليس يَرْضى العَيْشَ إلَّا في مَقَام ... يستوي الشَّاهين فيه والحَمَام

لا يبالي منْ له هذا السُّلوك ... أنْ يقولَ الحقَّ في وَجْه المُلوك

يتلاشى الجَمْرُ في نِيْرانه ... ويخافُ البَحْرُ منْ طُوفانه

صوتُه في الشَّعْبِ يذكي لَهَبا ... وتخافُ النَّارُ منه الحَطَبا

لا تَرى الأمَّةَ تَخْشَى منْ مُغِيْر ... وَلَدَيْها مِثْلُ ذيَّاك الفقير

نحنُ باستغنائه نلقى الغِنَى ... وعلى أشواقِه نَرْجُو المُنى

فامْتَحنْ وَجْهَكَ في مِرْآته ... وانْشُدِ الحِكْمَةَ منْ آياته

تَكْتَسبْ منه مَزايا الصَّادقين ... وتَفُزْ منه بسلطانٍ مُبين

تَتَجلَّى حكمةُ الدِّين جمالا ... حين يُبْدي الفَقْرُ عِزّاً ودلالا

قوةُ الدِّين وتَشْيِيدُ عُلاه ... في تسامي الفَقْرِ عن ذُلِّ الحياه

كُلُّ منْ آمنَ بالله الأحد ... لا يُذِلُّ النَّفْس يوماً لأحد

إنْ يكن في صُورة النَّمل خَفَاء ... ليسَ يَرجو منْ سُليمانَ عَطاء

قال خَيْرُ الخلقِ تاجُ المُرْسلين ... كلُّ أرضٍ مسجدٌ للمؤمنين

كيف يعلو منبراً لِلْمُسلمين ... فَوْقَ أرضٍ في يد المُسْتَعمرين

يا لها كارثةٌ في العالَمِين ... مسجدُ الهادي بأيدي الغاصبين

---

(١) المُهْجَةُ : الرُّوحُ .

حَـرِّرِ الأرضِ معـاً والمَسْجِـدا ... لا يكـنْ غَيْـرُكَ فيهـا سَيِّـدا
أيُّهـا النَّـاصِـحُ ليـلاً ونهـارا ... داعيـاً أنْ نتـركَ الـدُّنيـا احتقـارا
إنَّ معنـى تَـرْكِهـا تسخيـرُهـا ... فـي سبيـل الخَيْـرِ لا تَـدْمِيـرُهـا
والـذي يَعْلُـو علـى صَهْـوَتِهـا ... يـأمَـنُ المِحْنـةَ مِـنْ عَثْـرَتِهـا
فـاتَّخِـذْهـا مِـنْ مطـايـا الآخِـرة ... تنـجُ مـنْ تِلـكَ العجـوزِ السَّاحِـره
هـي صَيْـدُ المـؤمـنِ الحـرِّ الجَسُـور ... قبـل أنْ يصطَـادَه فيهـا الغُـرور
كـلُّ زُهْـدٍ لـم يكـنْ مـنْ واجـدِ ... فهـوَ سَلـوىٰ لِعَـديـمٍ فـاقِـدِ
أنـا مـنْ مُشْكلتـي طـالَ اكتئـابـي ... حلُّهـا أعيـا علـى الجُهْـدِ صـوابـي
أيُّهـا الشَّـاهيـنُ[1] مـا هـذا الجُمـود ... أيـنَ مِنْـكَ البـأسُ أوْ أيـنَ الصُّعـود
يائسٌ أمْ أنت مَقْصُوصُ الجَنَاح[2] ... أمْ خَشِيْتَ الوَثْبَ في هَوْجِ الرِّياح
مـا شكـا مِخْلبـكَ النَّسْـرُ ولا ... فـرَّ مـنْ عَـزْمِـكَ طَيْـرٌ فـي الفـلا
الجبـالُ الشُّـمُّ والآفـاقُ لَـكْ ... أيُّهـا الهـاربُ مـنْ أوجِ الفَلَـك
طِـرْ إلـى النَّجْـمِ وَحَلِّـقْ مـنْ جَـدِيـد ... فـي الفَضَـاء الـلازورديِّ البَعِيْـد
فقـرُنـا تُمْليـه آيـاتُ الكِتـاب ... لَيْـسَ فـي رَقْـصٍ وسُكْـرٍ وَرَبَـابْ
فقـرُنـا معنـاهُ تَسْخيـرُ الجِهـات ... واحتسـابٌ لجميـعِ الكـائِنـات،
يَـرْفَـعُ المـؤمـنَ فَـوْقَ الشُّبهـات ... مَظْهَـراً أعلـى لِقُـدسـيِّ الصِّفـات
فقـرُ أهـلِ الكُفْـرِ هَـدْمٌ لِلْفِطَـرْ ... ومجـافـاةٌ لِعُمـران البَشَـرْ
عَيْشُـه بيـن المـرامـي والكُهـوف ... لا تـرى مَـوْضِعَـهُ بَيْـنَ الصُّفـوف
لـمْ يَكُـنْ فـي الدَّهـر منـذُ المَـوْلِـدِ ... غَيْـرَ صِفْـرٍ فـي يسـارِ العَـدَدِ
ليـس للمـؤمـن بـالفَقْـرِ اعتـزالْ ... هـو فـي البـرِّ وفـي البحـر نِضـالْ
بينمـا الأول فـي صَمْـتِ الجُمـود ... سـارَ هـذا نحـو تعميـرِ الـوُجـود
ذاك يطـوي العُمْـرَ فـي تـركِ البَـدَن ... طـالبـاً للـرُّشْـدِ أو تَـرْكِ الـوطـن

---

(١) الشَّاهِيْن : طائر من جوارح الطَّير وسباعها ، من جنس الصقر .
(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

وتـــرى المُـــؤمـــنَ فـــي أمَّتِـــه يَنْشُـــد الحـــقَّ بـــذاتِيَّتِـــه

نحـــو إدراك المعـــالـــي سَـــاعيـــا وســـراجـــاً فـــي الليـــالـــي هَـــادِيـــا

فقـــرُنـــا الحـــرُّ إذا نـــاجـــى القَـــدَرْ يُـــزهِـــبُ الشَّمْـــسَ ويَخْتَـــلُّ القَمَـــرْ

فقـــرُنـــا العـــاري تـــولاه الـــزَّوال قـــد نـــأى المُسْلِـــمُ عـــن هـــذا الجَـــلال

إنَّـــه إيمـــانُ بـــدرٍ وَحُنَيْـــن إنَّـــه زلـــزالُ تكبيـــرِ الحُسَيْـــن

أسفـــاً لـــمْ يَبْـــقَ عنـــدي سَيْـــفُ (لا) وأرى غِمْـــدَكَ منـــه قَـــدْ خـــلا

أسَفـــاً ، إنِّـــي أرى دُنيـــا الفِتَـــنْ زَلْـــزَلَـــتْ إيمـــانَـــه فيهـــا المِحَـــنْ

يا شبابَ الحقِّ ، يا ذُخْرَ الشُّعوب حـــرِّروا مِمَّـــا ســـوى اللهِ القُلُـــوبْ

إنَّ دنيـــا اليـــومِ أبـــلاهـــا القِـــدَمْ فـــاخْلُقـــوا دُنيـــا سِـــواهـــا فـــي الأمـــم

أينَ مِنكُم يا ذوي المَاضي الكريم غيـــرةُ الأحـــرارِ للـــدِّيـــن القَـــويـــم

طـــالَ هـــذا النَّـــوْمُ عـــنْ صـــونِ حَمَـــاهْ ما أرى المَوْتَ سوى هذي الحَيَاهْ

يـــدأبُ الحـــرُّ غُـــدُوّاً وعَشِيَّـــا ثُـــمَّ يبنـــي ذاتَـــه صَـــرْحـــاً عَلِيَّـــا

وَجِهـــادُ المُصطفـــى بـــرهـــانُـــه وسجـــايـــا المُصطفـــى ميـــزانُـــه

يـــا لقـــومٍ ، أنجبـــوا كـــلَّ أميـــر فمتـــى يُـــولَـــدُ فـــي القـــومِ فَقِيْـــر

لا تَسَـــلْ عـــنْ قصَّـــةِ القَـــوْمِ بيـــانـــا أسكتَ الدَّمْعُ عن الوَصْفِ اللِّسانا

أَلَـــمٌ أغمـــدَ فـــي صَـــدْري سِهَـــامَـــه هـــوَ فـــي قلبـــي كـــأهـــوالِ القِيَـــامَـــه

هَـــوْلُ هـــذا الحَشْـــرِ أعيـــا الـــواصفينـــا فليقـــدَم فـــي الصَّـــدْرِ مَطْـــويّـــاً دَفينـــا

قـــوةُ الـــدِّيـــن فـــي النَّصـــر القَـــريـــبْ فكـــأنَّ القَـــوْمَ فـــي شـــكٍّ مُـــريـــب

أيـــنَ مَسْعَـــاهُـــمْ وَهُـــمْ فـــي العَـــاجلَـــهْ قَطَعُـــوا عَمْـــداً طَـــريـــقَ القَـــافِلَـــهْ

ليـــس للشَّيطـــانِ فينـــا مـــأربُ لا ولا لِلِّـــصِّ منَّـــا مَطْلَـــبُ

فتـــراثُ الـــدِّيـــن قـــد طـــار شُعـــاعـــا وتـــراثُ المَـــالِ قـــدْ ولَّـــى ضَيَـــاعَـــا

كـــمْ تغنَّـــى بمَـــزايـــا بَـــايَـــزيـــد[1] ذو ريـــاءٍ هُـــوَ لِلْـــوَرْدِ مُـــرِيْـــد

فيـــرى فـــي دولـــةِ الأغيـــارِ رَخْمـــه وكـــأنَّ الـــذُّلَّ فـــي دُنيـــاه نِعْمَـــهْ

---

(١) لا أدري مَن يريْدُ الشاعرُ به .

وينـــادي أنَّ حُكْـــمَ الـــدُّخـــلاء فيــه للــدِّيــن ازدهــارٌ وارْتِقَــاء

أيُّهــا المحــرومُ مِــنْ وِجْــدانِــه وَمِــنَ الشَّــوْقِ وَمِــنْ أشْجَــانِــه

أوَ تَــدْري أنَّنــا مِــنْ عَصْــرِنــا غــربــاءُ فيــهِ عَــنْ أنفُسنــا

كــلُّ حــيٍّ معــرضٌ عــن ذاتــه فَقَــدَ الجَــوْهَــرَ مِــنْ مِــرآتِــه

عِـشْ ولـو يـومـاً عـزيـزَ المَطْلَبِ أجنبيــاً عــنْ طــريــقِ الأجْنَبــي

مَنْـزِلُ الشَّـاهيـنِ فـي أوجِ السَّحـاب مـا لَـهُ يَسْكُـنْ فـي وَكْـرِ الغُـرَاب

لـم يَـزَلْ فـي الـرَّوضِ ظـلٌّ وَثَمَـر فـالتَمِسْ عُشَّـك فـي أعلـى الشَّجَـر

كُنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء واحْتَسبْ نَفْسَكَ في كفِّ القَضاء

إنَّ فـي رُوحـك سيـلاً كـالعُبـاب يَنْسفُ الشُّمَّ ويهوي بالهِضاب[1]

انــدفــاعُ السَّيْــل إثبــاتُ البَقَــاء وسكــونُ اللَّيْــلِ معنــاهُ الفَنَــاء

أنــا لــمْ أسلُــكْ إلــى الفِقْــهِ سبيــلا أتحــرَّى الحُكْــمَ فيــه والــدَّليــلا

لــم أكــنْ فــي الفَقْــرِ ذا فهــمٍ دَقِيْــق فــي سلــوكٍ بيــن رُوَّادِ الطَّــريــق

فكـرةٌ جـاشَ بهـا القلـبُ اضْطـرابـا ثـمَّ لـمْ أمْلِـكْ عـن القَـوْلِ احْتِجَـابـا

كُنْـتُ فـي الـدِّيـن حَـدِيْـدَ البَصَـرِ رَغْـمَ مـا بـي مـنْ قصـورِ النَّظَـر

وانجلــت واحــدةٌ بَيْــنَ مئــات بَعْـدَ لأيٍ مـن ألـوفِ المُشْكِـلات

فــاغْتَنِـمْ مــنْ فــاقتــي حظَّــاً يسيــرا فَعَسَــى ألا تــرى مِثْلــي فَقِيــرا

أيهــا الشَّــادي بقــرآنٍ كــريــم وهــو فــي ركــنٍ مــن البيــتِ مُقِيْــم

قُــمْ وأبْلِــغْ نــورَه للعــالميــن قُــمْ وأسمعــه البَــرايــا أجمعيــن

إنْ نَكُــنْ فــي مِثْــلِ نِيــرانِ الخَليــل أسْمَــعَ النَّمــرودَ تــوْحِيْــدَ الجَليــل

مـنْ لـهُ مـنْ ثـروة الهـادي نَصيـب فَهْوَ منْ جبريلَ في الدُّنيا قَريب

يـا غـريبـاً عَـنْ مقـامِ المُصْطفـى عُـدْ إلـى الحـقِّ تَجِـدْ نُـوْرَ الصَّفـا

* * *

---

(١) الهِضَابُ ، جمع هَضْبة : جبل منبسط ممتدٌ على وجه الأرض .

الرجلُ الحرُّ

قدَّم إقبالُ في أبياته السَّابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلّا أنَّه شاء أن يخصَّ المسلمَ الحرَّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرَّجلِ الحرِّ من مقام ، ولذا نجد إقبالًا يكرِّر في هذه الأبيات بعضَ المعاني كصاحبِ رسالةٍ نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرِّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مسرى النَّجْمِ للحرِّ هَدَفْ ... وِرْدَهُ في كلِّ حينٍ لا تَخَفْ
آمِنٌ في سِلْمِه في حَرْبِه ... رأسُه في الكفِّ لا في جَيبه
عَرَفَ اللهَ فَلَمَ يَرْهَبْ سِواه ... كيفَ يخشى الخَلْقَ مَنْ خافَ الإلَه
لا يرى قطُّ مَعَ البُؤسِ المرير ... عَبْدَ سلطانٍ ولا ظِلَّ أمِيْر
جمَلٌ في البِيْدِ موصولَ الصِّيام ... يَحْمِلُ الأثقالَ والشَّوْكَ طَعام
هُوَ نَبْضٌ في عُروقِ الأَمَلِ ... وهو سَعْيٌ في طريق العَمَلِ
مَنْ علا تكبيرُه مِنْ غير تَاج ... يُلْزمُ التيجان تقديمَ الخَراج
قَدْ ذَكَتْ نيرانُنا مِنْ جَمْرِه ... وَجَرَتْ أنهارُنا مِنْ خَمْرِه
جنَّةُ الوَرْدِ شذاً مِنْ سِحْرِهِ ... شعلةُ المَجْدِ سناً مِنْ فكره
وترى في قصرِهِ ربَّ السَّرير ... راعشاً مِنْ سَهْمِ عُرْيانٍ فَقِيْر
شأنُنا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ ... وهو في الدِّين شُهودٌ ونَظَرْ
نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني ... وهو في الدَّار وفي طِيْبِ المَجَاني
أصْبَحَ الدَّيرُ لدينا مَقْصدا ... نحنُ لِلْغَيْر نبيعُ المَسْجِدا
وهو يُسْقَى مِنْ يمينِ المُصْطفى ... كوثراً عَذْباً به الوردُ صَفا
في ضميرِ الحرِّ تكبيرُ الإلَه ... في جبينِ الحرِّ تقديرُ الأُمَم
نحنُ للإفرنج أسْلَمْنا القِيادا ... واتخذناهُم لدى الجُلَّى عَتادا
وابتغينا عندهم عِزَّتنا ... وجعلنا ودَّهم قِبْلتنا
وشعارُ الحرِّ عزمٌ وإباء ... رزقُه مِنْ يدِ جبَّار السَّماء
فلغير الله ما مَدَّ اليمين ... لغير الله لم يَحْنِ الجَبين

متعـــةُ الـــدُّنيـــا لنـــا كـــلُّ المَـــرام   ثـــمَّ يـــأسٌ ثُـــمَّ قَبْـــرٌ وظـــلام
هـــو فـــي الحـــقِّ جهـــادٌ وثبـــات   مـــوتُـــه إحـــدى مقـــامـــاتِ الحَيـــاة
إنَّنـــا نبنـــي قصـــوراً فـــي الخيـــال   ونـــرى المُمْكـــنَ فـــي حُكْـــمِ المُحـــال
وهـــو بـــالأعمـــال فـــي كـــلِّ مجـــال   لا يُضيـــعُ العمـــرَ فـــي زَيْـــفِ الخَيـــال
لـــو رمـــى شُـــمَّ الجبـــالِ العـــاتيـــه   حـــوَّل الصَّخْـــرَ بحـــاراً جـــاريـــه
اجتنـــبْ صُحْبَتَنـــا واسْعَـــدْ بـــه   إنْ تُـــرِدْ خيـــراً فكـــنْ مـــن صَحْبِـــه
الـــزَمِ الحـــرَّ ودعْ أهـــلَ البَـــوَار[1]   اهـــدمِ الـــدَّارَ وكـــنْ صـــاحـــبَ دار
صحبـــةُ الحـــرِّ إلـــى العليـــاءِ بـــاب   هـــي خيـــرٌ لـــكَ مـــنْ ألـــفِ كِتَـــاب
صحبـــةُ الحـــرِّ تنيـــرُ العـــالـــم   وَلَقَـــــدْ تَخَلَّـــــق مِنْـــــهُ آدم
قُـــرْبُـــه للعـــزِّ أصفـــى مَنْهَـــلِ   لـــكَ فـــي البَحْـــر غنـــىً عـــنْ جَـــدْوَلِ
هُـــوَ يَـــوْمَ السِّلْـــم فـــي أوطـــانـــه   آيـــةُ التغييـــرِ فـــي عُمْـــرَانـــه
بجـــديـــد الفِكْـــرِ يحيـــي عَصْـــرَهُ   مِثْلَمـــا يَنْشُـــر رَوْضٌ عِطْـــرَهُ
وَهْـــوَ يـــومَ الحَـــرْبِ فـــي مَيْـــدانهـــا   ثـــورةُ البُـــركـــان فـــي نِيـــرانهـــا
سيفُـــه يحفِـــرُ فيهـــا قَبْـــرَه   أو يتـــمُّ اللهُ فيهـــا نَصْـــرَهُ
ليـــسَ زَرْعُ القلـــبِ فـــي مـــاءٍ وطيـــن   هينـــاً إلَّا لأصحـــابِ اليقيـــن
إنْ أردْتَ العَيـــشَ حُـــرّاً صـــافيـــا   فـــالتـــزمْ فـــي الـــدَّهـــر حـــرّاً هـــاديـــا

* * *

رُباعيَّات[2]

أقْبَـــلَ الحـــرُّ علـــى يـــوم الفِـــداء   ومضـــى يرمـــي علـــى النَّجْـــمِ الهَـــدَفْ
وكـــأنَّ الـــوَحْـــيَ لَقَّـــاهُ النِّـــداء   مـــنْ سمـــاءِ الله أقـــدِمْ لا تَخَـــفْ

* * *

---

(١) أهل البَوَار : أهل جهنَّم .
(٢) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات .

أشْــرَقَ التــوحيــدُ نــوراً فــي هــداه وســرى التحــريــرُ مِنْـه فـي الضَّميـر
أتُــرى مــنْ لــم يَخَــفْ غيــرَ الإلَـه يَـرْهَـبُ السُّلطـان أو يَخشـى الأميـر

* * *

روحُـــه تكشـــفُ أســـرارَ الخُلـــود عن حياةٍ ما لها في الدَّهْرِ مَوْت
يـرسـلُ التكبيـرَ مِـنْ قلـبِ الـوُجـود لغــةٌ تُغْنيــه عــن حَــرْفٍ وَصَــوْت

* * *

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُرور في الملاهي خَلْفَ أستارِ الحرير
زَلْـــزَلَتْهُـــمْ بيـــن أبـــراجِ القُصـــور ضــربــةٌ مِــنْ سَهْــمِ عُــريــانٍ فقيــر

* * *

ضَــرَبَ البَحْــرَ كمــوســى بعصــاه ورمـى الصَّخْـرَ حُطـاماً مِـنْ زجاج
ذلـــك الأوَّابُ فـــي ثـــوبِ تقـــاه ألــزمَ التِّيجــان تقــديــمَ الخَــرَاج

* * *

قَــدْ جَــرَتْ أنهــارُنــا مِــنْ بَحْــرِه وأضـــاءتْ نـــارُنـــا مـــنْ خمـــره
بسمـــةُ الـــوَرْدِ شـــذا مِـــنْ عِطْـــرِهِ شعلـــةُ المَجْـــدِ سنـــا مِـــنْ فِكْـــرِهِ

* * *

شـأنُنـا فـي الـدِّيـن لا يعـدو الخَبَـرْ وهــو فــي الــدِّيــن شهــودٌ ونَظَــرْ
نحـنُ عنـد البـاب فـي ظـلِّ الشَّجَـرْ وهــو فـي الـدَّار وفـي مَجْنَـى الثَّمَـرْ

* * *

لبنـي الإفــرنـج فـي الـدُّنيـا عَبِيْـد فـي قيـودٍ مـن حـريـرٍ أو حَـدِيْـد
كـــمْ تغنَّـــى بمـــزايـــا بـــايـــزيـــد ذو ريـــاءٍ وهـــو للـــوردِ مُـــرِيْـــد

* * *

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى كـــلُّ أرضٍ مَسْجـــدٌ للمـــؤمنيـــن

كيفَ تبني فَوْقَ أرضٍ مسجدا — إنْ تَرَكْتَ الأرضَ لِلْمُسْتَعمرين

* * *

ليسَ حيًّاً مَنْ يُرى مُسْتَعبَدا — لِسِوىً مَنْ في يديه رزْقُه

سَيِّد مَنْ ليس يرضى سيِّدا — ما خلا ربِّي فكلٌّ عَبْدُه

* * *

في ضَمِيْرِ الحرِّ تكبير الإلَه — في جبين الحرِّ تقديرُ الأُمم

موتُه أعلى مقاماتِ الحياه — تَرْفعُ الدُّنيا لِذِكْراه العَلَم

* * *

هو يوم السِّلْم في نَهْضَتِهِ — بِيَدِ الإصلاح يَبْني عَصْرَه

ويذيعُ الخَيْرَ في أمَّتِه — مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضٌ عِطْرَه

* * *

وَهْوَ يَوْمَ الحَرْبِ في سَاحَتِهِ — سيفُه يَحْفِرُ فيها قَبْرَه

يتحدَّى الموتَ في وَثْبَتِه — أو يُتمُّ العَزْمُ فيها نَصْرَه

* * *

إنَّ غَرْسَ الحقِّ في نورِ القُلوب — غَيْرُ شأنِ الزَّرع في ماءٍ وَطِين

فالتَمِسْ لِلْمَجْدِ أحرارَ الشُّعوب — إنَّهم في الدَّهر أعلامُ اليَقِين

* * *

في أسرارِ الشَّريعة

لم يتحدَّث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدِّين فيها ، ولكنَّه من جهةٍ أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه المادِّيُّون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إنِّي وعيت

عن جلال الدِّين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَل ، ما كِدْتُ أتأمَّلُها حتى أصابني المقيمُ المقعدُ من التفكير ، فيقول :

حِكْمةٌ قد وعيتها عن جلال الدِّينِ فيها أدركتُ معنى الجَلالِ
أنَّ حِفْظَ الأموالِ مِنْ أجْلِ حفظ الدِّين زادٌ وعدَّةٌ للنِّضال
قد أبانَ الرَّسُولُ أنَّ صلاحَ المالِ يزكو بهِ[1] صلاحُ الرِّجال
إنْ يَكُنْ همُّك الغِنَى لم تكنْ له عبداً بَلْ أنْتَ عبدُ المال

* * *

كمْ شَهِدنا الإصلاح من فارغي الأيدي وأهلِ الخَصاصة المُعْدَمين
كمْ وَجَدْنا الكسادَ مِنْ خازِن المالِ وأهْلِ الأهواءِ والمُتْرَفين
هُمْ يَضيقون بالعدالةِ في الأرضِ ليَقْضُوا حياتَهم ناعمين
لا يخافونَ في المَصير حساباً بلْ يخافُون غَضْبَةَ الثَّائرين

* * *

يأكلون التراثَ جَمْعاً وبُخْلا ثُمَّ هم يأكلونَ خُبْزَ الأجير
وتزيد المأساة رُعْباً وهولا عندما يَسْرِقُون حقَّ الفقير
يقفُ العاملُ المُسِنُّ[2] لديهم خاشعَ الطَّرف خافضَ التَّعبير
يصلُ الليل بالنَّهار أنيناً دُونَ جَذْوىً[3] في بؤسِ عيشٍ مرير

* * *

ليس في بيته الرغيفُ ولا يسْتُرُ مِنْ عُرْيه سوى الأسمالِ[4]
يبتني القَصْرَ وهو يلتمِسُ الأكواخَ بين الرُّبوعِ والأطلالِ

---

(١) يَزْكُو به : يزيد به .
(٢) المُسِنُّ : كبير السِّن .
(٣) دُون جَذْوى : دون فائدة .
(٤) الأسمال : الأثواب الخَلِقَة البالية .

نـال ربـح الـدَّاريـن مـنْ جَعَـلَ المَـالَ سبيـلاً إلـى كـريـمِ الفِعـالِ
هـم حيـارى لا يَنْظـرون بنـورِ الله بـلْ يَنْظُـرون رأسَ المـالِ

* * *

يستـوي الحـلُّ والحـرامُ لـدى القَـوْم وأيـن الـدُّجـى مِـنَ الأنْـوَارِ
فـأسـاليبُهـم مخـادَعـة الخلـق وتعميـرهـم خـرابُ الـدِّيـارِ
دولـةٌ تعتـدي علـى دولـةٍ ظلمـاً وقطـر يبغـي علـى أقطـارِ
كـادحٌ يـزرعُ الحقـولَ فيـأتـي غيـرُه عـاجـلاً لجَنْـي الثمـارِ

* * *

مِـنْ صميـم الحيـاة . مـنْ فطـرةِ الله ، مـنْ القَلْـبِ ، مـنْ لقـاء الضَّميـرِ
يشـرقُ الـدِّيـنُ بـالهـدايـة والـرُّشـد كمـا يشـرقُ الضُّحـى بـالنُّـورِ
فلـو أنْ الحـرام يبـدو حـرمـاً يَحْجُـزُ النَّـاسَ عنـه وعـيُ الضَّميـرِ
يصبـح العـدلُ شـامـلاً كـلَّ أرضٍ فـي الحيـاة الـدُّنيـا ليـوم النُّشـورِ

* * *

حكمـةُ الـدِّيـن أن تُسَلِّـم للشَّـرْعِ وتـرضـى بكـلِّ حكـمٍ قَضَـاهُ
مِـنْ ضميـر الـرَّسـولِ أينـع هـذا الـدِّيـن فـي غَـرْسِـه وطـابَ جَنـاهُ
إنَّ هجـر الحبيـب يستلـبُ اللـبَّ ويُـذكـي فـي القلـب نـارَ جَـواهُ
لـو أزيـل الحِجَـاب لـم تبـقَ حيـاً خـلٌ أمـر الـوصـال واطلـب رِضـاهُ

* * *

عِـشْ بـأحكـامـه تَـرَ العَيْـشَ صفـواً ورخـاءً أو نضـرةً ونعيمـا
وأطـع أمـرهُ تُطِغـك البـرايـا وتـرى الأمـنَ حيـث كُنْـتَ مُقيمـا
قـد حبـاك الإلـه أحسـنَ تقـويـم لتحيـا خَلْقـاً سـويـاً كـريمـا
إنَّ إرْثَ[1] الخليـل إيمـانُـه الصَّـادقُ فـاحفـظْ ميـراثَ إبـراهيمـا

---

(١) إرْث : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخرُ عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كــلُّ قَلْــبٍ لــه مــن الحــقِّ نــورٌ ولــه مــن هــدي النَّبــيِّ نصيــبُ
لا يُشــابُ اليقيــنُ[١] منــه بــريــبٍ وهــو مــنْ جبـريـلَ الأمينِ قـريـبُ
يــا مقيمــاً فــي حُجْــرةِ الــدَّا ر يتلــو وهــو عمَّــا يتلــوه نــاء
قُــمْ وأنــذر بــه الخــلائــقَ طــرًّا تَجِــدِ الكــونَ كلَّــه يَسْتجيــبُ

* * *

وتقبَّــل أوامــرَ الــدِّيــن بــالــرَّغبــة والشَّــوق والــرِّضــا كــلَّ وقــتٍ وآنِ
كــلُّ فــرضٍ تقضيــه جبــراً وقهــراً لا تــرى فيــه نَشْــوةَ الإيمــانِ
حكمــةُ الــدِّيــن فــي العــدالــة والحــبِّ ليســت فــي البُغْــضِ والطُّغيــانِ
وبــأنْ لا يحتــاجَ فــي الأرض إنســانٌ ليحظــى بــالــرِّزْقِ مِــنْ إنســانِ

* * *

قَــدْ خَبَــرْتُ الــدُّعــاة فــي هــذه الأيــامِ والمُــدَّعيــن لــلإلهــامِ
أطفــؤوا جــذوةَ الإرادةِ فــي الشَّعْــبِ وزادوه حَيْــرَةً فــي الظَّــلامِ
وأصــاغــوا التــأويــل فــي كــلِّ نــصٍّ حيلــةً للغِنــى وجَمْــعِ الحُطــام
لا أرى فــي منــابــر القــوم إلا سلَّــة الكعــك أو خــوان الطَّعــام

* * *

كــم أطــالــوا الجــدالَ فــي العقــل والنقــل وأفنــوا أعمــارهــم فــي المِــراءِ
أيُّ بــابٍ مــن الهــدايــة يُــرجــى مــنْ كليــمٍ[٢] بــلا يــدٍ بيضــاء
أيُّ أمــرٍ يفيــده مــنْ كــلامٍ فــي صبــاحٍ مــرددٌ ومســاءِ
صــاحــب الحــق أنــت فــاطلبــه بــالسَّعْــيِ ولا تنتظــره بــالإعطــاءِ

* * *

= « إنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم » .

(١) لا يُشاب : لا يختلط .

(٢) كليم : يريد به الشاعر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

دمعة على افتراق
الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدَّتها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وَحْدةٌ وقتية بين الهنادك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلَّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إلَّا أنَّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدِّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرِّضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة السيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السَّفاكين على الأبرياء الآمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنَّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضُّ المسلمين على ثورةٍ عارمةٍ بأسلوبٍ دينيٍّ مثير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلاً :

همـــالايـــا ونهـــرَ الكنـــج إنِّـــي أرى صُـــوَرَ الحيـــاةِ بِغَيْـــرِ معنـــى
فلـــم أدركْ لهـــا فـــي الـــذوق رأيـــاً ولـــم أعـــرفْ لهـــا فـــي الحسِّ لـــونـــا

* * *

شعـــوبُ الشَّـــرق والغـــرب استقلَّـــت وضـــاقَ بنـــا علـــى الأرضِ الفضـــاءُ
فلـــلأغيـــار ثـــروتُنـــا متـــاعٌ وَمِـــن لبنـــاتنـــا لهـــم البِنـــاءُ

* * *

وأيـــن حيـــاتُنـــا والغَيْـــرُ فيهـــا يَصُـــوْلُ كمـــا يشـــاءُ ويستطيـــلُ
وليـــس النَّـــوْمُ مـــا صِـــرْنـــا إليـــه فـــذاكَ المـــوتُ لا النَّـــومُ الثَّقيـــلُ

* * *

وإنَّ بـــذورَ هـــذا المـــوت جـــاءت مـــن الأعمـــاقِ مُنْـــذُ الابتـــداءِ
ومُنْذُ المهـدِ كـان القومُ صَرْعَى[1] وهـــذا المـــوتُ ليـــس مـــن السَّمـــاء

* * *

وليـــس فقيـــدُ هـــذا المـــوتِ أهـــلاً لغُسْـــلٍ أو لقَبْـــرٍ أو بُكـــاء
ولا شـــقِّ الثِّيـــابِ عليـــه حـــزنـــاً ولا سعـــيِ الـــوفـــودِ إلـــى عَـــزَاء

* * *

جهنمُـــه ســـوى مـــا قـــد عـــرفنـــا فليـــسَ لهـــا إلـــى الفَلَـــكِ انتســـابُ
ويـــومُ حســـابِ كـــلِّ الخلـــقِ يـــأتـــي بـــلا عمـــلٍ فليـــس لـــه حِسَـــابُ

* * *

حصـــادُ الـــزَّارعيـــن غـــداً وهـــذا بـــلا زرعٍ فمـــن أيـــن الحَصَـــادُ
ومـــدَّة عمـــرِه فـــي الـــدَّهـــر يـــومٌ وكـــلُّ حيـــاتِـــه يـــومٌ مُعـــادُ

* * *

---

(١) صَرْعَى ، جمع الصَّريع : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس ـ والمجون .

وأيَّـةُ أمَّـةٍ تـرجـو الأمـانـي   بـلا جَهْـدٍ وتمضـي فـي رُكـودِ[1]
يكـونُ مصيـرُهـا عـدمـاً ومحـواً   وينسـىٰ نَقْشَهـا سِفْـرُ الـوُجـود

* * *

وكَـمْ فِتَـنٍ تمـادى[2] الغـربُ فيهـا   وأحْكَـمَ حـولَهـا السِّحْـرَ المبينـا
فمـا أبقـى علـى الكفـارِ كفـراً   ولا أبقـى لأهـلِ الـدِّيـن دينـا

* * *

وأغْطَـشَ ليلهـا الـدَّاجـي[3] ظـلامـاً   فمـا تـدري الشَّـرابَ مـن السَّـرابِ
هـي الغَمَـرات مـا منهـا نجـاةٌ   ولا حَـلٌّ بِغَيْـرِ الانقـلابِ

* * *

فيـا مَـنْ هـامَ بـالـدُّنيـا متـاعـاً   وأصبـحَ همُّـه شبعـاً وريَّـا[4]
تَطَلَّـبْ فـي حُضُـورِ الحـقِّ قلبـاً   وفتيـاً صـادقَ الإيمـانِ حيَّـا

* * *

فهـذا القلـبُ للـدُّنيـا سـراجٌ   لـه أمـمُ الخليقـةِ فـي انتظـار
وهـذا القلـبُ مَعْـدِنُـه تـرابٌ   وَجَـوْهَـرُه فـريـدٌ فـي الـدَّراري[5]

* * *

يفـوقُ السَّبْعَـةَ الأفـلاكَ قَـدْراً   بِهِمَّتِـه ولا يـألـو رُقيَّـا

---

(١) الرُّكود : الهدوء ، والسُّكون .
(٢) تَمَادى : لَجَّ ودام عليه .
(٣) ليلها الدَّاجي ، أي : حالك .
(٤) رِيّاً : مصدر رَوِيَ ، أي : شَرِبَ .
(٥) الدَّراريّ ، جمع الدُّرِيّ : نسبة إلى الدُّر في حسنه وبهائه .

يقيـمُ علـى الثَّـرى ولـه أمـانٌ   إلـى العليـاء أدنـاهـا الثُّـرَيَّـا[1]

* * *

وفـي حـربٍ ضـروسٍ[2] كـلَّ حيـنٍ   مـع التَّـاريـخ مُتَّصـل النِّضـالِ
بِضَـرْبَتِـهِ الجبـالُ تصيـرُ عِهْنـاً   وَتُـرْهِبُـه الضـراغِـمُ فـي الجِبَـالِ

* * *

تـرى لِشعـورِه المشبـوبِ نـاراً   تُـوْقَـدُ مِـنْ حـرارَتهـا ذُكـاءُ
لـه ممَّـا سـوى التنـورِ خبـزٌ   ومِـنْ غَيْـرِ الطَّعـامِ لـه غِـذَاءُ

* * *

حضـورُ الحـقِّ يملـؤه يقينـاً   فمنـه الخـوفُ مَحْضـاً والـرَّجـاء
شهـودُ الحـقِّ إنْ هُـوَ غـابَ عنـه   فليـسَ لـه علـى الـدُّنيـا بَقَـاءُ

* * *

طيـف الجلـواتِ والخلـوات طُـرّاً   يضـيء الكـونَ بـالـرأي المُنيـرِ
ومـاللعِشْـق فـي سُكْـرٍ وَصَحْـوِ   دليـلٌ غَيْـرَ أوابٍ فَقِيْـرِ

* * *

فصـاحـبْ مـنْ لـه قلـبٌ عظيـمٌ   لعلَّـك تـدركُ الأمـرَ العظيمـا
وُلِـدْتَ علـى مهـاد الـذُّلِّ عبـداً   فجـاهـدْ ثـمَّ مُـتْ حُـراً كـريمـا

* * *

---

(١) الثُّريَّا : مجموعة من النجوم .
(٢) حَرْب ضَروس ، أي : شديدة مُهلكة .

السِّياسَةُ الحاضِرة

إنَّ إقبالًا كشف الأقنعة المزيَّفة عن وَجْه السِّياسة الغربية ، ووجَّه أمم الشَّرق إلى تجنُّب أخطارِ دُوَلِ الغَرب وسياستها ، وقدَّم حقائقَ وصوراً عن التَّدهورِ الخُلقي في قادة المسلمين والموجهين لشعوبهم لاسيَّما في شبه القارة الهندية الَّتي كتب على أرضها هذه المنظومة الكبرى قبل الاستقلال . ومن أروع ما نشهده من روائع هذه المنظومة ذلكَ الاستدراكُ العجيب الذي صرَّح فيه إقبالُ بأنَّ الإنسانَ المستعبدَ الذَّليل يكاد يفقد حقَّه في أن يذكر اسم النَّبيِّ ﷺ على لسانه بالصَّلاة والتسليم ، وألمح إلى الحالة المؤسفة التي شهدها في المجتمع ، ولاسيما في شبه القارَّة ، وبيَّن بجلاءٍ أنَّ العبوديَّة والذِّلَّة لا تلتقيان مع الإيمان بالله في قلبِ إنسان ، ومنْ ثمَّ يقول إقبال :

صَوَّرَ الغاصِبُ عَدْلًا ظُلْمَهُ ... ما هو التَّفسير للعَدْلِ الجَديد

زادَ في التَّحرير معنىً أنَّه ... يُحْكِمُ القَيْدَ لتحريرِ العَبِيْد

* * *

قال للطَّيْرِ إذا رُمْتَ الأمان ... فاتَّخِذ في منزلِ الصَّيادِ وَكْرا

ليس في الأجواء للطَّير مكان ... لا ولا تأمنُ في الصَّحراء نَسْرا

* * *

حِيْنَ يلقي الحَبَّ في أشْراكِه ... يَسْقُطُ الطَّيْرُ ويهوي ثَمِلا[١]

ويَغيبُ الرُّشْدُ عن إدْراكِه ... سَاعَةَ يَفْقِدُ فيها الأملا

* * *

سَدِّدِ الرأيَ وحاذِرْ كَيْدَهُ ... كلُّ ما يأتي به زُوْرٌ ومَيْن[٢]

---

(١) الثمل : النشوان من السكر .

(٢) المَيْن : الكذِبُ .

إنْ سقَــاك المـــاءَ فـــاتْــرُك وِرْدَهُ   وَلْتَمُــتْ ظمــآنَ حُــرّاً كــالحُسيــن

* * *

لا تُصَـــدِّقْ مِنْــهُ مـــا تَسْمَعُـــهُ   فَهُـــوَ تَخْـــديـــرٌ مبيـــدٌ للبَشَـــرْ
واحـــذَرِ الكُحْـــلَ الـــذي يَصْنَعُـــه   إنَّــه الكُحْـلُ الـذي يُعمـي البَصَـرْ

* * *

ضـــاقَ صـــدري بـــأميـــرِ القَـــافلـــة   لَيْـسَ فيـه وَمْضــةٌ[1] مِــنْ لا إلّــه
عـــابـــدُ المـــالِ يحـــبُّ العـــاجلـــة   عَبْـدُ جسـمٍ عَبْـدُ نفـسٍ عَبْـدُ جاه

* * *

كـــان بـــالتَّـــوحيـــد مـــرفـــوعَ العلـــم   يَنشُـــدُ المَجْـــدَ طـــريفـــاً وَتَلِيـــدا
ذلـــكَ المـــولـــودُ فـــي ظـــلِّ الحـــرم   مـــا لـــه أصْبَـــحَ لِلْغَيْـــرِ مُـــريـــدا

* * *

أيْـــنَ مـــنْ كـــانَ بهـــمْ يستـــرشـــد   كـــلُّ مـــرتـــابٍ فيحظَـــى بـــاليَقيـــن
وتـــرى الأرضَ إذا مـــا سَجـــدُوا   زُلْـزِلَـتْ مـنْ جَبَهـاتِ السَّـاجـديـن

* * *

فـــي دويِّ الهَـــوْلِ كـــانـــوا يُعْلِنـــون   تَحْـتَ ظـلِّ السَّيْـفِ تَـوْحِيـدُ الإلّـه
بِمِـــدَادٍ مِـــنْ دمـــاءٍ يَكتبـــون   ربُّنـــا اللهُ ولا نخشـــى سِـــوَاه

* * *

أيـــنَ ذاكَ الشَّـــوْقُ والقَلْـــبُ الصَّبُـــور   ومـــرايـــا البَـــاقيـــاتِ الصَّـــالِحَـــات
قـــد طَـــوَتْهـــا فـــي تـــواليهـــا العُصـــور   وتـــوارثُ فـــي الليـــالـــي الخَـــاليـــات

* * *

---

(١) وَمْضَة : لمعة خفيفة .

قَـدْ بَلَـوْتُ الـرِّقَّ[1] مُنْـذُ الابتـداء لَـمْ يكـنْ مهـدي فـي أرضِ الحَـرَمِ
مِـنْ رسـولِ الله يَعْـرونـي الحَيَـاء[2] حِيْـنَ يَـدْعُـو بـاسـمِـه الغـالـي فَمِـي

* * *

لـكَ قلـبٌ ومـع القَلْـبِ ضميـر أمْ غـدا صـدرُك لـلأصنـام دَيْـرا[3]
أنْـتَ للغَـاصـبِ محكـومٌ أسيـر تَحْتَ حُكْـمِ الغَيْرِ لن تَصْنَعَ خَيْرا

* * *

تـدَّعـي الحُـبَّ لخيـر الأنبيـاء أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَـمْ يَبْـدُ فِعْـلا
وإذ لَـمْ يَتبَـعِ القـولَ اقتـداء لَـمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْبِ أهـلا

* * *

لَـذَّة الإيمـانِ عنـد المـؤمنيـن قَـلَّ أنْ يُـدْرِكَهـا عبـدٌ ذَليـل
مسلـمٌ مُسْتَسْلِـمٌ للطَّـامعيـن آزريٌّ[4] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

* * *

صلـواتُ الحـرِّ بعـثٌ للشُّعـور فهـي مِعْـراجٌ إلـى العَيْـشِ الكَـريـم
وصـلاةُ المَـرْءِ فـي غيـر حُضُـور عـادةٌ جـوفـاءُ فـي رسـمٍ قَـدِيْـم

* * *

إنَّ لـلأحـرار فـي العِيْـدِ السَّعيـد مَظْهَـرُ العِـزَّة فـي دُنيـا وَدِيـن
ولـدى الأسـرىٰ وفـي عيـشِ العَبِيْـد يُصْبـحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤْمنيـن

* * *

---

(١) الرِّق : العُبوديَّة .
(٢) يعروني الحياءُ : يُصيبني الحياءُ .
(٣) دَيْراً ، مصدر من دَارَ يدورُ ، أي : طَافَ حولَه .
(٤) آزريٌّ : نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إلى الأمة العربية

خصَّص محمد إقبال قصيدةً من أبدع قصائده للحديث مع الأمَّة العربية ، ليسجل فيهـا فضلَهـا وسَبْقها في حمل الرسالة الإسلاميَّة ، والأخذ بيد الإنسانيَّة ، وافتتاحهـا لتاريـخٍ جديدٍ وفجرٍ سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدهـا نهضة هذه الأمَّة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ على سجيتها ، ويعطي القلب والعاطفة زمامَه ، ويسترسلُ في الحديث ، فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء « لا قيصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ[1] ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم ، وهل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] **إلا وصف حالكم ، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو ، فأنبتت الأزهار والرياحين ، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه ، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه ، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والرُّوح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه ، إنَّه حطَّم كلَّ صنمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان**

---

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالًا وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوِّي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلَّى الأذان بقراءة « الصافات »[١] بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدُّنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكرَ جلال الدين الرومي ، وفكرَ فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره[٢] ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزَّاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرَّفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء » .

يذكِّر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مَثَلُهم كمَثَل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظُبَّة فهو لا يُنتفعُ به ، فيقول الشاعر :

---

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن ، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلكَ المُغامرات ، وما أجملَ تلك الغزوات » .

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبدي فرحَه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفُرْقة بعد الوَحْدَة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمَّةً واحدةً ، أمَّةَ الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعَكم ، ومزَّقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسِكم .

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشَّقاء ، والطَّرْد والجلاء ، ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسىء أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم ، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة » .

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهامٍ مسمومة ، وحبائلَ

منصوبة ، وهو شديدُ المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرَسهم وَخَبرهُم ، فهو يتألَّم إذ يرى في الأمة العربية من يُحْسنُ الظنَّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضِّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إيَّاكم والركونَ إلى الإفرنج ، والاعتمادَ عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلةَ لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنَّ حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينةً لا تملك شيئاً ، إنَّها مزقت وَحْدَة العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يَجِدوا من يرثي لهم ، ويرفُق بهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذِّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقْبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزالُ فيكم الشرارةُ كامنةً ، فقوموا أيها العرب! وردُّوا فيكم روحَ عمرَ بنِ الخطاب مرَّةً أخرى ، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمينةً للسرِّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدِّين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنَّ غريزتكم العربية الإسلامية ميزانٌ للخيرِ والشرِّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أَفَلتْ نجومُ الآخرين ، وَطُوِيَ بساطُهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السَّيل ، حتى تُسْرِعَ ركائبكم في مضمار الحياة ، وتَسْبِقَ الريح .

ليت شعري ! مَنْ خلَّفكم في الحياة ؟ إنَّ العصر الحاضر وليدُ نشاطكم ، وكفاحكم ، وصنيعُ جهادِكم ودعوتِكم ، وما زلتم سادته ، وولاتَه حتى أفْلَتَ زمامه منكم ، فتبناه الغربُ وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فَقَدَ هذا العصر وهذا المجتمعُ الإنسانيُّ شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدِّين .

فيا رجلَ البادية ! ويا سيِّدَ الصَّحراء ! عُدْ إلى قوَّتِك وعزَّتك ، وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عِنان التاريخ ، وخذ قافلةَ البشرية إلى الغاية المثلى » .

وهنا نبذةٌ أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضَيَاعَ الأمة الإسلامية ، وانطفاءَ شعلةِ الحياةِ والإيمانِ في نفوس العرب ، ويشكو وَحْدَتَهُ وغربتَه في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاةَ منْ قام بين يديه ، وأذِنَ له في الكلام ، ويقول :

« لقد تَشَتَّتَ شَمْلُ أمَّتك يا محمد ! يا رسولَ الله ، فإلى أين يلجأ المسلم الحزين ، وإلى من يأوي ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع ، وذلك القلق ، الذي عُرفت به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأينَ أجدُ من يساعدني على آلامي وأحزاني ؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوي السَّفر البعيد في هذه الجبال والمَهامِه ، وقد ضلَّ سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب ، بالله ! قل لي ماذا يصنع حاملُ دعوتك ، المؤمنُ برسالتك ، وأين يجدُ زملاءَه ورُفْقَته ؟ » .

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرونَ إلى الأوربيينَ الإنجليزِ والأمريكيين كأصدقاءِ مخلصين ، وأعوانٍ مُنجدين يحلُّون لهم مشكلةَ اللاجئين ، ويردُّون إليهم أرضَ فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسيِّ والاقتصاديِّ والصَّحافيِّ ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا إخوتي العرب ! أنَّ النار التي شَغَلَتِ الزَّمان ، وبَهَرتِ

التاريخ ، لم تزلْ ولا تزالُ تشتعلُ في وجودكم ، صدِّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنَّ اليهود لا يزالون يتحكَّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنَّ الأمم لا تذوقُ طعم الحرية والاستقلال حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرفُ لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمةً صريحةً مركزةً بليغةً مع تلطُّفٍ واعتذارٍ :

« معذرةً يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهنديُّ[1] أن يخاطبكم ، ويقولَ لكم كلمةً صريحةً ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحةً للعرب ؟ إنَّكم كنتم يا معشر العرب ! أسبقَ الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدِّين ، وإنه لا يتمُّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاعٍ عن « أبي لهب » ، وإنَّه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطَّاغوت ، كذلك لا تتمُّ الفِكْرةُ الإسلامية إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنَّ العالم العربيَّ أيها السادة ! لا يتكوَّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وإنما يقومُ على أساس هذا الدِّين الإسلاميِّ وعلى الصلة بمحمد ﷺ »[2] .

***

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبَ العُروبةِ والمَجْد المُؤَثَّل[3] في ... بدوٍ وفي حَضَرٍ حتَّى ضُحى المحشر

مَـنِ الَّـذي حـرَّرَ الـدُّنيـا لخـالقهـا ... وأسْمَعَ الخَلْقَ لا كِسْرَى ولا قَيْصَر

***

---

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص١٢٤ ـ ١٣٥ .

(٣) المؤثَّل : المبني الأصيل .

مـنْ قبلكُـم أبلـغَ الآيـاتِ نـاطقـةً بـوحـي مـنْ خلـق الـدُّنيا وسـوَّاهـا
مـنْ غَيْـرُكـم رَفَـعَ المِصْبـاحَ مـؤتلقـاً وَوَحَّـدَ الخَلْـقَ لمَّـا وَحَّـدَ اللهَ

* * *

لـم يَطْعَـمِ النَّـاسُ إلَّا فـي مـوائـدكـم علمـاً شَهِيّـاً وتَهْـذيبـاً وعِـرْفـانـا
في شأنكم أرسلَ اللهُ الكتابَ فأصـ ـبحتُـم بنعمتـه فـي الخَيْـرِ إخـوانـا

* * *

منْ حوَّل البيدَ روضاً والحَصى دُرراً وأنبتَ الوَرْدَ في الصَّحراء لِلْعَرَبِ
أستغفـرُ الله مـا غَيْـرُ النبـيِّ بهـا أغْنَتْ مكارمُه فيها عَنِ السُّحُبِ[1]

* * *

فكلُّ معبودٍ قديمٍ في الشعوب هوى بعـزمـه سـاجـداً لله إكبـارا
وكـلُّ غصـنٍ هشيـمٍ مـن نـداه غـدا يُجَـدِّدُ الحُسـن أوراقـاً ونـوَّارا

* * *

واهـاً لهـا جـذبـات طـالمـا حَفَـزَتْ منَّـا الخُطـا وأثـارت للعـلا هممـا
قـد أبـدلتنـا الليـالـي مـن سعـادتهـا يـأسـاً مـريـراً ومـنْ أنـوارِهـا ظُلَمـا

* * *

كـلُّ الشُّعـوب أعـدَّت مـنْ مـواردهـا حِصْنَ الرَّخاء وصارتْ للمُنى قَدَما
وملء صحرائكم لو تعلمون غنىً وثـورةٌ وكنـوزٌ تُغْـدِقُ النِّعمـا

* * *

كيفَ انقضى حفْلكم وانفضَّ سامرُكم[2] وكـان بـالأمـس مِثْـلَ العَقْـدِ منتظمـا

---

(١) سُحُب ، جمع السّحاب : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .
(٢) سَامِر : هو مَن يتحدَّث مع زميله في الليل .

تـوَحَّـدَتْ من قـديمِ الـدَّهـر أمَّتُكـم ... ما بالُها انقسمتْ في أرضِكم أُمَمَا

* * *

قَدْ خادَعَتْكُم من المستعمرين يدٌ ... سُـمُّ العقـارب فـي أكمـامِهـا استتـرا
كـمْ أهْـدروا مِـنْ شعـوبٍ آدَمِيَّتَهَـا ... كمْ أيقظوا فتناً ، كمْ أفسدوا فِطَرا

* * *

تَـوَارَثَ العَـرَبُ الأحـرارُ وَحْـدَتَهُـم ... مـدى عصـورٍ وأجيـالٍ وأزمـانِ
حتـى إذا جـاء الاستعمـارُ قسَّمهـا ... إلـى شعـوبٍ وأقـوامٍ وأوطـانِ

* * *

اضْرِب خيامَكَ في دنيا وُجودك لا ... تَقِفْ بها عند رَسْمِ الدَّار والدِّمَنِ[1]
وادفـعْ بنـاقَتِـك الميـدانَ أسْبَـقُ مـنْ ... ريحِ الصَّحارى وأنْقِذْ وَحْدَة الوَطَنِ

* * *

يـا أيُّهـا العـربـيُّ انظـر لعصـرك فـي ... دنيـا يفـوزُ بهـا مـنْ أحْكَـمَ النَّظـرا
بـالسِّلْـمِ بـالعَـدْلِ تبنـي مـا تُـؤَمِّلـه ... إنْ شِئْتَ للأرضِ عُمْراناً فَكُنْ عُمَرا

* * *

تُعادُ هنا نَفْسُ هذه المنظومة في صياغةٍ أخرى ، يقول :

(١)

أمَّـةَ الصَّحـراءِ يـا شَعْـبَ الخُلـود ... مَـنْ سِـواكـمْ حـلَّ أغـلالَ الـوَرىٰ
أيُّ داعٍ قبلَكُـم فـي ذا الـوُجـود ... صـاحَ لا كسـرى هُنـا لا قيصـرا

* * *

---

(١) الدِّمَن ، جمع الدِّمنة : وهي آثار الدَّارِ .

مـنْ سِـواكـم فـي حـديـثٍ أو قـديـم   أطْلَـعَ القـرآنُ صُبْحـاً للـرَّشـاد
هـاتفـاً فـي مَسْمَـعِ الكَـوْنِ العَظيـم   لَيْـسَ غَيْـرَ الله ربّـاً لِلْعبـاد

* * *

حـدِّثـونـي اليـومَ عـن أيِّ خِـوَان   قَـدَّمَ الحِكْمَـةَ قـوتـاً لِلْفَطِـنْ[1]
يـا مصـابيـحَ التَّـآخي[2] والتَّفـانـي   أنْـزَلَ اللهُ فـأصْبَحْتُـم لِمَـنْ

* * *

(٢)

وابـلٌ مِـنْ فَيْـضِ أمِّـي اللَّقَـبْ   الكـريـمُ الفَـرْدُ فـي كُـلِّ الكِـرام
أنبـتَ الـزَّهـرَ بِصَحْـراءِ العَـرَبْ   بَـلْ سقـى فـي القَفْـرِ بُسْتَـانَ الـوِئـام

* * *

بِهُـدَى الحُـرِّيَّـةِ العليـا أنـار   فهـي روضٌ مُـونِـقٌ مِـنْ غَـرْسِـه
يـومُهـا الحـاضـرُ فـي كـلِّ الـدِّيـار   لَـمْ يُـنِـرْ إلَّا بـذكـرِ أمْسِـهِ

* * *

كـلُّ صَـدْرٍ مـن بقـايـا آدمَ   صـاغَ فيـه لِلْعُـلا قلبـاً جـديـدا
مَنَـحَ الإنسـانَ مُلْـكَ العَـالـمِ   بَعْـدَ مـا علَّمَـهُ النَّهْـجَ الـرَّشيـدا

* * *

كـلُّ ربٍّ غَيْـرَ خـلَّاق النَّسَـمْ   صـارَ مـنْ عَـزْمَتِـهِ تَحْـتَ الثَّـرى[3]
كـلُّ غُصْـنٍ كـانَ فـي يَبْـسِ العَـدَم   بِنَـداه اخْضَـرَّ حتـى أثْمَـرَا

---

(١) فَطِن : الفهم الذكيّ .
(٢) التآخي ، مصدر من تآخّى فلاناً : اتَّخذه أخاً .
(٣) الثَّرى : التُّراب النَّدي .

(٣)

لا تسلنـــي الآنَ عَـــنْ ثَـــوْرَتِـــه إنَّهـــا ميـــدانُ بَـــدْرٍ وَحُنَيـــن
فـــي أبـــي بكـــرٍ وفـــي صـــاحِبِـــهِ فـــي علـــيٍّ ثُـــمَّ فـــي صَبْـــرِ الحُسَيْـــن

* * *

سيـــفُ أيـــوبَ وتقـــوى بـــايـــزيـــد فيهمـــا مفتـــاحُ كَنْـــزِ العَـــالميـــن
أسْكَـــرَ الـــدُّنيـــا بجـــامٍ واحـــدٍ فحـــوىٰ الـــدُّنيـــا وضـــمَّ المَشْـــرِقَيْـــن

* * *

هـــاهنـــا الحكمـــةُ والـــدِّيـــن القـــويـــم وهنـــاكَ الحُكْـــمُ للـــدُّنيـــا يُقَـــام
كـــلُّ قلـــبٍ فيـــه لِلْمَجْـــدِ الصَّميـــم ثـــورةٌ تعلـــو بـــه فَـــوْقَ المَـــرام

* * *

(٤)

لا تَقُـــلْ أيـــنَ ابتكـــارُ المسلميـــن وسلِ الحَمْراء واشْهَدْ حُسْنَ تاج[١]
دولـــةٌ صـــارَ ملـــوك العَـــالميـــن نَحْـــوَهـــا طَـــوْعـــاً يـــؤدُّون الخَـــرَاج

* * *

دولـــةٌ تقـــرأ فـــي آيـــاتهـــا مَظْهَـــرَ العـــزَّة والمُلْـــكِ الحَصِيـــن
وكنـــوزُ الحـــقِّ فـــي طيَّـــاتهـــا دونهـــا حـــارَتْ قلـــوبُ العـــارِفيـــن

* * *

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم .

(٥)

أرسـلِ الشُّكْـرَ إلـى غيـر انتهـاء لِنَبـيٍّ الله قُـدْسـيِّ الجَنـاب[١]
أشْعِـلِ الإيمـان نـاراً بـالعَـرَاء أوقـدِ النُّـور بكـفٍّ مـنْ تُـراب

* * *

وحبـاهُ الله مِـنْ عَلْيَـائـه عَـزْمَـةً فـلَّ بهـا سَيْـفَ الغِيَـر
راكـبُ النَّـاقـة فـي صَحْـرائِـه سـارَ فيهـا راكبـاً خَيْـلَ القَـدَر

* * *

كبَّـروا لله فـي ظـلِّ الحُـروب وصفـوفـاً تَحْـتَ ظـلِّ المَسْجِـدِ
ضجـةٌ دانـت لهـم فيهـا الشُّعُـوبْ وارتَقَـوْا فيهـا مكـانَ الفَـرْقَـدِ[٢]

* * *

(٦)

ويْ كأنْ لمْ تُشْرِقُوا في الكائنات بِهُـدى الإيمـانِ والنَّهـج الـرَّشيـد
ونسيتُـم فـي ظـلامِ الحـادِثـات قيمةَ الصَّحراء في العَيْشِ الرَّغيد[٣]

* * *

كـلُّ شعـبٍ قـامَ يَبنـي نَهْضـةً وأرى بنيـانَكـم مُنْقَسِمـا
فـي قـديـمِ الـدَّهـر كُنتُـم أمَّـةً لَهْـفَ نَفْسـي كَيْـفَ صِـرْتُـم أُمَمـا

* * *

---

(١) الجَنَاب : النَّاحية .

(٢) الفَرقد : نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ولهذا يُهتدى به . وهو المسمَّى بـ « النجم القطبي » .

(٣) الرَّغيد : العيش الطيِّب الواسع .

كـــلُّ مـــنْ أهْمَـــلَ ذاتِيَّتَـــه   فهـو أولـى النَّـاسِ طُـرَّاً بـالعَنَـاء
لــنْ يـرى فـي الـدَّهْـر قـوميتـه   كـلُّ مَـنْ قلَّـد عيـش الغـربـاء

* * *

فكِّـروا فـي عَصْـرِكـم واسْتَبِقُـوا   طـالمـا كُنتُـم جمـالًا لِلْعَصْـر
واملـؤوا الصَّحـراء عـزمـاً واخلُقـوا   مـرَّةً أخـرى بهـا رُوْحَ عُمَـر

* * *

والآنَ ماذا نصنع يا أُمَمَ الشَّرق[1]

يندِّدُ إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ، وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ، ولكن التطوّر السَّريع والثوراتِ المتوالية في الشرق والغرب ، غيَّرت الكثير من الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأمَّة العربيَّة ـ بعد أن وجَّهَ إليها خطابه ـ :

تَئِنُّ الخلائقُ في الأرض طُرّاً ... وقد سامها الغَرْبُ عَسْفاً وَجُوْرا[2]

فيا أُمَمَ الشَّرْق فيم التَّواني ... لقد آن أنْ يُصْبِحَ الشَّرْقُ حُرَّا

* * *

أكادُ أرى ثورةً في النُّفوس ... تشدُّ الحياة إلى المَجْدِ جَرَّا

مضى الليلُ وانجابَ عَهْدُ الظَّلامِ ... وبَعْدَ الدُّجى يَعْقُب الليلَ فَجْرَا

* * *

وما بَرِحَ الغَرْبُ يختالُ تِيهاً[3] ... ويَخْتَرِفُ الكَيْدَ لِلْعَالَمِيْن

لينشرَ في الكونِ إلْحَادَهُ ... وَيُنْشِىءَ دُنيا على غَيْرِ دِيْن

* * *

وَيَسْتَبْطِنُ الذِّئبُ في جِلْدِ شاةٍ ... بأنيابِه العُصْلِ[4] خَلْفَ الكَمِيْن

---

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوانَ لهذا الكتاب .

(٢) جَوراً : ظلماً .

(٣) تِيْهاً : ضلالاً .

(٤) العُصل : المعوجة .

أرى مشكــــــلاتِ بنــــــي آدمَ يَــزِيْــدُ بهــم شَــرُّهــا كــلَّ حِيْــن

* * *

فَمَـا قَـدْرُ إنســانِ هــذا الــوُجــودِ لَـدَيْهــم سِـوى هيكـلٍ مـنْ تُـراب
تَشَكَّـلَ فـي الخلـق مـاءً وطينـاً وبنيــانُــه صــائــرٌ لِلْخَــراب

* * *

وقــافلــةُ الكَــوْنِ ضَلَّــتْ خُطــاهــا بحكمتهــم عَــنْ طَــريــقِ الصَّــوَابْ
لأطْمَــاعِهــم كــلُّ شــرٍّ مُبَــاحٌ ومــا للضَّميــر عليهِــمْ حِسَــابْ

* * *

وللحــقِّ فــي كــلِّ شــيءٍ دليــلٌ ومِــنْ نــورِه كــلُّ مــا تُبْصِــرون
وفــي كــلِّ معنــىً لــه حِكْمــةٌ يفــوزُ بــأســرارهــا العــارِفُــون

* * *

إذا شَهِــدوا آيــةَ الله عــاشُــوا أبَـاةً علـى الضَّيـم[1] لا يَـرْهَبُـون
لقــد نظــروا فــاستبــانــوا الهُــدىٰ بــإدراكِهــم أفــلا يَنْظــرُون

* * *

وَلِلْمُــؤْمــنِ الحــرِّ مــنْ ربِّــه هُـدًى فـي الحيـاةِ ونـورٌ مبيـن
وفــي قلبــه لــوعــةٌ[2] واشتيــاقٌ وعَطْـفٌ علـى مِحْنَـةِ الآخَـريـن

* * *

---

(١) الضَّيْم : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضُيُوم . قال المثقِّب العبديّ :
ونحمي على الثغر المخوفِ ونتَّقي بغــارتنــا كيــدَ العِــدَا وضُيُــومَهــا
(٢) لَوْعَة : حرقة في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

إذا العِلْمُ حلَّ بِقَلْبِ الفتى أحلَّ به خَشْيةَ المتَّقينْ
ويزدادُ خوفاً منَ اللهِ حتَّى يردَّ الأمانَ إلى الخائِفِيْن

* * *

هو العلمُ لنا فيه كيمياءٌ إلى قدرةِ الله يَهْدي البَصَرْ
فيا أسفا لَيْسَ لِلْغَرْبِ منه سوى حيرةٍ في دياجي الفِكَرْ

* * *

فَلَم يُجِبْه العلمُ عقلاً سَوياً يُفَرِّقُ ما بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرّ
فلا ينبع الطلُّ من جَفْنِه وفي صَدْرِه قطعةٌ منْ حَجَرْ

* * *

فبالعلمِ كانَ رقيُّ الحياةِ تضيءُ القرونُ به والعَصر
فَحَوَّلَهُ الغربُ سيفاً رهيباً لِمَحْوِ البوادِي وَقَتْلِ الحَضَرْ

* * *

تصيرُ الملائكُ لوْ جَاوَرَتْهُم معاولَ[1] هَدْمٍ لِمَحْوِ البَشَرْ
ولو كانتِ الأرضُ جنَّة عَدْنٍ لِسُكَّانها جَعَلُوها سَقَرْ

* * *

غدا مظهرُ العِلْمِ في عَصْرِهِم بكلِّ الشُّعوب خِدَاعاً وَسِحْرَا
معاذَ الحقيقةِ ، ما ذاكَ سِحْرٌ لقد بدَّلوا نعمةَ اللهِ كُفْرَا

* * *

لَهُمْ فِتَنٌ تَجعلُ الوَرْدَ شَوْكاً وتُوقِد في رَوْضةِ الأمنِ جَمْرا

---

(١) المَعاول جمع المِعْوَل : آلة من الحديد يُنقر بها الصخر ، ويُهدَم بها البيوت .

خُذِ السَّيفَ من عُصبةِ المعتدين إذا كُنتَ تَنشُدُ للحقِّ نَصْرَا

* * *

لَقَدْ آنَ للرُّوحِ أن تَسْتَفيقَ وَلِلشَّرقِ أنْ يستبينَ الدَّليلا
لِيَجْعَلَ أنقاشَ هذا البناءِ على الظَّالمين كثيباً مَهِيْلا

* * *

إذا العَقْلُ أذْعَنَ لِلْقَلْبِ حكماً رأى طاعةَ اللهِ أهْدَى سَبيلا
وإنْ لمْ يُجِبْ داعيَ القلبِ أضحىٰ كإبليسَ مكراً وشرًّا وَبِيْلا[1]

* * *

يَرَى الغَرْبَ يستغلُّ البرايا[2] كما يَشْتَهي دُوْنَ قيلٍ وقال
يرى الآدميين مِثْلَ القطيع فَهُمْ لفمِ الذئبِ رزقٌ حَلال

* * *

لَقَدْ حانَ تغييرُ دُنيا بها نرى العَدْلَ أمراً بَعِيْدَ المَنَال
وسُرَّاقِ أكفانِ موتى القبور على يَدِهِم أيُّ خيرٍ يُنَال

* * *

ضَوارِي السِّباعِ التَقَتْ في جنيف[3] لِطَمْسِ الهُدى والتِهَام العِبَاد
قد اقتسموا كُرَةَ الأرض نهباً[4] وهم نَحْوَ تقسيمِها في اتِّحاد

* * *

---

(١) وبيلاً : شديداً .

(٢) بَرايا : جمع البرية ، وهي الأرض .

(٣) جنيف (Geneva) : مدينة في سويسرا .

(٤) نهباً : غصباً .

يقولونَ هذي بلادي لَكُمْ ونحنُ لنا كلُّ تلك البلاد
هنا ثورةٌ وهنا فتنةٌ بهم نارُها أبداً في ازدياد

* * *

لكَ الأرضُ أم هذه أرضُه وأيُّكم في حِمَاها نزيل
بنفسك كن واثقاً مؤمناً وعِشْ كافراً بالعدوِّ الدَّخيل

* * *

فَمِنْكَ إليك العُلا والهَوان وَمَجْدُك في الشَّرْق عالٍ أصيل
كرامةُ أجياله في يديك فأنْتَ له أو عَلَيْه الذَّليل

* * *

على قوة الحقِّ تحيا الشُّعوب وتجتازُ في المَجْدِ حدَّ المجال
فلا شعبَ يقوى بلا وَحْدةٍ تضُمُّ الصُّفوف لنيلِ المَعَالي

* * *

ومهما سَمَا الرأيُ إنْ لم يَقُمْ على قوةٍ فَهْوَ زيفُ الخَيَالْ
وفي قوةٍ دونَ رأيٍ جُنونٌ وجَهْلٌ وطيشٌ وعُقْبَى وَبَالْ

* * *

بنا لَبِسَ العِشْقُ ثوبَ الدَّلال وفاضَ على الكونِ طيباً وَحُسْنا
وفطرةُ آدمَ في كلِّ حيٍّ رَوَتْها الخلائقُ في الدَّهْرِ عنَّا

* * *

تَعَلَّمَتِ الأُمَمُ النَّاهضاتُ منَ الشَّرْقِ دِيناً وعِلْماً وَفَنَّا
رفعنا الحِجَابَ عنِ الكائناتِ فَنَحْنُ من الشَّمْسِ والشَّمْسُ منَّا

* * *

إذا لاحَ فــي صَــدَفٍ جَــوْهَــرٌ فَــذَلِــكَ مــنْ قَطْــرِ نَيْسَــانِنَــا
وإنَّ هَــدْرَ المَــوْجِ فــي بحــره فَــذَلِــكَ مــنْ فَيْــضِ طُــوْفَــانِنَــا

* * *

حــرارةُ شَــذْوِ الهَــزَارِ الطَّــروبِ علــى غُصْنِــهِ بَعْــض نِيــرانِنَــا
سَقَيْنَــا دَمَ آدمَ قلــبَ الــوُرُود فــأهــدىٰ رســالــةَ إيمَــانِنَــا

* * *

فتــى الشَّــرْقِ أنْــتَ الــوَفــيُّ الأميــنُ فــأظْهِــرْ يَــدَ العَــزْمِ للنَّــاس جَهْــرا
لِتَخْــرُجْ بيضــاءَ مــنْ غَيْــرِ ســوءِ وتُبْطِــلْ مــنْ فِتْنَــةِ الغَــرْبِ سِحْــرَا

* * *

عــلامَ ارْتَبَطْــتَ بِــزُنَّــارِه وَكَيْــفَ اسْتَطَعْــتَ على القَيْــدِ صَبْــرا
فَــوَحِّــدْ بــلادَكَ صــوبَ العُــلا بــإيمــانِهــا تَلْــقَ عِــزّاً ونَصْــرَا

* * *

لَقَــدَ نَشَــرَ الغَــرْبُ أســواقَــهُ ومــنْ حَــوْلِــهِ الجُنْــدُ أقــوىٰ سِيَــاج
وَسِلْعَتُــه شَــرَكٌ للشِّــراء ومَتْجَــرُه ظِــلُّ عَــرْشٍ وَتَــاج

* * *

لــه فــي التِّجــارة رِبْــحٌ ونَفْــعٌ وبــالحُكْــم يــأتيــهِ كَنْــزُ الخَــراج
ويلقــاكَ بــالكلمــاتِ العِــذابِ وفــي قَلْبِــه الحِقْــدُ خَلْــفَ الــرِّتَــاج

* * *

فَكُــنْ فــي متــاجــره زاهــداً ففيهــا الخَسَــارَةُ والمَغْــرَمُ
نسيــجُ بــلادِكَ أقــوى خيــوطــاً وَقُطْنُــكَ مــنْ خَــزِّه[1] أنْعَــمُ

---

(١) خزّ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جهـــازُ المنـــايـــا بـــدُولابِـــه يَـــدُورُ وأنْـــتَ بـــه أعْلَـــمُ
يميتـك بـالغـشّ مـنْ غَيْـرِ حَـرْبٍ وأنْـــتَ لـــه الـــرِّبْـــحُ والمَغْنَـــمُ

* * *

إذا جـاء يَغْـرِضُ نَقْـشَ البِسَـاطِ فَـدَعْـهُ وَعِـشْ راضيـاً بـالحَصِيْـرِ
وإنْ وَصَلَتْـــكَ بِـــهِ رُقْعـــةٌ فـلا تُعْطِـه بَيْـدَقـاً[1] بـالـوَزيـرِ

* * *

جـــواهــــرُه بَهْـــرجٌ[2] زائـــفٌ لِجَمْـــعِ النُّقـــود وَبَيْـــعِ الضَّمِيـــرْ
ونـــافِجَـــةُ[3] المِسْـكِ فـي سُـوقِـهِ مِـنَ الكَلْـبِ لا مـنْ غَـزَالٍ غَـرِيـرْ

* * *

تَنَبَّـــهْ لهـــذا الـــدَّخيـــلِ الَّـــذي تَفِـــرُّ الثَّعـــالـــبُ مـــنْ مَكْـــرِهِ
ولا تَتعمَّـــــم بِمَنْسُـــــوجِـــــه ولا تُغْمِـضِ العَيْـنَ عَـنْ غَـدْرِهِ

* * *

وإمَّـــا مَـــرَرْتَ علـــى حـــانَـــةٍ تَعَـــوَّذْ بِـــرَبِّـــكَ مِـــنْ شَـــرِّه
فَمَـــنْ ذاقَ خَمْـــرَتـــه لَـــمْ يَعُـــدْ إلـــى دارِه بَـــلْ إلـــى قَبْـــرِه

* * *

بـــأصبـــاغِـــه وبـــألـــوانِـــه تَضِـــلُّ البَصِيْـــرةُ قَبْـــلَ البَصَـــرْ
بِسِلْعَتِـــه قـــد غَـــدَوْنـــا سُكـــارى وصـــاحِبُهـــا بـــالغنـــى قَـــدْ سَكِـــرْ

* * *

---

(١) البَيْدَق : الدليل في السفر ، والجندي الراجل . ومنه : بيدق الشطرنج .

(٢) البَهْرجُ : الباطل .

(٣) النَّافجة : وعاء المسك في جسم الظبي .

فَمِـنْ جَهْـدِ كَسْبِـكَ مـا يَجْتَنِيـهِ ومـا يَقْتَنِيـهِ ومـا يَـدَّخِـرْ
ومِنْـكَ الغِـذَاءُ معـاً والكِسَـاءُ لـه في نعيـمٍ وعَيْـشٍ نَضِـرْ

* * *

وإنَّ ذوي الفَضْـلِ فـي كـلِّ شَعْـبٍ علـى مَجْـدِ أمَّتِهِـمْ سَـاهِـرُون
فَهُـمْ بسـواعـدهـم يعملـون وهُـمْ فـي مَـوَاطِنهـم يَـزْرَعُـون

* * *

ومـن أرضهـم كـلُّ مـا يُنْتجُـون ومـا يَـأكُلـون ومـا يَلْبَسُـون
فيـا مـنْ غـدا مُنْكـراً ذاتَـه إلـى أيـن يَمْضـي بِـكَ المَـاكِـرون

* * *

وكـمْ بِعْـتَ مَحْصُـولَ زرعٍ لـه رَخيصـاً وأنـت غـداً مُشْتَـريـه
يعـودُ بـأضعـافِ مـا نِلْتَـهُ بـربـحٍ سَخـيٍّ لِمُسْتَـوْرِدِه

* * *

كـأنَّـك لـمْ تَشْـقَ مـنْ أجلـه ولا كُنْـتَ فـي الأرض مـنْ زَارِعِيْـه
أفـي البَحْـر لـؤلـؤه كـامـنٌ ومـنْ يـد غـوَّاصِـه يَشْتَـرِيـه

* * *

شكوى ومُنَاجاة

كان محمد إقبال كثيرَ الاعتداد بالإيمان ، شديدَ الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوتُه وميزتُه ، وذخرُه وثروتُه ، وأنَّ أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدةٍ أجنبية ، أو أن يروي غُلّته من معينٍ غريبٍ يقول : **« رفقاً يا رسول الله بفقيرٍ غيورٍ أبيٍّ النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب »** .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال[1] (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومُثُلِها وقِيَمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوفُ الموت ، إنك حطَّمت الأصنامَ القديمةَ كاللاتِ ومناة ، وجدَّدت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقنته إيَّاها الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

---

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيابرديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقةٍ في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهَّان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطُفْ حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السُّفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثُك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيَّةً في الفقر ، عفيفةً في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب وديار العجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثِّل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنَّ الشباب الإسلاميَّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبُهم وضمائرُهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون رقاقٌ كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النَّزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الصُّقور التي تحلق في السماء عصافيرَ صغيرةً لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلمُ لا يعرف سرَّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبُه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكِّر إلا في المنام والطعام ، إنه حكَّم الغرب في

نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منّة مئةِ إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنَّ محطِّم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بعثٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرَّةً ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يَثُلُّوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسمَ هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العِنان ، وقفْ بي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنَّني في صراعٍ بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنَّ الشوق يقول لي : تَشَجَّعْ وتكلَّم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إيَّاك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكنَّ الشَّوْقَ عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زَهِدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، إنَّ صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإنَّ اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجرَّدت من لوعة القلب ولهيب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إنَّ الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من عللٍ يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليَّ من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ، إذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليَّ ذلك اليوم الذي فقدتُه ، إنَّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأمِّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنَّني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنَّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضنَّ عليَّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنَّ قيمة الجسم بالروح ، وإنَّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنَّ مهمتي أصعبُ وأدقُّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أَحَدّ ، وقوى أَشَدّ ، حتى أتم مهمَّتي ، وأحقِّق رغبتي ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهبي فضعني على المِسَنِّ ، فإنني حديدٌ منْ مَعْدِنٍ كريم .

إنني وإن كنت قد ضيَّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافرِ جوادكَ الأصيل ، إنَّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدُّنيا ، إنما يتسلَّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديَّ لوعة العرب ، اسمحْ للهنديِّ أن يَمْثُلَ بين يديك ، ويتحدَّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاءه ما يعانيه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطبٍ في الصحراء مرَّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبُ السَّير ، فمضى وخلَّفه ، وبقيَ الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركْبٌ

جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة[1] ؟ .

* * *

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يـا رأسَ مـالِ البـائسيـنَ ويـا مَنَـارَ الحـائـريـن
ادعُ الإلَـهَ يَهَـبْ لأمَّتِـك : الشَّجـاعـةَ واليقيـن

* * *

ويعيذُهم منْ شرٍّ خوفِ المَوْتِ منْ قَبْلِ المَمَاتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهمْ على قيدِ الحياةِ

* * *

يا منْ هَدَمْتَ اللّاتَ والعُزَّى وحرَّرت الحَرَمْ
وبنيـتَ أعلـى أمـةٍ تَهْـدي بِسِيْـرَتهـا الأُمَـمْ

* * *

ذكـرُ الإلَـه ويَقْظـةُ الـوجْـدان فـي إنسٍ وجـان
منْ فَيْضِ وحيكِ يا صلاةَ الصُّبحِ يا صَوْتَ الأذان

* * *

فحرارةُ الإيمان في القَلْبِ المَشُوْقِ إلى النِّضال
وسراجُ ليلِ الفِكْرِ (لا معبودَ إلا ذو الجَلالِ)

* * *

لَمْ نتَّخذْ في الكونِ ربّاً من رُخَامٍ أو حَجَرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٢٠١ ـ ٢٠٦ .

كـلا ولـم تَسْجُـد لنجـمٍ أو نبـاتٍ أو بقـر

* * *

لـم نلـق جبهتنـا لـدى الكُهَّـان فـي ذُلٍّ حقيـر
لـم نحـنِ هـامتنـا لسلطـانٍ قـويٍّ أو أميـر

* * *

منْ فيضِ روحِكَ كلُّ هذا الفَضْلِ والعزِّ المكين
وبناءِ صَرْحِ المَجْدِ في توحيد ربِّ العالمين

* * *

ذكـراكَ وردٌ سـائـغٌ يحلـو بـه العيـشُ المَـريـر
وبِغَيْـرةِ الإيمـان صـار الـدِّيـنُ كنـزاً للفقيـر

* * *

يا منتهى كلِّ المنازلِ في طريق السَّالكين
يـا مَـنْ إلـى أنـوارِه تهفـو قلـوبُ العـاشقيـن

* * *

قِيثَارتي[1] ثَقُلَتْ وأعْيَاها التَّجاوبُ والرَّنين
أوتـارهـا لا تستجيـبُ إذا عَـزَفْـتُ ولا تبيـن

* * *

فـإذا نصحـتُ فـإنَّني نـاديـتُ مـنْ لا يسمعون
وإذا نَهَيْـتُ فـإنَّمـا أسْمَعـتُ مـن لا يَنْتَهـون

* * *

---

(١) القِيثارة : آلة طرب ذات أوتار .

طوّفْتُ في أرض الأعاجم ثمَّ في أرض العرب
لم ألق فيها المصطفى ولكمْ رأيتُ أبا لهب

* * *

عجبي لهذا المسلمِ المزهوِّ بالعصر المنير
لا همَّـةٌ تحـدو خُطـاه ولا سِـرَاجٌ فـي الضَّميـر

* * *

وأرى شباباً واهن العزماتِ في لينِ الحرير
وُلدَتْ أمانيه فكانَ المهدُ مصرعَها الأخير

* * *

ذاكَ الغُـلامُ بـنُ الغَـلامِ بـنِ الغُـلامِ بـنِ الغُـلامِ
فـي شَـرْعِـه تحـريـرُ أمَّتِـه محـالٌ أو حَـرام

* * *

الـدِّيـنُ ليـس لـه بِـدُنْيـاه زمـانٌ أو مكـان
كـلُّ الـذي أدْريـه عنـه أنَّـه بـالأمـسِ كـان

* * *

عـن ذاتِـه أضحـى غـريبـاً مُستهـامـاً بـالـدَّخيـل
بـذلُ الكـرامـةِ عنـده ثمنـاً لِمَطْعَمِـهِ الـذَّليـل

* * *

كالطَّير غايته التقاط الحبِّ في ظلِّ القُصور
هـو طـائـرٌ لكنَّـه لـم يَـدْرِ تحليـقَ النُّسـور

* * *

قَدْ ذابَ في نارِ الفِرنْجِ فما له عنها مَحِيْد[1]
وأتَتْـه نـارُ جهنـمَ لكـن بـأسلـوبٍ جَـدِيْـد

* * *

هـو مـؤمـنٌ لكنَّـه مـن جنَّـة الشُّهـداءِ هـارِبْ
ليستقـرَّ بقلبـه أنْ (ليـس غيـرَ الله غـالـبْ)

* * *

ذاكَ الـذي فَقَـدَ اليقيـنَ وقلبُـه فَقَـدَ الحَيَـاه
وطعـامُـه وشـرابُـه ومنـامُـه أغلـى منـاه

* * *

وتـراهُ بـالمِنَـنِ الثِّقَـال مقيَّـداً ومُكَبَّـلا
مِمّنْ يقولُ : (نعم) وممَّن لا يُجيب بِغَيْرِ (لا)

* * *

فَلْيَصْـحُ مـن غَفَـلاتِـه ليعـودَ حيَّـاً قلبُـه
ويعيـشَ فـي أوجِ الكـرامـةِ هـاتفـاً (اللهُ هـو)

* * *

مـدنيـةُ الإفْـرَنْـجِ مـاضيـةٌ بنـا نَحْـوَ الـزَّوال
قَتَلَـتْ مـواهِبَنـا بـلا حـربٍ تـدورُ ولا قِتَـال

* * *

فاكْشِفْ لقومِكَ عن كريمِ النَّفْس مُتَّقدَ الحياه
ثمِـلٌ يحـبُّ الله لا يَـرْجُـو ولا يَخْشَـى سِـواه

---

(١) فماله عنها محيد ، أي : ماله منها مفر .

وإذا تبيَّـن مسلـمٌ فـي ذاتـه شَـرَفَ المَكَـانَـهْ
أخْلِقْ به في الدَّهْرِ أنْ يختارَ في الدُّنيا مَكَانَهْ

***

أيُّهـذا الفـارسُ المِغـوار أمْهِـلْ فـي المسيـر
واحْبِسْ عِنَـانَـك لمحـةً تَسْتَقْبِـلِ القَمَـر المُنير

***

أَملي على شَفَتيَّ مُحْتبسٌ عنِ النُّطْقِ احْتَجَبْ
والشَّوقُ يقتحمُ المَقَامَ فليس يحكمُه الأدب

***

هذا يقولُ أَبِنْ عن الشَّكوى ولا تَكْتُم أسَاكْ
ويقولُ ذاكَ انظر ولا تَهْمسْ بحرفٍ عَنْ جَوَاكْ

***

أنْتَ الهدايةُ والدَّليلُ وأنتَ عِرْفاني وَفِكْري
وسفينتي في الدِّينِ والدُّنيا وطوفاني وَبَحْري

***

زادت بي الأنَّاتُ والعَبَراتُ حتَّى عِيْل صَبْرِي
فإلى متى هذا اللهيبُ يظلُّ مطوياً بِصَدْري

***

فلَمْ يَبْقَ للأرواحِ في شوقِ العِبَادَةِ منْ أثَرْ
لمْ يَبْقَ لُطْفُ تلاوةِ القُرآن في وَقْتِ السَّحَرْ

***

قَدْ كُنْتِ يا شمسَ الخليقةِ منقذاً في النَّائبات

وأبـرَّ بـالعـاصيـن رفقـاً مـن قلـوب الأمَّهـات

* * *

فـي حَـزبِ عبَّـادِ الظَّـلام أصـارعُ الـدَّاء العَيَـاءْ
فامنحْ سراجي منك زيتاً قبل ما يخبو الضِّياء

* * *

كلُّ الخمائلِ[1] في رياض الكَوْنِ أنْتَ ربيعُها
مِنْـكَ الفـواضِـلُ كلُّهـا والمَكْـرُمـاتُ جميعُهـا

* * *

الجِسْـمُ فـي بُنيـانـه بـالـرُّوح يَكْتسـبُ الحَيَـاةْ
لكنْ حياةَ الرُّوحِ في قُرْبِ الحبيبِ وفي رِضاهْ

* * *

انظُرْ إليَّ فأنتَ بالجَدوى وبالإحْسَان أوفى
إنْ لمْ أكنْ بِهُداك مِفْتاحاً ، أكنْ بحماك سيفا

* * *

لي محنةٌ منْ دُونها قطعُ الصُّخورِ منَ الجِبَالْ
فاجعلْ لفأسي مِنْكَ حدّاً ماضياً عِنْدَ النِّضالْ

* * *

إنْ كانَ عُمري قد بدا خِلْواً من المَحْصُولِ جَدْبَا
ما زلتُ أملكُ مضغةً[2] يدعونها في الحُبِّ قَلبا

---

(١) الخمائل ، جمع خَمِيلة : كل موضع كثر فيه الشجر .
(٢) المُضْغَة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أخفيتُـه لأكـونَ فـرداً فـي هـواكَ وفـي رِضَـاكْ
وعليه خاتمُ حُبِّك الغالي فَلَيْسَ به سِوَاك

* * *

إنَّ الـذي لا يبتغـي مـن هـذه الـدُّنيـا متـاعـا
إنْ لمْ يَنَلْ قُرْبَ الحبيبِ تكونُ دُنياه ضَيَاعا

* * *

كمْ ذا يُعاني القلبُ منْ نارِ اللَّواعجِ والشُّجُون[1]
وَيَئِـنُّ مِثْلَ النَّـاي بـالشَّكـوى لِمَـنْ لا يَعْلمُـون

* * *

قَدْ خَلَّفَتْهُ على رُبى الصَّحْراءِ قافلةُ الرِّفاقْ
كَهَشِيْمِ غُصْنٍ يَصْطلي بالجَمْرِ في نِصْفِ احْتِرَاقْ

* * *

يَـرْنُـو إلـى البَيْـداءِ والمُـدُنِ الـرَّحيبـة والفَضَـاءْ
فعسـى تمـرُّ قـوافـلٌ أخـرى تُعِيْـدُ لـه الـرَّجـاءْ

* * *

يا مَنْ خَلَعْتَ على صلاحِ الدِّين حُلَّةَ خالدِ
فمضـى بِعِـزٍّ دائـمٍ يبقـى وَمَجْـدٍ خـالـدِ

* * *

(١) الشُّجون : الهموم والأحزان .






الدِّيْوانُ التَّاسِعُ

هَدِيَّةُ الحِجازِ
أرمغان حجاز

نَقَلَهُ مِنَ الفارِسِيَّةِ شِعرًا

الدكتور حسين مجيب المصري



نُشِرَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وهو عبارة عن الشعر الفارسيِّ والأردويِّ معاً ، وهو يتألَّف من قسمين ، أولهما يحتوي الرباعيات الفارسية التي ترجمها الدكتور حسين مجيب المصري ، والثاني يحتوي منظومات وقصائد قصيرة باللغة الأردوية ، الذي ترجمه نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وفيه قصيدة بديعة عنوانها « برلمان إبليس » وصف فيها الشاعر وصوَّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسيَّة والعصرية التي تهدِّد مهمتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم ، وترأَّس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعْدِ نظره الذي لا يُشاركه فيه أحد من تلامذته ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسَّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخَّص في أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوَّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأيُ أن يركِّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدوِّ ، أو إلهائه ، وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة (من القسم الثاني) من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسيَّة .

وأما القسم الأول المتعلق بالرباعيات الفارسية فهو يحتوي على ثلاثة أبواب ، ومنها الباب الأول يتعلق بالله عز وجل ، وفيه يستنهج سبيل المتصوفة في تضرُّعهم إلى الله ومناجاتهم له والإبانة عما تموج به قلوبهم من عشق إلهيّ هو غاية الغايات في سمو الروحانية . بيد أنه يعارض المتصوفة في تهافتهم على توكُّلهم واستكانتهم وقطع الأسباب بينهم وبين دنياهم ، ويرى في هذا ما ينافر واقع الحياة ، ويحيد عن القصد ، ويتجافى عن الصواب ، ويصد عن فهم

صريح القرآن . فالمؤمن الموقن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبداً ، وينهض بالبشرية إلى ذروة المثالية ، ويوائم بين دنياه وآخرته .

وهو يحب الله بقلب صوفيٍّ واصل دلَّهه الشوق والتوق ، فيقول معبِّراً عن وجده وكمده :

هيـاجٌ مـاجَ فـي مـاء وطيـن بـلاءُ العشـقِ مـنْ قلـبٍ حَـزيـن
قَـرَاري بـرهـةٌ حقـاً حـرام فرفقاً ، شأن قلبي من شؤوني

كما يتشبه بهم بعض الشيء في انصرافهم تمام الانصراف إلى الاستغراق في عشقِ الذات الإلهية بقطع النظر عن كل ما عداها ، ولا غرو فهم القائلون إنهم يحبون الله ، ولكن لا رغبةً في الجنة ولا رهبةً من النار ، وهذا هو الحبُّ الحقُّ بالمعنى الأصحِّ الأدقِّ ، لأنه الروحانية في شفافيتها التي لا تعلق شائبة من المادية بصفائها :

لـي الـداريـن إنِّـي لا أريـدْ وحسبـي فهـم مـا روحٌ تفيـدْ
فهبنـي سجـدتـي فيهـا احتـراقـي ومنهـا الكـون فـي وجـدٍ يميـدْ

غير أن إقبالًا حتى وهو في نشوته الروحية الغامرة يعبر عن عاطفته الدافقة لا ينسى القوم من حوله ، ولا يقتلع نفسه من الناس يموج بهم معترك الحياة ، فالغيرية مهيمنة عليه وإن استبدت الأنانية بسواه ، لأنه يتفجَّع ويتوجَّع للخلق وقد تردَّوا في ضلالهم وتحيَّروا في طريقهم ، وعزَّ عليه ألا يذكُرُهم وهو في مناجاة ربه ، فجأر بشكواه من حالهم ، داعياً من طرفٍ خفيٍّ بالخير لهم ، بعد أن نصب نفسه داعية حقٍّ يبيِّنه لهم ليضع أمرهم في نصابه :

علـى قـومٍ إلهـي فلتُعنِّـي كَـرَاعـي الضـأن عـالِمهُـمْ بفـنِّ
رأت عينـاي مـا يقـذي عيـونـاً ألا يـا ليـت أمـي لـم تلِـدنـي

وبعد أن تأذى بمناقص الناس ومعايبهم في رأيه ، كان على ذكر من الإنسانية ، ولم يفُتْهُ أن يجري قولها على لسانه لأنه الجزء الذي لن يتجزَّأ منها ،

وتكشف عن شخصيته الإيجابية وعبقريته المتفتحة المنطلقة التي طوَّعها لخدمتها ، فدعا ربه لها وأمله أن يستجاب ، وتضمن دعاؤه جوهر فكرته وأساس نزعته وملامح كيانه العقليّ والروحيّ وهو يقول :

إلهـي زِنْ لنـا خيـراً وشـرا هـب الـدنيـا نعيمـاً مستمـرا
وشـاهـدنـا خلقنـا مـن تـراب لنجعـل عـالـم الغبـراء نضـرا

أما في الباب الثاني من الكتاب فلا يوجه خطاباً ولا دعاءً إلى كائنٍ من كان ، أو على التحديد لا يصرح واضحَ التصريح بمن يخاطبه كما كان شأنه في الباب الأول . وهو يجنح إلى رمزية حالمة يستشف منها أنه سعى إلى بيت الله حاجاً ، وأن فؤاده مشوق إلى أرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وله ولع بوصف سفرته الطويلة ولعله يتأثر في ذلك بشعراء المتصوفة وهم يتمثلون التصوف طريقاً يشكو سالكها من طولها ووعورتها . غير أنه أرق منهم قلباً وأجمل وصفاً وأدق تصويراً في نحو قوله :

مسـاءٌ مثـل صبـحٍ قـد تبسَّـم تمطَّـى صبحُهـا والليـلُ أظْلَـم
تمهَّـل إن خطـوت علـى رمـالٍ كقلبـي كلهـا قلـبٌ تـألَّـم

ويفرغ من تصوير عاطفته ليولِّي عقله شطر حال المسلمين ، فلا جرم لقد ذكره مهد الإسلام بها ، فتساءل عن عاقبة أمرهم ورفع كربهم ، وساءه أن يكون للمسلم قلبٌ أقْفَرَ من حبيب ، وهو يلمِّح بذلك إلى أنَّ صلاح حال المسلمين لن يكون إلا بالوقوف عند حدود الدين ، ولزام أن يرقَّ قلبهم للتقوى .

غير أنه لا يرتضي من علماء الإسلامِ إلا أن يمعنوا النظر في الدين ليفهموه حق الفهم ، ويكره منهم أن يغفل بعضهم عن دعوة الدين إلى الكفاح من أجل غدٍ أسعد ، والعمل لخير الناس كافة ، وطرح العداء والشحناء والعيش في ظل الإخاء والصفاء ، كما ربأ بهم أن يتوهموا الدين جموداً وخموداً ، فالدين قوام الحياة يصلحها في كلِّ أمورها ، ويسمو بها في كل مناحيها . كما يكره للمؤمن الحق أن يكون متواكلاً منطوياً .

والباب الثالث خاص بالمجتمع أو الشعب ، وقد صدَّره بقوله « **صل قلبك بالله واسلك طريق المصطفى** » وتندرج تحته عدة فصول وعناوين .

وهو في حديثه عن الجماعة يريد ليبصِّرها بمبادئه المثالية ونزعته الإنسانية ، ويبذل النصح مهيباً بها ألا تتخلف عن ركب التقدمية ، وأول ما يحبه للشعب أن يتآخى أفراده ويعرف كل منهم قدر نفسه دون أن يتعدى على حق غيره ، وبئسما الشعب يخضع فيه فرد ويذل لمن يطغى ، ويذل وينتزع الثمرة بغير حق من يد من لقي ما لقي من تعب في زرع شجرتها ، فهذا ما يغضب الله على الشعب كله وقد كبر مقتاً عنده تعالى :

ولاةُ الأمـرِ مـن ربِّـي لشعـبٍ ... زمـامـاً يملكـون لكـلِّ أمـرِ
ولكـن لا يحـب الله شعبـاً ... بـه الفـلَّاح يـزرعُ كـيْ يلبِّـي

ويخصُّ الذاتية بالذكر لأنَّه من يجلُّ ذات الإنسان إلى أبعد مدى ، وهو بذلك مخالف للصوفية الذين أرادوا المحو التام لها والقضاء المبرم عليها إلى أن تفنى في الله ، كما أن بعض المدارس الفلسفية والدينية تحط من قيمتها وتنفي عنها كل قوة وقدرة . وها هو ذا يعلي من قدرها ويستعير من المجاز لوصف حقيقتها :

لـذاتـك لا إلـه فضـم مـرَّه ... لتُخـرِجَ مـن تـرابٍ مـات نَظْـرَه
ولا تقبـض يمينـك عـن وجـودٍ ... لـه القمـران فـي وهـق يجـرَّه

ومن فصول هذا الباب فصل بعنوان « الصوفي والملاَّ » ، بمعنى الصوفي والشيخ . وإقبال يرمز بهما إلى موقفين لبعض المسلمين لا يقعان في نفسه موقع الرضا ، وهما موقف السلبيين الخاملين ، وموقف المتزمتين الجامدين . وهو من بعد يعرض الصوفي والشيخ في صورة المضحوك منه المسخور به ، مبالغة في توكيد الحقيقة التي يريد تناولها بالإيضاح . وما من ريب في أنه متأثر في هذا بمألوف شعراء التصوف في تهكمهم بالشيخ غير المتصوف ، غير أنه صاحب الرأي المخالف والمجدد غير المقلد حين يغلظ اللائمة على الصوفي والشيخ في

وقت معاً . فعنده أن الشيخ آخذ بالمظهر لا يتجاوزه إلى الجوهر ، أما الصوفيّ في عزلته وسلبيَّته فيشاهد حرمة الإسلام تنتهك ولا يحرك لساناً ولا يداً . وإقبال يدعو إلى تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين وتصلح بها حال العالمين . أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من مراء :

لمُـلّا أو لصـوفـيٍّ أسيـر ! وفـي القـرآن للعيـش الكثيـر
مـن الآيـات مـا أدركـتَ شيئـاً ومـن يـاسيـن بُغْيَتَـكَ الحَفِيـر !

وفي فصل عن الخلافة والملك ، يدلي الشاعر برأيه فيهما ويدعو إلى الأخذ بتعاليم الإسلام في الحكم وسياسة الملك . ثم أفضى به القول إلى ذكر الأتراك في نهضتهم الحديثة . غير أنه عاب عليهم أن يتهافتوا على تقليد الأوربيين ورأى ذلك زراية بهم وتجريحاً لعزة نفسهم ، لأنه الداعي على الدوام إلى احترام ذات الفرد والجماعة ، الموصى بالغوص على أعماقها للكشف عن قدراتها وملكاتها وهباتها ، وهو لا يرتضي للتركي أن يظل من الفرنجة في قيود ويبقى أسيراً لسحر طلسمهم ، كما يحزنه أن يكون المسلم عن تراثه المجيد من الغافلين ، وأن يعصب عينه ليقوده الأجنبي إلى المصير . وبذلك يلتمس إقبال ما استطاع إليه سبيلاً من أمثلة لإشاعة رأيه وإذاعة مبدئه .

وتتجلَّى دعوته إلى التأدُّب بآداب الإسلام والأخذ بأوامره ونواهيه حين يوجه الخطاب إلى فتاة المجتمع ويزعها عن أن تتزين وتتبرج ، كما يذكرها بعظم فضلها أماً صالحة ، ويرغب إليها أن توصى بالنظر في القرآن ، ثم يبين لها كيف أن ذلك يمكنها من تسوية النفوس ، إلى أن يضرب لها المثل بما كان من أمر أخت عمر بن الخطاب حين شاهد القرآن بين يديها فدفعته إليه ليقرأ حتى رق للإسلام قلبه .

وإقبال ساخطٌ على ما آلت إليه الأمور في العصر الحاضر ، فهو القائل فيه :

وعصرٌ منه للدين الشكاة وحـرِّيـاتِـه وأَدَ الطغـاة

كما أنه يقدح في شبابه لأنهم ليسوا على بينة من أمر دينهم ، ويغمز فيهم لأنهم يقلدون الفرنجة في رقصهم ، فمن أقبح العيب عنده أن يقلِّدوا ، وتلك منه دعوة ضمنية إلى شدة التمسك بالذاتية .

ويريد ليحرك مسلماً من ركوده وجموده فيذكره بالبرهمي الذي يضع ما يعبد من صنم تحت بصره تبركاً وتعظيماً وإعزازاً ، على حين خلا طاق بعض المسلمين من مصحف يزدان به ، كما يظهر الإعجاب ببرهميّ لا يكل عن العمل الدائب ساعدُه القوي ، وينحت له به صنماً من الصخر الصلود . ثم يضرب أمثلة عدة وغايته من هذا كله أن يشحذ من همم المسلمين ليلتمسوا الوسائل إلى الغايات ويبتغوا بالعمل وجوه النجح .

ويتصدى للتعليم ، وفي نظره أن العلم يرسو على أساس من الحس ، وهو يمد الإنسان بقوة تتبع الدين ولا بد ، وإلا فلن تكون إلا قوة شيطانية . كما أن العلم مقطوع الصلة بالعشق ، ثائرٌ متمرِّد كالشيطان . أما إذا زاوجه العشق فهو إلهي الصفات . وبهذا العشق تكتسب الحياة مالها من معان ، ويصبح العلم بفضل منه نعمة للبشر .




القسم الأوّل

(بالفارسيّة)









أَلَا يــا حبَّــذا تِلــكَ الطــريــقْ   تطولُ ولَا يؤَانِسها الرفيقْ
لها الزفراتُ، فافتحْ منكَ قلباً   لتحرقَ فيه حزناً لا تطيق









القسم الأول[1]

(المترجم من الفارسية)






(١) القسم الأول والثاني والثالث لهذا الديوان نقله من الفارسية إلى العربية شعراً الدكتور حسين مجيب المصري .



في الحضرة الإلهيَّة

لقد سلبوا لنا قلباً ومرُّوا   وكانوا شعلةً خمدتْ ومرُّوا
عوامّ القومِ عايشْهمْ رُويدا   فإن خواصهم ثِملُوا ومرُّوا

* * *

أطَالُوا القولَ شَكّاً في وجودي   وقد أقصرتُ عن قولٍ سديدِ(1)
لحيّ القلبِ هل تدري سجوداً   عليّ احكم بهذا من سجودي

* * *

فؤادي كان قيدَ الكيفِ والكمّ   يرى لكن وراءَ البدرِ إن تمْ
خلاء هبه حتى في سعير   بخلوته كفوراً فهوَ يهتمْ
هياجٌ ماجَ في ماءٍ وطينْ   بلاءُ العشقِ منْ قلبٍ حزينْ
قراري برهةً حقاً حرام   فرفقاً ، شأنُ قلبي من شؤوني

* * *

أجبني من عن الدنيا تخلّى   لها حسن ، لمن حُسْنٍ تجلّى(2)
تقولُ احذرْ من الشيطان لكنْ   أتعرفْ موجِدَ الشيطانِ أم لا ؟

* * *

ولي قلبٌ طليقٌ في عذابِ   نصيبي من عتابٍ أو خطابِ

---

(1) أقصر عن القول : سكت عنه .
(2) تخلى عن الدنيا : زهد فيها وقطع ما بينه وبينها من أسباب .

لإبليـــسَ أنــا مــا ســؤت قلبــاً خطيئــة كــلَّ حيــنٍ مــن صــوابِ
صبنــتِ الكــأسَ عنــا أمَّ عمــرٍو وكـان الكـأسُ مجـرَاهـا اليمينـا[1]
إذا مــا كَــانَ هَــذَا دأبَ عشــقٍ بكأسكَ فاضربِ البيتَ المصونا[2]

* * *

أسيرُ هـوى ، علـى النفس انطـواءُ بــه ألــمٌ ومَــا يجْــدِي دَوَاءُ
عجيـــبٌ أَنْ تُكَلِّفِنـــي سُجُـــودَا خـراجُ الأرضِ والأرضُ الخـلاء !؟

* * *

بــلا أمــدٍ تــراخــى بــي طــريــق نثرتُ الحبَّ ، أين لي الوريق[3]
مــن الآلامِ لا أخشـــى ولكـــنْ بهــذا القلــبِ هــبْ ألمــاً يليــق
ســريـع السكـر لا تُـرشِـف شـرابـي وأبعـد عـن غـريـرٍ فـي ارتيـاب[4]
عــن القصبــاءِ يحســن بُعــد نــارٍ خـواصَّ القـومِ وحـدهـمُ فحـابِ[5]

* * *

أأنــت لقيــتَ فــي طلــب لغــوبــا ومــا أصليــتُ فــي شــوقٍ لهيبــا[6]

---

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وصبنت : بمعنى صددت وصرفت . ومن شعراء الفرس من ضمنوا شعرهم الفارسي أبياتاً عربية . وتعرف أشعارهم بالملمعات . وأصل التلميع أن يكون في جسم الفرس أجزاء من لون يخالف لون جسمه فسمي هذا الشعر ملمعاً على التشبيه .

(٢) الدأب : الشأن والعادة وفي الأصل فاضرب بكأسك جدار الحرم . وحقيق بالذكر أن الخمر هنا هي خمر الصوفية التي يرمز بها إلى العشق الإلهي . ولعمر بن الفارض خمرية مشهورة مطلعها :

شـربنـا علـى ذكـر الحبيـب مـدامـة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) الأمد . الغاية . الوريق : الكثير الورق من الشجر .

(٤) الغرير : من لا تجربة له .

(٥) القصباء : منبت القصب . وهو كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

(٦) اللغوب : التعب .

وإنّـي هـارب مـن لا مكـانـي فَنَـوحُ الـوَهْـنِ لـم يُشْـجِ القُلُـوبا[1]

***

أثـرْ دنيـاك خـذ منـي المثيـرا بهـا التغييـر فـاجعلـه الكبيـرا
لـك الإنسـان فـاخلـق مـن ثـراهـا أبِـرْ مـن كـان للمـال الأسيـرا[2]

***

بنـورِ الشمـسِ دنيـانَـا ظـلام وليـس الحـقُّ مـا أدّى كَـلام
إلـى كـم ، إنَّ دنيـانـا خـراب سيكسـوهـا دمـاءهـمُ الأنـام[3]

***

---

(١) الوهن : منتصف الليل . ويتردد ذكر المكان واللامكان والجهات في شعر إقبال مما يبعثنا على الإشارة إلى تلك المقولة عند الفلاسفة . فيرى أفلاطون أن المكان يستحيل عليه الفناء وإليه مأوى المخلوقات . ويقول أرسطو إن وجود المكان متعلق بوجود العالم المتناهي، وقد تابعه على ذلك الفارابي وابن سينا من فلاسفة المسلمين. والمكان في نظر الرواقيين فراغ متوهم تشغله الأجسام ولا وجود له في ذاته فليس بحقيقة . وقد بين الأشعري إلى أي حدٌ اختلفت الآراء في المكان فعند بعضهم أنه ما يقل الشيء ويكون الشيء متمكناً فيه . وقال غيرهم إنه ما يماس الشيء ، وإذا ما تماس الشيئان فكل منهما مكان بصاحبه . وعند غيرهم أنه ما يعتمد عليه الشيء أو لا يعتمد ويمنعه من السقوط . كما قيل إنه الجو وقيل هو ما يتناهى الشيء إليه . أما المتكلمون فيرون أنه الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ منه أبعاده. ويضيف أحد فلاسفة الإسلام إلى بعد الطول والعرض للمكان بعداً ثالثاً هو العمق . ويوضح ذلك بالإناء والدار، فيقول إن الإناء قد يمتلىء بالشراب ويخلو منه ، كما تعمر الدار بساكنيها ويهجرها من فيها فليس ذلك الممتلىء الخالي هو السطح الباطن بل هو العمق بأسره . ولقد دلتني الدكتورة سهير فضل الله مدرِّسة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات من جامعة عين شمس على بحث لها في هذا الموضوع ، فشكرها من أوجب الواجب [الأستاذ المترجم] .

(٢) أبار : أهلك .

(٣) الأنام : الناس .

رضـــاك ، فـــإنـنـــي عبـــد ذليـــل بـــأمـــر منـــك يمضـــي بـــي السبيـــل
إذا مـــا قلـــت سَـــمِّ العَيـــر طـــرفـــاً فهـــذا القَـــول حقـــاً لا أقـــول[1]

* * *

فـــؤادي ليـــس فيـــه مـــن حُبُـــور ومن لهب خلا من تُربي ونور[2]
صـــلاتـــي تلـــك خـــذ منهـــا ثـــوابـــاً صلاتي ليس فيها من حضور ![3]
أعـــن ديـــنٍ وعـــن وطـــنٍ كـــلامـــي وهـــذا الســـرّ يُطـــوى بـــالتمـــامِ
فـــلا تغضـــبْ ، جَفَـــوْتَ ومِـــنْ جَفـــاءِ بنيـــتَ الـــديـــرَ يبـــدو كـــالحطـــامِ[4]

* * *

مـــن الإفـــرنـــجِ إن ضـــاقـــت قيـــودُ فقلبُـــك لا يحقِّـــقُ مـــا يـــريـــد
علـــى عتبـــاتِ غيـــرِ الله وجـــهٌ تَعفَّـــرَ لا يليـــق بـــه السجـــود[5]

* * *

لـــي الـــداريـــن إنـــي لا أريـــد وحسبـــي فهـــمُ مـــا روحٌ تفيـــدْ
فهبنـــي سجـــدتـــي فيهـــا احتـــراقـــي ومنهـــا الكـــون فـــي وجـــدٍ يميـــدْ[6]
أنـــا المكســـالُ مـــا تبغيـــهِ منّـــي أهبَّـــتْ هبـــوةٌ لـــم تقتلِعنـــي[7]

---

(١) العير : الحمار . الطرف : الجواد الكريم .
(٢) الحبور : السرور . الترب : التراب .
(٣) الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي لديه كالحكم العيني .
(٤) يطلق الدير على الدنيا في الشعر الصوفي . يقول شاعر فارسي ما ترجمته (كنت ملكاً ولي في الجنة العالية مستقر ، إلا أن آدم جاء بي إلى هذا الدير الخرب) .
(٥) تعفر الوجه : تمرغ في التراب .
(٦) يميد : يتحرك ويضطرب .
(٧) الهبوة : الغبرة وهي الغبار . والمقصود هنا الريح التي تحمل الغبار وتثيره .

رأيـت ابنـي يصلـي فـي صبـاحٍ مسـائي فليقـلْ بـالصبحِ زِنّـي[1]

* * *

علـى قـومٍ إلهـي فلتعنّـي كـراعـي الضـأنِ عـالمُهُـمْ بفـنٍّ[2]

رأتْ عينـايَ مـا يقـذي عيـونـاً ألا يـا ليـت أمّـي لـمْ تلِـدْنـي[3]

* * *

إلامَ بعيـنِ عتبـكَ أنـتَ تنظـر وأصنـامٌ لـديـك إلام تحضـر

لأبنـاءِ الخليـلِ رأيـتَ دارا ونمـرودُ يـربُّهـمُ ويكفـر[4]

* * *

أيـرجِـعُ مـنْ نعيمـي مـا تـولّـى ومِـنْ أرضِ الحِجـازِ الـريـحُ ؟ كـلّا

وهـذا العمـرُ يـالهفـي تقضّـى فهـلّا عـادَ مـن أحببـتُ هـلّا ؟

* * *

إذا مـا جـاء مـن ذا السـرِّ يعـرفْ بلحـنِ القلـبِ أسمـاعـاً فشنِّـفْ[5]

وروحَ القلـبِ مَـنْ أبقـى ونقّـى كليـمٌ أو حكيـمٌ وهـو يعـزف[6]

* * *

---

(١) يشير إلى ابنه المسمى (جاويد) . وزنِّي : من زان يزين .
(٢) راعي الضان مضرب المثل في الجهل .
(٣) أقذى العين : أوقع فيها القذى . وهو ما تتأذى به من غبار أو نحوه
(٤) الخليل : سيدنا إبراهيم عليه السلام . يرب : يربي .
(٥) شنف في الأصل بمعنى جعل له شنفاً أي قرطاً ، وشنَّف كلامه : زيَّنه وحلاه وشنف السمع : زينه وأطربه .
(٦) يتردد في الشعر الصوفي ذكر العزف والغناء على أنهما رمز لنشوة العشق الإلهي . ويمكن القول إن الحسناء والصهباء والغناء تؤلف وحدة قلما نجد انفصاماً بين مقوماتها الثلاثة .

أرجّي لي فؤاداً قد توجع شكوتُ فمن شكاتي سوف يَسمع
بزهرٍ قانيء يزدان قبري عديم النطق دامي اللحن موجعٌ[1]

* * *

أسيرُ القلبِ لا يفدي الأسيرا وليس يزيدُ من ألمٍ كثيرا
وينفخُ في الثرَى الأنفاس دوماً ورامَ الأكلَ أو سكنَ الحفيرا[2]

* * *

من الأضلاعِ لي قلبٌ يفرُّ تبقى صورةٌ معناهُ سرّ
طريدُ البابِ يفضلني كثيراً رآهُ اللهُ ، لي في السمعِ ذِكْر

* * *

نداءُ جبرئيل ليس يدري ففي طلبِ مقامٌ طيٌّ سِرْ
وهَذا عبدُكَ المسكينُ سَلْهُ عنِ الآمالِ في حلوٍ ومُرْ
صفاتٌ هبْ لخسرو أو لرومي وَجُدْ لي من سنائي بالمروم[3]

---

(١) القانيء : الشديد الحمرة .

(٢) دوماً : دائماً . الحفير : القبر .

(٣) خسرو : هو أمير خسرو دهلوي المتوفى عام ٧٠٥ هجرية . شاعر عظيم من شعراء الفارسية في الهند . وله شعر صوفي يتميز بخصائص ليست لشعر غيره من شعراء الفارسية في تلك البلاد . وشعره كثير البديع . وقد نظر إليه الشعراء كمثال يحتذى ، كما أوجد أسلوباً عرف بالأسلوب الهندي .
والرومي هو جلال الدين الرومي أشهر وأكبر شعراء التصوف من الفرس ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأب من خيرة العلماء والفضلاء ورحل به إلى الأناضول التي كانت تعرف آنئذ ببلاد الروم ولذلك عرف بالرومي . وقد تصدر للوعظ والإرشاد وعقد الأسباب بينه وبين المتصوفة وأشهر مؤلفاته كتاب المثنوي الذي استمد اسمه من نظمه على القافية المزدوجة . وهو يتضمن حكايات لها مغزى صوفي وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرت وأولت ولكن لا على ظاهرها ولا يداني هذا الكتاب غيره من كتب التصوف . وجلال الدين صاحب طريقة صوفية أساسها وحدة الوجود وقد أشاعها بين الترك في =

ألفــتُ صفــاتَ عبــدٍ منــذ دهــرٍ فليــس لكــل هــذا مــن لــزوم
فقيــرٌ عــفَّ عــنْ لبــسِ المــرقَّــع لهــذا منــه جبــريــلٌ تَــوجَّــعْ
لــدَينــا أمــةٌ أخــرى لنَخْلِــقْ بهــا كــلاًّ عــنِ الــدنيــا لنَــرفَــعْ

* * *

وشعــبٌ منــه جهــدٌ فــي التَّــأنِّــي ومِــنْ إِبَــرِ تَــرَاه الشهــدُ يُجْنَــى
وذاكَ بعــالــمٍ مَــنْ ليــسَ يَــرْضَــى فتحــت العــالَميــن الظَّهْــر يُحْنَــى

* * *

وقـــومٌ وحَّـــدُوا عِنْـــدَ ابتهـــالِ أنــارُوا الفجــرَ مِــنْ جــوفِ الليــالــي
رأوا فــي الشمــسِ صبحــاً مستقــراً فــأبــدتْ نهــجَ نجــمٍ مــنْ رِمَــالِ[1]
لحفــلٍ فــي الليــالــي كنــتُ زينــا نقَصْــتُ وكنــتُ بــدراً ذاقَ أينَــا[2]
وفــي هــذا التغــافــلِ كَــمْ أفــاضــوا ولكنــي تــركــتُ الجمــعَ وهْنَــا[3]

= الأناضول ، واضطره هذا إلى محاولة النظم بالتركية ليفهم عنه سواد الناس . فكان ذلك سبباً في نشأة الشعر التركي العثماني . وكانت وفاته عام ٦٧٢ هجرية .
أما سنائي الغزنوي المتوفى عام ٥٤٥هـ . ففي ديوانه تتردد الشكوى ممن يأخذون بالقشور دون اللباب ويتمسكون بالظاهر دون الباطن ، كما يصرح بما آلت إليه حال القوم لتناسيهم أوامر الدين ونواهيه ، ويئن تألماً من جفاء الخلان وصروف الزمان . غير أن شهرته بشعره الصوفي ، ويعد أول شاعر صوفي بحق في إيران وأول من ضمن شعره مصطلحات التصوف .

(١) النهج : الطريق . وفي الأصل أن الشمس تزيح الرمال عن طريق المجرة وهي نجوم تسمى الطريق اللبنية في الإنجليزية وحاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، وتسمى في الريف سكة التبانة لأنها تشبه طريقاً تناثر فيه التبن ، وانعكس عليه نور القمر بعد أن مر به التبان الذي يحمله .

(٢) الزين : الزينة . الأين : التعب يشبه نفسه بالقمر ، وكأنه ينقص من هزال يصيبه لطول سيره في السماء .

(٣) الوهن : نصف الليل .

كهـذا العصــرِ عصــراً مــا رَأيْنَــا حــزيـنُ القلـبِ جبـريـلٌ عَلينَـا
هُنَــا قَــدْ شيَّــدوا ديــراً عجيبــاً يــزيـد لمـؤمـنٍ كُفْـرٌ لـدينـا !

* * *

أرَى دنيــاكَ فــي أيــدِي اللئــام ولِــلأحــرَارِ فــي أســرٍ مُقَــام
فَضيــلٌ بَيــنَ مَــنْ فَقِهُــوا أمــوراً يعيــشُ كمثـلِ نسـرٍ لا الأنـام[1]

* * *

مـريـدٌ قـال عنـدَ الشيـخِ يـومـا إلهـي لـمْ يحِـطْ بـالنـاسِ عِلْمَـا ؟!
كَمِثْـلِ العـرقِ فـي عنـقٍ قـريـبٍ وليـسَ كبطنِنَـا فـي القُـربِ حتْمـا

* * *

لأرضِ الهنـدِ حـالٌ بَعـدَ حـالْ وهـذا الكـونُ أمسـى فـي اختِـلاَلْ
إلينــا كيــفَ تطلــبُ أن نصلــي بـرأسِ الجيـشِ عبـدٌ كـالمحَـال
ويَحْكـمُ مسلـمٌ فـالنفسَ بـاعـا وآذانــاً وعينــاً قَــدْ أَطَــاعــا
وهَـتْ أجْسَـادُنَـا مِـنْ إصْـرِ حُكْـمٍ فـآدَ الشـرْعُ متنـاً والـذِّرَاعَـا[2]

* * *

إلهــي زِنْ لَنَــا خَيــراً وشــرًّا هــبِ الـدنيـا نعيمـاً مستمـرّا
وشـاهَـدْنـا خُلِقْنَـا مِـنْ تـرابٍ لنجعـل عـالـمَ الغبـراءِ نَضْـرَا[3]

* * *

خُلـودُ المـرءِ فـي الـدنيـا عَـرِفتـا وعـنْ مَـوْتِ الفجـاءةِ مـا سمعتَـا
ووقتُــكَ لــنْ تُعَــرِّضَــهُ لنقــصٍ أإن خلـدتَ قـالـوا قـد ضُـرِرْتـا ؟!

---

(١) الفضيل : ذو الفضل .

(٢) الإصر : الثقل . آد : أثقل . المتن : الظهر .

(٣) الغبراء : الأرض .

إنِ الـدنيـا دنـتْ مِـنْ منتهـاهـا أبـانَ الـدهـرُ أسـراراً طـواهـا[1]
فـلا تفضـحْ لـدى الـرحمـنِ أمـرِي حسـابـي صفحـةٌ مَـا إنْ رَآهـا !

* * *

بقيــتُ هنـا وَلـي روحٌ تسِيـر إلـى البطحـاءِ أشـواقـي تَطِيـر[2]
خـواصَّ القـومِ عـايشهـمْ ، تلبَّـثْ بشـوقِـي دارَ مَـنْ أهْـوى أزور[3]

* * *

---

(١) أبان : أظهر .
(٢) البطحاء : مكة المكرمة .
(٣) عايشهم : عش معهم . تلبث : ابق .





القسم الثاني

الرِّسَالَة





تمهـــلْ لا تُقِــمْ تلـــكَ الخيـــامـــا دليـلُ الـركـبِ فـي البيـداءِ هـامَـا[1]
وهـــذَا العقـــلُ نعـــدمـــه دليـــلاَ لـــذا أسلمـتُ للقلـبِ الـزمـامـا

* * *

ســويــدائــي بهـــا ألقيـــتُ نظـــره بحضنِ القلبِ فاستروحتُ فتْره[2]
بــريــحِ للمـــدينـــةِ ضقـــتُ ذرعـــاً لقلبـــي مـــن نسيـــمِ البيـــدِ خطـــره

* * *

ولـــي قلـــبٌ لمـــنْ كـــانَ الشهيـــدا هـــو الخفـــاقُ يـــألـــفُ أنْ يميـــدَا[3]
إلـــى الصحـــراءِ أحملـــهُ فيـــأســـى علـى شـطِّ الغـديـرِ بَكَـى وليـدَا[4]
ولا تســـألْ عـــنِ الـــركـــبِ السُّكـــارى فمَـــا يـــرْضَـــون تِلـــكَ الـــدَّارِ دَارَا
يهـــزُّ قُلُـــوبهـــمْ جَـــرَسٌ مـــدوٌ نسيمـــاً فـــي ذُرَى القَصْبَـــاءِ ثـــارَا[5]

* * *

ليثْـــرِبَ كـــانَ فـــي كُبْـــرَى رَحِيلِـــي وَبـــي فَـــرَحُ اللقـــاءِ مَـــعَ الخليـــلِ
كَـــأنِّـــي الطيـــرَ قبـــلَ الليـــلِ يمضِـــي ويَبْغِي العشَّ في الرَّوْضِ الجميلِ

* * *

أَدَانـــوا عـــاشقـــاً رَشـــفَ المـــدَامَـــا وَكَـــمْ لِمحنَّـــكٍ عَـــابُـــوا الكَـــلاَمـــا

---

(١) الركب : راكبو الإبل ، وفي الأصل القافلة . والبيداء : الصحراء . وهام : سار على غير هدى .
(٢) السويداء : حبة القلب . استروح : استراح .
(٣) يميد : يتحرك في اضطراب .
(٤) يأسى : يحزن . الغدير : النهر .
(٥) ذرى القصباء : أعالي القصب في منبته .

عَلَى نَغَمِ الحِجَازِ شَرِبْتُ كَأْسِي وَمَا إنْ قَدَّمُوا مِنْ قَبْلُ جَامَا[1]
أَتَسْأَلُ عَنْ مَقَامَاتٍ لِلَحْنِي ومَاذَا يَعْرِفُ النَدْمَانُ عَنِّي[2]
لقَدْ أَلْقَيْتُ فِي الصَّحْرَاءِ رَحْلِي وَفِيهَا أَخْتَلِي حَتَّى أُغَنِّي[3]

* * *

وَقُلْتُ لِنَاقَتِي بِالرِفْقِ سِيرِي بشيخٍ فَازْفِقِي دَنِفٍ حَسِيرِ[4]
وَسَارَتْ نَاقَتِي سَيْراً عنيفاً أَتَخْطُو فِي الرِّمَالِ أم الحريرِ !

* * *

ويا جمّالُ عنها اطرح عقالاَ لِرُوحِي رُوحُهَا كَانَتْ مِثَالاَ
تَهَادَتْ مَوْجَةٌ أَيْقَنْتُ مِنْهَا بِأَنَّ عَلَى الفُؤادِ الأسرُ طَالاَ
تَرَقْرَقَ دَمْعُهَا سُودَ العيونِ ومِنْ زَفَرَاتِها كَانَتْ شُجُونِي
مُدَامٌ أُضْرِمَتْ فِي القَلْبِ نَارًا بِنَظْرَتِهَا كموجٍ يَحْتَوِينِي

* * *

وفي الصَّحْراءِ قَافِلَةٌ تَكُون وفي توديعها خَفَقَتْ لُحُون[5]

---

(١) الجام : الكأس . ولأهل الحجاز منذ قديم شهرة بالميل إلى الغناء والمهارة فيه . وهذا يذكرنا بقول من قال :

رأيه في السماع رأي حجازي وفي الشراب رأي أهل العراق

(٢) المقام : من مصطلحات الموسيقا . وللمقام معنى آخر عند الصوفية ، فهم يتمثلون التصوف طريقاً يسلكه الصوفي أو (السالك) وفي هذا الطريق مراحل ومنازل يسمونها المقامات ، وينبغي أن يمر بها حتى يصل إلى الحقيقة أي الفناء في الله ويجد البقاء في الله . والندمان : النديم أو الندماء .

(٣) الرحل : ما تستصحبه من الأثاث .

(٤) الدنف : العليل . والحسير : المعيا والكليل .

(٥) كان هنا تامة . اللحون : الألحان .

أَلَا فَـاسجُـدْ عَلَـى رَمْـلٍ تَلظَّـى ... عليـه الـوسـمُ يَحْتَـرِقُ الجبِيـن[1]

* * *

مَسَـاءٌ مِثْـلُ فَجْـرٍ قَـدْ تَبَسَّـمْ ... تَمَطَّـى صُبْحُهَـا وَاللَّيـلُ أَظْلَـم[2]

تَمَهَّـلْ إِنْ خَطَـوْتَ عَلَـى رمـالٍ ... كقلبـي كُلُّهَـا قَلْـبٌ تَـأَلَّـمْ

أميـرُ الـركـبِ مَـنْ ذَا الأَعْجَمِـيّ ... بغيـرِ لِسَـانِنَـا لَحْـنٌ شَجِـيّ

يُغَنِّـي وَالغنَـاءُ لَـهُ سَـرَابٌ ... وفـي الصحـراءِ مِنْـه القلـبُ حَـيّ

* * *

وَمِـنْ عِشْـقٍ وَمِـنْ سُكْـرٍ مُقَـامُـه ... وَفِـي مَـاءٍ وَفِـي طِيـنٍ ضِـرَامُـه[3]

لَـهُ الأَنْغَـامُ تُطْـرِبُ كُـلَّ قلـبٍ ... لَنَـا قَلْـبٌ بِفِلْـذَتِـه قِـوَامُـه[4]

* * *

خَفِـيّ الحـزنِ فـي صمـتٍ تَـراهُ ... لسـانُ المـرءِ فـي خُبْـرٍ رَوَاهُ

طَـرِيـقٌ وَغـرَةٌ وَالنِّضْـوُ فِيهـا ... بِـلاَ نُـورٍ لِمُصبَـاحٍ هَـدَاهُ[5]

ربيـعُ المـرجِ مُحْمَـرُّ الـزهـورِ ... أَقَـامَ الصحـبُ فـي كَنَـفِ السـرُورِ

أَتُـوقُ إِلَـى البَقَـاءِ هُنَـاكَ وَحْـدِي ... وَفِـي جَبَـلٍ عَلَـى شَـطِّ الغـدِيـرِ[6]

* * *

---

(١) الوسم : أثر الكي .

(٢) يريد صبح الصحراء وليلها .

(٣) العشق والسكر هنا بالمعنى الصوفي .

(٤) الفلذة : القطعة وقوام الشيء نظامه وعماده .

(٥) النضو : المهزول الضعيف .

(٦) أتوق : أشتاق .

وأَقْـرَأُ تَـارَةً شِعْـرَ العِـرَاقِـي[1] وَأَحْيَانـاً مِـنَ الجَـامِـي احتِـرَاقِـي[2]
أَبَيْـنَ لحـونِ أعـرابِ ولحـنِ لِحَـادي نـاقتـي بَعْـضُ اتفَـاقِ[3]

* * *

أَشُـبْ فَـرَحَـاً بـأحْـزَانِ الطـرِيـق وَكُـن مَجنُـونَـهُ غَيْـرَ المفيـقِ
طَـريقـاً طـالَ يـا حَـادِي لِتَسْلُـكْ وَآلامَ المفـارقِ مِـنْ حَـرِيـقِ[4]
أَنِيـسُ الـرُّوحِ بَـادِلْنِـي شَكَـاتِـي وَقُلْ مِثْلِي « بذي حسنٍ مَمَاتِي »
« لِنَمْسَحْ مَوْضِعَ القدَمينِ » فَاهْمِسْ « بِـأَجْفَـانٍ رِقَـاقٍ دَامِعَـاتِ »

* * *

لَقَـدْ غَضُّـوا وغَضُّـوا مِـنْ حَكِيـم جَهُـولٍ كَـانَ ذَا الفَضْـلِ العَمِيـم[5]
وَنَحْـنُ اليـومَ فِـي عَصْـرٍ سَعِيـد لَـدَى السلطـانِ دَرْويـش عَظِيـم

* * *

بِصَـدْرِي هَـذِه الـدنْيَـا وَعَيْـت بِـرَأْسِي « لا مَكَـانـاً » قَـدْ حَـوَيْـت
وَلَمَّـا جُـزْتُ فِـي العَلْيَـاءِ سَقْفـاً جَنَـاحـي كـلَّ فـي أَرْضِـي هَـوَيْـت

---

(١) هو فخر الدين العراقي المتوفى عام ٦٨٨ هجرية من شعراء التصوف في إيران . وشعره رقيق أنيق يموج بالعشق الإلهي ، وقد رحل إلى الهند وأصبح من شيوخ الطريقة القلندرية التي تلزم أتباعها بالسياحة فساح في البلاد طولاً وعرضاً . ولما زار مصر وجد السبيل إلى سلطانها الذي أكرمه حق إكرامه وأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر .

(٢) جامي : هو الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨ هجرية ويعد من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم من القدماء . والنزعة الصوفية غالبة على شعره ، وقد نظم قصة ليلى والمجنون وطوعها لمعاني التصوف ورموزه ، كما أن له عدة منظومات قصصية ضمنها شروحاً لأحكامه في رمزية وروحانية دقيقة .

(٣) الحادي : من يغني للإبل .

(٤) الحريق : النار . أشب : أمزج .

(٥) غضوا منه : حقروا من شأنه .

بِــوَادِينَــا خُلُــودٌ للــزمَــانِ   بِــلاَ صُـورٍ نَمَـتْ فِيـه المَعَـانِـي
حَكِيــمٌ دَائِمــاً آخــى كَلِيمــاً   لِسَانٌ سَاكِتٌ عَنْ (لَنْ تَرَانِي)[1]

***

وَيُبْـدِي المسْلِـمُ المحبـوبُ فَقْـرَه   يُصَعِّـدُ مِثْـلَ حَـرِّ النـارِ زَفْـرَه
شَكَـا مِنْـه الفـؤادُ وَلَيـسَ يَـدْرِي   فَهَبْنَـا يَـا رَسُـولَ اللهِ نَظْـرَه

***

عَـذَابَـكَ مِنْـهُ كَـمْ ذُقْـتَ العـذَابَـا   بِـكَ الألْحَـانُ لِـي كَـانَـتْ عَـذَابَـا
حَـزِيـنٌ ، مَـا رَأَتْ عَيْنَـايَ يَـوْمـاً   بـأرضِ الهنـدِ قَـطُّ لَـكَ الصِّحَـابَـا
لِعَبْـدِ الهنْـدِ لَيْـلٌ ضَـاعَ فَجْـرُه   وَأَيْـنَ الشمـس بَـلْ قُـلْ أَيْـنَ بَـدْرُه
أَنَـا المِسكِيـنُ فَلْتَـرْفُـقْ بحَـالِـي   أَمِثْلِـي مُسْلِـمٌ قَـدْ عِيـلَ صَبْـرُه[2] ؟

***

فَقِيــرٌ ضَــاقَ بِــالأَلَــم المقِيــم   بـديـنِ الحـقِ ذو الأصـلِ الكـريـمْ
إلهــي كــنْ لِمحــزُونٍ مُعِينــاً   هـوى مـن صرحـهِ العـالِـي القـديـمْ

***

لسـانِـي كيـفَ يـروي عنـه شيًّـا   وتعلـم مـا بـدا بـل والخفيـا

(١) أراد إقبال قوله تعالى سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾
وقال جلال الدين الرومي في شعر له : إن الله خالق الوجود من العدم والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق . وتباينت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة وفي كتاب (في السماء) يقول إقبال :
(لـن تـرانـي) إنهـا المعنـى الـدقيـق   ولتضـع فيـه فـذا البحـر العميـق
(٢) عيل صبره : نفد .

وما قاساه في دهر طويل طوى قلبي على الآلام طيا
جَرَى فلكٌ على غيرِ المَرَامِ شَكَاةَ الرَّكبِ منْ بَعْدِ المُقَام
أَفِي هَذَا كَلاَمٌ ليتَ شِعري وَهَذَا الشعْبُ كانَ بِلاَ إِمَام

* * *

دِماءٌ فِيهِ تَخلُو مِنْ لَهَاب ومَا زَرَعَ الأَزَاهِرَ في الخراب ؟![1]
خليّ الغمدِ . ما فِي الكَفِّ مَال وَهَذَا الرفُّ يَهْوى بِالكِتَاب[2]

* * *

بِظَاهِرِ ما يَرَاهُ القَلْبُ قَيَّد فمِنْ ذوقٍ ومِنْ شوقٍ تَجَرَّدْ[3]
صَفِيرَ الصَّقْرِ حَتْماً لَيْسَ يَدْرِي عَلَى طَنٍّ البعوضةِ مَنْ تَعَوَّدْ
له بالقلبِ باباً مَا فَتَحْنَا وَذَاتاً فِي ثَرَاه ما رَأَيْنَا
وَلَا التَّكْبِيرِ دَوَّى فِي ضَمِيرِ وَمِنْهُ الذكْرَ قَطّ ما سمِعْنَا

* * *

يَقُدُّ الجيبَ مَقْطُوعَ الرَّجَاء لِمَاذَا قَدْ تَرَدَّى فِي البَلاء[4]
شبيهَ الموتِ ما يَلْقَى نَصِيبَاً إِذَا مَا كَفَّ عَبْدٌ عَنْ ثَنَاء

* * *

أَنِلْهُ الحقَّ ، مِسْكِينٌ أَسِير فَقِيرٌ وَهْوَ فِي قَلَقٍ يَثُور
وهذِي حَانَةٌ قَدْ أَوْصَدُوهَا لِيظْمَأَ وَالردَى كأسٌ تَدُور[5]
فَطَهِّرْ مَاءَهُ وَالطينَ طَهِّرْ بِدُنْيَا مِنْهُ هَذَا القَلْبَ عَمِّرْ

---

(١) اللهاب : اشتعال النار
(٢) خلي الغمد : لا سيف في غمده .
(٣) الذوق في الاصطلاح : نور يلقيه الله في قلوب أوليائه يميزون به بين الحق والباطل .
(٤) يقد : يشق . الجيب : فتحة الثوب حول العنق . وتردى : وقع .
(٥) الحانة هنا بمعناها عند الصوفية .

تَمَــزَّقَ ذَيْلُــهُ وَالــرِيــحُ تُسْفِــي فَفِـي مِصْبَـاحِـهِ المحْطُـومِ فكّـرْ[١]

* * *

عَــرُوسٌ هَــذِه الــدنْيَـا لِغَيْــرِه مَقَــامٌ لِلفَنَــا نَهْــجٌ لِسَيْــرِه

وَقَبْــلَ المــوْتِ آدَتْــهُ الخطَــايـا لَــهُ الملكَــانِ مِــنْ ذَيْـرِ بِقَبْـرِه[٢]

* * *

أَفِــي عَيْنَيْــهِ نُــورٌ أَوْ سُــرُورُ وَمَــا فِــي صَــدْرِهِ قَلْــبٌ صَبُــور

لهــذَا الشعــبِ كُــنْ رَبِّــي مُعِينَــاً قَضَى ، فَالرُّوحُ مَا فِيهَا حُضُور[٣]

حَنِيـفٌ والـردَى مَـا لَيْـسَ يَـأْلَـفْ أَيَخْلَـعُ قَلْبَـه رُعْبـاً وَيَـأْنَـفْ ![٤]

وَبَيْــنَ ضُلُــوعِــهِ مَــا كَــانَ قَلْــبٌ يَقْطَــعُ زَفْــرةً حَــرّى وَيَـأْسَـفْ !

* * *

وَحُكْــمُ الفــردِ شَــرٌّ لِــلأَنَــامْ فَمَــنْ مِــنْ شَــرِّه غيــر المضــامْ

شَكَــاةَ القَلْــبِ للخِــلَّانِ فَــاسْمِــعْ إذا مــا شِئْــتَ تَحْقِيــقَ المَــرَامْ

* * *

رَكينــاً كَــانَ جِسْــمُ المسْلِمِينَــا بِنَــاءٌ ظَــلَّ فــي آدٍ متينــا[٥]

وإنْ نَظَــرُوا فَقَــدْ ظَهَــرُوا بِــذَاتٍ لَهُمْ فِي الخَفْقِ أَشْبَهَتِ الوتِينَا[٦]

---

(١) تسفي : تحمل الغبار ، والمحطوم : المحطم .

(٢) آدته : أثقلته .

(٣) قضى : مات . والحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .

(٤) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .

(٥) الركين : القوي . الآد : القوة .

(٦) الوتين : عرق في القلب .

خجـولٌ مُسْلِـم هَـانَـتْ شُـؤونُـه لَـهُ الخَـانْقَـاه فَقْـرٌ ، مَـاتَ دِينُـه[1]
بِــدُنْيَــانَــا فَقُــلْ مَــاذَا وَرِثْنَــا كَلِيــمٌ عَــنْ مُلُــوكٍ نَسْتَبِينُـــه[2]

* * *

وَعَــنْ أَحْــوَالِــهِ لا تَســأَلَنِّــي فَقَــدْ سَـاءَتْ وَفِيهَـا حَـارَ ظَنِّـي
وَهَــذَا الطَّيْــرُ بِــالثَّمَــرَاتِ يغْــذُو لَـهُ فِـي البِيـدِ نَقْـرٌ بِـالتَّعَنِّـي[3]

* * *

لِعَيْنَيْــهِ الحيــاة أَنــا فَـتَحْــت وَمَا فِي الأَمْسِ وَالغَدِ كَمْ شَرَحْت
كَشَفْــتُ الــروحَ أَسْــرَاراً فَهَــلاَّ بَــلاَغَــةَ يَغْــرُبِ يَــوْمــاً مَنَحْـت
وَلَيْــسَ لِمُسْلِــمٍ جَيْــشٌ عَــرَمْــرَمْ بِـذَاتٍ مِـنْ مُلُـوكِ الأَرْضِ أَكْـرَمْ[4]
فَلَــوْ رَدُّوا إِلَيْــهِ اليــومَ حَقّــاً لَكَــانَ جَــلاَلُــه لا رَيْــبَ أَعْظَــمْ

* * *

أَســاطِيــرُ مَتَــاعِ الشيــخ حَقَّــا مِــنَ الأَوْهَــامِ أَقْــوَالاً تَلَقَّـــى
لَــهُ الإِسْــلاَمُ بِــالــزُّنَّــارِ يَبْــدُو وَذَا حَــرَمٍ وَمِــنْ دَيْــرٍ تَبقَّـــى

* * *

وَعَــالَمُنَــا بِــإِلْحَــادٍ تَغَيَّــرْ وَأَنَّ الــروحَ مِــنْ جَسَــدٍ تَقَــرَّرْ

---

(١) خانقاه : كلمة فارسية الأصل بمعنى المبنى الذي يقيم فيه الصوفية . ويقال : إن الشاعر الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير وهو من صوفية القرن الخامس الهجري هو مؤسس أول خانقاه في إيران . ومعلوم أن كل مدينة وكل ناحية في إيران كان بها خانقاه حين الغزو المغولي . وكانت كل خانقاه تابعة لشيخ أو لفرقة خاصة من فرق الصوفية . وقد تنافس المتنافسون من العظماء في بناء الخوانقات ووقف الأموال عليها .

(٢) الكليم : البساط وتأتي كذلك بمعنى الثوب الخلق . نستبينه : نعرفه ونميزه .

(٣) التعني : الشدة والصعوبة .

(٤) الجيش العرمرم : الشديد .

بِفَقْـرٍ كُنْـتَ لِلصِّـدِّيـقِ تُغْطِـي أَنِـرْ روحـاً تَسَـامَـى أَوْ تَطَـوَّزْ[1]
لَنَـا حَـرَمٌ فَمَـاذَا يَسْتَعِيـرُ ! بِـهِ صَنَـمٌ هُـوَ الشيـخُ الكَبِيـرُ
وَمَـا فِـي القَلْـبِ لِـلآمَـالِ نُـورٌ وَأَظْلَـمَ حَظُّنَـا نَحْـنُ الحَيَـارَى

* * *

فَقِيـرٌ رَكْعَـةً للهِ صَلَّـى طُغَـاةٌ أَوْ بُغَـاةٌ مَـنْ أَذَلَّا
وَتِلْـكَ النـارُ إِنْ خَمَـدَتْ بِصَـدْرٍ إِلَـى عَتَبَـاتِ مَـنْ ظَلَمُـوا تَـوَلَّـى[2]

* * *

---

(١) يضرب إقبال على قالب شعراء التصوف الذين ألفوا أن يتهكموا بالشيخ أو الزاهد . والشيخ عندهم رمز لغير المتصوف . وقد اتسعت شقة الخلاف بين المتصوفة والفقهاء ، ولا غرو فالمتصوفة يجنحون إلى التأويل والتمثيل والتخييل ويصدون عن الظاهر للغوص في أعماق الباطن . أما الفقهاء فوقافون عند حرفية النصوص لا يمعنون في الاجتهاد بالرأي . ولا يكاد يخلو شعر صوفي من هذا التهكم التقليدي بالزهاد والشيوخ . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ما ترجمته :
(امض عنا أيها الزاهد وكف الملام عن شاربي المدام ، فما منحونا سوى تلك التحفة يوم ألست) والإشارة في يوم ألست إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ والشاعر يريد ليقول إن الصوفية أتحفوا بعشق الذات الإلهية منذ أن عرفوا ربهم . الزنار : ما يشده النصراني على وسطه .
يريد الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء غير أنه أنفق ماله على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر أنفق على النبي أربعين ألفاً . وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله معه . وقال لها جدها أبو قحافة وقد ذهب بصره : إن أباها قد فجعها بماله فردت عليه بقولها إنه ترك خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً وضعتها في كوة البيت الذي كان أبوها يضع المال فيه ثم غطتها بثوب وقادت إليها جدها الضرير ووضعت يده عليها فقال : إنه أحسن بترك هذا وفيه الكفاية . وقد أرادت أسماء أن تسكن جدها وتوهمه بأن أباها ترك شيئاً ، ولم يترك لعياله أي شيء .
(٢) تولى : مضى وأدبر .

يُعَـادِي المسْلِمُـونَ الأَقْـرَبِينَـا   وَظَلُّـوا فِـي شِقَـاقٍ رَاغِبِينَـا
تَـدَاعـى مَسْجِـدٌ يَـوْمـاً لِيَـأْسُـوا   وَكَـانُـوا مِنْـهُ دَوْمَـاً هَـارِبِينَـا ![1]
لِغَيْـرِ اللهِ عَفَّـرْنَـا الجبِينَـا   وَكُنَّـا كَـالمجُـوسِ مُهَلِّلِينَـا
فَـأَنْفُسَنَـا شَكَـوْنَـا لا سِـوَانَـا   لِمِثْـلِ عُـلاَكَ لَسْنَـا لاَئِقِينَـا

* * *

خَلَـتْ مِـنْ رَاحِهَـا كَـأْسُ النُّدَامَـى   إِلاَمَ الصَّمْـتُ لِلْسَـاقِـي إِلاَمَـا
عَلَـى الـزَّفَـرَاتِ مِنِّي القلـبَ أَطْـوِي   دُخَـانـاً لِلسِّـرَاجِ مَحَـا الظَّـلاَمَـا[2]

* * *

لَـدَى الصُّـوفِـيِّ دِنٌ مَـا رَوَاه   وَيَطْـوِي مَكْتَبَـاً نَهْجـاً طَـوَاه[3]
أَغَـادَرَ مَجْلِـسَ الشعَـرَاءِ كَـرْهـاً   وَمَـاتَ اللحـنُ فِـي نَـايٍ حَـوَاه
غَـرِيـبٌ ، مُسْلِـمٌ ، عَـنْ كُـلِّ دَارٍ   وَلِـي دُنْيـا أَعَـافُ ، مِـنَ الغُبَـار
وَهَـذِي لَـوْعَتِـي مِـنْ فَـرْطِ عَجْـزِي   لِغَيْـرِ اللهِ أَبْـدَيْـتُ اقتِـدَارِي

* * *

وَتَمنَحُنِـي جَنَـاحـاً كَـيْ أَطِيـرَا   وَأَلْحَـانِـي خَفَقْـتُ بِهَـا سَعِيرَا[4]
فَهَـلْ مِـنْ مُسْلِـمٍ يَخْشَـاهُ مَـوْتٌ ؟   أَطَلْتُ ، وَمَا وَجَدْتُ ، أَنَا المسِيرَا

* * *

سَـأَلْـتُ اللهَ بِـالـدَّمْـعِ السَّكُـوب   أَحَـانَ لمسلـمٍ رَفْـعَ الكُـرُوب ؟

---

(١) يأسى : يحزن . يعجب لمن يحزنهم ضياع حجر من مسجدهم وهم الذين لا يدخلون للصلاة فيه .

(٢) يشبه الزفرات بالدخان . والزفرة في الفارسية تسمى دخان القلب .

(٣) يصطنع إقبال طريقة الصوفية في التعبير ، غير أنه يخالفهم في التفكير ويتناول أعمالهم وأقوالهم بالتفنيد والتنديد . المكتب : المدرسة . والنهج : الطريق .

(٤) السعير : النار .

نِـدَاءٌ ظَـلَّ فِـي سَمْعِـي يُـدَوِّي « لَـهُ قَلْـبٌ وَأَقْفَـرَ مِـنْ حَبِيـب »
لِمَـاذَا أَذْكُـرُ المَـاضِـي المجِيـدَا فَهَـذَا الـذِّكْـرُ مَـا كَـان المفِيـدَا
بِصَـدْرِي قَـدْ حَـوَيْـتُ أَنَـا سِـرَاجَـاً وَفِـي قَـرْنَيْـنِ آنَسْـتُ الخمُـودَا[1]

* * *

وَيَخْـرُسُ كَعْبَـةً بنَّـاء ديـر يَقِيـنٌ مَـاتَ فِيـهِ رَنَـا لِغَيْـر[2]
وَتَقْصُـرُ نَظْـرَةٌ مِنْـهُ وَفِيهَـا تَجَلَّـى يَـأْسُهُ مِـنْ كُـلِّ خَيْـر

* * *

وَتَشْـرِيـدٌ وَنَـارٌ لِلْفَقِيـر مِـنَ الحرْقَـاتِ هَـبَّ نَـارَ الضَّمِيـر
وَفِيـهِ القَلْـبُ ثَبْـتٌ أَوْ أَنِـرْهُ بِـآمَـالِ اليَقِيـنِ كَفَيْـضِ نُـور
وَلِـي مِـنْ نَشْـوَتِـي[3]قَـدٌّ تَـرَنَّـخ بِـلاَ سَيْـفٍ دِمَـاءٌ كُنْـتُ أَسْفَـخ
فَهَبْنِـي نَظْـرَةً وَارْأَفْ بِحَـالِـي فَلِـي عَصْـرٌ أُجَـاهِـدُهُ وَأَكْـدَخ

* * *

لَقَـدْ آثَـرْتُ أَنْ أَشْكُـو وَحِيـدَا وَيَثْـرِبَ رُمْتُهَـا فَـاجْتَـزْتُ بِيـدَا
أَأَطْلُـبُ مَكْتَبِـي أَمْ هَـانَ شَـوْقِـي تَخَيَّـرْ ، حِيـرَتِـي تَـأْبَـى المـزِيـدَا

* * *

أَطِيـرُ بِجَـوِّهِ هَـذَا المحَبَّـبْ وَمِـنْ غَيْـمِ جَنَـاحِـي قَـدْ تَـرَطَّـبْ
وَبَيْـتُ اللهِ أَحْـوِيـهِ بِقَلْبِـي أُغَنِّـي مَـا بِقَلْبِـي ثُـمَّ أَطْـرَبْ
أَقُـولُ السِّـرَّ مِـنْ مَـا قُلْـتُ يُفْهَـمْ وَمَـنْ مِـنْ دَوْحَتـي الثَمَـرَاتِ يَطْعَـمْ
أَمِيـرَ القَـوْمِ أَنْصِفْنِـي فَـإِنِّـي عُـرِفْـتُ بِشَـاعِـرٍ غَـزِلٍ تَـرَنَّـمْ

* * *

---

(١) آنس : رأى . والشاعر يشير إلى فساد حال القوم في القرنين الماضيين .

(٢) رنا : أدام النظر .

(٣) النشوة : السكر .

خِلَافَ الشِّعْرِ مَا أَبْغِي بِقولي وَحُلَّتْ عُقْدَةُ المعنَى بِحَلِّي
وَأُكْسِيراً لِعِشْقٍ مَا أُرَجِّي فَدِرْهَم مُفْلِسٍ ذَهَب بِصَقْلِي[1]

* * *

حَيَاةُ الخلدِ عَنها قلتُ خَبِّز وَمنْ مَاتوا حديثَ الروحِ ذَكِّرْ
وقومٌ يجحدونَ الحقَّ قالوا بموتِهِما إِذا مَا شِئتَ بَشِّرْ
جَبِيني مِنْ أَسَى كالزَّعْفَران جَرَتْ عيني بمثلِ الأُرجُوانِ[2]
وحَالِي أَنْتَ تَعْلَمُ رَغْمَ صَمْتِي فَهذِي عُقْدةٌ لي في لِسَاني

* * *

غَرِيبٌ ، لي لسانٌ وَهوَ نَظْرَه وَذُو أَلَمٍ تُكَلِّمُهُ بعَبْرَه
فمِي أوصَدتُ ، بالعينينِ أزنُو فَشَرْعِي لا يجيزُ القولَ مَرَّه

* * *

مَنَحتُ الذَّات من ذاتي غريبا وَزَمْزَم بينَ صَلْصَالٍ قَلِيبَا[3]
فَهَبْنِي زَفْرَةً حَرَّى ومِنْهَا سَأُصْلَى كلَّ بَلْبَالٍ لَهِيبَا[4]
زَفِيرٌ ليس في قلبي سِوَاه ولي أملٌ ونبعُك ما رَوَاه
لمنْ أَشكُو غموماً في فؤادي على من غير ذاتكَ ما طَواه

* * *

غريبٌ شجوه بالناي أبدى ونارُ اللحنِ منها ذابَ وجْدَا
أتعلمُ ما يقول وما تمنَّى يرومُ القلب[5] عنْ دارين صدًّا

---

(١) الأكسير : ما كان يلقيه الأقدمون على الفضة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص .
(٢) الأرجوان : اللون الأحمر .
(٣) القليب : البئر .
(٤) البلبال : الهم .
(٥) يرومُ القلب : يُرِيْدُ .

ومــا زهــراً ولا قَطْــراً أريــد لتلك الريحِ ، شمسكَ كم تجود
وتعلـو نظـرتـي عــن كـلِّ نجـمٍ ورأيــي لا أبــدِّلــه ســديــد
ببحــرٍ شَطُّــه لــم أدرِ بُعْــده دليـلُ العــاشقيـن القلـبُ وحـدَه
إلــى البطحــاءِ تــأمــرُنــا بسَيْــر وإلَّا كنــتَ مــا وقفــت عنـده[1]

* * *

أتطــردُ مــنْ يتــوقُ إلــى الحضــور ألِمْـت ولسـتُ أُعـرَف بــالصَّبـور
بمــا أحببــت مُــرٍ إلا بصبــر عجــزت أنــا إليـه عــن المسيـر

* * *

دُمَـى الإفـرنـجِ قلـبٌ لـي تعشَّـق ومـن نـارٍ لأهـل الـدير أحـرق[2]
لقـد أصبحـتُ عـن نفسِـي غـرِيبا فمــا أدْرِي وجــوداً لــي تحقَّــق
بِحَـانِ الغـربِ عَـاقَـرْتُ الشَّـرَابَـا برُوحي قَدْ شَرَيتُ لي العذابَا[3]
وكـمْ جَـالسـتُ أهـلَ الحسـنِ لكِنْ بــدَتْ نِيــرَانهــمْ ثَلْجــاً مُــذَابَــا

* * *

فقيــرٌ فلتحقَّــقْ لــي رَجَــائِــي هشيمي اجْعَلْه قَلباً في الفَضَـاءِ[4]
سئِمْــتُ الـدرسَ يلقيــهِ حكيــمٌ فلـي مـن نظـرتـي فيـضُ الـذَّكـاءِ

* * *

---

(١) البطحاء : مكة المكرمة .
(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة أو الصنم . وشعراء الفرس يشبهون الحسناء بالصنم في الحسن . والشاعر يشير من طرف آخر في تهكم وسخرية إلى التهافت على تقليد الغربيين .
(٣) عاقر الخمر : أدمن شربها . شريت : اشتريت .
(٤) الهشيم : ماتكسر من يابس النبات .

أنَـا الصـوفـي والمـلاَّ أجَـافِـي   وَتَعْلَـمُ مَـنْ أكُـونُ بِـلاَ خِـلاَفِ[1]
عَلَى صفحاتِ قلبي « اللهَ » فاكتبْ   لأشهِـدَهُ وذَاتـي بـالشُّغَـافِ[2]
فـيَّ قَلْـبٌ لمـلاَّ الغَـمُّ حَـلاَّ   وهـلْ بـالـدمـعِ بـلّ العيـنَ بَـلاَّ
أولّـي مـن مجـالسِـه فِـرَاراً   أزيـنُ حِجَـازه بـالبشْـرِ ؟ كَـلاَّ

***

يقـولُ القـولَ نَصْـلاً للحـرابِ   وَفِـي حِضْـنٍ لـه كـمْ مِـنْ كِتَابِ
وتخجلنـي الصـراحـةُ فِـي كَـلاَمـي   عن الذاتِ اختفىَ لا عنْ صِحَابِ[3]

***

أجـبْ بـاللهِ مـنْ ملـكَ القُلُـوبَـا   ومَـنْ قَـدْ ألهـم الشـوقَ المـذِيبَـا
كِـلاَنَـا مَـنْ رَمَـى فـي الـديـن سَهْمَـاً   فَقُـلْ فـي الـرمـي مـن كَـانَ المصيبَـا
ولسْـتُ بمحْفَلـي غَيْـرَ الغـريـب   لمنْ في مُشْكِلي شَكْوَى كُرُوبي ؟
ذُيُـوعَ السـرِّ بيـنَ القـومِ أخشـى   شكـاتـي صنـتُ عَـنْ قَلْبـي الكَئِيـبِ

***

وقلبـي لسـت أسلمـه لأيـدِ   أضيـق بعقـدتـي وأَحِـلُّ وَحْـدِي
إلـى غيـرِ الإلـهِ رفعـتُ عينـي   لـذا مـن قمَّتـي كـان التـردِّي

***

---

(١) الملا : كلمة تركية مأخوذة عن العربية (مولى) . وهي بمعنى الشيخ والمعلم والقاضي . والشاعر يطلقها على الشيخ والفقيه وغير الصوفي .

(٢) الشغاف : غلاف القلب أو حبته . وإقبال يجري على مألوف الصوفية من تجريح غير المتصوفة . غير أنه يريد ليجرح ضيقي الأفق من المسلمين المتزمتين الجامدين .

(٣) يعبر إقبال عن نزعته الفكرية التحررية ورغبته في فهم الدين حق الفهم بنجوة عما لا يقره الدين من جمود على الأساطير والأوهام ، ويبالغ في وصف من نظروا في أحكام الدين بلا عقل ولا روح . والمبالغة تفهم على أنها مبالغة إلا أنها تؤكد المعنى وتؤيد الغرض .

بِــرُّ أُمِّــي جَمــرةٌ هــذا الجنــون بِصَــدْري فــورةٌ هَــذَا الفتُــون[1]
ومِــنْ أمــواجِ طُــوفَــانٍ تَقَضَّــى بـروحـي المـوجُ يجفُـوهُ السُّكُـون[2]
لِهَــذَا التــربِ مــا زَالَ الشــرَار لهــذا الصــدْرِ زفْـرُ الفجـرِ نَــار
بمــا أهــديــت مــن نــورِ التجَلِّــي علــى نظــرٍ لعينــيَّ اقتِــدَار

* * *

أشــاهــد غيــر أنِّــي لســتُ أرغــبْ وبيــنَ جــوانحِــي قلــبٌ تَلهَّــب
وهــذَا العصْــرُ مِــنْ رَوحٍ تَخَلَّــى فقــلْ مــا السِّــرُّ أو مثلــي تَعَجَّــب[3]

* * *

وفــي عصــرٍ بــلاَ لهــبٍ خُلِقْــتُ تُــرابــي فيــه مــا يهفــو مُنِخْــتُ
وفــي عنُقِــي حيــاتِــي مِثْــلُ حَبْــلٍ علــى عــودٍ كــأنِّــي قَــدْ صُلِبْــتُ
ومــا للــزَّهــرِ ألْــوانِــي وريحــي يضيــقُ الصــدْرُ بــالأمــلِ الجــريــحِ
ومَــا وَسِــعَ الكــلامُ أَسَــى خَفِيّــاً لمــنْ أشْكــو بقــولٍ لــي صَــرِيــحِ

* * *

وَفــي شــرقٍ وفــي غــربٍ غــريــبُ فُــؤَادِي لا يُــوَاسِيــه الحَبِيــبُ
همُــومُ القلــبِ أشكــوهــا لِقَلْبــي فكَــانَ لِغُــرْبَتِــي خَــدْعٌ عَجِيــبُ

* * *

لِعِلْــمِ اليــومِ أبْطَلْــتُ الطِّلَسْمَــا[4] حَطَمْــتُ حَبَــائِــلاً بِــالحُــبِّ حَطْمَــا

---

(١) الجنون عند المتصوفة هو جذبة العشق الإلهي .

(٢) تقضى : مضى وانتهى .

(٣) تخلى منه وعنه : تركه .

(٤) الطِّلسْ والطِّلَّسْمْ ، ج : طلاسم وطلسمات ، يونانية معرَّبة : خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر .

وإِبْــرَاهيــمَ مَــنْ أشْبَهْــتُ حقــاً فَمَــا كَــانَــتْ لَــدَيَّ النــارُ هَمَّــا
حَبَــوتُ العيــنَ بــالبصَــرِ البَصِيــر وَقَــوْلَــهُ « لا إِلَــه » كَفَيــضِ نُــور
وفَجْــراً فَلْتَهَــبْ مِــنْ « مَــنْ رَآنِــي » فَلَيلــي مِنْــكَ ذُو البــدْرِ المنيــرِ[١]

* * *

وَفِــي يَــوْمٍ جَــذَبْــتُ إِلَــى ذَاتِــي بِــأَنْــوارِ مَقَــامــي مُشْــرِقَــاتِ
بِهَــذَا الــدَّيْــرِ مِــنْ نَغَمــاتِ فَجْــرٍ خَلَقْــتُ دُنَــى القلــوبِ الــوَالهــاتِ[٢]

* * *

بِعَــالَمِنَــا جِنَــانٌ عَــالِيَــاتُ لــدوحتهــا دمــوعــي الجــارِيَــاتُ[٣]
سكُــونٌ كَــانَ حَتَــى اليــومَ فِيهَــا فَــأَيَّــامٌ لآدَمَ آتِيَــاتُ
أَلاَ هَبْهَــا فَتَــىً يَخْتَــالُ فِيهَــا هَــوَاهُ الكَــأْسُ دَارَتْ يحتَسِيهَــا
تَــرَاهُ مِثْــلَ حَيْــدَرَ فِــي قِــوَاه مُنَــى الــدارَيْــنِ مَــا إِنْ يَشْتَهِيهَــا[٤]

* * *

أَدِرْ يَــا صَــاحِ كَــاسَــاتِ النُّــدَامــى وَزِدْ فِــي نَــاي أَلْحَــانِي ضِــرَامَــا[٥]
وَهَــذَا القلْــبُ رُدَّ إِلَــى ضُلُــوعِــي لأفْضِــلَ كُــلَّ مَــنْ مَلَكُــوا ، مَقَــامَــا

* * *

وَمِــنْ عِشْــقٍ لَنَــا الــدنْيَــا بِصَــدْرِكْ وتَفْــرَح فَــرْحَــةً نَشْــوَى بِصَــدْرِكْ
فِمِــنْ جِبْــرِيــلَ ؟ إِنّــي لَسْــتُ أَدْرِي أَأَبْــدَتْ جَــوْهَــراً مِــرْآة صَــدْرِكْ

---

(١) إشارة إلى القول الذي جاء فيه (من رآني فقد رأى الله) كذا في الأصل .
(٢) الدنى : جمع دنيا .
(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .
(٤) حيدر : هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٥) أدار الكأس : طاف بها على الشاربين .

فُـؤَادِي لَـمْ يُمِـقْ أحـداً بمعبـد مُقَـامـي أَيْـنَ ؟ كُنْـتُ بِـه المقيَّـد[١]
إِلَـــهٌ يبْتَغِـــي مِنِّـــي سُجُـــودَاً ! لَقَـــدْ حَطَّمْتُـــهُ وَهُـــوَ المبـــدَّدْ

* * *

وَهَـــذِي زَهْـــرَةٌ نَبَتَـــتْ بِتُـــرْبِـــي بَـدَتْ فِـي حمـرةٍ مِـنْ ذوبِ قلْبِـي
تَقَبَّلْهَـــا ، بِهَـــذَا القلـــبِ رفقـــاً فَلِي قلبٌ ، وَهَذَا القلبُ حَسبِي[٢]

* * *

لِهَـــذَا الشعـــبِ إنِّـــي قـــدْ خفقْـــت ولحنِـي النـارَ فـي رُوحِـي خَلَقْـت
وَجيـزُ القـولِ خيـرُ القـولِ قـالُـوا خَفَقْتُ ، خُلِقْتُ ، لَكنِّي استَرحْت
بِفطـرةٍ مـنْ تمجّـن رمـتُ صِـدْقـا وتحـرِقُ زَفْـرَتِـي الأرواحَ حَـرْقَـا[٣]
سَحَـابـاً للـربيـعِ فهـبْ تـرابِـي وَفيـــهِ الحَـــبُّ أنثـــرهُ ليبقَـــى

* * *

بكَفِّـي القلـبُ ، مـالـي مـن حبيـبِ متاعٌ لِي ، فَمَنْ لصّ الدُّرُوب ؟[٤]
وَهَـــذَا الصَّـــدْرُ فلتسكنْـــهُ دَارَاً وَحيـــدٌ ، لا أشبّـــه بـــالغـــريـــب

* * *

ببيـــتِ اللهِ كـــالـــرومِـــي أَذَانِـــي فسِـرُّ الـروحِ أوضـحُ والمعَـانِـي[٥]
طَـــوَاهُ بفتنـــةٍ عصـــرٌ قـــديـــمٌ وَلكِـنْ لِـي الجـديـد مـنَ الـزمـانِ
لـــكَ البستـــانُ أنبِـتْ مـــن تُـــرابِـي ولـــوّنـــه بـــدمْعِـــي فـــي انسِكـــابِ

---

(١) ومق : أحب .
(٢) حسبي : كفايتي .
(٣) تمجن : تكلف المجانة وهي عدم المبالاة بالأعمال والأقوال .
(٤) الدروب : جمع درب وهو الطريق .
(٥) الرومي : هو جلال الدين الرومي .

ومـا أمَلْـتُ سيـفَ أَبِـي تـرابِ		فهبْ عينـاً كسيـفِ أبـي تُـرابِ[1]

* * *

علـى شـطٍّ يطـولُ بـه الـوقُـوف		فعـنْ عمـلٍ وعـنْ أمـلٍ عَـزُوفُ[2]
لمـنْ غيـري أنـا المسكيـنُ حقـاً		علـى أسـرارهِ كـانَ الـوقُـوفُ

* * *

ومـنْ منـاهُ للمحبـوبِ عِطْـرَا		وهـذاكَ الـربيـعُ يـرفُ زَهْـرَا[3]
تنَـاسَـى قَـوْلَـةَ قيلـتْ فمنـذَا		علـى قَضْبـائِـه بـالنَّـارِ مَـرّا
غـديـري هَبْـه دُرَّاً مِـنْ بِحَـارِكْ		مَتَـاعِـي ضَـغْ بطـودِكَ أوْ قِفَـارِكْ[4]
بطُـوفَـانٍ فَمَـا فتحـتُ قَلْبِـي		فَهَبْنِـي غيـرهُ طـوعـاً وبـارِكْ

* * *

أثـرتُ الـوَجْـدَ فِـي نَـايِـي ، تـأمَّـلْ		بنـاري ذبـتُ مُخْتَلِيـاً ، تَـأَمَّـلْ
عـرفـتُ الفقـرَ عَـنْ سَلَفِـي قَـدِيمـاً		عـنِ السلطـانِ إحجـامِـي ، تـأَمَّـلْ

* * *

---

(١) أبو تراب : كنية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد أطلقها عليه النبي ﷺ . والخبر في هذا أن علياً دخل على فاطمة ثم خرج فأتى ﷺ فاطمة وسألها أين ابن عمك ؟ قالت : إنه مضطجع في المسجد . فمضى النبي إليه فوجد رداءه ساقطاً عن ظهره ، فجعل يمسح عنه التراب ويقول اجلس أبا تراب . وفي رواية أخرى أن علياً وعمار بن ياسر كانا رفيقين في غزاة ذي العشيرة ونزلها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأقام بها . وجعل علي وعمار ينظران إلى من يعملون في نخل هناك ثم أخذتهما سنة وتتربا وجاء النبي فحرك علياً وقال له يا أبا تراب حين رأى عليه التراب . وكان يطيب له كرم الله وجهه أن يدعى بأبي تراب .

(٢) عزف عن الشيء : أعرض عنه .

(٣) رف الزهر : تلألأ نضرة .

(٤) الطود : الجبل . القفار : الصحارى .

علَى مـا كـانَ مـنْ حَـالـي أَعِنِّـي كشفـتُ اللبسَ عـنْ مَعْنًـى بفنِّـي
مـع المحبـوبِ تسـألُ كيـفَ حـالِـي يُـوافِـي مَـرَّةً ويغيـبُ عَنِّـي
لقـدْ شَـاركـتُ فـي وجـدٍ ورَوْدَا ضميـرَ العيـشِ أفتحـهُ وَئِيـدًا[1]
فمـنْ لَقَّنْـتَ شَـوقِـي ليـتَ شِعْـرِي ؟ أغَنِّـي مـا أَغنِّيـهِ وَحِيـدًا

* * *

بِنُـورِكَ كنـتُ أفتـحُ مُقْلَتَيَّـا وَقَـدْ شَـاهـدتُ أعمـاقَ الثـرَيَّـا
وَإِنِّـي مسلـمٌ يَـالَهْـفَ نَفْسِـي فَمُشْكِـلُ (لا) أَرَى صعبـاً علَيَّـا[2]

* * *

بـأرضِـكَ حـرقـةُ الألحـانِ حسْبِـي وبـدءٌ وانتهـاءٌ منـكَ ، حَسْبِـي
لِـرَبِّـي قلـتُ منتَشِيـاً بِـوَجْـدِي رَسُـولُ الله يـا رحمـنُ ، حَسْبِـي
مـنَ الأشـواقِ ثَـائِـرتِـي لتنظـرْ فَلِـلأنْهَـارِ مِـنْ حَجَـرٍ تَفَجُّـرْ
وَلَيْـتَ ابنـي بعشْقِـكَ فـي دوامٍ يُـزَيَّـن بـالتلـوُّنِ والتعَطُّـر

* * *

فَتَـى الإِفْـرَنْـجِ[3]فلْتَشْهَـدْه حِينَـا بَـدَا قَمَـراً لعيـنِ النـاظِـرِينَـا
فَتَـانَـا سـاذجٌ مـن فَـرْطِ ظُـرْفٍ وَقَـاهُ اللهُ عَيْـنَ الكَـافِـرِينَـا

* * *

يمينُـكَ مُـدَّهَـا للعَـاثِـرِينَـا وَمَـنْ لسـواكَ كَـانُـوا نَـاظِـرِينَـا
فَمِـنْ نَـارٍ أَضْـرِمُهَـا بِـرُوحِـي نَصِيبـاً هَـبْ جَمِيـعَ المسْلِمِينَـا
إليـكَ الـرَّاحَ مِـنْ كـأسِ الحَبِيـبْ لِتَسْكُـنْ دَائِمـاً قَلْـبَ الحَبِيـبْ

---

(١) وئيداً : على مهل .
(٢) في الأصل (لا إله) .
(٣) الإفرنج والإفرنجة والفرنج : اسم لسكان أوربة كلها ماعدا الأروام والأتراك .

أَيَـا هَـذَا (المليـك) أَذَا سُجُـود ! لتكنِـــسَ مُقْلَتِـــي دَارَ الحَبِيــبْ[1]

***

لـــكَ السلْطـــانُ لَكِنِّـــي فَقِيـــرُ لأَرضِ الـــروحِ والمغْنَـــى أَمِيـــرُ[2]

وَدُنْيـا « لا إِلَــه » بَـدَتْ تَـأَمَّـلْ حَــوَاهَـا كُلَّهَـا مِنِّـي ضَمِيـرُ

***

دَوَاءٌ لَيْـسَ يَنْجَـعُ فِـي سَقَـامِـي فَـإِنِّي الشيـخُ قَـدْ وَهَنَـتْ عِظَـامِـي

أَلَا يُلْقُـــونَنِـــي عَنهـــم بَعيـــدَاً أَلَسْـتُ لِـدِينِهـمْ أَحَـدَ السِّهَـامِ !

تَعَـالَ وَفِـي اعْتِنَـاقٍ نَحْـنُ نَـرْقُـصْ وَدُنْيَـانَـا نُجَـافِيهَـا ، وَنَـرْقُـصْ[3]

وَعِنْـدَ دِيَـارِ مَـنْ نَهْـوَى تَـوَقَّـفْ دِمَـاءَ العيـنِ نَـذْرِفُهَـا ، وَنَـرْقُـصْ

***

(١) في الأصل اسم أحد الملوك .

(٢) يتردد ذكر الفقر والفقير كثيراً في هذا من شعر إقبال . والفقر من مقامات التصوف . ويعرف بأنه ليس فقدان الشيء بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه . وشعار الصوفية (الفقر فخري) وقال بعضهم : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، ويرى إقبال أن الفقر خلاص النفس من الطمع وتعففها عن ذل الحرمان . وهذا ما يكفل لها أن تعمل وتقدم منطلقة من كل قيد . وفي كتابه جاويدنامه الذي ترجمناه بعنوان (في السماء) يبذل النصح لولده قائلاً :

إن رأســت القــوم أو صــرت الغنيـا فعلــى الفقــر اخــرصــن يــا بنيـا

(٣) يتلو إقبال تلو المتصوفة من أتباع جلال الدين الرومي الذين كانوا يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . ففي رأيهم أن الرقص ينتزع نفوسهم من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي . كما يثير الطرب والخوف عند التائبين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي ما ترجمته :

(إذا ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين فما أمواج البحر إلا البحر نفسه ولكن في ارتفاع وانخفاض . والموج بعد هبوطه إلى البحر يؤوب . وما مثل البحر إلا مثل بني الإنسان لأنهم أمواج الله وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .

بِصَحْــرَاءٍ لَــكَ اخْتَــرْتَ المقَــامَــا ... ويشْبِــهُ لَيْلَهَــا الصبْــحَ ابْتِسَــامَــا
فَفِـي أَيِّ البقَــاعِ خِيَــامَـكَ انصُــبْ ... وَكَــانَ الحبْـلُ مِـنْ أَحَـدٍ حَـرَامَـا[1]

* * *

بِــأَرْضٍ تَخْتَــوِينَــا اليــومَ ضِقْنَـا ... وَمِــنْ كِــلٍّ السمَــواتِ انطَلَقْنَــا
أَرَاهُــمْ سَجْــدَةً قَــدْ عَلَّمُــونَــا ... وَكُنْــهَ الحَــاكِمِيــنَ بِهَــا عَــرَفْنَــا
عــنِ الإِفْــرَنْــجِ فَلْتَكُــنِ البَعِيــدَا ... لَقَــدْ كَــذَبُــوا وَإِن بَــذَلُــوا وُعُــودَا
لـكَ النظَـرَاتُ خُـذْهَـا عَـنْ« مَلِيـكٍ » ... وَشَكِّـلْ عَــالَمــاً حُـرّاً جَـدِيـدَا[2]

* * *

(١) يقول : إن اقتراض حبل الخيمة من أحد حرام .
(٢) في الأصل اسم أحد الملوك .






القسم الثالث

المُجْتَمَع






عَـدِمْـتُ أَنَـا كَـلاَمَ العَـارِفِينَـا فَطَبْعِـي كَـانَ طَبْـعَ العَـاشِقِينَـا

بِـدَمْـعٍ مـنْ دمٍ فِـي الـرَّوضِ هَـذَا لِفَـرْطِ الـوجْـدِ أفعَمْـتُ العُيُـونَـا[1]

ودَارُكَ تشْبِـهُ القَمَـرَ الجَـدِيـدَا بِـأَوْجِ سَمَـاكَ حَـاوِلْ أَنْ تَـزِيـدَا

ستَسْمُـو إنْ وَهَبْـتَ اللهَ قلبَـاً طَـرِيقَ المصْطَفى فَـاسْلُـكْ رَشِيدَا

* * *

عَلَـوْتُ كَمَـوْجَـةٍ مِـنْ بَحْـرِ ذَاتِـي كَمَنْـتُ كَجَـوْهَـرٍ تَحْتَ الصَّفَـاةِ[2]

وَكَـانَـتْ غَضْبَـةُ النمْـرُودِ مِنِّـي أعمِّـرُ بَيْـتَ رَبِّـي فِـي حَيَـاتِـي

* * *

بجَـامِـكَ سَـاقِـي الجُـلَّاسِ أَقْبِـلْ على الدارَينِ هَذَا الذيْلَ أَسْبِلْ[3]

حَقِيقَتَنَـا لَنَـا الخمِّيـرُ أبْـدَى لِمُلّا لا تَقُلْ « ذَا الدِّينُ فَاعْقِلْ »[4]

تعَـالَ عَـنِ الجبيـنِ اطـرحْ نِقَـابَـا فَـدَمْعِـي يَحْتَـوِي قَلْبِـي المـذَابَـا

بِلَحْـنٍ لَيْـسَ مِـنْ شَـرْقٍ وَغَـرْبِ لتعزفْ (لا تخفْ) تُطْرِبْ صِحَابًا[5]

* * *

ومِـنْ صَـدْرٍ لَـكَ التكْبِيـرَ صَعِّـدْ وَبِـالأُكْسِيـرِ تُـرْبُـكَ فَلْتُجَـدِّدْ

وَذَاتَـكَ فَـامْلِكَـنَّ تَعِـشْ سَعِيـدَاً لِنَفْسِـكَ هَـذِهِ الأَقْـدَارَ حَـدِّدْ

---

(١) أفعم : ملأ .

(٢) الصفاة : الصخرة .

(٣) أسبل ذيله على الشيء : أهمله وتناساه .

(٤) الخمّير : السكير . ويطلق على الصوفي الذي انتشى بالعشق الإلهي .

(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ والخطاب من الله تعالى إلى موسى حين تفوق على السحرة وأبطل كيدهم .

بِتِلْكَ الذاتِ شَارَفْتَ الكَمَالَا وَإِلَّا كُنْتَ للعبدِ المِثَالَا
إِذَا مَا قُلْتَ ذَاتِي لِي مَتَاعٌ فَنِسْيَانٌ لَهَا لَيْسَ الحَلَالَا[1]
وَأَنْتَ الذاتُ يَوْماً إِنْ تُشَاهِدْ تَقِرُّ كَجَوْهَرٍ فِي البَحْرِ رَاقِدْ
وَتِلْكَ الذَّاتُ إِنْ غَرَّبْتَ عَنْهَا فَأَنْتَ لأَجْلِ هَلْكِكَ مَنْ تُجَاهِدْ

***

كَشَفْتَ السِّتْرَ عَنْ وَجْهِ المَصَائِرْ بِنَهْجِ المصْطَفَى سِرْ يَا مُسَافِرْ[2]
وَمِمَّا قُلْتَ إِنْ أَضْمَرْتَ شَكّاً فَمُتْ يَا مَنْ شَكَكْتَ وَأَنْتَ كَافِرْ

***

لِتُرْكِ فَتَّحُوا مَا أَوْصَدُوه وَفِي مِصْرَ أَسَاسٌ وَطَّدُوه
تَمَسَّكْ إِنْ ظَفِرْتَ بِذَيْلِ ذَاتٍ بِغَيْرِ الذَّاتِ ذَا لَمْ يَعْهَدُوه
إِذَا قَوْمٌ رَبِيعُهُمُ تَوَلَّى فَعِطْرُهُمُ التَّوَهُّمُ لَيْسَ إِلَّا
وَتُنْبِتُ أَرْضُهُمْ زَهْراً وَلَكِنْ تُشَاهِدُ لِلذُّبُولِ عَلَيْهِ ظِلَّا

***

وُلَاةُ الأَمْرِ مِنْ رَبِّي لِشَعْبٍ زِمَاماً يَمْلِكُونَ لِكُلِّ أَمْرِ
وَلَكِنْ لَا يُحِبُّ اللهَ شَعْبَاً بِهِ الفَلَّاحُ يَزْرَعُ كَيْ يُلَبِّي

***

مِنَ الرَّازِي كِتَابَ اللهِ فَافْهَمْ وَمِنْهُ النُّورُ خُذْ فَاللَّيْلُ أَظْلَمْ
وَلَكِنْ لِي كَلَامٌ فِيهِ فَانْظُرْ أَنَحْيَا بِالفُؤَادِ وَمَا تَضَرَّمْ[3] ؟

***

---

(١) يوجه الخطاب إلى المسلم .
(٢) النهج : الطريق . وإن أريد بالكلام خلاف ظاهره ، فالمسافر في الاصطلاح هو من سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات فعبر من الدنيا إلى الآخرة .
(٣) تضرَّم : احتدم غيظاً .

الذاتية

لِـــذَاتِـــكَ لَا إِلَـــه فَضُـــمَّ مَـــرَّه لِتَخْـرُجَ مِـنْ تُـرَابِ مَـاتَ نَظْـرَه
وَلَا تَقْبِـضْ يَمِينَـك عَـنْ صُيُـودٍ لَـهُ القَمَـرَانِ فِـي وَهَـقٍ بِجُـرَّه[1]

* * *

جَهُولٌ ، عِلْمُ هَذَا القَلْبِ ، فَاعْلَمْ طَرِيقَكَ مِثْلَ مَنْ سَبَقُوكَ ، فَاعْلَمْ
تَمَكَّـنَ مُـؤْمِـنٌ مِـنْ كَشْـفِ سِـرّ بِـلَا مَـوْجُـود إِلَّا الله ، فـاعلـم[2]

* * *

بقَلْبِـكَ مَـا اختَفَـى هـذا اللهـاب مِـن الإسـلام مـا للنـور بـاب
طـريـق الـذات فـانضحهـا بمـاء لبحـر لا يـرى فيـه العبـاب[3]

* * *

---

(١) لإقبال فرط اهتمام بالذات أو الذاتية ويجعلها من أهم مقومات فلسفته ، فعنده أن الذاتية جوهر الحياة وأس نظامها وهي تستمد كيانها من تحديد الرغائب وتخليق الأماني . وهذا باعث على العمل في دوام . وينبغي للإنسان أن يعرف مواهبه الكامنة في فطرته ويعتمد على ذاته وحدها . وقوة الذات هي معنى الحياة والغاية منها وبها جمالها وجلالها . الصيود : الكثير الصيد . القمران : الشمس والقمر . الوهق : حبل يطرح في عنق الدابة لصيدها به .

(٢) يلمح إقبال إلى وحدة الوجود وهي أنه لا وجود في هذا الكون إلا لله وكل ما فيه صورة منه ، وذلك كالماء الذي يتشكل في صور شتى كالندى والثلج والبرد وهو ماء واحد لا وجود لسواه .

(٣) نضح بالماء : رش وبل . والعباب : الموج .

أنا الحق

(أنـا الحـقْ) ذِي مَقَـامِ الكِبْـرِيَـاءِ أَكَـانَ لَهَـا الصليـبُ مِـنَ الجَـزَاءِ ؟!
فَهَــذَا جَــائِــزٌ فِــي رَأْيِ فَــرْدٍ وَيَبْطُــلُ عِنْــد قَــوْمٍ بِــالإِبَــاءِ[1]

***

أَلَيْسَــتْ قَــوْلَــةً لَاقَــتْ بِشَغْــب يَجُـودُ دَمـاً لِغُصْـنٍ فِيـهِ رَطْـب
جَــلَالٌ فِيــهِ قَــدْ أَخْفَــى جَمَــالًا تَجَلَّــى فِــي سَمَــوَاتٍ لِقَلْــب

***

وَبَيْــنَ العَــالَمِيــنَ سَمَــا مَقَــامــا فَلِلــدَّارَيْــنِ قَــدْ كَــانَ الإِمَــامَــا
وَلَــمْ يَمْسَسْــهُ فِــي خَلْــقٍ لُغُــوبٌ عَلَيْــهِ النَّــومَ يجعَلُــهُ حَــرَامَــا[2]
سَعِيــرُ القَلْــبِ تَشْهَــدُهُ العُيــونُ وَدُنْيَــاهُ الهَشِيــمُ وَكَــمْ يَهُــون
يُبِيــنُ بِهِمَّــةٍ مَعْنَــى أَنَــا الحَــقْ وَتَــأْتِي بَعْـدَ كُـنْ دَوْمـاً يَكُـونُ[3]

***

جَنَــاحٌ مِنْــهُ يَخْفِــق فِــي الفَضَــاء وَيَــرْمُــقُ عِشَّــهُ وَالعُــشُّ نَــاءِ

---

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور ذلك الصوفي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بشططه وغلوه في تصوفه ، وكان شديد الحرص على نشر تعاليمه بين سواد الناس وهو في ذلك يختلف عن الكثرة الكاثرة من شيوخ المتصوفه الذين كانوا يميلون إلى الكتمان والضن بعلمهم على غير أهله . وقد قال الحلاج بالاتحاد ولكن مع بقاء كل عنصر من عنصريه على حاله ، واتهم بالكفر لقوله (أنا الحق) وصلب عام ٣٠٩ هجرية . وقد أوردنا قوله بسكون القاف كما ينطق في الفارسية ، وفي رأي أن الحلاج حين قال (أنا الحق) كان مؤمناً بأن الله في قلب المؤمنين الذين يتخلقون بأخلاقه وبفضل من ذلك يصبح المؤمن (هو هو) .

(٢) اللغوب : التعب يقول إن رغبته في التخليق تحرم عليه أن ينام .

(٣) السعير : النار .

وَفِـي وَهَـقٍ لَـهُ القَمَـرَانِ صَيْـدٌ وَطَـوْعُ يَمِينِـهِ كُـلُّ الـرجَـاءِ[(١)]

* * *

بِبُسْتَـانٍ تَـرَاهُ العنْـدَلِيبَـا وَصَقْـراً كَـانَ فِـي مَـرْجٍ مَهِيبَـا
أَمِيـرٌ فِيـهِ قَـدْ يَبْـدُو فَقِيـرَاً فَقِيـرٌ مِـنْ غِنَـى نَـالَ النَّصِيبَـا
إِلَيْـكَ الكَـأْسَ أُفْعِمُهَـا بِخَمْـرٍ وَنُـورُكَ صُـبَّ فِـي جُحْـرٍ وَقَصْـرِ
وَنَـلْ مِـنْ غُصْـنِ مَنْصُـورٍ ثِمَـارَاً وَقَلْبُـكَ فِيـه (إلا الله) تَسْـرِي[(٢)]

* * *

الصوفيُّ والمُلاَّ

هـوَ المـلاَّ ، عَبُـوسٌ والكتَـاب وقِشْـرَاً لا يَمِيـزُ مِـنْ لُبَـاب
بِبَيْـتِ اللهِ يَطْـرُدُنِـي لِـدِينِـي وَذَلِـكَ لَيْـسَ بِـالشَّـيءِ العُجَـابِ[(٣)]

* * *

بِبَيْـتِ اللهِ صَيَّـادٌ وَدَيْـرٌ وَلِلصُّـوفِـيِّ لَـمْ يَـكُ أَيُّ ضَيْـرٌ[(٤)]
عَلَـى المـلاَّ قَصَصْـتُ الآنَ هَـذَا جَـوَابـاً لَـمْ يَحِـرْ وَدَعَـا بِخَيْـرْ !
تَحَـدَّثَ وَاعِـظٌ لِـي عَـنْ جَهَنَّـمْ ومِنْـهُ كـافِـرٌ فِـي القَـوْلِ أَحْـزَمْ
غُـلاَمٌ حَـالُـهُ مَـا إِنْ دَرَاهَـا وَقَـالَ « جَهَنَّـمُ لِسِـوَايَ فَـاعْلَـمْ »

* * *

---

(١) الوهق : حبل يطرحه الصياد في عنق الدابة لصيدها .
(٢) منصور : الحلاج وفي الأصل (لا غالب إلا الله) .
(٣) يريد ليقول إن المتزمتين الجامدين لا يفقهون قوله ويتهمونه برقة الدين .
(٤) يريد الغربي . ويشير إلى الصوفي في تجادله وعجزه عن دفع عادية الأجانب ، كما يعيب على الشيخ رضاه بالأمر الواقع وعدم الوقوف في وجه المعتدين على حرمة الدين وكرامة المسلمين .

مـــرِيـــدٌ كَـــانَ ذَا رَأْيٍ سَـــدِيـــدِ   لِشَيْـــخٍ فَـــاهَ بِـــالقَـــوْلِ الشَّـــدِيـــدِ
« وَجَنَـى الـرِّزْقَ مَـوْتٌ ، مِنْ تُـرَابٍ   تَكَـــوَّمَ فَـــوْقَ هَـــاتِيـــكَ اللحُـــودِ »

* * *

لِشَيْـــخٍ كَـــانَ ذَا قَـــوْلُ الغُـــلاَمِ   « تَـــأَمَّـــلْ واستَمِـــعْ لِـــي بِـــاهْتِمَـــامِ
لِهَـــذَا العَصْـــرِ نَمْـــرُودٌ جَـــدِيـــدٌ   فَمِنْـــهُ اخْلِـــقْ خَلِيـــلاً لِـــلأَنَـــامِ »
لِمُـــلاً أَوْ لِصُـــوفِـــيٍّ أَسِيـــرٌ !   وَفِـــي القُـــرآنِ لِلْعَيْـــشِ الكَثِيـــرِ
مِـــنَ الآيَـــاتِ مَـــا أَدْرَكْـــتَ شَيْئـــاً   ومِنْ ﴿ ياسين ﴾ بُغْيَتُكَ الحَفِيرِ[1] !

* * *

لَـــكَ القُـــرْآنُ كَـــالمِـــرْآةِ فَـــانْصُـــبْ   وَنَفْسَـــكَ دَعْ إِذَا غُيِّـــرتَ وَاهْـــرُبْ
لِمَـــا قَـــدَّمْـــتَ مِيـــزَانـــاً لِتَصْنَـــعْ   وفِـــي المـــاضِـــي قِيَـــامَـــاتٍ لِتَطْلُـــبْ

* * *

عَلَـــى الصُّـــوفِـــيِّ وَالمـــلاَّ سَـــلاَمِـــي   كَـــلاَمُ اللهِ قَـــالاَ بِـــالتَّمَـــامِ
وَلَكِـــنْ أَوَّلاَ مَـــا أَوَّلاَهُ   فَحَـــارَ الـــروحُ بَـــلْ خَيْـــرُ الأَنَـــامِ[2] !

* * *

جَلاَلُ الدِّينِ الرُّومِيّ

تَـــرَشَّـــفْ يَـــا نَـــدِيـــمَ الـــرُّوحِ خَمْـــرَا   لَهَـــا كَـــأْسٌ تُسَـــاوِي مُلْـــكَ كِسْـــرَى

---

(١) يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس ليحيوا حياة حرة كريمة وتهدي إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوازع عن حياة الخمول والجمود ويسخر ممن لا هم له إلا سورة ﴿ يس ﴾ فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر . والحفير : القبر .

(٢) الروح : سيدنا جبريل . وخير الأنام : هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإقبال لا يرتضي تفسير القرآن تفسيراً سطحياً .

وللــــرُّومِــــيِّ أَشْعَـــارٌ رِقَـــاقٌ فَلُــذْ بِحِمَـى فُـؤادِكَ حِيــنَ تَقْــرَا

* * *

وَفِــي كَـــاسَـــاتِهَـــا لَـــوْنٌ تَـــوَرَّدْ بِـهِ اليَـاقُـوتُ يُصْبِـحُ كُـلَّ جَلْمَـدْ[1]

وَقَلْـــبُ الأُسْـــدِ تَمْنَحُـــهُ غَـــزَالاً وَمِنْهَـــا الـــوَسْـمُ عَــنْ نِمْـرٍ تَبَـدَّدْ

* * *

وَفِيهَـــا سَـــوْرة مِنْهَـــا نَصِيبِـــي دُجَـايَ سَنَـا بِكَـوْكَبِهَـا العَجِيـبِ[2]

فَشَـاهِـدْ فِـي الحِمَـى إِنْ شِئْـتَ ظَبْياً بَـدَا فِـي بَسْمَـةِ الأَسَـدِ الغَضُـوبِ[3]

حَبِيـــبٌ حُبُّـــهُ كَـــانَ احْتِـــرَاقِـــي وَمِنْــهُ الــوَصْـلُ يَنْطِـقُ عَـنْ فِـرَاقِ

جَمَـــالُ العِشْـــقِ مِـــنْ نَـــايٍ لَـــدَيْـــهِ تَـــزَيَّـــن مِـــنْ عَـــلاَءٍ بِـــائْتِـــلاَقِ

* * *

وَلِــي عُقَــدِي ، فَحَــلَّ بِمَــا يَشَــاء غُبَــارٌ فِــي طَــرِيقِــي الكِيمِيَــاء[4]

وأَسْمَعَنِـــي لَـــه أَنْغَـــامَ نَـــايٍ فَفِــي سُكْــرِي وَفِــي عِشْقِــي رَجَــاء

* * *

وَهَـــا قَـــدْ فَتَحُـــوا بَـــابـاً لِقَلْبِـــي كَمَـا خَلَقُـوا لَهُـمْ دُنْيَـا بِتُـرْبِـي[5]

وَمِـــنْ فَيْـــضٍ لَـــهُ نِلْـــتَ اعتِبَـــارَاً فَبِـي مَـا حَقَّقُـوا مِـن صُنْـعِ شُهْـبِ

نُجُـــومَ الأُفْـــقِ جَـالِـسْ بـالخَيَـالِ وَرَاءَ البَـــدْرِ يَنْظُـــرُ فِـــي مَجَـــالِ

فَقَـــدَّمَ قَلْبَـــهُ الضَّـــاوِي إِلَيْـــه لَـهُ الأَنْفَـاسُ تَخْفِـقُ فِـي اتِّصَـالِ[6]

---

(١) الجلمد : الحجر . والوسم : أثر الكي .

(٢) سورة الخمر : شدتها . الدجى : الظلام . السنا : الضوء .

(٣) الحمى : هنا حرم بيت الله .

(٤) الكيمياء : ما كان يضعه القدماء على المعادن لتحويلها إلى ذهب .

(٥) الترب : التراب .

(٦) الضاوي : المنهوك الضعيف .

عَـنِ الـرُّومِـيِّ خُـذْ سِـرَّ الفَقِيـرِ   يُثِيـرُ بِفَقْـرِهِ حَـدَّ الأَمِيـرِ
وَفَقْـرٌ ذَاكَ لكِـنْ مِنْـهُ فَـاحْـذَرْ   مَقَـامـاً نِلْـتَ يُـدْنِـي مِـنْ حَفِيـرِ[1]

* * *

وَعَـنْ ذَاتِ إِلَهِـي وَهُـوَ نَـاءِ   تَمُـدّ الكَـفَّ فِـي طَلَـبِ العَطَـاءِ
وَلِلـرُّومِـيِّ عَيْـنٌ حَقَّقَـتْ لِـي   سُـرُوراً مِـنْ مَقَـامِ الكِبْـرِيَـاء
رَحِيـقٌ طَـابَ مِـنْ كَـرْمِـي تَـدَفَّـقْ   وَيَسْعَـدُ مَـنْ بِـذَيْلِـي قَـدْ تَعَلَّـقْ[2]
نَصِيبِـي كَـانَ مِـنْ لَهَـبٍ قَـدِيمَـا   سَنَـائِـي نَـالَ وَالـرُّومِـيّ يُحْـرَقْ

* * *

إلى مصر

رِيَـاحَ البِيـدِ وَافِينِـي وَسِيـرِي   عُبَـابَ النِّيـلِ فِـي خَفْـقِ أَثِيـرِي[3]
وَأَدِّي القَـوْلَ عَـنْ عُمَـرٍ فَقُـولِـي   « كُـنِ السلطـانَ يُعْـرَفُ بـالفَقِيـرِ »

* * *

وَمَـا تِلْـكَ الخِـلاَفَـةُ غَيْـرَ فَقْـرِ   لَـهُ تَـاجٌ ، فَكَـانَ دَوَام أَمْـرِ
تَمَسَّـكْ يَـا فَتَـى دَوْمـاً بِفَقْـرٍ   بِغَيْـرِ الفَقْـرِ مُلْكُـكَ عِنْـدَ قَبْـرِ

* * *

---

(١) يتلاعب الشاعر بالكلمة الفارسية (سربز يرى) وتحمل معنيين : الطاعة والخضوع ، والنكس أي القلب على الرأس وجعل الأسفل الأعلى . فكأنه يريد ليقول : أن تلقي الفقر بالمعنى الصوفي المطلق يعرض للتهلكة . والحفير : القبر .

(٢) الرحيق : الخمر . والكرم : العنب .

(٣) العباب : الموج . وعنوان هذا القدر من الرباعيات في الأصل باسم أحد الملوك .

وَتِلْكَ الذَّاتُ يَوْماً مَنْ يُشَاهِدْ يُقِمْ فِي الغَدِ للدُّنْيَا القَوَاعِدْ
وَهَا قَدْ طَافَ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ بِخُلْوَتِهِ بِذَاتٍ ، وَهْوَ قَاعِدْ
لِعَقْلِكَ أَوْ لِقَلْبِكَ فَابغِ بَابَا وخذْ منْ شيخِ حاناتٍ شرابَا
إلى الحاجاتِ فلتسلكْ سبيلاً لتطرحْ مظهراً واطهرْ لبابَا

* * *

وتسعدُ أمةٌ للذاتِ عادتْ وفِي عملٍ وفِي نصبٍ تمادتْ[1]
سَيلمعُ نورُها فِي الأفقِ شرقاً إذا بسيوفها ضرباً أرادتْ

* * *

ومَلاَّحٌ من الأتراك طرَّب بذوبِ الوردِ منه الخدَّ رطّبْ[2]
إذا لم أستطعْ فِي البحرِ سيراً فلِي الطوفان أقهرهُ وأركبْ
بملكِ الأرضِ قدْ مزجوا ثرَانا بآياتِ الإمامةِ هلْ تَرَانا[3]
لنادِينا بعمقِ الذاتِ شاهدْ بهذا القلبِ حبّاً مِنْ ذُرانَا[4] ؟

* * *

وأسرارَ اليقينِ إذنْ عرفتَا عنِ الاثنينِ عينكَ هلْ كففتَا
لمصباحينِ نورٌ ليس إلَّا بغيرِ الدينِ مُلكاً هلْ أَلِفتَا

* * *

---

(١) النصب : الإعياء .
(٢) يضرب شعراء الفرس بالترك المثل في الحسن . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي :
(لو اكترث هذا التركي الشيرازي لحالنا ورعى جامينا لوهبت خاله الأسود بخاري وسمرقند) .
(٣) الآيات : العلامات .
(٤) ذرى الحب : نثره . وفي الأصل ذرى الدنيا حباً في قلب المليك .

وإن عــرَّضــتَ ذاتــكَ لاختبــارِ خلقــتُ لــكَ السمــاءَ مــن الغبــارِ
شــرارُ الشــوقِ طَــيُّ القلــبِ منــهُ تُضيءُ الشمسَ فِي وضحِ النهارِ[1]

* * *

شعراء العرب

وقــلْ للشــاعــرِ العــربــيِّ عَنِّــي ليــاقــوتِ الشفــاهِ البخــسِ منِّــي[2]
قبســتُ النــورَ بــالقــرآنِ حتَّــى جعلــتُ الليــلَ لِــي فجــراً يغنِّــي

* * *

وفِــي الأرواحِ قَــدْ أذكيــتَ جمــرَا تــرابــي مــا يــراهُ النــاسُ قصــرَا[3]
غــديــرٌ ســاكــنٌ حــركــتَ فيــهِ عبــابــاً ، ثــارَ فِــي النَّكبــاءِ بَحْــرَا[4]

* * *

أتــرســمُ صــورةً ؟ لا يــا غــريــرُ لتعمــلْ مــا يحبِّــذهُ الضميــرُ[5]
وروضتُنَــا خفقــت بهــا جنــاحَــاً حنِيفــاً خُــصَّ بــالقبَــسِ المنيــرُ[6]
تُــرَابٌ نحــنُ ذُو قلــبٍ كئيــبْ وطَــلٌّ ظــلَّ فِــي الغصــنِ الــرطيــبْ
وهَــذَا النبــعُ فجَّــره بِسِحــرٍ جــوانــحُ مسلــمٍ حــرمَ القليــبْ[7]

---

(١) الخطاب إلى المسلم .
(٢) بخسه حقه : نقصه إياه . يقول : إنه لم يقل شعراً في الغزل ، فما تغزل في الشفاه ولا شبهها بالياقوت .
(٣) أذكى النار : أضرمها .
(٤) النكباء : الريح بين الريحين .
(٥) الغرير : الناقص التجربة .
(٦) القبس : شعلة تؤخذ من معظم النار .
(٧) القليب : البئر . والمقصود بها بئر زمزم .

حَنِيفٌ شبهُ ربي في الصفاتِ ويحوي قلبُه أسرارَ ذاتِ
بنورِ اللهِ تشهدُ فيه حسناً له أصلٌ بقلبِ الكائناتِ

* * *

لتمنحَ ذاتهُ نوراً وَنَارَا ليصبحَ ليلةُ الداجي نهَارَا
وذاكَ اللحنُ فلتعزفْ بفيضٍ فَذلكَ ذوقُ تبديلٍ أثارَا
لغيركَ ينبغي للقلبِ حزقُ ومثلُ خفوقِ قلبِ سواكَ خفقُ
وذاتٌ أنتَ تنكرُها لشعبٍ « ونحن الشعبُ » قولٌ منكَ حقٌّ

* * *

ولِلأرواحِ أسرارٌ دراهَا بعينِ الذاتِ منْ دنيَا رآهَا
لتعزفَ فِي صميمِ القلبِ لحنَا حَيَاةً مِنْ ذبولٍ قدْ براهَا

* * *

لتحفظَ ما بِصلصالٍ لديكَا فكمْ من نشوةٍ حامتْ عليكَا
لهذا أو لذاكَ الدنُّ خلوٌ وقلبُكَ قدِّم الصهبَا إليكَا(١)
وهَذا الليلُ يوحِشُنَا بفَدْفَدْ فأينَ الماءُ والشحرورُ غرّدْ(٢)
وليسَ يضيءُ رهبان سِرَاجاً فشمس الصبح حتماً سوف تشهد

* * *

وفِي سيماكَ ذِي نظراً فكرٌّ وفِيمَا تُخبِئُ الأيامُ فكٌّ
وسرٌ مثلي بصحراءِ الحمى سِرٌ لأنَّكَ عمقَ ذاتِكَ قَدْ تُقدَّرْ

* * *

---

(١) الدن : جرة الخمر . والصهباء : الخمر .

(٢) الفدفد : الصحراء . الشحرور : طائر حسن التغريد .

يا بنَ الصحراءِ

تنيـرُ البيـدَ بـالفجـرِ الجميـلِ ... وَيَصـدحُ طـائـرٌ بيـنَ النخيـلِ[1]

« خيـامُـكَ يـا فتـى الصحـراءِ دعْهَـا ... أيمكـنُ أنْ تعيـشَ بـلاَ رحيـلِ ؟ »

***

وللـرُّكْبَـانِ مِـنْ عـربٍ دليـلُ ... فمحنـةُ ربهـمْ فقـرٌ طـويـلُ[2]

وهـذَا الفقـرُ إنْ أمسـى غيـوراً ... تـرجَّـفَ كـوننَـا وهـو الـذليـلُ

***

شهـدْنَـا الصبـحَ فِـي ليـلٍ مبينَـا ... تجلَّـتْ فيـهِ أنـوارٌ لِسِينَـا[3]

صَححنـا مـنْ ريـاحِ البيـدِ روحـاً ... فمنهَـا القـومُ كـانـوا القـادِمينَـا

***

وما يدريكَ أنَّ المغوارَ فِي هذَا الغبارِ

رضـاكَ وذلـكَ التسليـمُ مـذهـبْ ... وعـنْ نهـجٍ لصـدقٍ أيـنَ تـذهـبْ

وشِعـري لا تفسَّـر بـاجتهـادٍ ... جنوني فِي حِجَايَ لديكَ مكتبْ[4]

***

---

(١) الكلام منسوب إلى الطائر .

(٢) في الأصل أن الله جعل العربي دليل القافلة .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ ويقول الشاعر : إن الأمم ظهرت من سينا .

(٤) الحجى : العقل . المكتب : المدرسة .

وهــذَا المــرجُ أَقْفَــرَ مــنْ جنــونِــي   وأصبــحَ كــالغــريــبِ بــلاَ خَــدِيــنِ
وفِــي بلــدٍ أصيــحُ ومــنْ صيــاحِــي   جنــونٌ ظــلَّ كــالعقــلِ الــوزيــنِ

* * *

ربيعِــي منبــتٌ فِــي الفَجْــرِ زَهْــرِي   وَإِنّــي مُخْــرِقٌ زَهْــرِي بِجَمْــرِي
أتحســبُ أنَّنِــي أَبْقَــى وَحِيــداً   وزهْرِي ليسَ يدخلُ تحتَ حَصْرِ
أتتــركنِــي المشتَّــتُ كــالغبــارِ   علــى النسمــاتِ مسلــوبَ القــرارِ
فطــوبَــى لــي ويَــا بُشْــرَى فُــؤَادِي   فمِنــي فــارسٌ يبــدُو بغَــارِ[1]

* * *

يســودُ القــومَ فِــي زمــنٍ يَضِيــرْ   ويظهــرُ فيهــمُ البطــلُ الشهيــرُ[2]
لــديــهِ الســرُّ مــنْ أســرارِ غيــبٍ   أكُــلُّ ثــرى بــهِ بطــلٌ جَسُــورُ

* * *

خفقْــتُ كمــوجــةٍ فــي مــوجِ ذاتِــي   إلــى الطــوفــانِ أَدَّتْ ســافِيــاتِــي[3]
ومَــا شــاهــدتُ لــونــاً مثــلَ هَــذَا   وإلّا مــنْ دمِــي رُسمــتْ شِيــاتِــي[4]
دِنــانَ الخمــرِ بــالنظــراتِ أفعِــمْ   وَرَاحَ منِّــي بهــذَا الكــرمِ أَقْحِــمْ
ومــنْ طــوفَــانِــهِ أمْسَــى غــديــرٌ   صغيــرٌ مــنْ بحــارِ البحــرِ أعظــمْ

* * *

زِمَــامَ الــركــبِ يــومــاً إنْ تسلَّــمْ   فقــدْ كشــفَ الخفــا عــنْ كــلِّ مبهَــمْ
وأظهــرَ مــنْ بــأفــلاكٍ جِهــارَاً   سمــواتٍ بهَــا مــا كــانَ يهتَــمْ

* * *

---

(١) طوبى له : الخير والحسنى له . الغار : ما يكلل به رأس المنتصر من ورق الكرم .
(٢) يضير : يؤذي .
(٣) السافيات : الرياح .
(٤) الدمى : الصور والتماثيل . الشيات : الألوان .

وزُفَّ لهــذِهِ الــروحِ التهــانِــي ... ألــمْ تلـدِ الأميـرَ رفيـعَ شـانِ

ألــوذُ بحضنِهَــا أُمّــاً رؤومــاً ... وأخجـلُ منه حـوراً فِـي الجنَـانِ

يقـولُ الصـدرُ فِـي قلبـي حبيـبٌ ... مغيـرٌ جَـاءَ هـيءٌ مَـا يصِيـبُ

وعنْـد المـوْتِ فِـي سمعِـي يـدوّي ... « بسقطـةِ زهـرةٍ ثمـرٌ يطيـبُ »

* * *

الخِلافةُ والمُلْكُ

بنـورٍ للنبـي القلـبُ أضـرَمْ ... أنـارَ بشَـرقِـهِ مَـا كَـان أظْلَـمْ[1]

ولكـنَّ الخِـلافَـةَ وسـطَ تيـهِ ... فهـذا المـؤمنيـن الملـكَ علَّـمْ[2]

* * *

ونشهـدُ أننَـا نَسْمُـو مَقَـامـا ... وهـذا الملـكُ قـدْ كـانَ الحـرامَـا[3]

خـداعٌ كُلُّـه ، بـلْ كـلُّ مكـرٍ ... وتـرعَـى عهْـدَ ربِّـي والـذِّمَـامَـا[4]

* * *

نـزاعٌ فيـهِ ملـكٌ والكَلِيـمُ ... ومـنْ أكـدَى وأعـوزَهُ كَلِيـمُ[5]

هـي الأقـدارُ تجْـرِي كيـفَ شـاءتْ ... فعصفُ الريحِ ما وهبَ النسيمُ !

هـوَ الإنسـانُ فِـي الـدنيـا غـلامُ ... وليـسَ لِمَـا يـزاولُـهُ تَمَـامُ

لفقـرِ عظيـمِ قـومٍ كنـتُ عبْـدَاً ... لـديـهِ الملـكُ فِـي ديـنِ حـرَامُ

* * *

---

(١) يقصد العربي .

(٢) إقبال لا يرتضي الخلافة إذا كانت كالملك .

(٣) الخلافة هي التي تشهد .

(٤) الذمام : الحرمة والحق .

(٥) أكدى : افتقر . والكليم : البساط أو الثوب الخلق في الفارسية .

بنظرتهِ المحبةُ ما يدُومُ ومنهُ السكرُ تقْديراً يَرُومُ
وهذِي « عبدُهُ » كانتْ مَقَامَاً بتربيبِ لأشواقٍ يقُومُ[1]

***

التركي العثماني

بملكٍ واسعٍ أضحَى أميرَا بقلبٍ قدْ وعَى أمسَى بصيرَا
يظلُّ منَ الفرنجةِ فِي قيودٍ لسحرِ طِلَّسْمِهِمْ بَقِيَ الأَسِيرَا

***

لمنْ قدْ أبطَلوا ذا السحرَ طوبَى ومَا شَغلُوا بعَهْدِهِمُ قُلُوبَا[2]
بذاتِكَ فاعترفْ واليأسَ جانبْ تحدَّى قبلَهمْ قومٌ خطوبَا

***

بهمْ قَدْ حقَّقَ التركُ الرغائبْ ونالُوا بغتةً أعلَى المراتبْ
أليسَ لمسلمٍ عيناً بصيراً ! لقدْ كشفَ المصيرَ لهُ الأَجانبْ

***

---

(١) تردد ذكر « عبده » في ديوان « رسالة الخلود » لمحمد إقبال وهو القائل تحت عنوان « الحلاج » :

عفر العالم خداً عنده نفسه سمى النبي عبده
عبده فهما لديك تبهر إنه الإنسان وهو الجوهر
عبده قد شكلت هذا القدر بالفيافي الخصب منها قد ظهر
غير عبد عبده فلتعتبر عبده فيها انتظار المنتظر
عبده كنه جميع الكائنات عبده فيها معان مغلقات

(ص٢٠١ ـ ٢٠٢)

(٢) طوبى لهم : الخير والحسنى لهم .

فتاةُ المجتمعِ

فتـاتِـي دعـكِ مـنْ هـذَا التجمُّـلْ مـنَ الكفَّـارِ تـزييـنٌ أيجمـلْ؟[1]
وصـدِّي القلـبَ عـن تـوريـدِ خَـدٍّ فـإنَّ الغـزوَ مـنْ عيـنِ التـأمُّـلْ[2]

* * *

لـكِ النظـراتُ مـنْ ربِّـي حسـامُ لـروحٍ مـنْ جـراحـاتٍ قـوامُ[3]
ومنهَـا يستمـدُّ القلـبُ شيّـاً فمـاءٌ للحيـاءِ هـوَ المـرامُ

* * *

ضميـرُ العصـرِ ليـسَ لـهُ نقـابُ علَـى حسـنٍ تَفتَّـحَ منـهُ بـابُ
بنـورِ اللهِ دنيَـا فلتُنِيـري عليـهِ فـي تجليـهِ الحجـابُ
ويصلـحُ عيشُنـا بـالأمَّهـاتِ أميـنٌ قلبهُـنَّ لممكنـاتِ
وهـذا إنْ يغـبْ عـنْ فكـرِ قـومٍ فليـسَ لأيِّ أمـرٍ مـنْ ثَبَـاتِ

* * *

أصَبْنَـا العقـلَ مـن ذاكَ الجنـونِ بنظـرةِ هـذهِ الأمِ الحنُـونِ
ومَـا فِـي مَكْتـبٍ عيـنٌ وقلـبٌ وهـلْ مـنْ مكتـبٍ غيـرَ الفنـونِ

* * *

ويسعـدُ مَـنْ رأَوْا بـالـوارداتِ قيـامـاتٍ بتلـكَ الكـائنـاتِ[4]

---

(١) يجمل : يحسن .

(٢) يقول : إن الحسناء تغزو قلب العاشق بعينها .

(٣) قوام الشيء : نظامه وأساسه .

(٤) الواردات : حلول المعاني بالقلب ، وما يخطر عليه بلا تفكر ولا تدبر .

وما قدْ فَاتَ أو ما سوفَ يأتِي   لهمْ أبدى جبينَ الأمهاتِ
ونُصحي فاجعَليهِ ملءَ أذنكْ   ليفْنَى الناسُ طُرّاً قبلَ دفْنِكْ[1]
عنِ العصرِ اختَفَى ، كونِي بتولًا   ليبقَى شبرٌ في دفءِ حضنكْ[2]

* * *

ومنْ ليلٍ لنَا فجراً أنِيري   إلى القرآن عودِي بالبَصِيرِ[3]
(قرأتُ) وتعلمينَ لهَا أُوارٌ   بهَا عُمَرٌ تغيَّرَ في كثيرِ[4]

* * *

العصرُ الحاضرُ

وعصرٌ منهُ للدينِ الشكاةْ   وحرِّيَاتُه وأْدُ الطغَاةْ
وُجُوهٌ فيهِ للإنسانِ شاهتْ   وأفسدَ نقشَهُ حتَّى الهواةْ[5]

* * *

ونظْرَتُه بها تصويرُ كفرِ   وليسَ كمالُ فنٍّ غيرَ جمرِ

---

(١) طراً : جميعاً . يقول إذا انتصحت بقولي فإن ألف أمة تموت وأنت لا تموتين .
(٢) البتول : العذراء وتطلق على السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وشبر أو شبير : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .
(٣) أي اطلبي إلى أهل النظر أن يعودوا إلى كتاب الله الكريم لتدبره .
(٤) يلمح إقبال إلى سبب وقوع الإسلام بقلب عمر بن الخطاب وذلك أنه دخل على أخته وزوجها فوجدهما يقرآان سورة طه . وقالت له أخته (إن كان الحق في غير دينك فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ودفعت إليه الكتاب فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ ثم أسلم .
(٥) في الأصل أن بهزاد هذا العصر أفسد نقشه . وبهزاد : اسم أشهر رسام إيراني في العصر الصفوي .

ومن تُجاره في السوقِ فاحذرْ فهذا ميَسَّرٌ فِي كلِّ أمْرِ

***

شبابَ القومِ هذا العصرُ أفسدْ لإبليسَ دُجاه الصبحَ فاشهدْ
لهُ الأذيالُ تطوينا كَنَارٍ فكلُّ شُعَاعِ نورٍ فيه يُخْمَدْ
جَمَعْنَا بينَ سلطانٍ وفَقْرِ ومَا يغني وَمَا يبْقَى لدهرِ
عياذاً منهُ بالبارِي عِيَاذاً دَمُ الشيطانِ في السلطانِ يجْرِي !

***

أرقصٌ ذاكَ ؟ إني لستُ أدرِي أنشْوَةُ فرحةٍ أمْ سكرُ خمرِ
لتقليدِ الفرنجةِ كانَ رقصٌ وليسَ دماً بعرقِكَ وهوَ يَجْرِي

***

البرْهَمِيّ

فتحتُ لفتنةٍ باباً وبَابَا مشيتُ ، سقطتُ ، لاقيتُ الصعَابَا
دُمَى للبرهَمِيِّ تزينُ طاقاً برأسِ الطاقِ علقتُ الكتَابَا ؟[1]

***

أَفي عملٍ ونَى ؟ لا بلْ أطَالاَ له الأحجارُ يكسوهَا الصقَالاَ[2]
بقوةِ ساعديهِ برَى إلهاً صلودَ الصخرِ قدْ يزنُ الجبَالاَ[3]

***

---

(١) الطاق : ما جعل كالقوس من الأبنية .
(٢) ونى : أبطأ .
(٣) برأ : خلق .

ويحفـــظُ بـــزهمـــيٍّ كُـــلَّ أمـــرٍ ولا يفضـــي إلـــى أحـــدٍ بِســـرٍّ
وهـــذِي سبحـــةٌ قَـــالَ اطَّـــرحْهَـــا بـــزُنـــارٍ علـــى كتفيـــهِ يجـــرِي[1]
وقـــالَ لتبتعـــدْ عـــنْ بـــابِ غيـــرٍ فمـــنْ أهـــلٍ لنَـــا نحظَـــى بخيـــرِ
ومَـــا تسـعُ المســاجـدُ غيـرَ مُـلاَّ ومـــنْ سحـــرِ الـــدُّمَـــى كَـــانَـــا بـــدَيْـــرِ

* * *

التعليم

يـــدومُ لقلبنَـــا هـــذا اللهيـــبُ كَسْـوطٍ ، والحيـاةُ هـيَ النجيبُ[2]
فعلِّـــمْ ذاكَ أبنـــاءَ فعلِّـــمْ لأَنَّ كِتَـــابهـــمْ سِحْـــرٌ يَخِيـــبُ

* * *

ومِـــنْ علـــمٍ بقلـــبٍ ليـــسَ حـــرقـــا تـــأمُّـــلُ متـــقٍ خيـــرٌ وأَبقَـــى
وأَصْفَـى مِـنْ عيـونِ الصقـرِ قلـبٌ هـــوَ المـــزوَرُّ عـــنْ دارَيْـــهِ حَقًّـــا[3]

* * *

إلهـــي مـــؤمنـــاً لا ريـــبَ يسلُـــو مـــن الـــروحِ الـــرقيقـــةِ وهـــوَ يخلُـــو
لـــذَا عـــنْ مكتـــبِ الخـــلانِ أمْضَـــى فما صَادفَتْ منْ بالذاتِ يغلُو[4]
أَلاَ يـــا حبَّـــذَا هـــذَا الضـــريـــرُ إذَا مـــا أخطـــأَ النَظَـــر البصيـــرُ
أُفَضِّـــلُ جـــاهـــلاً وَرِعـــاً تَقِيـــاً بعلـــمٍ ليـــسَ يخْـــدَعُنِـــي الكَفُـــورُ

* * *

---

(١) اطرحها : ألقها . الزنار : ما يشد به النصراني وسطه .
(٢) النجيب : الفرس الكريم .
(٣) ازورّ : مال وحاد .
(٤) يعاود إقبال ذكره للذات على أنها أهم ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به في تعليم النشء .

أَيُجْدِي الفِكْرُ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ ... يحومُ عَلَى النجُومِ بِلاَ انتِهَاءِ
كَأَنَّ الريحَ تزْجِيهِ سَحَابَاً ... فَتَاةَ ممزَّقاً وَسَطَ الفَضَاءِ[1]

* * *

عَلِيمٌ زَانَهُ أدبٌ وجَاهِلْ ... كريمٌ منهُ منْ يحظَى بِحَاصِلْ[2]
وَمَا أحببتُ إنسَاناً عَلِيماً ... وَمِنْ أدبٍ نصيبٌ غيرُ كَامِلْ
لماذَا اليأْسُ مِنْ طفلٍ صغِيرٍ ... إذَا ما شِئْتَ فانْعَتْ بالغَرِيرِ
ولكنْ مَنْ يعَلِّمُهُ لتسألْ ... أَلِلأَطفالِ قلبٌ فِي الصُّدُورِ ؟

* * *

صغيرَكَ لقِّنَنَّ الدينَ علمَا ... ليشرِقَ سعدُه بدرَاً ونَجْمَا
ولو قدَّمتَ بينَ يديهِ فضلاً ... لزيَّنَ باليدِ البيضَاءِ كُمَّا[3]

* * *

غناءٌ مِنْ بَلاَبِلِ مَا أصَابَا ... أُوارٌ بالورودِ لديهِ طَابَا[4]
بِعِلمٍ ليتَ شِعْرِي أيُّ فخْرٍ ... فعنْ روحٍ لأجلِ الخبزِ غَابَا
إلهِي حَيِّ للدرويشِ ذِكْرَى ... يفتحُ قلبَنَا عِطْراً وزَهْرَا
وينصحُ طِفلَنَا نصحاً حَكِيماً ... « لخبزِكَ لا تَذِلَّ النفسَ أسْرَا »

* * *

و « إلا الله » مِنْ دوماً تذَكَّرْ ... مِنَ الملَّا ومِنْ درسٍ تحرَّزْ[5]

---

(١) تزجيه : تدفعه .
(٢) يقول : إن الأدب زينة للعالم والجاهل على السواء ، ويكرم من ينال من الأدب نصيباً .
(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ وبيضاء بمعنى مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة .
(٤) الأوار : لهيب النار .
(٥) في الأصل (لا إله) .

بهـذَا العلـمِ لا تبْسُـطْ جَنَـاحَـا ... بِـهِ الإنسـانُ فِـي عجْـزٍ تحيَّـرْ[١]

* * *

وإنْ لـصٌّ علـى رَكْـبٍ أغـارَا ... أتسْـأَلُ كيـفَ أورَدَهُـمْ بَـوارَا[٢]

فـلَا تـأمـنْ إذا حصَّلْـتَ عِلمـاً ... فمنـهُ الـروحُ يمكـنُ أنْ تُضَـارَا[٣]

فتـىً راقـتْ فَصَـاحتَـهُ وسِيـمُ ... ونظـرتُـهُ كليـثٍ لا تُقِيـمُ[٤]

وفـي درسٍ تلقـنْ عِلْـمَ شَـاةٍ ... ومَـا إنْ يسَّـرَ الـورقَ الجمِيـمُ[٥]

* * *

وسَقـب أي شـيءٍ مـا دَرَاهُ ... إلهِـي قـال إنـي لَا أرَاهُ[٦]

فقـالَ أبـوهُ قَـدْ يُمنَـى بَعِيـرٌ ... بعَثـرَتِـه ليشْهـدَ مَـنْ بَـرَاهُ[٧]

* * *

السعْيُ في الرِّزْق

أَمِـنْ سطـحٍ إلـى سطـحٍ تطيـرْ ... بِهـذَا مَـا سَمَـتْ قَـطُّ الصقُـورْ

إذَا مَـا كَـانَ صَيْـدُكَ بَعْـضَ رِيـشٍ ... فخيـرٌ منْـهُ مـوتٌ فـي الـوكُـورْ[٨]

* * *

---

(١) في الأصل : هذا العلم يسلبنا عيننا وقلبنا ويدنا .

(٢) البوار : الهلاك .

(٣) تضار : تصاب بالضرر والأذى .

(٤) يشبه نظرته في دوام حركتها بأسد جوال لا عرين له .

(٥) الجميم : النبات .

(٦) السقب : ولد الناقة .

(٧) يمنى : يبتلى . براه : خلقه .

(٨) الصيد : الفريسة . الوكور والأوكار : جمع وكر وهو العش .

لـــذاتـــك نظـــرة فـــي كـــلِّ أمـــرٍ		لنَـــا مِـــنْ نَظْـــرةٍ ســـوطٌ لنَجْـــرِي
وَمَـــا نسْعَـــى وَرَاءَ الـــذكـــرِ إلَّا		لِكَـــي نَعْلُـــو وَنَعْلُـــو مِثْـــل طَيْـــرِ

* * *

التمساح وصغيره

وللتمْســـــاح هَـــــذَاكَ الكَـــــلامُ		« لـــزُومُ الشـــطِّ فِـــي دِينـــي حَـــرَامُ
عَـــنِ الشـــطِّ ابتَعِـــدْ مـــوجـــاً تسَلَّـــقْ		فَعِـــشْ بحـــرَنَـــا وَبِـــهِ نَنَـــامُ »

* * *

وَهَـــذَا البَحْـــرُ فِـــي صَـــدْرٍ حَمَلْتَـــهْ		وذَا الطـــوفَـــانُ فِـــي حَـــرْبٍ غَلَبْتَـــهْ[1]
ولَـــوْ فِـــي بُـــرْهَـــةٍ أعْيَـــا وَأغْفَـــى		لَكَـــانَ مُقَـــاتِـــلاً مَـــا إنْ قَتَلْتَـــهْ

* * *

خاتمة

عـــنِ السَّـــاقِـــي وَعَـــنْ كَـــأسِ المـــدَامِ		سَكَـــتُّ وَكَـــانَ عَـــنْ عِشْـــقٍ كَـــلامِـــي
مِـــنَ الأخْيَـــارِ فِـــي قَـــوْمٍ حَـــدِيثَـــاً		سمِعْـــتُ لِكَـــيْ أبَلِّـــغَ بِـــالتَّمَـــامِ

* * *

بقلبـــكَ أمْسِكَـــنَّ وعـــدْ لِنَفْسِـــكْ		وَصَـــدْرُكَ فَلْيَكُـــنْ دَارَاً لحبْسِـــكْ
لِتَســـقِ الحقـــلَ دَمْعـــاً مِـــنْ دِمَـــاءٍ		نَثَـــرتَ الحَـــبَّ فلتعمـــلْ بِفَـــأسِـــكْ

* * *

---

(١) طوفان في الفارسية بمعنى العاصفة ومعنى الطوفان في العربية . ونحن نشير إلى المعنيين تمهيداً لفهم التورية الممكنة .

بقَلــبِ حــوْلَ هَــذَا البيــتِ طُفْنَــا وَمَــا كَمُطَــوِّفٍ بِــالبَــابِ كُنَّــا[1]
ويَكْمُـــنُ بينَنَـــا ســـرٌّ عَجِيـــبٌ وهَـذَا الـرَّمـزُ عَـنْ جِبْـرِيـلَ عَنَّـا[2]

* * *

العالمُ الإِنسَانِيُّ[3]

كــانَ حُــبُّ الخيــرِ للمــرْءِ احتِــرَامَــا كَيــفَ تَنْســى أَنَّــه يسمُــو مَقَــامَــا

جاويدنامه[4]

تمهيد

عَلَيْنَــا فَلْتُــدِرْ كَــأْسَ الشمُــولِ ونَضِّــرْ لِــي رَبِيعــاً فِــي ذُبُــولِ[5]
وأَنْفَــاســاً مِــنَ الأَنْغَــامِ هَبْنِــي أُضَــرِّم نَــارَ نَــايــي بِــالأَلِيــلِ[6]

* * *

بَقِيـــتَ بخلـــوةٍ فلتَـــأْتِ مَـــرَّه وَصَــدْرُكَ فِــي الصِّبَــا فَتْــحٌ بِخَطْــرَه

---

(١) طوف : طاف .
(٢) عن عنه : بعد .
(٣) في الأصل أن الإنسانية هي احترام الإنسان . ومفهوم الإنسانية : حب الخير للإنسان ورقة الشعور نحوه .
(٤) وهذا البيت في ديوان « جاويدنامه » لمحمد إقبال الذي ترجمة الدكتور مجيب المصري بعنوان « في السماء » وهو الديوان السابع من مجموعة هذه الدواوين باسم « رسالة الخلود » .
(٥) دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . والشمول : الخمر أو الباردة منها .
(٦) الأليل : الأنين .

مقـــامَ الـــريـــحِ والألـــوانِ دوَّى   فـــزدْ فِيـــهِ لهـــذَا الطيـــرِ نَبْـــرَه

* * *

أَثَـــارَ الـــدهـــرُ فِتْنَتَـــه ، وَوَلَّـــى   لئـــامَ النـــاسِ مَـــنْ رَبَّـــى ، وَوَلَّـــى
بـــلادَ اللهِ بغـــداداً مَحَـــاهَـــا   عَلَـــى عجـــلٍ كَجِنْكيـــزٍ ، وَوَلَّـــى
بهـــذَا الغـــدِ كَـــمْ شَغَلـــوا القُلُـــوبَـــا   فَهُـــمْ فِـــي أَمْسِهِـــمْ ذَاقُـــوا شَعُـــوبَا[1]
فمـــنْ فِـــي يَـــوْمِـــهِ أَحْيَـــا دَوِيَّـــاً   لِيَسْعَـــدْ أَوْ لِيَسْمَعْـــهُ الطَـــرُوبَـــا ؟

* * *

أَنُحْـــتَ كَمـــا يَنُـــوحُ العنـــدليـــبْ   فَمَـــا للـــرُّوحِ مِـــنْ نَـــوْمٍ هُبُـــوبْ
بِهَـــذَا الـــرَّوضِ قَطْـــفُ الـــزهْـــرِ حَـــلّ   وَليسَ لـــدَيـــكَ مِـــنْ شَـــوْكٍ نُـــدُوبْ[2]

* * *

علـــى الـــذَّاتِ انْطِـــوَاءٌ ، فَلْتُعلَّـــمْ   بظفـــرِكَ حَفْـــرُ صَـــدْرِكَ ، فلْتعلَّـــمْ
تـــرجِّـــي رؤيـــةَ المـــولَـــى عَيَـــانَـــاً   فـــرؤيـــةُ عمـــقِ ذاتِـــكَ ، فَلْتُعلَّـــمْ
عـــنِ الشكـــوى مِـــنَ الأيـــامِ أَقْصِـــرْ   فمـــنْ لَـــمْ ينْصَهِـــرْ كـــالتِّبْـــرِ يُخْسِـــرْ[3]
يطيـــبُ المـــاءُ فِـــي نَهْـــرٍ بصَخْـــرٍ   يشتِّـــتُ مِنْـــهُ أمْـــواجـــاً وَيَكْسِـــرْ

* * *

عـــنِ الـــورْقَـــاءِ للفَـــرْخِ الصغيـــرِ   « بطبـــعٍ كيـــفَ نَحْيَـــا كَـــالحَـــرِيـــرِ[4]
فَقُـــلْ فـــي نشـــوَةِ الأشـــوَاقِ يَـــا هُـــو   وَخُـــذْ مَـــا زَانَ هَـــامَـــاتِ الصُقُـــورِ »

* * *

---

(١) شعوب : الموت .
(٢) الندوب : جمع ندب وهو أثر الجرح .
(٣) أقصر عن الكلام : سكت .
(٤) الورقاء : الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة .

هُـويُـكَ مِـنْ مقـامِ الكبـريـاءِ وعَفَّـرْتَ الجبيـنَ لأذنِيـاءِ[1]
وشَـاهِينَـاً أَرَاكَ تَصِيـدُ ذَاتـاً ولكـنْ فِـي شِبَـاكِـكَ بِـارْتِمـاءِ
لـكَ البشـرَى فَـذَاتُـكَ تسـتـرِدُّ ومِـنْ فقْـرِ غِنـىً مـا تستَمِـدُّ
حيـاةُ الخُلْـدِ هـذِي فِـي يَقِيـنٍ وفِـي حـدْسٍ لمـوتٍ تستَعِـدُّ[2]

* * *

أعـنْ ذاتٍ تحَجَّـبُ بـالحجـابِ إليهَـا حَبَّـذَا يَـوْمُ الإِيـابِ
وفِـي رِزْقِـي لـي التفْكِيـرُ كَفَـرْ وَأَنْتَ كَفَرْتَ مِنْ عِلْمِ الكتَابِ[3]

* * *

لسقـبٍ قـالَ هـذَاكَ البعيـرُ « تـأمَّـلْ أنـتَ لِـي نِغْـمَ النَّظِيـرُ
لتَعْمَـلْ مِثْلَنَـا ، جِبْنَـا الصَّحَـارَى بـأحْمَـالٍ لنَـا كُنَّـا نَسِيـرُ »[4]
كـلامُ جهبـذِ الإفـرنـجِ قَـالاَ وَفِـي كَـوْنٍ وَفِـي عَـدَمٍ أَطَـالاَ[5]
مـنَ الأعجَـامِ شَيْـخٌ قَـالَ قَـوْلاَ أبَلِّغُـهُ ، فَـأَلْـقِ إِلَيْـهِ بَـالاَ

* * *

غـرِيـبٌ عنـكَ يَجْعَلُـكَ القَتِيـلاَ لقَلْـبٍ تشْتَـرِي الحـزْنَ الـوَبِيـلاَ[6]

---

(١) عفر الجبين : مرغه في التراب .
(٢) الحدس : الظن والتخمين .
(٣) يذهب إقبال مذهب المتصوفة الذين لا يرون أن النظر في الكتب وسيلة إلى العلم ، فهم على أن القلب هو مصدر المعرفة وليس العقل الذي يعد وحده مصدرها عند غيرهم . ويروى أن بعض الصوفية طرحوا كتبهم في النهر . ومنهم من دفنوها في جوف الثرى رغبة في الخلاص منها لعدم جدواها . وفي هذا المعنى قال شاعر فارسي ما ترجمته : (اغسل الأوراق إن كنت في الدرس زميلنا ، فليس لعلم العشق دفتر عندنا) .
(٤) جاب الصحراء : اجتازها .
(٥) الجهبذ : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .
(٦) الوبيل : الشديد .

ويَفْضُــلُ كُــلَّ تَــأْوِيــلٍ لِشَيْــخٍ مــعَ الــذاتِ الجلــوسُ وَلَــوْ قَلِيــلاً

* * *

وجُــودُ ذَاكَ أَمْ هَـــذَاكَ مَظْهَــرْ حَكِيــمٌ عِنْــدَنَــا الإِشْكَــال فَسَّــرْ
وعلْــمُ الغــوْصِ ضَمَّنَــهُ كِتَــابــاً ولكِــنْ ليتَــهُ فِــي العُمْــرِ أَبْحَــرْ[1] !
إِليــكَ الفــأسَ ، هَــذَا بيسَتُــونُ وبــادِرْ ، دَهْــرُكَ العَــاتِــي خَــؤُونُ[2]
شَــرَارَ الفــأْس دع مــنْ قــالَ عنْــهُ أمِــنْ فَــأْسٍ ؟ أَمِــنْ حَجَــرٍ يَكُــونُ ؟

* * *

سِــرَاجُ مُنَــاكَ فِــي كَفَّيْــك أَبْــقِ مقَــامَ الهَــاتِفِيــنَ فَنَــلْ بِحَــقٍّ
وفِــي دُنيــاكَ فَــاحْــذَرْ مِــنْ ضَيَــاعٍ بِذَاتِكَ خُذْ ، دعِ الدنْيَا لِمَحْقِ[3]

* * *

وهَــذَا القلــبُ بَحْــرٌ مِنْــكَ يَسْكُــنْ ومِــنْ جَــرّاكَ فِيــهِ الــدُّرُّ يَكْمُــنْ[4]
فثُــرْ يَــا مــوجُ وَاحــذرْ مِــنْ سُكُــونٍ فَهــذَا البحْــرُ دَارًا مِنْــكَ يَحْسُــنْ
إِلــى ذاتٍ لــكَ الــداريْــنِ فــاجْــذِبْ أعَــنْ ذَاتٍ تشــرّقُ أوْ تغــرّبْ
ويَــومَــكَ مِنهمَــا نُــوراً لتُبصِــرْ وَهَــذَا النُّــورُ يَــوْمَــكَ لَا تُجَنِّــبْ

* * *

---

(١) يتهكم الشاعر مرير التهكم بمن يدعي بالوجود علماً ، فيقول إنه يخرج الكتاب ليعلم الناس الغوص في البحر وهو لم يركب البحر في العمر مرة .
(٢) إليك الفأس : بمعنى خذ الفأس . وبيستون : اسم جبل في إيران جاء في القصص الفارسي أن من يسمى فرهاد شق في صخره طريقاً ، وكان في ذلك صادعاً بأمر الملك برويز في خبر أسلفنا الإشارة إليه . والشاعر يدعو إلى الإقبال على العمل وإنجازه بقطع النظر عما يتكشف عنه من نتيجة وعدم المبالاة بالمادحين والقادحين .
(٣) محقه محقاً : أهلكه .
(٤) من جراك : من أجلك .

لنَــا يَــا زَهْــرَةً هَــا قَــدْ ظَهَــرْتِ بِــوَجْــهِ الحسْــنِ دُنْيَــانَــا أَنَــرْتِ
وهـــذِي زهــرةُ البستـــانِ قـــالُـــوا بغصْنِكِ كيفَ كَنْتِ وكيفَ صرْتِ ؟

***

مــنَ التبـريــحِ لا يبكِـي الـرجـالُ بصرفِ الـدهْـرِ يـومـاً لـمْ يُبَـالُـوا[1]
وقَــدْ تبكــي ولكـنْ لسـتَ مِنهـمْ لـدمـعِ مِـنْ لَظَـى الشـوقِ انهِمَـالُ[2]
ومــنْ فِــي مِحْنــةٍ نَسِــيَ الفنَــاءَ ولوْ شهدَتْهُ في الموتِ السَّماءُ[3]
وأنــتَ بمــوتِــهِ هَــذَا جَــدِيــرٌ وَإِلَّا فَلْتَمُــتْ مَــوْتــاً تَشَــاءُ

***

تُـرابُـكَ وَهْـوَ عَـنْ روحٍ غـريـبْ غصـونـكَ ليسَ يـروِيهـا صَبِيـبُ[4]
عليـكَ بحـرقـةِ الأنفـاسِ واسعـدْ فمبتهــجٌ بِهــا الصــدْرُ الكئيــبُ

***

علينَــا قَــدْ تكــاثــرتِ الغمــومُ غَــريبــاً مُسْعِــداً كُنَّــا نَــرُومُ[5]
فهيِّــىءْ فِــي غــدٍ مــا أنــتَ تبغــي ولكــنْ إنْ عــرفــتَ بكــمْ يقُــومُ[6]
كــريــمٌ ذاتَــهُ والقلــبَ ضَمَّــا بِرَمْيِ الشِّصِّ لا يؤْذِي الخِضَمَّا[7]
تجلّــي السكــرُ للنظــراتِ حِــلٌّ بغِــلِّ القلــبِ والكفَّيــنِ حتْمَــا

***

---

(١) التبريح : من برح به الأمر : إذا أجهده وآذاه .

(٢) انهمل الدمع : سال .

(٣) المحنة : بمعنى الامتحان والشدة . وفي هذا احتمال التلميح إلى من يموتون من أجل رأي يرونه وعقيدة يعتقدونها ومن يصيبهم الله بالبلاء ليبلوهم به .

(٤) الصبيب : المصبوب . والمقصود به هنا الماء .

(٥) المسعد : المواسي المشارك في الحزن .

(٦) قامت السلعة بالثمن : تعدلت به .

(٧) الكريم : خير الناس . والشص : حديدة معقوفة يصاد بها السمك .

همُــــومٌ قلبُنَـــا مِنهَـــا تَفَطَّـــر تــرابٌ أصْلُهــا وضــرٌ وَأَكْـدَرْ[1]
ولكـــنْ مَــا عَــرَفنَــا الهــمَّ يحْلــوُ بـأصـلِ الفكـرِ فِـي عَقْـلٍ تفكَّـرْ[2]

* * *

إلــى الأقــدَارِ لا تنســبْ أمُــورَا وَكَـــانَ اللهُ وَهَّـــابــاً غفُــورَا
ولكـــنْ قَلْـــبِ الـــدنْيَـــا ففِيهَـــا حقيـرُ النـاسِ مَـنْ قَمَـرَ الأمِيـرَا[3]
مــريــرَ الحقــدِ فَلْيَلْفُــظْ جَنَــانُ مــن الشُبَّــاكِ فليخْـرُجْ دُخَــانُ[4]
وليــسَ لحقـلٍ قلبـكَ مــنْ خـراجٍ فيـا دُهْقَـانَ هـلْ مِنْـكَ الأمَـانُ ؟[5]

* * *

لفجــرٍ مـــنْ ليـــاليـــهِ الظهـــورُ لكـــوكبــهِ علــى الــداريــنِ نــورُ
واعجــزْ عــنْ كــلامٍ فيــه عجـزاً فعنـــدَ المـــوتِ يغشـــاهُ الســـرورُ

* * *

وَقَــالَـتْ للصَّبَــا فِــي الطَّــلِّ قَطْـرَهْ مُنَــاي إلــيّ مــن عينــكَ نَظْــرَهْ
مــنَ الأزهـــارِ فــي قلبــي مَــلاَلٌ فهبِّـي كَـيْ أُوافِـي العشـبَ مَـرَّهْ[6]

* * *

---

(١) الوضر : القذر .
(٢) يقول : إن الهم الحلو المناقض للهم المر الذي تتأذى به هو هم العقل المفكر .
(٣) قمره : غلبه في القمار .
(٤) لفظ الشيء : ألقاه من فمه . والجنان : القلب . يشبه خروج الحقد من القلب بخروج الدخان الذي لم يكن مستحب البقاء في الدار .
(٥) الدهقان : رئيس الإقليم .
(٦) وافى : أتى .

القلب

بِــلاَ شَــطٍّ خِضَــمٌ كَــانَ قَلْبَــا   يثيــرُ بهيبــةِ الأمــواجِ رُعْبَــا
بسيــلٍ مغــرقٍ سهبــاً وسهبَــا   حبَــابٌ فيــهِ بــالأفــلاكِ يعبَــا ؟[1]

***

لهيــبٌ ، جسمُنَــا مــوجُ الــدخــان   ومِــنْ خَفَقَــاتِــهِ رَجْــعُ الأغَــانِــي
ومجلِسُــهُ بِــذِكْــرِ الــوَهْــنِ أمْسَــى   كقطــرةِ زئبــقٍ تبــدُو لــرانِ[2]

***

وينجِــحُ سعيُــه دَهْــرَ مُثَــابِــرْ   بصــونِ الــذاتِ درويــشٌ يُجَــاهِــرْ
وصُــنْ للقَلــبِ سُلطَــانــاً وَفَقْــرَاً   فهــذَا البحْــرُ قَــدْ صَــانَ الجــوَاهِــرْ[3]
قِــوَى لــلــذاتِ يــومــاً مَــا بَلَــوْتَــا   وقَيْــداً بَعْــدَ قيــدٍ مَــا حَطَمْتَــا[4]
يَــدُومُ العقــلُ لِــلإنْسَــانِ قَيْــداً   إذَا فِــي صَــدْرِه القلــبُ افتقَــدْتَــا[5]

***

تَقُــولُ القلــبُ مِــنْ تــربٍ مهيــنٍ   يــذوقُ الأســرَ مــن كــافٍ ونُــونِ

---

(١) الخضم : البحر . السهب : الأرض المنبسطة . والحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر . والشاعر يريد ليقول إن الأفلاك كلها لا تساوي فقاعة واحدة في هذا السيل .
(٢) يقول : إن هذا القلب نار والجسم موج دخانها ، وهو بخفقه أشبه شيء بالقيثارة . الوهن : نصف الليل . ويشبه من يطربون لذكر الله ليلاً في هزتهم وحركتهم بالزئبق الرجراج .
(٣) أنجحه : جعله ناجحاً . وإقبال يجري على مألوف عادته في الربط بين فقر النفس وعظمة السلطان .
(٤) بلوت : اختبرت . حطم : مثل حطم بتشديد الطاء .
(٥) افتقد : فقد .

وفِـــي صـــدْرٍ لقلـــبِ مستقَـــرّ   هُنَـا مَـا كَـانَ يَـوْمـاً بِـالقَطِيـنِ[1]

* * *

ودنْيَــا النيِّــرَيْــنِ بِهَــا تَمَنْطَــقْ   وَكَــمْ عَقْــدٍ يَحِــلُّ إذَا تَحَــرَّقْ[2]
فَقُــلْ لِلْهنْــدِ هَــذَا مِــنْ كَـلاَمِـي   بصَحْـوَتِـهِ غُـلاَمُ الهنْـدِ يُعْتَـقْ
وكُنَّــا حقْــلَ رَبِّــي وَهْــوَ حَـاصِـلْ   لِعَــالَمِنَــا عَــرُوسٌ وهــو محمَــلْ
غبــارَ مــنْ درَى ســرّاً بــدَربِ   ولم يكُ غيرَ هذَا القلْبِ ، فاعقِلْ[3]

* * *

دؤوبٌ يطلُــبُ الحســنَ الغــرِيبَــا   خطيــبٌ كــانَ منبــرُهُ صَلِيبَــا[4]
وسلطـــانٌ لـــهُ خيـــلٌ وجَيـــشٌ   ويعـــدمُ عنـــدَ دولتِـــهِ نصيبَـــا

* * *

ودُنْيَـا القلـبِ مـا اتَّسمَـتْ بـرونَـقْ   ومـا يبـدُو بهـا حِجْـرٌ وَجَـوْسَـقْ[5]
ومـنْ أرضٍ خلـتْ بـل مـن سمـاءِ   و « الله هـــو » تغشَّيهَـــا فتغْـــرَقْ
رأتْ عيـنٌ ، أتَـى قلـبٌ سـرِيعَـا   أرَادَ يقيـسُ عـالمنَـا الـوَسِيعَـا
وهـــذَا القلـــبُ سِكِّيـــراً يسمَّـــى   تحسَّـى مَـا بِـهِ حُسْنَـاً بَـدِيعَـا

* * *

سهـامُ العشـقِ مِـنْ عيـنٍ تصيـبُ   يطيـبُ الجرحُ والـرامِـي حَبِيـبُ
بِصَيـدِ القلـبِ سهمُـكَ فلتـدَعْـهُ   بكـلِّ الصيـدِ ، مـنْ نَظَـرٍ تـؤوبُ[6]

---

(١) المراد بـ« هنا » : هذه الدنيا . والقطين : الساكن والمقيم
(٢) تمنطق : شد وسطه بالمنطقة .
(٣) الدرب : الطريق .
(٤) الصليب : من معاني الصليب العود الذي يصلب عليه من يقتل .
(٥) الجوسق : القصر .
(٦) الصيد : اسم من صاد وبمعنى ما يصيد .

الذاتية

بنـــورِ الكبــريـــاءِ لهـــا اشتعـــالْ ومـــنْ نَقْــصٍ لَهـــا كُــلُّ الكَمَـــالْ
مقــامـــاتُ الــوِصَـــالِ لَهـــا فِــرَاقٌ كَمـــا أَنَّ الفِـــرَاقَ لَهَـــا وِصَـــالْ

***

ومِـــنْ جَـدَلٍ لقـــومٍ أنْ يُــريحُـــوا ليـزهِـرَ عنـدهـمْ أمـلٌ نَجِيـحُ[1]
بــدتْ ذاتيـــةٌ سيفـــاً حُسَـــامَـــا ويُعـــرفُ حـــدُّهُ لـــونٌ وريـــحُ

***

وجُـــودُ اللهِ أكسَبَهـــا الـــوجـــودَا فَكَـــانَـــتْ مَظْهـــراً جَـازَ الحـــدُودَا
أَرَاهَـــا جَـوْهـــراً مـــنْ جَـوْفِ بحـــرٍ ســـواهُ بمثْلِـــهِ مـــنْ لَـــنْ يَجُـــودَا
وطِيـــنٌ حِينَمـــا يـــرضـــاهُ قلـــبُ يفطِّـــره لطيـــبِ النـــومِ حُـــبُّ
ومِـــنْ نـــومٍ بخَلْـــقٍ (أنَـــا) سيصْحُـــو بجســـمٍ حيـــنَ يحكمُهـــاسيخْبُـــو

***

لنـــا وصـــلُ فِـــرَاقٍ فيـــهِ يظْهَـــرْ وهـــذي عقـــدةٌ للحَـــلِّ تنْظَـــرْ
تضيـــعُ جـــواهِـــرٌ مـــنْ حِضـــنِ بحـــرٍ وليـــسَ لمـــاءِ بحـــرٍ مـــا لجـــوهَـــرْ !

***

وَلِـــي مـــنْ بَـــابِـــهِ هَـــذَا التُّـــرَابُ ومـــنْ صَـــدْرٍ لـــه زَهْـــرٌ عُجَـــابُ
ولَا أدْرِي (أنَـــا) أوْ مَـــا عَـــدَاهَـــا بِصَـــدْرٍ مِنْـــهُ تَخـــوِينِـــي رِحَـــابُ[2]

***

---

(١) أراح : استراح . والنجيح : الذي تنجح أموره .
(٢) يقول : إنه لا يعرف (أنا) ولا (هو) ولكن يعرف أن (أنا) في صدر (هو) .

الجبرُ والاختِيارُ

سيــوزَنُ كُــلُّ شــيءٍ يَــوْمَ حَشْــرِ لـدَى الإنسـانِ مِـنْ جُحـرٍ وقَصْـر
فَمـاذَا فِـي غَـدٍ يـا لَيْـتَ شِعْـرِي أيَـرْضَـى اللهُ عمَّـا سـوفَ يَجْـرِي ؟

* * *

وَلـي شَيْـخٌ مِـنَ الـرهْبَـانِ قَـالَا كَـلَامـي ذَاكَ ألـقِ إلَيـهِ بَـالَا
بتقْـدِيـرٍ لَكُـمْ عمـرٌ سيَفْنَـى سنُقْتَـلُ نحـنُ بـالتـدْبيـرِ طَـالَا

* * *

الموت

لِـرَبـي قَـالَ ذَا المـوتُ المـريـدُ لعيـنٍ أصلُهـا طِيـنٌ جَمُـودُ[1]
مـنَ الإنسـانِ يخجَـلُ قبـضُ رُوحٍ أمِـنْ مَـوْتٍ لـه العـارُ الجـدِيـدُ !

* * *

وأيِّـد فِيـه مَـنْ مَلَـكَ الجِهَـاتْ بمقْـوَدِهِ يَقُـودُ الكَـائِنَـاتْ
لـذُلِّ المـوتِ مَـا أُغْضِـي حَيَـاءً غـريـبٌ عنـهُ نَـامـوسُ الحيَـاة

* * *

إلـى إبليـسَ فلتنقـلْ مَقَـالِـي إلَامَ لِـيَ التملْمُـلُ فِـي العِقَـالِ[2]
وَلِـي دُنْيَـا الثـرَى لا أرْتَضِيهَـا فَفِيهَـا الصبـحُ مَهْـدٌ للّيَـالِـي

---

(١) جمود العين : انقطاع دمعها .

(٢) المقال : القول . التململ : التقلب على الفراش من هم أو مرض .

ولمّا أخرجُوا الدنيَا إلَيْنَا ضَمِيراً خامِداً فِيها رَأَيْنَا
بِغَيرِ الروحِ أينَ لَنا لهِيبٌ لَقَدْ خَلَقُوكَ مِنْ نَارِ لَدَيْنَا

***

فراقٌ يجعَلُ الشوقَ البَصِيرَا بعمقِ البحثِ يجعلُه الجدِيرَا
ولكنْ كَيفَ حالكَ لستُ أدرِي وطِينٌ قالَ لِي « كَانَ الخبِيرَا »

***

لقَدْ طَرَدُوكَ يا مَنْ لَنْ يُعَادَا لَكَ التفْكِيرُ بيْنَ الخَلْقِ زَادَا
قضَيتُ الدهرَ فِي بَلْوَى عَذَابِي فقَلبي فيهِ كمْ زَرَعُوا القَتَادَا[1]
مُصِيباً مِزْتُ منْ غيرِ المصِيبِ عدِمْتُ النبتَ فِي حَقْلي الجدِيبِ[2]
ولَمْ تَسجدْ فمنْ ألمِ تقاسِي أخَذْتُ إليْكَ مَالي مِنْ ذُنوبِ

***

تَعالَ النردَ في مرَحٍ لنلعبْ ودُنْيانَا لنحرِقَهَا فتعطَبْ
بسحرٍ من هشيمٍ كانَ فيهَا لنصنعْ جنَّةَ الأفلاكِ فاعجَبْ

***

إبليسُ الترابيّ وإبليسُ النَّارِيّ

فسادُ عصرِنَا أوْهَى وأثقَلْ وأفلاكٌ تشاهدُهُ فتخجَلْ
أليسَ لديكَ للنظراتِ ذوقٌ لتُخدَمَ عندَ شيطانٍ وتُحمَلْ

***

---

(١) القتاد : الشوك .
(٢) النبت : النبات .

ومَــنْ عينــاهُ والأذنــانِ ســارقْ   تـرصَّـدْ فِـي الظـلامِ لسلْـبِ خَـافِـقْ
وَكَـانَ السعـرُ فـي الأسـواقِ بخسـاً   بفلـسٍ تشتـرِي ذنبـاً ؟ تحـامِـقْ[1]

* * *

عجيـبُ السعـيِ شيطـانٌ عجيـبُ   بِسِحْــرٍ للعمَــى عينــاً يصيـبُ
اسمَّــى ذلــكَ الشيطــانَ ميتــاً   فمثلـكَ صيـدُهُ وهــوَ الطليـبُ[2]
لــهُ كـأسٌ بهــا ســمٌّ دَهَــاكَــا   لقتـلِ الـروحِ ، جسـمٌ مَـا هُنَـاكَـا
لــكَ الحلقــاتُ تبـدِيهَــا شبــاكٌ   ومَا شَاهَدْتَ فِي الحَبِّ الشبَاكَا !

* * *

هــوَى الإنســانُ مِــنْ أَعْلَـى مقـامِ   فضــاقَ مجــالــهُ عنــدَ ارتطــامِ[3]
بــلاَ طعــمٍ ولَا لــونٍ ذنــوبٌ   وإبليــسُ لــه طبــعُ الأنــامِ[4]

* * *

ومـنْ شيطـانِ هـذا العصـرِ فـاحـذرْ   خسيــسٌ مــنْ يضلِّلُــهُ ويسحَــرْ
أرَى إبليــسَ خيــراً مِنْــهُ حقَّــاً   رَأى الــرحمــنَ فهــوَ بـذاكَ يفخَــرْ
لــه النــدُّ المغَــالِــبُ مِــنْ هُمــامِ   وبــالنيــرانِ يعلُــو فِــي المَقَــامِ
ومَــا كــلُّ التــرابِ رَمَــاهُ صيــداً   وأعجـفَ أنْ يصيـدَ مـنَ الحـرامِ[5]

* * *

خسيــسُ الطبــعِ هــذَا ليــسَ يفهــمْ   علينَــا القــولُ فيــهِ قــدْ تحتَّــمْ

---

(١) حامقه : ساعده على الحمق ، فكان بذل الثمن السخي في الذنب يعين الحمقى الذين يبيعون بالثمن القليل .
(٢) الطليب : الكثير الطلب .
(٣) الارتطام : الوقوع في الوحل .
(٤) الأنام : الناس .
(٥) الأعجف : الهزيل .

أبــالســةٌ بهــذَا العصــرِ جَــافَــى   غيــورٌ وَهْــوَ طُــولُ العمْــرِ يــأْثَــمْ

* * *

إلى رُفقاء الطريق

تعــالَ لقــومِنَــا أمــراً نــدَبِّــرْ   لنكســبْ إنَّ هــذا العيــش ميســرْ
نصعَّــد فِــي مَسَــاجِدِنَــا أنِينَــاً   علــى إحْــرَاقِ قلــبِ الشيــخِ يَقْــدِرْ

* * *

وصقْــرٌ فِــي السمــواتِ القَلَنْــدَرْ   لخفــقِ جناحــهِ ذو الثقــلِ أصغَــرْ[1]
وفِــي هــذا الفضــاءِ لــه مَصَــادٌ   بعــشٌ لــمْ يَطُــفْ فــالعُــشُّ أغبَــرْ

* * *

ولحــنُ « اللهِ » مــن روحِــي تــردَّدْ   متــاع الكــون عثيــره تصعَّــدْ[2]
ولــي فــي معــزَفِــي وَتــرٌ بنــارٍ   تقطَّــع ، يــا لــه دمعِــي المبــدَّدْ

* * *

خفقــت كــدمعــة ســالــت قطــره   إلــى عيــنٍ وصلــتُ بفضْــلِ طَفْــرَه[3]

---

(١) في القرن الثامن الهجري أنشأ من يدعى قلندر الأندلسي فرقة دينية من مبادئها طهارة القلب وقطع الإنسان ما بينه وبين دنياه من أسباب رغبة عنها وزهداً فيها ، ودوام الترحال . وكانوا يحلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إمعاناً منهم في تشويه مظهرهم ، ورغبة في أن يعلنوا على الملأ أنهم لا يبالون إلا بما بينهم وبين ربهم ولا يكترثون بما يشاهد الناس من ظاهرهم . ويريد إقبال بالقلندر من تخلى عن دنياه وكان اهتمامه ببواطن الأمور لا ظواهرها .

(٢) العثير : الغبار .

(٣) الطفرة : الوثبة .

ولـي إشـراقَـةٌ فِـي الهـذْبِ تَبْـدُو   عَلى هـذا الهشيـمِ نَثرتُ قَطْرَه[1]
ولَـمْ يَـفِ منطـقٌ لِـي بِـالمـرَامِ   دَليــلٌ فيــهِ خُلْــوٌ مــنْ تمــامِ
سيفتــحُ كــلَّ بــابِ أوْصَــدُوه   ببيـتٍ قـالـهُ الـرُّومـي وجَـامِـي[2]

* * *

تعــالَ إليــكَ منِّــي بنــتُ حَــانِ   تثيـرُ الـروحَ فِـي طيـنِ الـدِّنَـانِ[3]
ومــنْ قــارورَتِــي فلتســقِ غصْنـاً   لتشهــدَ فيــه إنســانـاً يـرانِـي[4]

* * *

بكفِّــي معــزَفــي شِعــري يغنِّــي   أنيــنٌ فيــهِ مــنْ لــونٍ ولــونِ
عليــهِ بمخلــبِ الآســادِ عــزْفــي   بــه الأوتــارَ مــن وجــهِ المجـنِّ[5]
لكِسـرَى العصـرِ عنِّـي القـولُ ينقـلْ   « كفـرهـادٍ لـدى الفـأسِ تحمَّـلْ ؟
بصــذْرِي شــوكــةٌ أدمتــهُ وَخــزاً   لقلـبِ الطـودِ منهَـا السيـفُ يعمَـلْ »

* * *

فقيــرٌ نظــرةٌ لــي كــلُّ مَــالِــي   هشيــمٌ مــا لصحبِــي مــن جِبَــالِ
علــى البــازِي أفضَــلُ زَاغَ ميــتٍ   ولــو ربَّـاهُ كِسْـرَى فـي الـدَّلالِ[6]

---

(١) الهشيم : النبات اليابس المتكسر .
(٢) راجع ما مضى عن جلال الدين الرومي ، وجامي .
(٣) الدنان : جمع دن وهو جرة الخمر .
(٤) يقول : إذا سقيت غصناً من خمري أصبح هذا الغصن إنساناً .
(٥) المجن : الترس . وفي الأصل أن أوتاره من عروق الحجر .
(٦) الزاغ : الغراب . والإشارة هنا إلى جوارح الطير التي تأكل جثث الموتى . ولتفسير ذلك نقول : إن المجوس لا يدفنون جثث موتاهم في الأرض التي يعتقدون أنها من خلق إله الخير ويحرم تنجيسها . فهم يضعون جثة الميت عل منصة عالية ويعرضونها لجوارح الطير حتى تأكلها . أما ما تبقى من عظامها فيلقون به في البئر . =

لقلبي قطُّ ما أوصدتُ بابا ولا قاطَعْتُ أهلاً أو صحَابَا
قبعتُ بمجلسِي في عقرِ صَدْرِي فجزتُ بمجلسِي هذَا السحَابَا[1]
عدمتُ بروضةٍ عزِّي وَجَاهِي نصيبِي أيُّ شيءٍ كَيْ أُبَاهِي ؟
وصاحبُهَا يسمينِي وقَاحاً بعينِ نرجسٍ جذَبَ انتباهِي[2]

* * *

وللعلمَاءِ فِي الحفْلِ المزينِ كلامٌ رقَّ مثلُ الياسمِينِ
ولكنْ منَ رأَى فِي الروضِ شوكاً لوصفِ الروضِ بالقولِ اليقِينِ ؟

* * *

بعلمٍ أو بِفنٍّ ما اهتمامِي مقامٌ آخرُ فيهِ كَلامِي
ضعيفُ الركبِ يجعلُهُ لهِيبِي خفيفَ الخطوِ يعدُو في الأمَامِ
أتحسبُنِي لفجْرٍ عندَلِيبَا وحسبي الروضَ أفعمُه نحِيبَا
تمسكْ بي تجدْ مِفْتَاحَ روضٍ بعُشِّي كنتَ تخشَى أن يغيبَا

* * *

هي الدنيَا لعينيَّ الممَرُّ رفيقٌ ليس لِي والكلُّ سَفْرُ[3]
نفارَى منْ قويبٍ كانَ خيراً غريبٌ وهوَ لِي همٌّ وشَرُّ

* * *

وفِي عدمٍ تعلَّمْ كيف تَحيَا وزدْ ذَاتاً منْ التقديرِ هيَّا

= والمراد بالبازي هنا : ذلك البازي الذي يربيه الملوك في قصورهم لاستخدامه في صيدهم .

(١) قبع : أدخل رأسه في فتحة ثوبه . وعقر البيت : وسطه .

(٢) الوقاح : الوقح .

(٣) السفر : المسافرون .

وفـي أعمـاقِ أنغـامِـي تقلـبُ ... ببخـرِي لـؤلـؤ فـاسكـنْ مليًـا[1]
وتـربِيبِـي بتلـكَ الأرضِ كـانَـا ... ولكـنْ أجتـوِيهـا لِـي مَكـانَـا[2]
نبَـتُّ بهَـا بفيـضٍ مـن نَـداهَـا ... سمـاءٌ لِـي أَأشهـدُهَـا عيـانَـا

* * *

إلـى نفسِ الـرجـالِ كـنِ القَـرِيبَـا ... لهـم أنفـاسهـم تحيـي القلـوبـا
شكـاةَ الـذَّاتِ همُّهـمُ يجَـافِـي ... فمـا عـنْ ذاتِـه كـانَ الغـرِيبَـا

* * *

لتخلـقَ نظـرةً والـروحَ أبصِـرْ ... تجـد زهـراً بغصـنٍ غيـرَ مـزهِـرْ
وإلَّا فلتكُـنْ سهمـاً لقـوسٍ ... ومـنْ يـرمِـي لـه هـدَفـاً يُقَـدِّرْ[3]
تغـرَّبَ عقلُنَـا ذَا عـنْ يقِيـنِ ... بـدَا كمقـامـرِ العلـمِ المشِيـنِ[4]
جهـولٌ كـانَ خيـراً مـنْ حَكِيـمِ ... بنظـرَتِـه إلـى الحـقِّ المبِيـنِ

* * *

ومـنْ ذَهَـبٍ ودُرٌّ مـا المـرامْ ... ومَـا سـرجُ المطهَّـمِ والغـلامْ[5]
مـنَ الـدارَيْـنِ شـيءٌ لا يـرَجَّـى ... وذاكَ لمـالِ ذِي الفضـلِ القـوَامْ

* * *

وسكْـرُ أنـا لتلـكَ الـذاتِ عقْـلْ ... وإنَّ الصمـتَ فـي حَـانِـي لِفضْـلْ
شـرَابِـي مـا صَفَـا ، لكـنْ تـرشَّـفْ ... ففِـي يـومٍ مضَـى للـدَّنِّ بَـزْلْ[6]

---

(١) ملياً : زماناً طويلاً .
(٢) التربيب : التربية .
(٣) يشبهه بالسهم الذي يحدد راميه الهدف ولا يحدد هو هدفه بنفسه .
(٤) المشين : المعيب .
(٥) الجواد المطهم : التام الحسن .
(٦) بزل الدن : ثقبه لأخذ الخمر منه .

لـدَيْـكَ بخـرْقــةٍ أو فِـي نصِيــبِ ومنْ ذَاتِي وَجَدْتُ شذَا الحبِيبِ[1]
لَــدَيَّ المــالُ مِــنْ خَشَــبٍ لِنَــاءِ وليــسَ لمنبــرٍ أوْ للصليــبِ[2]

* * *

بمــرْآةٍ لــذاتِــي قَــدْ بَصُــرْتُ بصَــدْرِي خُلْــوةٌ فِيهَــا قَــرَرْتُ
مــنَ العميــانِ فِـي عِلْـمٍ وَفَـنٍّ ببلبَــالٍ قــدِيــمٍ لِــي فــرَرْتُ

* * *

رحِيلِــي حَـانَ عــنْ هــذَا التـرَابِ فقَالَ الكـلُّ « كـانَ مـنَ الصحـابِ »
فمَـنْ هـذا المسـافـرُ ليـتَ شِعْـرِي ومَـنْ قـدْ خُـصَّ بـالقـولِ العجَـابِ
عليــمُ القلــبِ رَقْــرَاقُ الضَّميــرِ أميــرٌ وَهــوَ يُعــرَفُ بــالفقِيــرِ
وليــسَ لمعــدمٍ دينــاً وعلمــاً قبــاءٌ بــلْ لــهُ ســرجُ الحــرِيــرِ

* * *

لجَــمْ أنــتَ تَسجُــدُ أو لــدَارَا فَــلاَ تُلحِــقْ ببيــتِ اللهِ عَــارَا[3]
ولا تطلــبْ إلــى الغــرْبِــيِّ شيئــاً بقلبِــكَ حطِّــمِ الصنــمَ المعَــارَا

* * *

بسمْعِــي طــافَ مِــنْ شيــخٍ كبِيــرِ لــهُ عقْــلٌ وإشــرَاقُ الضَّمِيــرِ
« فقيــرٌ إنْ يصُــنْ بــالفقْــرِ ذاتَــاً فملــكُ العــالميــنَ لــذَا الفقِيــرِ »
وفِـي حـرْفَيـنِ هـذَا السـرُّ يستَـرْ مَقَــامَ العشْــقِ لا يبْــدُو كمنبَــرْ
وإبــرَاهِيــمُ نمــرُوداً أيخشَــى لعــودٍ نفحــةٌ بــالنــارِ تنشَــرْ

* * *

---

(١) الخرفة : الثوب الخشن البالي الذي يلبسه الصوفي .
(٢) الصليب : من معانيه العود يصلب عليه من يقتل .
(٣) جم : هو الملك جمشيد من ملوك الأساطير عند الفرس وهو مذكور بعظمة الملك .

أَلَا يَا زهْرُ ما طلبُ العزاءِ ؟ بِذَاتك فَالْتَزِمْ خلَّ الوفَاءِ
وصدرَكَ افْتَحَنَّ لكلِّ ريحٍ وصنْ وَسْماً قدِيماً فِي الخفَاءِ[1]

* * *

يدوِّي النصْحُ فِي سمعِي دوِيًّا « برُوحِك وحدَهَا عِشْ يا بنيَّا
لتحذرْ منْ أضَاعَ الروحَ رهْنَاً بجسمٍ لا بروحٍ وهوَ يحيَا »
لشطٍّ قالَ موجٌ وهو يهدُرْ بفِرعُونيةٍ ذَاتِي أقدِرْ
عَلَى ذَاتِي التفَافِي مِثْلُ أفْعَى وأرقُصُ بانتظارٍ فيهِ أصبِرْ

* * *

بجَاهِ الغرْبِ إنْ كنْتُ القمِينَا على عتبَاتِهِ عَفِّرْ جَبِينَا[2]
أدِرْ لعصاهُ عندَ الضرْبِ ظَهْرَاً كَعِيرٍ سيقَ فلتكُنِ المهِينَا ![3]

* * *

وأينَ فؤادُهُ طوعَ اليمِينْ خلاءٌ ملكُهُ منْ كِلِّ دِينْ[4]
شياطينٌ تطوفُ لهُ ببَيتٍ وتُوحِشُ غيبةُ الرُّوحُ الأمِينْ[5]
ومنْ قَلْبٍ ومِنْ دينٍ يئِنَّنَا كعِطْرِ الوردِ من أصلٍ هربْنَا
وماتَ الدينُ من موتٍ لقلْبٍ لنا موتَينِ نحنُ قد اشتَرَيْنَا !

* * *

حنيفٌ كَانَ يعرفُ قدْرَ دِينٍ لربِّي منهُ تعفِيرُ الجبِينِ
بَما لا يشتَهي الأفْلَاكُ دَارَتْ أدَارَ الأرْضَ منهُ باليمِينِ

---

(١) الوسم : أثر الكي .
(٢) القمين : الجدير .
(٣) العير : الحمار .
(٤) يريد الرجل من الفرنجة .
(٥) الروح الأمين : سيدنا جبريل .

مــنْ دُنْيَــا لنَــا قلــبٌ غــريــبُ   لــهُ الأيَّــامُ مــنْ فَلَــكٍ نَصِيــبُ[1]
صــلاةَ العشْــقِ مَيِّــزْهَــا بــوقــتٍ   فلَيْــسَ لهَــا المــؤذِّنُ والخَطِيــبُ
مقَــامُ العشْــقِ يفعَمُــهُ اليقِيــنْ   يقِينَــاً يصحَــبُ الــروحَ الأمِيــنْ
إذا حصَلْــتَ مــنْ هــذَا نصِيبَــاً   فَسِرْ قُدُماً ، فما اعتَرضَ الكَمِينْ

* * *

وعِــرْفَــانٌ وإدْرَاكٌ لمسلِــمْ   وعيَنيــهِ « بِلَــولا » الــذات يفْعَــمْ[2]
سَمَــا رَبِّــي سمُــوّاً عــن قيــاسٍ   بقائلٍ « ما عرَفْنَا » النفْسَ أكْرَمْ[3]

* * *

وأصْنَــامَ الفــرنجَــةِ مــا عبــدتَــا   بمعَبــدِهِــمْ فبِئْــسَ المــوتُ مِتَّــا
وعقلُــكَ كــانَ عــن قلــبٍ غَــريبَــاً   فمــا بسَــلافٍ من سَلَفُــوا سكِــرْتَــا[4]
أكــلُّ النــاسِ مــنْ نفْسَــاً يُسِيــلْ   ومِــنْ سُكْــرِ التــدَلُّــلِ مــنْ يمَيــلْ
قبــاءُ « لا إلــه » بــه دمــاءُ   علــى قــدِّ الخِسَــاسِ هــوَ الطَّــويــلْ

* * *

ويحــرِقُ مــؤمِنــاً حَــرُّ الــوقِيــدْ   مــنَ الأبــوابِ يفتَــحُ مــا يــريــدْ[5]
جــلالُ الكبــريــاءِ لــهُ قيــامٌ   جمــالُ الصبْــرِ يظهــرُه السُّجــودْ

* * *

أتَســألُ عــن صَــلاةِ العــاشِقينَــا   وفيهَــا خُفيَــةٌ هــمْ ساجِــدُونَــا
أرى « الله أكبــر » مثــلَ نــارٍ   أفِــي خمــسٍ بــدَتْ للنَّــاظِــرِينَــا

---

(١) يريد ليقول إن القلب الغريب الطبع ليس من دنيانا .
(٢) التلميح إلى (لولاك لما خلقت الأفلاك) هكذا في الأصل .
(٣) الإشارة إلى (ما عرفناك حق معرفتك) هكذا في الأصل .
(٤) السلاف : الخمر .
(٥) الوقيد : الوقود .

نِـــدَاءُ العَـــالِمِيـــنَ بهَـــا يـــدُومُ ومِنهَـــا مُسلـــمٌ خلـــداً يَـــرُومُ
صـــريـــعُ العصـــرِ فينَـــا ليـــسَ يـــدرِي قِيـــامَـــاتِ « لقـــدْ قَـــامـــتْ » تَقُـــومُ

* * *

رَأى متَفَـــزنِـــجٌ للهِ حُكْمَـــا فيـــرزقُ وهـــو يطلُـــبُ منـــه دَوْمَـــا
علـــى الشيطـــانِ أغـــدقَ أَي رِزقٍ ! إلـــى أنْ حـــارَ فيـــهِ اللهِ يـــومَـــا

* * *

وفِـــي قَـــوْلـــي لِـــمَ الإسهـــابُ كَـــانَـــا أَقُـــولُ الحـــرفَ عـــنْ سـرٍّ أبَـــانَـــا[1]
وعـــالمـــهُ لمتجـــريـــن أغطَـــى مَكَـــانَ كَيْـــفَ يـــدْرِي الـــلاَّمَكـــانَـــا
لمـــنْ تصْفُـــو قُلُـــوبُهُـــمُ نَعِيـــمُ وَآخَـــرُ فِيـــهِ ذُو هِمَـــمٍ يُقِيـــمُ
فبلِّـــغْ مُسْلِمـــاً فِـــي الهنـــدِ بُشـــرَى « نَعِيمـــاً فـــي سبيـــلِ اللهِ شيمُـــوا »[2]

* * *

إلـــى التقـــريـــرِ مَـــا مـــالَ القلنـــدَرْ كـــأكسيـــرٍ لـــه رأيٌ يقـــدَّرْ
وهـــذَا الحقْـــلُ أقفـــر مـــنْ حصَـــادٍ فمـــا يـــروي ثـــراهُ دمٌ لشبّـــرْ[3]

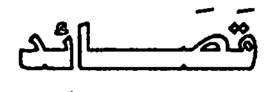
* * *

---

(١) أبان عنه : فسره .
(٢) شيموا : انظروا .
(٣) الحصاد . الزرع . شبر : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .




القسم الرابع



(١) من هُنا القسم الرابع والخامس لهذا الديوان نقلها من الأردوية إلى العربية نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم .






برلمانُ إبليس

هذه قصيدةٌ بديعةٌ لمحمد إقبال ، وصف فيها وصوَّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهاتِ والحركاتِ والمذاهبَ السياسيةَ العصريةَ التي تهدِّدُ مهمَّتهم في العالم وتُحبطُ مساعيهم ، أو تعرقلُ سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهاتِ نظرهم ، وترأسَ هذه الجلسة ، وأشرف عليها « إبليس » فحكمَ على هذه الآراءِ والدراساتِ ، وعارضَ أكثرها في ضوء تجارِبه الواسعة ، وبُعْدِ نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه ، وأدلى برأيه الحصيفِ المؤسَّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخَّص في : أنَّ المسلم هو المنافسُ الوحيدُ ، والمصارعُ الكفءُ لنظامه ، وهو الشرارةُ التي تتحوَّل ناراً بسرعة ، فالمصلحةُ والرأي أن يركِّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربةِ هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصَّادقِ الدقيقِ للمسلم ، ومن الملاحظات الصَّائبة الدَّقيقة عن كثيرٍ من المذاهب السياسية وزعمائها ما يفيدُ الاطلاعُ عليه ، وإليك محضر الجلسة :

« إنَّ الشياطينَ وزملاءَ إبليس وأعوانَه اجتمعوا في مجلسِ شورى ، وتباحثوا في سيرِ العالم ، وأخطار الغدِ ، وفتنه ، وما يتوجَّسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ، ومهمَّتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجلَّلوا خطبها ، وتناذروا شرَّها ، فذكرَ أحدُهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنَّك أمرُها ، فإنَّها ليست إلا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ

رأينا الإنسانَ بدأ ينتبهُ ويفيقُ ، ويشعرُ بكرامته ، وخفنا ثورةً على نظامنا قد لا تُحمدُ عاقبتُها ألهيناه بلعبةِ الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجودِ شخصٍ ترتكز فيه الملوكية ، وفردٍ يستبدُّ بالسلطان ، إنَّما الملوكية أن يعيشَ الإنسانُ عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواءٌ في ذلك الشعبُ والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهُه مشرقٌ وضَّاحٌ ، وباطنُه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأسَ إذا بقيت روحُ الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدَّهماء التي أثارها هذا اليهوديُّ الذي يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنَّه يحملُ عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنَّه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السَّادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسِّيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحبَ الفخامة ! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا مريديكَ المخلصين ، ولكنَّ لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامريُّ اليهوديُّ الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسرَ البُغاث ، وأصبحَ الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالرَّاح (أعلامُ أرضٍ جُعِلَتْ بطائحاً) إنا قد استهنَّا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرضُ ترتجفُ بهولِ فتنة الغد ، يا سيدي ! إنَّ العالمَ الذي كنتَ تحكمه سينقضُّ عليك ، وينقلبُ نظامُ العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيسُ المجلسِ « إبليس » وقال : إنِّي أملك زمام العالم ، وأتصرَّف به كيف أشاء ، وسيرى العالمُ عجباً إذا حرَّشت بين الأمم ، فتهارشت الكلابُ ، وافترسَ بعضُها بعضاً فِعْلَ الذئاب ، وإذا هَمَسْتُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفةِ الكنائس الروحانيين فقدوا رُشدَهم ، وجُنَّ جنونُهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقةٍ أنَّ الخَرْقَ الذي أحدثته

الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطقُ المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لا يخوِّفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليكُ السُّفهاء .

إنْ كنتُ خائفاً ، فإنِّي أخافُ أمةً لا تزال شرارةُ الحياةِ والطموحِ كامنةً في رمادها ، ولا يزالُ فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيلُ دموعُهم على خدودهم سَحَراً ، لا يخفى على الخبير المتفرِّس : أنَّ الإسلام هو فتنةُ الغد ، وداهيةُ المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهلُ أنَّ هذه الأمَّة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنَّها فُتِنتْ بالمال ، وشُغِفَتْ بجمعه ، وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خبيرٌ بأنَّ ليل الشرق داجٍ مكفهرٌ ، وأنَّ علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلماتُ ويضيءُ لها العالمُ ، ولكنِّي أخاف أنَّ قوارعَ هذا العصر وهزَّاتِه ستقضُّ مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد (ﷺ) ، وإنِّي أحذِّركم وأنذرُكم من دين محمد (ﷺ) ، حامي الذِّمار ، حارسِ الذِّمم والأعراض ، دينِ الكرامة والشَّرف ، دينِ الأمانة والعفاف ، دين المروءة ، والبطولة ، دينِ الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرِّقِّ ، ويمحو كلَّ أثرٍ من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرِّقُ بين مالكٍ ومملوك ، ولا يؤثرُ سلطاناً على صعلوك ، يزكِّي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعلُ أصحابَ الثروة والملاَّك مستخلَفين في أموالهم ، أمناءَ الله ، وكلاءَ على الأموال ، وأيُّ ثورةٍ أعظمُ ، وأيُّ انقلابٍ أشدُّ خطراً مما أحدثه هذا الدِّينُ في عالم الفكر والعمل ، يومَ صرخَ : إنَّ الأرض لله لا للملوك والسَّلاطين .

فابذلوا جهدكم أنْ يظلَّ هذا الدِّينُ متوارياً عن أعينِ الناس ، وليهنكم أنَّ المسلمَ بنفسه هو ضعيفُ الثقةِ بربِّه ، قليلُ الإيمان بدينه ، فخيرٌ لنا أنْ يظلَّ مشتغلاً بمسائل علم الكلام ، والإلهيات ، وتأويل كتاب الله ، والآيات ، اضربوا على أذان المسلم ، فإنَّه يستطيع أن يكسرَ طلاسمَ العالم ، ويبطلَ سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىءَ سَحَرُه ، اشغلوه يا إخوتي !

عن الجدِّ والعمل ، حتى يخسرَ الرِّهان في العالم ، خيرٌ لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجرَ هذا العالمَ ، ويعتزلَه ، ويتنازلَ عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا! لو انتبهتْ هذه الأمَّة ، التي يَعْزِمُ عليها دينها أن تراقب العالم وتعسَّه »[1] .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلاً نجحَ شياطينُ الإنس والجنِّ في مهمَّتهم ، وكانت مؤامرةٌ مبيتةٌ ضدَّ الإسلام ، وخطةٌ منظمةٌ ضدَّ أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاءُ الجمرةِ الإيمانيَّة ، التي لا تزال كامنةً في الرَّماد ، وتجريدُ المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحَمِيَّة الدِّينية ، والعاطفة الإسلامية ، التي تحمل أصحابها على التضحيةِ والجهاد ، وتحمُّلِ الشدائدِ والمكاره في سبيل الله ، والثورةِ على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليسُ أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) :

« إنَّ المجاهدَ الذي يصبرُ على الجوع ، ولا يحسُب للموتِ حساباً ، أخرجوا روحَ محمد (ﷺ) من جسمه ، فيصبحُ قليلَ الصَّبر ، جزوعاً من الفقر ، شديدَ الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربيَّة ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثَهم الدينيَّ تتمكَّنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجازِ واليمن ، إنَّ في الأفغان غيرةً دينية ، وعلاجُها أن يُقصى العَالِمُ الدِّينيُّ من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطُّرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليمُ الذي يجرِّد الشباب المسلم من الروح الدِّيني والعواطف الإسلاميَّة والعقلية الإسلاميَّة ، وينشىءُ فيه طبيعةَ النفعية والأبيقورية ، وطبيعةَ التهام الحياة ، وانتهابِ

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٣٦م ، كما هو مكتوب تحت عنوان القصيدة في الأصل .

المسرَّات ، وتقديسَ المادَّة ورجالها ، وعدمَ الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعفَ الثقة بالنفس ، والشكَّ في الدِّين ، لذلك يرى شاعرٌ هنديٌّ آخر اسمه : أكبر الإله آبادي : أنَّ فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرقٍ سافرةٍ ألصقت به العار ، وأثارتْ عليه اللَّعناتِ ، فكان يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنَّه رُزِقَ شيئاً من الابتكار ، وبُعْدِ النظر ، ودقَّةِ التفكير ، لاكتفى بتأسيس كليةٍ لبني إسرائيل ، ينشيءُ الجيل الإسرائيليَّ الجديدَ كما يشاء ، ويسبكُ العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع مكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الدِّينيَّ ، ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ، ويهتم بشيءٍ آخر غير الوظائف ، والمناصب ، والمرتبات ، والدرجات ، لو أنَّ فرعون وُفِّقَ لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوءَ الأحدوثة ، ووصلَ إلى غايته في سهولةٍ ويسرٍ ، وهدوءٍ وسلام ، وزيادةً على ذلك اشتهرَ في الناس بلقب « حامي العلم » و« مربي الجيل » وناشرِ الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصارَ الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم ، وجهودهم ، فَضعُفَ الشعورُ الدينيُّ في بلاد الإسلام ، وَخَمَدَتْ جذوةُ الإيمان ، وفقدت البطولةُ الإسلاميَّةُ وروح الجهاد ، وَفَشَتِ النفعيةُ ، وجَمَحَتِ المادِّيةُ ، يقول الشاعر ؛ وقد ساح في كثيرٍ من البلاد الإسلامية والعربية : « **لقد تجوَّلت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيضُ بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر ، وعنقاء المغرب** » ، ويقول في قصيدةٍ قالها في فلسطين : « **لا أرى في بلاد العرب تلكَ اللَّوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السموَّ الفكريَّ الذي كان يمتازُ به العجم ، لا تزال دجلةُ والفراتُ متعطشين إلى بطلٍ من أبطال**

الإسلام ، ولكنِّي لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعرُ محمد إقبال بهذا التدهورِ الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألَّم لذلك أشدَّ الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأناتِ والدموع ، يقول في أبيات : « **يا وارثَ التوحيد الإسلاميِّ لقد فَقَدْتَ الكلامَ الجذابَ السَّاحر ، والعملَ المسخر القاهر ، لقد كنتَ يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحدٍ ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحملُ روحاً ولا تجذبُ نفوساً** » . ويقول في موضعٍ آخر : « **إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرض ، لقد طال عهدُ المحرابِ بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرضُ الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمعْ في مصر ، ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس** » . ويقول في بيتٍ : « **لقد فقد المسلمُ لوعةَ القلبِ ، وانطفأت نارُ الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب** » . ويقول : « **لم أر في محيطكَ أيُّها المسلم لؤلؤةَ الحياة ، قد بحثتُ عنها موجةً موجة ، وتفقَّدْتها صدفةً صدفة** » .

ويرى محمد إقبال أنَّ مصدر هذا التدهور هو القلبُ الذي خوى من الإيمانِ وشعلةِ الحيــاة ، يقول : « **لقد فقدَ المسلمون سَوْرَةَ الحبِّ الصادق ، ونَزَفَ منهم دمُ الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روحَ فيه ولا دم ، الصفوفُ زائغة ، والقلوبُ مضطربةٌ ، والسَّجدةُ لا لذَّة فيها ، ذلكَ لأنَّ القلب خالٍ من الحنان** » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ، ولكنَّ محمَّد إقبال يعتقدُ أنَّ الصَّدماتِ السياسية التي أصيب بها العالم الإسلاميُّ أقضَّتْ مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودبَّ فيه دبيبُ الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » : « **إذا رأيت النُّجومَ شاحبةً منكدرةً تخفق ؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، هاهي الشمس قد ذرَّ قرنها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدباره ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنَّما تتكوَّن اللآلىء**

في البحر المتلاطم الهائج ، ولقد دبَّ دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدَّمُ الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرٌّ لا يفهمه ابنُ سينا ، والفارابي ، إنَّ المسلم سَيُمْنحُ من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي » ، ويقول في بيت : « إنَّ إقبالًا ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فإنَّها إذا سقيت أتت بحاصلٍ كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أنَّ الحضارة الغربية قد مثَّلَتْ دورَها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخَتْ وهَرِمتْ ، وأيْنَعتْ كالفاكهةِ ، وحانَ قطافها ، وأنَّ العالمَ القديمَ الذي حوَّله مقامرو الغرب إلى حانةِ الفساد والمقامرة منهارٌ قريباً ، والإنسانية تتمخَّضُ بعالمٍ جديد ، ويعتقد محمد إقبال أنَّ هذا العالم الجديد لا يُحْسنُ تصميمَه إلا من بنى للإنسانيةِ البيتَ الحرامَ بالأمس ، ووَرِثَ إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشادِه ، فيهيبُ محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشدُه بالله أن يقومَ ويمسحَ النَّوم من عينيه ، فقد ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخرَّبوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوتِ الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذِنَ أن تُرفَعَ ويذكر فيها اسمه ، ولكنَّ الأوربيين قد حوَّلوها إلى خمارةٍ ، وبيتِ فسقٍ ودعارةٍ ، ومكانِ نهب وغارةٍ ، وقد آن لباني البيت الحرام وحاملِ رسالةِ الإسلام أن يقومَ ، ويُصْلِحَ ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيتَ إلى قواعدِ إبراهيمَ ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالمَ من جديد[1] .

***

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص٢٣٠ ـ ٢٣٣ نقلًا عن «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، ص١١٤ ـ ١٢٣، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وإليك الآن هذه القصيدة المترجمة في النثر :

إبليس

١ ـ هذه الألاعيبُ القديمةُ للعناصرِ[١] ، وهذه الدُّنيا الوضيعة
كانت سبباً في قَتْلِ أمنياتِ ساكني العَرْشِ الأعظم[٢] .

٢ ـ الخالقُ الذي سمَّاها دنيا الكافِ والنون[٣]
مُتَهَيِّئٌ اليومَ لتدميرِها .

٣ ـ عَرَضْتُ على الإفرنج حُلْمَ المُلوكيَّة
وحطَّمْتُ سِحْرَ المسجدِ والمعبدِ والكنيسة .

٤ ـ علَّمتُ الجهلاء درسَ القَدَر
وأعْطَيْتُ الغنيَّ جنونَ الرأسمالية .

٥ ـ منْ يستطيعُ أن يطفىء نارَه المتأججة[٤] .
إنَّ في هيجانها الحُرْقَةَ الإبليسيَّة .

٦ ـ أغصانُه[٥] تنمو وترتفعُ من ماءِ سُقيانا
فَمَنْ يستطيعُ أن يُنَكِّسَ أغصانَ هذا النَّخلِ القديم ؟!

---

(١) أي : الإنسان والعناصر المكونة له ، وهي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .
(٢) أي : الملائكة .
(٣) حيث قال تعالى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .
(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل الملكية ، وجنون الرأسمالية .
(٥) أي : أعماله ، وما يقوم به من أفعال .

المُستشارُ الأول

٧ ـ لا شكَّ أنَّ هذا النظام الإبليسيَّ مُحْكمٌ
ففي ظلِّه أَلِفَ الشَّعْبُ طَبْعَ العُبودية .

٨ ـ الخضوعُ والمذلَّة على جبينِ هؤلاءِ المساكين
فنظرتُهم تقتضي منهم صلاةً بلا قيام

٩ ـ لا تَنْبُتُ لديهم الأمنيةُ أساساً
فهي إنْ تَظْهَرْ تَمُتْ أو تَبْقَ كشيءٍ خاملٍ لا يَنْضَجُ أبداً .

١٠ ـ وهذه هي معجزةُ جهدِنا المتواصل
فاليومَ صار الصُّوفيُّ والملاَّ عبداً ـ بشكلٍ تامٍّ ـ للمَلكيَّة .

١١ ـ هذا الأفيونُ ـ الملكيَّةُ ـ كانَ مناسباً تماماً لِطَبْعِ الشَّرق .
مع أنَّ عِلْمَ الكلامِ ليس بأقلَّ من « الغناءِ الصُّوفي »[١] .

١٢ ـ لو بقِيَتْ لهم مناسكُ الحجِّ والطَّواف ، فلا ضَيْرَ
فإنَّ سيفَ المؤمنِ المسلولِ صارَ كالًّا .

١٣ ـ إنَّ هذا الأملَ الجديدَ بأنَّ الجهادَ حرامٌ على المسلم
دليلٌ على اليأس ؛ فَمَنْ ذا الذي أصابه اليأسُ ؟

المُستشارُ الثاني

١٤ ـ هَلْ غوغاءُ الحُكْمِ الجُمهوريِّ خيرٌ أم شرٌّ ؟
أنت لا تدري شيئاً عن الفتنِ الجديدةِ في العالم !

---

(١) هو « القوالي » وهو ما يتغنَّى به الصُّوفيَّة .

المُستشار الأول

١٥ ـ نَعَمْ ، ولكن بصيرتي تخبرني :
لو تبقى المَلَكيةُ كالسِّتار فلا خطر !

١٦ ـ فحينَ صارَ الإنسانُ مدبِّراً ومفكِّراً إلى حدٍّ ما
ألبسْنا المَلَكية لباسَ الجُمهورية .

١٧ ـ شؤونُ الحُكْمِ شيءٌ آخر
لا يَنْحصرُ في وجودِ الأميرِ والسَّلْطَنَة .

١٨ ـ وسواءٌ يكونُ مجلسُ الأمَّة ـ أو يكونُ بلاط برويز
فالحقيقةُ أنَّ السلطانَ هو من تكون عيونُه على زَرْعِ الغَيْرِ .

١٩ ـ أمَا رأيتَ أنَّ النِّظامَ الجُمهوريَّ الغربيَّ
له وجهٌ مضيءٌ لكنَّهُ من الدَّاخل أحلكُ من جنكيز[١] .

المُستشارُ الثالث

٢٠ ـ روحُ السَّلطنة باديةٌ فأيُّ اضطرابٍ بعدَ ذلك
لكنْ ما هو الردُّ على شقاوةِ ذلكَ اليهوديِّ[٢] .

٢١ ـ هو الكليمُ بغير تجلٍّ ، هو المسيحُ بغيرِ صليب
« ليس رسولًا ولكنْ في حِضْنه كتاب » .

٢٢ ـ ماذا أقولُ ؟ كيف يكونُ نظرُ هذا الكافِرِ الذي يخترقُ السَّتائر ؟
هذا النَّظرُ صارَ كيومِ حسابٍ لأقْوامِ الشَّرق والغربِ .

---

(١) مثالٌ لظلم جنكيز وقهره ، ثم التعبير عن مدى ظلم النظام الجمهوري الغربي نفسه .
(٢) هو كارل ماركس .

٢٣ ـ لا يوجدُ للطبيعة فسادٌ أعظمُ من هذا
فقد حطَّم العبيدُ أطنبةَ خيامِ السَّادة .

المُستشار الرابع

٢٤ ـ انظرْ ردَّ هذه الشقاوة في إيواناتِ روما الكبرى[١]
فقد أعدنا على آلِ قَيْصَرَ حُلْمَ قيصرَ مرَّةً ثانية[٢] .

٢٥ ـ من الذي يتلوَّى بأمواجِ بحر الروم
ويرتفعُ أحياناً كالصَّنوبرِ ـ وأحياناً يبكي كالرَّباب ؟

المُستشار الثالث

٢٦ ـ الرَّجُلُ الذي فضح سياسةَ الإفرنج ، هكذا
لا أعترفُ أبداً بدرايتِه للأمور .

المُستشار الخامس
(يُخاطِب إبليس)

٢٧ ـ يا منْ أمورُ العالم قائمةٌ بأنفاسِك المحترقة !
أنتَ الذي أظهرْتَ كلَّ مختفٍ حينَ شِئْت .

٢٨ ـ صارَ الماءُ والطِّين من حرارتك عالماً مليئاً بالحُرقةِ والغِناء
وصارَ أبْلَهُ الجنةِ[٣] بتعليمكَ عالماً بالأمور .

---

(١) أي : الإمبراطورية الرُّومانية .
(٢) هذا هو ردُّ شقاوةِ اليهودي .
(٣) أبله الجنة : هو « آدم » .

٢٩ ـ هو ليس أعرفَ مِنْكَ بسرِّ الفِطْرة
ذلكَ الذي اشتهرَ بين العباد البسطاءِ باسم الرَّب .

٣٠ ـ أولئكَ الذين لم يكنْ لهم عملٌ سوى التقديسِ والتسبيحِ والطَّواف[1]
هم بسبب غَيْرَتِك سيبقون أذلَّاءَ خجلين إلى الأبد .

٣١ ـ ومع أنَّ سَحَرَة الإفرنج جميعاً من مريديك
لكنْ لا أعتمدُ على فراستهم .

٣٢ ـ ذلكَ اليهوديُّ[2] المثيرُ للفتن الذي هو ظهورٌ لروح مَزْدَك
والذي كادَ كلُّ قباء أنْ يكونَ فتّاناً بسببِ جنونه .

٣٣ ـ غرابُ الصَّحراء صارَ نِدّاً للشَّاهين والعُقاب
كيف يتغيَّر بسرعةٍ طبعُ الزَّمان[3] .

٣٤ ـ إنَّ ما اعتقدناه قبضةَ غُبارٍ بسبب الجَهْلِ
انتشرَ فاغبرَّتْ سعةُ الأفلاك .

٣٥ ـ إنَّ هيبةَ فتنةِ الغدِ قد وصلت إلى درجةِ أنَّ
الجبالَ والسهولَ والهضابَ والأنهارَ كلَّها تَرْتَعِد .

٣٦ ـ وهذا العالمُ الذي لم يكن يدارُ إلا بسيطرتِك
أوشكَ ـ يا مولايَ ! ـ أنْ يضطربَ فيصبحَ أعلاهُ سُفلاه .

---

(١) أي : الملائكة .
(٢) كارل ماركس .
(٣) الغراب لم يكن أبداً نِدّاً للعُقاب ، والمعروف أنّه من أخسِّ الطيور ، وهو رمزُ الجاهل الخبيثِ النفس .

(إبليس إلى مشيريه)

٣٧ ـ عالمُ اللَّونِ والرائحة[١] هذا[٢] في قبضتي المتصرِّفة
سواءٌ هذه الأرض ، أو هذه السَّماءُ ، أو كلُّها جميعاً .

٣٨ ـ وسوفَ يرى أهلُ الشَّرقِ والغربِ بأعينِهمْ
حينَ أثيرُ دِماءَ أقوامِ أوربة .

٣٩ ـ ما قيمةُ أئمةِ السِّياسةِ ، وما قيمةُ شيوخِ الكنيسة
إنَّ صيحةً واحدةً منِّي تُذهِلُهم وتَذْهبُ بعقولهم .

٤٠ ـ الجاهلُ الَّذي يعتبرُ هذا العملَ بيتاً من الزُّجاج
عليهِ أنْ يحاولَ أنْ يحطِّم كأسَ وأباريقَ هذه المدنية

٤١ ـ الجيوبُ الَّتي مزَّقتها يدُ الفِطْرة
أصبحَ منَ المُحالِ رَتْقُها بإبرةِ مَنْطِقِ مزدَك[٣] .

٤٢ ـ كيفَ يستطيعُ هؤلاءِ المتشرِّدون الاشتراكيُّون
أن يخيفوني ، المخبولون ، منفوشي الشعر ، مضطربي الأيام .

٤٣ ـ إنَّ ما بين جنباتي من خطرٍ ليس إلّا مِنْ هذه الأمَّة[٤]
ففي رمادِها حتى الآنَ شرارةُ الأمل .

٤٤ ـ فحتَّى الآنَ يوجدُ في هذه الأمَّة قليلٌ من النَّاس
يتوضَّؤون بدموعِ الأسحارِ .

---

(١) أي : العالم المحسوس .

(٢) أصلها في النص « هو » .

(٣) جاء بعد زردشت وماني وادَّعى النبوة ، وهو أولُ من نادى بالاشتراكية الشيوعية .

(٤) الأمة الإسلاميَّة .

٤٥ ـ إنَّ منْ كُشفَ له باطنُ الأيامَ يعرفُ
أنَّ فتنةَ الغدِ ليست مَزْدَكيَّةً لكنَّها الإسلام .

(٢)

٤٦ ـ أعرفُ أنَّ هذه الأمَّة لا تَحْمِلُ القرآن
وأنَّ الرأسماليةَ هي دينُ العبدِ المؤمن .

٤٧ ـ أعْرِفُ أنَّه في ظلمةٍ دجا ليلُ الشَّرق
فإنَّ أكمامَ شيوخِ الحَرَمِ خاليةٌ من اليَدِ البيضاء[١] .

٤٨ ـ لكنَّ الخوفَ من مطالبِ العصرِ الحاضِر ،
ألا يَظْهَرَ شرعُ النَّبيِّ .

٤٩ ـ الحذرَ ، الحذرَ مِئَةَ مرَّةٍ بنظامِ الرَّسول فهو
حافظٌ لكرامةِ المرأة ، ومختَبِرُ المرء ، ويَخْلُقُ الرِّجال .

٥٠ ـ هذا النِّظامُ كرسالةِ الموت لكلِّ أنواع العبودية
ليس هناكَ فرقٌ بين مَلِكِ الصِّين ، أو فارسٍ ، أو مسكينٍ ذي مَتْرَبة .

٥١ ـ إنَّه يُطَهِّرُ الثروةَ ويخلِّيها مِنْ كلِّ قذارة
ويجعلُ الأغنياءَ أمناءَ على المالِ والثَّروة[٢] .

٥٢ ـ لا يوجدُ في الفِكْرِ والعَمَلِ ثورةٌ أعظمُ من :
« هذه الأرضُ لله وليست للملوك »[٣] .

٥٣ ـ يا حبذا لو يبقى هذا النظامُ مختفياً عن عينِ العالم

---

(١) إشارة إلى قصَّة موسى ، انظر [الشعراء : ٣٣] و[النَّحل : ١٢] و[القصص : ٣٢] .

(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .

(٣) له في جناح جبريل قطعةٌ بعنوان « الأرض لله » ، في القسم الثاني .

فهذا مغتنمٌ أن يبقى المؤمنُ محروماً من اليقين .

٥٤ ـ وهذا أحسنُ أن يبقى في شِرْكِ الإلهيات
ويبقى منهمكاً في تأويلاتِ كتابِ الله .

(٣)

٥٥ ـ الإنسانُ الَّذي حطَّمتْ تهليلاتُه سِحْرَ الجهاتِ السِّتِّ[١]
كيفَ لا يضيء الليلَ الحالكَ لهذا الوَرِعِ التَّقيِّ .

٥٦ ـ أماتَ ابنُ مريمَ ؟ أمْ هو حيٌّ باقٍ ؟ هذه صفاتُ ذاتِ الحقِّ
هَلْ صفاتُ الذاتِ منفصلةٌ عنه أمْ عَيْنُ الذَّاتِ ؟

٥٧ ـ هَلْ يَقْصِدُونَ بالقادمِ المسيحَ ابنَ مريمَ أمْ هُوَ المجددُ
الَّذي تكمُن فيه صفاتُ ابنِ مريمَ ؟

٥٨ ـ هَلْ ألفاظُ كتابِ الله قديمةٌ أم حادثةٌ ؟
وفي أيِّ عقيدةٍ منها تَكْمُنُ نجاةُ الأمَّةِ المَرْحُومَةِ ؟

٥٩ ـ ألا يكفي المسلمين في هذه الأيام
هذه الأصنامُ[٢] المنحوتةُ من الإلهيات ؟

٦٠ ـ اجعلوه غريباً عن عالم العَمَلِ لكي
تنهزمَ جميعُ قطعهِ الشَّطرنجيَّة على بساطِ الحياة .

٦١ ـ فهذا خيرٌ أنْ يبقى المؤمنُ عبداً حتى يومِ القيامة
ويتركَ هذه الدُّنيا الفانيةَ للآخرين .

---

(١) يقصد : الشمالية ، والجنوبية ، والغربية ، والشرقية ، والفوقانية ، والتحتانية . ويمكن أن يكون المقصد منها أن تكون رمزاً للحواس الخمس ، والحس المشترك ، وأسير الحواس عند الصُّوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومناة) .

٦٢ ـ الشِّعْرُ والتصوُّف اللذان يغطيانِ عن عُيونه مَنْظَرَ الحياة
أحسنُ بالنِّسبةِ له .

٦٣ ـ إنِّي أخافُ مع كل نَفَسٍ منْ يقظةِ الأمَّة
فحقيقةُ دينها هي احتسابُ الكائنات .

٦٤ ـ أسْكِرُوه واجعلوه ينتشي بالذِّكر والتفكُّر في الأسحار
وأنضِجُوا فيه طَبْعَ الخانقاهات .

* * *

نصيحة بَلُوش عجوز لابنهِ(١)

لِيُنْعِشْكَ هواءُ صحرائك
فليستْ دهلي ولا بخارى بأروع منْ هذه الصَّحراء .

إنَّك تستطيعُ أنْ تسيرَ كالسَّيلِ الجارِف حينما تريد
فهذا وادِينا وهذهِ صحراؤنا

الاعتزازُ بالنَّفس له قَدْرٌ عظيمٌ في دنيا الكَدِّ والجُهْدِ
فهو يُلبسُ الدرويشَ تاجَ دارا(٢) .

عليكَ أن تنالَ هذا الفنَّ الخفيَّ منْ كاملٍ ، إذ إنَّهم يقولون :
إنَّهم يستطيعونَ أن يجعلوا من الزُّجاج صخراً جلموداً .

إنَّ تقديرَ الأمم بيدِ الأفراد

---

(١) في الأصل : بلوج ، هو اسم لقبيلة تسكن منطقة بلوجستان في باكستان الغربية على الحدود بين إيران والسند وهي بلادٌ صحراوية ، وهم الذين كتب عنهم أولُ فاتحٍ إسلامي دخل في بلاد الهند ، فقال : إنَّهم أشداءُ أقوياء .

(٢) ملكٌ من ملوك إيران .

ومعَ كلِّ فردٍ نجمُ تقديرِ الأمَّة .

هذا الغوَّاصُ الَّذي لا يتركُ صُحْبَةَ السَّاحلِ
ظلَّ محروماً من ثورةِ البَحْرِ .

لو ضاعَ الدِّينُ من يدِ الأمَّة الحرَّة
فهذهِ التِّجارةُ خسارةٌ للمُسلم .

إنَّ العالَمَ يواجهُ معركةَ الرُّوح والجَسَدِ مرَّة ثانية
فإنَّ المدنية قد هيَّجتْ وحوشَهَا .

اللهُ يعتمدُ على ثباتِ المسلم
وإبليسُ يعتمدُ على آلات أوربة .

ما هو تقديرُ الأمم ، لا أحدٌ يستطيعُ أن يقول
لكنْ لو تجدُ فراسةَ المؤمن ، فالإشارةُ كافية .

اطلبِ الإخلاصَ في العمل من الأسلافِ القُدماء
أيُّ عَجَبٍ لو يعطفُ الملوكُ على الشَّحاذين !

الصُّورةُ والمصوِّر

الصورةُ :

قالتِ الصُّورةُ للمصوِّرِ :
سببُ ظهوري من إبداعِكَ وفنِّك[١] ،
كمْ منَ الظُّلم أنْ تكُونَ

---

(١) يوضح أنَّ الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بدَّ من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً ، وعلى الإنسان أن يتحرَّر من سيطرة الحواسِّ قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .

محجوباً عن نظري .

المصوِّر :

صَعْبٌ على الإنسانِ البصيرِ أنْ تكونَ له عينٌ تنظرُ
ماذا حلَّ بالشَّررِ من رؤيةِ العالَمِ .

فلتقتنعي أيَّتُها الجاهلةُ بهذا الخبر ـ إنَّ النظر ليس إلا
الغمَّ والألمَ والحميَّةَ والنَّشاط .

الصُّورة :

الخبرُ عجزُ العَقْلِ والفِكْرِ
النَّظرُ حياةُ القلبِ الخالدة

ليس جدُّ وجُهْدُ هذا الزَّمانِ
لائقاً بحديثِ ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾

المصوِّر :

أنتِ من روائعِ فنِّي
ولذلكَ فلا تيأسي من مُبْدِعِكِ .

ليسَ هناك شرطٌ لرؤيتي
سوى ألا تختفي أنتِ عن نظرِكِ .

عالَمُ البرزخ

الميِّتُ (يخاطبُ قبره) :

ما هذا ؟ وأيُّ يومٍ تكونُ القيامةُ غَدَهُ ؟

يا بيتي القديم : ما القيامة ؟

القبر :

ألا تعرفُ بعدُ ، يا ميِّتَ المئة عام ؟
بأنَّ القيامة هي المطلبُ الخفيُّ لكلِّ موت .

الميِّت :

أنا لستُ أسيراً في شَرَكِ ذلك المَوْتِ
الذي يخفي بداخله القيامة .
فمع أنَّني مِتُّ منذ مئةِ سنةٍ
إلا أنَّني لستُ متضايقاً من هذا البيتِ الأرضيِّ المُظلم .
آه لو تَلْبسُ الرُّوحُ هذا الجسمَ الهزيلَ مرَّةً أخرى
فإنِّي لستُ راغباً في شراءِ هذه القيامة .

نداء من الغيب :

ليسَ الموتُ من نصيبِ الثُّعبان والعَقْرَبِ أو الغَزَالِ والوَحْشِ
فإنَّ الموتَ الأبديَّ ليس إلَّا للأممِ المستعبَدة .
صوتُ إسرافيل[1] لا يستطيعُ أن يبعثَ أولئكَ
الذينَ كانتْ أجسادُهم خاليةً مِنَ الرُّوح في دنياهم .
ولو أنَّ مُستَقَرَّ كلِّ ذي روحٍ هو حِضْنُ اللَّحدِ
إلا أنَّ القيامَ بعدَ الموتِ ليسَ إلا شأنُ الأحرار .

القبرُ (يخاطبُ ميته) :

آه أيُّها الظَّالمُ ، أكنتَ عبداً محكوماً في الدُّنيا ؟

---

(١) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة ، فيبعث الموتى .

لمَ ترابي ملتهبٌ هكذا ؟
ازدادتْ ظُلماتي بِجَسَدِكَ ظلمةً
وتمزَّقَتْ ستارةُ ناموسِ الأرضِ بجسدِك .

الحذرُ من جسدِ الميت المحكومِ ، الحذرُ مِئَةَ مرَّةٍ
يا إسرافيلُ ! يا ربَّ الكائنات ! النجدةَ أيَّتها الروحُ الطَّاهرة .

نداءٌ من الغَيْبِ :

مع أنَّ النِّظام الكونيَّ مضطربٌ بسببِ القيامة
إلا أنَّ هذا الاضطرابَ يكشفُ أسرار الوُجود .

بالزَّلازِل تطيرُ الجبالُ كالسَّحاب
وتظهرُ في الوُديان عيونٌ جديدة .

لا بدَّ لكلِّ تعميرٍ جديدٍ منْ تخريبٍ كاملٍ
ففي هذا حلٌّ لكلِّ مشكلاتِ الحياة .

الأرض :

آهِ مِنْ هذا الموتِ الدَّائم ، آهِ منْ معركةِ الحياة
هل ينتهي صِراعُ الكائناتِ إلى الأبد ؟
لا يجدُ العقلُ النجاةَ مِنْ أصنامِه
العارفُ ، العالمُ ، العامَّةُ ، جميعُهم صاروا عبيداً لِلَّات ومناة .

كم صارَ خاضعاً ذليلاً هذا الآدميُّ المتمثِّل لصفاتِ الله
فبقاءُ هذا العالم ثقيلٌ على هذا القلبِ والنَّظر .

فلماذا لا يكونُ ليلُ هذا الإنسانِ العظيمِ سَحَراً ؟

* * *

المَلِكُ المعزول[1]

فلنُباركْ هذا الملكَ الطَّيِّب
الذي فَضَحَتْ تضحيتُه أسرارَ المُلوكية .

المَلِكُ في المعبد البريطانيِّ ليس إلا صنماً من التُّراب
يمكنُ أن يحطِّمه العبادُ حينما يشاؤون .
هذا المِسْكُ ممزوجٌ بالأفيون لنا نحنُ العبيد
أيُّها السَّاحرُ الإنجليزيُّ انْحتْ لنا سيِّداً آخر !

***

مُناجاةُ جهنَّميٍّ

العبادُ في هذا الدَّير القديم ذوو احتياجٍ
يذكرون الله حين يتألَّمونَ منَ الأصنامِ .

ولا تفيدُهم الصَّلاةُ ، ولا تفيدُهم عبادةُ الأصنام
فحظُّ هؤلاءِ المساكينِ ليس إلا النُّواحُ والعويلُ .

مع أنَّ العماراتِ تطاولُ الفَلَكَ رفعةً
لكنَّ الحقيقة أنَّ كلَّ مدينةٍ كخرابةٍ عامرة .

انظُرْ إلى تقلُّباتِ خطِّ الفأس
فبرويز مرْتَوٍ ، وفرهاد ظمآنٌ كبدُه[2] .

هذا العِلْمُ ، هذه الحِكْمةُ ، هذه السِّياسةُ ، هذه التِّجارةُ

---

(١) أنشد هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وأعتقدُ أنَّه يشير إلى : Edward Assamen .
(٢) انظر خطَّ الفأس كيف كان حين استعملها برويز ، وكيف كان حين استعملها فرهاد .

جميعُها أشياءُ من إبداع المَلَكيَّة .

شكراً لك يا إلهي ، فإنَّ هذه القطعةَ من الأرضِ الملتهبةِ[1]
حرَّةٌ من عُبوديَّةِ التَّاجرِ الأوربيِّ .

***

مسعود المرحوم[2]

هذه الشَّمْسُ ، هذا القَمَرُ ، هذه النُّجومُ ، وهذه السَّماءُ الزَّرقاء
منْ يدري أهذا عالمُ الوجودِ أمِ الفناء ؟
التَّفكيرُ في الرِّحلةِ والهدفِ ما هو إلا خُرافةٌ
فالحياةُ كلُّها رحيلٌ دون هدف .

واأسفاهُ لم يَبْقَ في يدِ الزَّمانِ تِذْكارُ
كمالاتِ أحمد ومحمود[3] .

تأسَّفَ العِلْمُ والفنُّ لموتِه المفاجىء
فقد كان متاعاً غالياً للقافلة .

تُبكيني جفوةُ أهلِ الدُّنيا
فإنَّهم يعتقدونَ أنَّ بكاء طيورِ السَّحَرِ نغماتٌ .

لا تَقُلْ : إنَّ علاجَ حزنِ الصَّديقِ يمكنُ بالصَّبرِ
لا تَقُلْ : إنَّ حلَّ لُغْزِ الموتِ كامنٌ في الصَّبر .

---

(١) جهنم .

(٢) هو صديق محمد إقبال ، وحفيد السر سيد أحمد خان ، وكان زميلاً لإقبال في الدراسة ، وأشرت إلى هذه القصيدة في الفصول السابقة .

(٣) أحمد هو سرسيد أحمد خان ، ومحمود هو ابنه ، ووالد مسعود . وكان مسعودُ هو ذكرى كمالاتهم .

القلبُ الذي يَعْشقُ ويَصْبرُ ليس سوى حجر
فبينَ العِشْقِ والصَّبْرِ ألفُ فرسخ[1] .

لا تسلْني عن العُمْرِ الذي يمرُّ بسرعةٍ
فلا أحد يدري ما هذا التغيُّر والجاذبية .

كلُّ منْ خُلِقَ من التُّراب سيوارىٰ فيه
أهذه هي الغيبةُ الصُّغرى أم هذا هو الفناء ؟ ماذا ؟

وُهِبَ لغُبار الطَّريق ذوقُ الجمال
والعقلُ لم يستطعْ أن يكشفَ المعنى الخفيَّ .

أليسَ القلبُ والنَّظرُ من إعجاز هذا الماءِ والطِّين[2] ؟ وإنْ لمْ يَكُنْ
فما نهايةُ حضرةِ الإنسانِ إذاً ؟

إنَّ « لا إله إلا هو » هي روحُ الدُّنيا الخالدة
فما معنى المسيحِ والمسمارِ والصليب ؟

مِمَّنْ نطلبُ القِصاصَ لدمِ الآمال
مَنِ المُذنبُ ؟ وما هي الفِدْيةُ ؟

لا تَحْزَنْ فنحنُ مكبَّلونَ بقيد الدُّنيا
فالقلبُ الذي نملكُ يحطِّم الطلاسم[3] .

لو أنَّ معرفةَ الذَّات حيةٌ ، فالموتُ مقامٌ في الحياة ،
لأنَّ العِشْقَ يختبرُ ثباتَها بالموت .

---

(١) هذا البيت من شعر سعدي وقد ضمنه إقبال قصيدته .
(٢) الإنسان نفسه .
(٣) هذا البيت بالفارسية :
غمين مشوكه به بند جهان گرنتاريم   طلسمها بشكند آن ولى كه مادا‌ريم

لو تَكنِ الذَّاتُ حيَّةً ، فَبَحْرُكَ لا شاطِىءَ لَهُ
وموجُ النِّيلِ والفراتِ يتوقُ لأنْ يَنْدَمِجَ مَعَك .
لو تَكُنِ الذَّات ميتةً فهي كأعوادِ القشِّ أمامَ النَّسيمِ ؛
لو تَكُنِ الذَّاتُ حيَّةً فهي سلطانُ كلِّ الموجودات .
لو أنَّ البصيرةَ حُرِمَتْ منْ تجلٍّ واحدٍ
فإنَّها تحتاجُ إلى مِئَتَيْ تجلٍّ لتعويضِ ما فات .
اللاَّتُ ومناةُ منتشرةٌ من الأرضِ حتى الثريَّا
بينما مقامُ العبدِ المؤمنِ وراءَ الفَلَكِ .
مقامُه الأبديُّ هو حَرَمُ الذَّات
وليس مكانَه القبرُ المظلمُ ولا مكانَ تجلِّي الصِّفات .
أولئكَ الذين ملكوا معرفةَ الذَّاتِ والَّذين خرجوا من هذه الدُّنيا .
قد حطَّموا طِلَّسْمَ الشَّمْسِ والفَلَكِ والنُّجوم[1] .

* * *

صوت من الغيب

يأتي صوتٌ من العَرْشِ الأعلى ذاتَ صباحٍ ، يَهْتِفُ :
« كيفَ ضاعَ جوهرُ إدراكِك » ؟
كيفَ أصبحَ مِشْرَطُ التَّحقيقِ لَدَيْكَ كالَّا ؟
لماذا لا تستطيعُ أن تمزِّقَ أكبادَ النُّجوم !
لقد كنتَ جديراً بخلافة الظَّاهرِ والباطنِ

(١) أصله فارسي .

هلْ تكونُ الشُّعلةُ أسيرةً للأعشابِ الجافَّة[1] ؟
لماذا لا تَخْضعُ لكَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ؟
لماذا لا ترتجفُ الأفلاكُ منْ أنظارك ؟
مع أنَّ الدَّمَ يجري في عروقِكَ
لكنَّك لا تملكُ حميَّة الأفكارِ ، ولا الفِكْرَ الجريء .
العينُ الَّتي لا يُوجدُ في ثناياها النَّظَرُ الطَّاهرُ
تكونُ مضيئةً لكنَّها لا ترى العالَمَ .
لم يَبْقَ في أحضانِك صفاءُ مرآة ضميرِك
يا قتيلَ السَّلطنة والملاَّ والمَشْيَخَةِ !

***

(١) حرفياً : التِّبْنُ والنِّشارة .






القسم الخامس

رُبَاعِيَّات






(١)

١ ـ لا أدري ما هي ثَمَرةُ غُصْنِ أملي
فأيُّ درايةٍ لي بتقديرك
بُرْعُمُ الزَّهرةِ يحتاجُ اليومَ إلى التفتح
فما فائدة انتظار نسيمِ صُبْحِ الغد !

* * *

٢ ـ حَرِّرْهُ من عَمَلِ الدُّنيا
حتَّى يتحرَّر من امتحانِ كلِّ نفس
صارَ تفكيرُ الشَّيطانِ بسَبَبِ الكِبْرِ تفكيراً قديماً
فمن أين يأتي بإثمٍ جديد ؟[١]

* * *

٣ ـ غيِّرْ وبدِّلْ عالَم الماءِ والسُّخر
اقْلِبْ هذه الدُّنيا الجافةِ والطريَّة
ولتبقَ ألوهيَّتُكَ طاهرةً من الوصمة
واحْذَرْ من السُّجود الخالي من أيِّ ذوق .

* * *

(٢)

٤ ـ أنا في حالةِ الفَقْرِ محسودُ الغِنى
لأنَّ فقري ذو غيرة

---

(١) المفروض أن تكون آثامه قديمةً قدَمَ تفكيره ، وهنا استفهامٌ استنكاري .

الحذرَ من ذلكَ الفقرِ والتصوُّف
الذي علَّم المسلمينَ الذلَّ والخُضوع .

* * *

٥ ـ الغوثَ الغوثَ مِنْ ضيق ذيلِ العقل !!
الغوثَ الغوثَ من زيادةِ التَّجلِّي !!
إنَّ النَّظر يُفضِّل النَّظَرَ في غير الله
الغوثَ الغوثَ منْ كُفرِ النَّظر .

* * *

٦ ـ قال إقبالٌ لشيخ الحَرَم :
منِ الذي نامَ تحتَ محرابِ المَسْجِد ؟
أجابتْ جدرانُ المَسْجِدِ :
هو الذي تاه في بيت أوثانِ الإفرنج .

* * *

٧ ـ صارت الهيجاناتُ القديمةُ رغبةً باردةً سقيمة
دماءُ المُسلمِ أصبحتْ باردةً
فلتباركْ للأصنامِ كفري
إذ إنَّ نارَ « الله هو » أصبحتِ اليومَ باردة .

* * *

٨ ـ حديثُ العبدِ المؤمنِ يتعلَّق بالقلب
الكَبِدُ مليءٌ بالدَّم ، النَّفْسُ مضيئةٌ ، النَّظْرةُ حادَّةٌ
كيفَ تتيسرُ رؤيةُ المؤمنِ الَّذي يضيء المَحْفَلَ
فهو لا يختلطُ بنا إلا قليلاً .

* * *

٩ ـ صفاءُ ضميرِ الصُّبحِ المنير
يعرفُ التمييزَ بين الشَّوْكِ والزَّهر
حمايةُ الزَّهر غيرُ ممكنة
لو أنَّ في الشَّوكةِ طبعَ الحرير .

* * *

١٠ ـ لا تذكرِ الفراقَ واللِّقاء
لأنَّ أصلَ الحياةِ نفسه هو الظُّهور
إنّ انفصالَ اللؤلؤِ منْ قَلْبِ البَحْرِ
ليسَ فيه أيُّ ضررٍ للبَحْرِ ولا لِلُّؤلؤ .

* * *

١١ ـ لماذا لا يجتاحُ الطُّوفانُ بَحْرَكَ ؟
لماذا لا تكونُ ذاتُك مسلمةً ؟
عَبثٌ تلك الشَّكوى من تقديرِ الله
لماذا لا تكونُ أنت قَدَرَ الله ؟

* * *

١٢ ـ لو يَنْظُرُ العقلُ بعينِ القلب
يرى العالمَ مُضاءً بنورِ « لا إله »
ولو يَنْظُرُ إلى نورِ الشَّمس والقَمَرِ
لا يَحْسبُه إلا دورانَ الليلِ والنَّهار[1] .

* * *

١٣ ـ أحياناً ترتفعُ منَ البحرِ كالمَوْجِ

---

(١) أي : العالم .

وأحياناً تنزلُ إلى صَدْرِ البَحْرِ
وأحياناً تمرُّ على ساحلِ البَحْرِ
فأظهرْ لنا سرَّ مقامِ ذاتِكَ واضحاً .

* * *

مُذاكرات مُلَّا زاده ضيغم اللُّولابيِّ[1] الكَشْمِيْرِيّ

(١)

ماءُ عيونِكَ كالزِّئبقِ الرَّجراج
طيورُ السِّحرِ قلقةٌ في أجوائك
يا واديَ اللُّولاب .

لو لمْ يكنْ خطيبُ المنبرِ والمحرابِ ذا همةٍ ونشاط
فالدِّين للعبدِ المؤمنِ إمَّا الموتُ ، وإمَّا الحُلم
يا واديَ اللُّولاب .

النغماتُ المُحْرِقةُ للقلبِ إنَّما تنبُع من الآلةِ الموسيقيَّةِ
فلو كانت أسلاكُها رِخوةً فلا فائدةَ تُرْجى من مِضرابها
يا واديَ اللُّولاب .

بصيرةُ المؤمنِ خاليةٌ منْ نُوْرِ الفِراسة[2]
والخمرُ الصَّافيةُ في حانة الصُّوفية خاليةٌ من الحُرْقَةِ
يا واديَ اللُّولاب .

---

(١) ضيغم هو الأسد ، لولاب : اسم وادي في كشمير . والواقع أنَّ إقبال كتب هذا الشعر إلى أهلِ كشمير .

(٢) تلميح إلى الحديث : « اتقوا فِراسَة المؤمن فإنَّه يرى بنورِ الله » .

إنَّ الفقير[1] الذي تستيقظُ القلوبُ من آهته السِّحرية
لا يوجدُ في هذه الأمَّةِ منذُ زمانٍ
يا واديَ اللُّولاب .

(٢)

الموتُ الصَّعبُ اسمه العبوديَّةُ
ألا لَيْتَ العبدَ يَفْهمُ مَكْرَ وخِدَاعَ السَّادةِ .
انظرْ تنوُّعَ الأحكامِ في شَرْعِ المُلْكِيَّةِ
غوغاءُ الصُّورِ حلالٌ ، لذَّةُ الحَشْرِ حرامٌ .
يا مَنْ ذبُلت[2] روحُك من العبوديَّة
أتبحثُ عن مقام الذَّاتية في الصَّدر الخالي من الحُرْقَة ؟!

(٣)

كشميرُ الَّتي سمَّاها أهلُ النَّظر بالأمسِ إيرانَ الصَّغير
هوَ اليومَ بلدٌ خاضعٌ وفقير .
حينَ يخافُ رجلُ الحقِّ السُّلطانَ والأمير
تخرجُ آهاتٌ مُحْرِقَةٌ منْ صَدْرِ الأفلاك .
منزلُ الحزنِ لفلاحٍ عجوزٍ على سفحِ الجبل
يحكي لنا حكايةَ قَسْوةِ الأيَّام :
وأسفاهُ على هؤلاءِ القومِ النُّجباءِ ذي الأيدي النَّشيطةِ والدِّماغِ الخلَّاق[3] .

---

(١) استخدم كلمة « درويش » بمعناها الصوفي .
(٢) استخدم اللفظ العربيّ « مضمحل » مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة « ذبلت » .
(٣) في الأصل : (تردماغ) أي : الدماغ الندي .

أيها الإله يا من تمهل الناس[1] . أين يوم الجزاء ؟

(٤)

حين تثورُ الشُّعوب المغلوبةُ على أمرها
يضطربُ هذا العالمُ ذو الأطرافِ الأربعةِ ، واللَّونِ والرَّائحة[2] .
ضميرُ الإنسانِ يتطهَّر من الظنِّ والتَّخمينِ
ويجعلُ مصباحَ الأملِ يضيءُ كلَّ طريق .
ذلكَ الفَتْقُ القديمُ الَّذي لم يستطع العقلُ رَتْقَهُ
يُخيطهُ العِشْقُ دونَ حاجةٍ إلى إبرَة أو خيطِ الرَّفَّاء .
صنمُ الحُكم له قلبٌ حجريٌّ ووجهٌ منْ زجاج
وهو يصبحُ في النهاية قِطعاً مبعثرةً من الدَّقِّ المُسْتَمر .

(٥)

عظمةُ الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاج
والصَّيادُ في حيرةٍ شاهينٌ هذا أم درَّاج .
تلاطَمَتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فاليومَ مُظْهرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرق .
الميِّتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُوْرِ إسرافيل
اضطرَّ للقيامِ ثانيةً استجابة لمطالبِ الفطرة !

---

(١) أصله « خدا ديركي » أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية وبعد تمهُّلٍ شديد .

(٢) في الأصل : جهان جار سو ، عالم رنگ وبو ، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه .

(٦)

حتى السّكّيرون[١] أيضاً يعرفونَ كمالاتِ الصُّوفية
مع أنَّ كراماتِهم غيرُ معروفةٍ ، وغيرُ مشهورة .
حين يكونُ السَّالكُ حُرّاً فهذه هي مقاماتُه :
عزَّةُ النَّفس وثباتُها والصَّوتُ الحسنُ القائل « أنا الحق »[٢] .
حينَ يكونُ السَّالِكُ محكوماً فالعبوديةُ هي كلُّ شيءٍ له
فهو نفسُه ميِّتٌ ، وهو المريدُ ، وهو الموتُ المفاجيء نفسُه .

(٧)

اخْرُجْ من الخانقاهات ، وقمْ بتقليدِ شبير
فليسَ فقرُ الخانقاهات إلّا الهمَّ .
من دِينكَ وأدبكَ تَهُبُّ رائحةُ الرُّهبان
إنَّ هذا عالمُ الشيخوخةِ للأممِ التي حان موتُها .
في عيونِ شياطينِ المَلَكيَّةِ يوجدُ السِّحرُ
الذي يخلقُ في قلبِ الصَّيادِ طَبْعَ المَصِيْد
كيف مَضَوْا غيرَ مكترثين بآهاتي السِّحريَّةِ
ومَنِ الذي ذهب بالنَّشوةِ والنَّشاط مِنَ العيونِ الكشْميريَّةِ السَّوداء[٣] ؟

(٨)

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ منْ دمٍ فَهُوَ كذلك
فقلبُ الإنسان إنَّما هو ـ فقط ـ جذْبةٌ عالية .

---

(١) أصله : « رند » وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسَّك بها .
(٢) إشارة إلى قول الحلاج « أنا الحق وما في الجبة غيرُ الله » .
(٣) « تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيراً ما تغنى بها الشعراء » .

لا يُعْجبُه دوران القمر والنجوم
فهو الذي يخطِّطُ سَحَرَهُ ومساءه .
لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار[1] .

(٩)

حين انفتحتْ في الرَّوضة مكتبةُ الورود
فإنَّ العِلْمَ الكتابيَّ لم ينفعْ المُلاَّ .
كانَ هواءُ الرَّبيع محطماً للجدِّيَّة
فبدأ شيخ « أندراب »[2] يُنشدُ الغزل .
قالت زهرةُ شقائقِ النُّعمانِ ذاتُ القميصِ الأحمر
إنَّني مظهرةٌ لأسرار الرُّوح[3] .
منِ الَّذي يعتقدُ أنَّ النَّوْمَ في القبر هو الموتُ
إنَّ سرَ تعميرِ كلِّ شيءٍ يَكْمُنُ في تخريبه[4] ؟
ليستِ الحياةُ سلسلةَ الأيَّام والليالي
ليستِ الحياةُ نشوةً وغفوة .
الحياةُ والاحتراقُ في نارِك
فما أسعدَ اللحظاتِ حينما تستعيدُ هذه الحِكْمَةَ :

---

(١) چنار : شجرة ذات أوراق كثيرة ، تشبه كف اليد ، وتكون خضراء في الصيف ، بينما تحمر جداً في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصةً في الأصل .

(٢) أندراب : اسم مكان بكشمير .

(٣) لأنها مفتحة في الوسط .

(٤) أشار إلى هذه الفكرة جلال الدين الرومي بأبيات متوالية في أنشودة الناي ـ انظر المثنوي .

« لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمساً تحت الفَلَكِ » .

(١٠)

شِرْيَانُ الحرِّ صُلْبٌ كَشِرْيانِ الحَجَر
شِرْيانُ المحكومِ رقيقٌ كشِرْيانِ الكرم .
قلبُ المحكوم ميتٌ سقيمٌ يائس
قلبُ الحُرِّ حيٌّ مفعمٌ بالحرارة يبعثُ الطَّرب .
ثروةُ الحرِّ قلبٌ مضيء ونَفْسٌ حاميةٌ
ثروةُ المحكومِ ليست إلا عيناً دامعة .
المحكومُ غريبٌ عن الإخلاصِ والمروءةِ
مع أنَّه بارعٌ في البراهينِ المنطقية .
ليس من الممكن أن يكونَ المحكومُ ندّاً للحرِّ
فهو عبدٌ للأفلاكِ والحرُّ سيِّدُها .

(١١)

جميعُ العارفينَ والعامَّةِ غرباءُ عن الذَّات
فليقلْ أحدٌ إنِ استطاع : أهذا مسجدٌ أم خمَّارة ؟
لقد أخفى هذا السرَّ عنا « مير واعظ »[١]
إنَّ الفراشةَ التي تدورُ حولَ مصباح الحَرَمِ هي الحَرَمُ .
طِلَّسْمُ الجَهْلِ هو الكفرُ والتديُّن

---

(١) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري ، مات في باكستان حوالي عام ١٩٦٦م .

وحديثُ الشَّيخِ والبرهمن ليس إلّا سِحْرٌ وخرافة .
فليكنْ ذلكَ العبدُ الدَّرويشُ نصيبَ هذه الأرض
ففي فقرِه تَكْمُنُ طرقُ الكليم .
إلى متى تبقى لآلىء بحيرةِ وُلَّر[1] الفريدةُ من نوعها .
مختفيةً عن أعينِ الزَّمان .

(١٢)

العالمُ مضطربٌ منْ قوَّة عملهم
فالأممُ الحيَّة خاضت معاركَ كبيرةً .
إنَّ تقويمَ المُنَجِّمِ للغدِ باطلٌ
فالنُّجومُ القديمةُ سقطتْ من السَّماء .
ضميرُ العالَم ملتهبٌ بدرجةٍ عظيمةٍ
حتى أنَّ أمواجَ البحر كَسَرَتِ النُّجوم .
الأرضُ لم تَعُدْ خاليةً من الزَّلازل
فالدَّلائلُ الدَّقيقةُ للفِطرة ظاهرةٌ .
إنَّ الخضرَ ـ قابعٌ ـ يفكِّرُ على شاطىء بحيرة وُلَّر[2]
إلى متى تفورُ عيونُ الهملايا !!

(١٣)

هذا هو دليلُ الشُّعوب الخالدةِ على مرِّ الزمان :
أنَّ تقديرَهمْ يتغيَّر صباحَ مساء .

---

(١) بحيرة ولر : بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف ، وكانوا من المسلمين .
(٢) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥ ـ ٨٢) .

حياتُهم هي كمالُ الصِّدقِ والمروءةِ
حتى الفطرةُ أيضاً تعفو عن تقصيرِهم .

أعمالُهم كأعمالِ القَلَنْدرِ ، وجلالُهم كالجَلال الإسكندري
هذه الأمَّةُ في العالم كالسُّيوفِ المسلولةِ .

إنَّ جمالَ وجلالَ الرَّجلِ العارفِ يَكْمُنُ في معرفةِ ذاتيته
هذا هو الكتابُ ، وما تبقَّى كلُّه تفاسير له .

أنا لا أُنكرُ عظمةَ العِيد
لكنَّ ما يُقْبَلُ هو تكبيراتُ الحرِّ .

كيفَ يَعْرفُ الحكيمُ سرَّ نغماتي
وأنَّ تدابيرَ أهل الجُنون فيما وراء العقل ؟

(١٤)

كيف تقامرُ ـ قمار الحياة ـ كالكافرِ ؟
ذلكَ أنَّك تسيرُ مع الزَّمانِ ولا تسيرُ مع نفسك .

لم أرَ في مدارسِ الحَرَمِ مرَّةً ثانيةً
قلبَ جنيدٍ ونظرةَ الغزاليِّ والرَّازي .

في حُكْمِ الفتى الأعظمِ الذي هو نفسُه حُكْمُ الفطرةِ الأزليَّة :
أنَّ أعمالَ الصُّقورِ حرامٌ في عقيدةِ الصَّعْوة .

قالَ ذلكَ الفقيهُ الأزليُّ للصَّقرِ الصَّغيرِ :
عليكَ أنْ ترتبطَ بالسَّماء ولا تتعلقَ بالأرض .

أنا الذي لها أقلع عن الكلام الصَّريح
خوفاً من وشيهم بي لدى السُّلطان .

قدم التحيات منَّا نحنُ الفقراءَ إلى ترك شيرازَ

فليس في أيدينا سمرقندُ وبخارى[١] .

(١٥)

ضميرُ الغرب ضميرُ التُّجّارِ ، ضميرُ الشَّرق ضميرُ الرُّهبان
هناكَ التغيير المستمرُّ في كل لحظةٍ ، وهنا لا يتغيَّر الزَّمان .

قال لي الخضر على شاطىء البحر وكأنَّني محرم لأسرارِه :
إنَّ طرقَ الإسكندر[٢] والقَلَنْدر كلُّها طرقٌ سحريةٌ .

آلهة الخانقاهات يعتبرونني نِدّاً لهم
ويَخْشون ألا ينشقَّ حَجَرُ عتبتهم من نواحي

النَّصيحةُ الواضحةُ والعلامةُ المميِّزةُ لعلمِ ومعرفةِ الأمم المستعبدة :
أنَّ الأرضَ لو ضاقت فها هو فضاء الفَلَكِ بلا حدود .

لا أعرفُ بماذا أسمِّيه ، هل أسمِّيه اختبارَ الله[٣] ، أم خداعَ النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبح خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدَرِ عُذراً له .

قال غصنُ الوردِ عن أسري قولًا أبكى الصَّياد :
إنَّ عُشَّ هذا المغرِّدِ المفعمِ بالحُرْقةِ لم يكنْ ثقيلاً عليَّ .

(١٦)

يا أيُّها الوطن العزيزُ لا حاجةَ للشَّرح والبيانِ
عن صورةِ قلبنا المليءِ بالدَّمِ ، كشقائقِ النُّعمان .

---

(١) إشارة إلى شعر حافظ :
اكر اين ترك شيرازي بدست آرد دل مارا بخال هندوش بخشم سمرقند وبخارا
(٢) طرق الإسكندر هي طرق الحياة .
(٣) في الأصل المعنى (خداع الله) ، أم خداع النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبح خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدَرِ عُذراً له .

التقديرُ هو اسمٌ لمكافأةِ الأعمال
هذه هي رسالة آلهةِ الهمالايا .

جسدُه عارٍ في ريح الشّتاءِ
ذلكَ الذي يقدِّم للأمراء رداءً من الصُّوفِ بفنّه وإبداعه .

لا تأملْ في وفاءِ دولةِ الدُّنيا
فهي كالغزالِ ، الهروبُ من طبعها .

(١٧)

حرامٌ على منْ علَّمتْه معرفةُ الذَّات نسيانَ الجسد
حرامٌ على هذا الرَّجلِ المجاهدِ أن يَلْبَسَ الدِّرْع !

(١٨)

احْمِلْ على ذلك العزمَ الرفيعَ ، واستمع إلى عويلي
لكي تقومَ القياماتُ في صدرك أيضاً .

(١٩)

أنا غريبُ هذه المدينة ، فاستمعْ إلى عويلي
لكي تقوم القياماتُ في صدرك أيضاً .

أغنياتي الممزوجةُ بالغمِّ والحزنِ متاعٌ عزيزٌ
ونَغْمةُ القلبِ الحزينِ ليستْ عامَّةً في هذه الدُّنيا .

أنوحُ وأشكو منْ ذَوْقِ هذا الزَّمانِ الأعمى
الذي فَهِمَ محنتي على أنَّها محنةُ فرهاد .

أعرفُ أنَّ الصَّوْتَ الذي ينبعثُ مِنْ ضربِ الفأسِ على الحَجَرِ
أعرِفُ أنَّهُ آخرُ ، فهو صوتُ الفأسِ والكَبِدِ معاً .

إلى سر أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدَّكن[١]

كانَ هذا من أمرِ الله أن يُعطىٰ القَلَنْدَرُ
ذو الصِّفاتِ المَلَكيَّة عظمةَ برويز[٢] .

قال لي : خُذْ وصِرْ حاكماً وأعطِ الثبات
لحسنِ التدبير لكلٍّ ما هو آتٍ ولكلٍّ ما فات .

كنتُ مستعداً لأن أتحمل عبءَ هذه الأمانة على كتفي
لأنَّ كلَّ ما هو مرٌّ طعمه يصير في حلق الدَّرويش السُّكَّر .

ولكنَّ غيرة فقري وعظَمَتَهُ لم تستطعْ أنْ تقبل ما قدَّمه
حين قال ، إنَّ هذه هو زكاةٌ لألوهيتي .

حسين أحمد[٣]

لا يَعْرِفُ العَجَمُ حتَّى الآنَ أسرارَ الدِّين
وحسين أحمد الديوبندي ـ ما هذا العجبُ العجاب .

من يخطبُ على المنبر قائلاً بأنَّ الملَّة قائمةٌ على الوطن
كم هو جاهلٌ بمقامِ محمدٍ العربي[٤] !

عليك أن تَصِلَ بنفسك إلى النَّبيِّ فإنَّ الدِّين كلَّه

---

(١) كان رئيس وزراء الهند ، وأرسل شيكاً بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده .
(٢) أي : المال والدنيا .
(٣) كان من علماء الهند ويُعدُّ من مؤسسي مدرسة ديوبند ، ومن أنصار حزب المؤتمر ، وهذا الشعر بالفارسية .
(٤) يقصد الدين .

فإنْ لم تصل إليه فكلُّ هذا يعدُّ من أعمالِ أبي لهب .

السَّيِّدُ الإنسان

وَصَلَتْ درجةُ العِلْمِ والفِكْرِ في هذه الدُّنيا إلى درجةٍ أنَّه
لا يمكنُ لشيءٍ أن يختفي ، فهذا عالمٌ نوراني .
لو نظرَ أحدٌ لرأىٰ أنَّ حجابَ الفِطْرَةِ رقيقٌ إلى درجةٍ :
أنَّ البسماتِ الخفيَّةَ للملائكةِ تظهرُ واضحةً .
هذه الدُّنيا دعوةٌ لابن آدم أنْ يشاهدَ وينظُرَ
فكلُّ مستورٍ قد وُهِبَ ذوقَ التعرِّي .
هذا هو ابنُ آدمَ الذي جَعَلَ اللهُ الأنهارَ
تفيضُ من دموعه الدَّامية .
ماذا يعرفُ الفَلَكُ ؟ مقرُّ مَنْ هذا المسكنُ التُّرابيُّ ؟
والهدفُ مِنْ خَلْقِ النُّجومِ هو حراسةُ بيتِ مَنْ ؟
لو أنَّني مقصودُ الكلِّ فماذا « ما ورائي »
وما هي نهايةُ اضطراباتي المتجدِّدة !!

•••
••
•

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

